الإمَامُ جَعْفَرُ الصَّادِقِ

عليه السلام

تأليف

المُسْتَشار عَبد الحَلِيم الجُنْدِى

تحقيق

كَمالُ السَّيّد

الإمام



جعفر الصادق

عليه السّلام

«طبعة جديدة»

المستشار عبدالحليم الجندي

تحقيق كمال السيّد

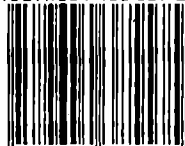
جندى، عبد الحليم،
الإمام جعفر الصادق(ع)/ تأليف عبد الحليم الجندي؛ تحقيق عباس الموسوي.- قـم: انصاريان، ۲۰۰۷.
[۳۸٤]ص.
ISBN: 978-964-438-557-5
كتابنامه: ص. ۳۸۱-۳۸٤.
۱. جعفر بن محمد(ع)، إمام ششم، ۸۰-۱٤۸ق. الف. عنوان.
۸ألف۹ج/BP٤٥ ۲۹۷/۹٥٥۳

الإمام جعفر الصادق عليه السلام

تأليف: المستشار عبد الحليم الجندي
تحقيق: عباس الموسوي (كمال السيّد)
الناشر: مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر
الطبعة الاولى: ١٤١٥ - ١٣٧٣ - ١٩٩٥
الطبعة الثانية: ١٤٢٤ - ١٣٨٢ - ٢٠٠٤
الطبعة الثالثة: ١٤٢٨ - ١٣٨٦ - ٢٠٠٧
المطبعة: قدس
الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
عدد الصفحات: ٣٨٤ ص.
حجم الغلاف: كبير
رقم الإيداع الدولي: ٩٧٨-٩٦٤-٤٣٨-٥٥٧-٥ ISBN



مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر
جمهورية ايران الإسلامية
قم - شارع الشهداء - فرع ٢٢
ص.ب ١٨٧
هاتف: ٧٧٤١٧٤٤ (٢٥١) (٩٨) فاكس: ٧٧٤٢٦٤٧
البريد الالكتروني: ansarian@noornet.net
www.ansariyan.org & www.ansariyan.net



بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الكتاب

● الباب الثالث (امام المسلمين)

القسم الثاني

● الباب الرابع (المدرسة الكبرى)

● الباب الخامس (المنهج العلمي)

مقدمة

عاش الامام الصادق في زمن التحولات الكبرىٰ، وشهد زوال حكم دموي رهيب، وقيام حكم غاشم نهض علىٰ جماجم الضحايا. وكان ـ عليه السلام ـ في طليعة الذين صنعوا تلك الحقبة الحسّاسة من التاريخ الاسلامي.

واذا عرفنا «ان الله لايغيّر ما بقوم حتىٰ يغيّروا ما بأنفسهم»، أدركنا عمق الدور الهام الذي اضطلع به الامام الصادق في ايقاف حالة التداعي الفكري التي عصفت بالأمة يومذاك.

ففي عهده عليه السلام استكملت مدرسة أهل البيت ملامحها وبدأت تخرّج العلماء والعباقرة الذين تصدّوا لمنازلة زعماء العقائد المنحرفة والضالّة؛ ومن ثم تجذير الحالة الاسلامية التي كانت تهتز بشدّة.

أدرك آلام امته، فانتهج طريقه اللاحب لا يحيد عنه قيد شعرة؛ وتماسك الأمّة ووحدتها تلزمه قاعدة فكرية صلبة، والصراع الفكري في ذروته، فانطلق الصادق عليه السلام يفجّر ينابيع العلم تفجيرا، فسالت أودية علىٰ قدر

كيف نجا الامام عليه السلام من براثن حكم قام علىٰ أشلاء مذبحة عاشوراء؟!

وكيف أمكنه ان يروّض حكماً قاسياً لايعرف للرحمة معنىً؟!

ذلك هو السرّ في شخصية الامام الصادق عليه السلام.

كانت الأرض تهتز تحت قدميه بعنف.. الجيوش القادمة من الشرق تحمل رايات سوداء وتبشّر بدولة جديدة.. شعارها الرضا من آل محمد، وآلاف المؤامرات والدسائس تحاك في الظلام. وفي عصر قلق لايعرف الثبات، ثبت الامام الصادق عليه السلام وظل كما هو يشقّ طريقه بعيداً عن ألاعيب الساسة ومؤامرات ذوي الطموح. أحرق رسائل الذين دعوه للزعامة السياسية. كانت الوقائع مثيرة.. مزلزلة، عاصفة.. وكان

الصادق عليه السلام مطمئناً؛ لأنه كان يعيش في عالم الحقائق لا الوقائع.. كان ينظر الىٰ ماوراء الحوادث ، وكان همّه الدائم الحفاظ علىٰ كيان الأمّة. فالأمة تحتاج الىٰ فكر عميق وقاعدة صلبة، فشمّر عن ساعديه وراح يرفع القواعد من البيت.

هكذا عاش الصادق .. معلّماً للانسان.. حياته حياة الأنبياء، وروحه العظيمة تنطوي علىٰ ذات الأسرار التي انطوت عليها روح محمد وعلي والحسين.

الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ، يمثّل ـ في الحقيقة ـ رحلة في عمق التاريخ والانسان، ارتأت (مؤسسة أنصاريان) اعادة طبعه وبحلّة جديدة بعد اجراء بعض التصحيحات اللازمة فيما يتعلق ببعض الحوادث التاريخية، اضافة الىٰ التخفيف من حدّة الاسلوب التبريري الذي يخدش الذوق المنطقي، خاصّة في الحقبة التي استوعبت وقائع صدر الاسلام.. ومن هنا جاء نشر الكتاب تحت عنوان:

«طبعة جديدة».

كمال السيّد

تمهيد

لقد تتلمذ أبو حنيفة ومالك للإمام الصادق، وتأثرا به كثيرا، سواء في الفقة أو في التفكير. ومالك شيخ الشافعي. والشافعي يدلي إلىٰ أبناء النبي (ﷺ) بأسباب من العلم والدم. وقد تتلمذ له أحمد بن حنبل سنوات عشر. فهؤلاء أئمة أهل السنة الأربعة، تلاميذ مباشرون أو غير مباشرين للإمام الصادق.

غير أن تعاقب الأئمة الأربعة لأهل السنة، وتقارب مذاهبهم في تعبيرها عن فقه «أهل السنة»، دفعا إلى وجه آخر. فظهرت كتبنا عنهم بين سنتي ١٩٤٥، ١٩٧٠ للميلاد.

وإلى ذلك فقد تأكد في كتابنا «توحيد الأمة العربية» (سنة ١٩٦٥) أن «وحدة القاعدة القانونية» هي الطريقة المثلىٰ لربط المسلمين، في شتىٰ أقطارهم، بتشريع إسلامي شامل تتضاءل أمامه التشريعات المعاصرة في الغرب والشرق. والفقه «الشيعي» واحد من النهرين اللذين تسقى منهما حضارة الإسلام، وإليه لجأ الشارع المصري في هذا القرن لإجراء إصلاحات ذات بال في نظام الأسرة المصرية.

والإمام جعفر الصادق يقف شامخاً في قمة فقه أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام هو في الفقه إمام. والمسلمون اليوم يلتمسون في كنوزهم الذاتية مصادر أصيلة للنهضة؛ غير خليطة ولا مستوردة.

هو الإمام الوحيد من «أهل البيت» الذي أتيحت له إمامة دامت أكثر من ثلث قرن، تمحض فيها مجلسه للعلم، دون أن يمدّ عينيه إلىٰ السلطة في أيدي الملوك. وبهذا التخصص سلم الأمة مفاتح العلم النبوي. ومنه يبدأ التأصيل الواضح لمنهج علمي عام للفكر الإسلامي، نقلته أمم الغرب ووصلت الىٰ ماوصلت اليه. وعمل به بين يديه، ثم

أعلنه، تلميذه جابر بن حيان أول كيميائي كما تبايع له «أوربا الحديثة»، وهو «منهج التجربة والاستخلاص»، أي الاعتبار بالواقع وتحكيم العقل، مع النزاهة العلمية.

فالإمام الصادق هو فاتح العالم الفكري الجديد، بالمنهج العقلاني والتجريبي، كأصحاب الكشوف الذين فتحوا أرض الله لعباده فدخلوها آمنين.

والإمام الصادق هو الإمام الوحيد في التاريخ الإسلامي، والعالم الوحيد في التاريخ العالمي، الذي قامت علىٰ أسس مبادئه «الدينية والفقهية والاجتماعية والاقتصادية» دول عظمىٰ.

ومصر تذكر منها أكبر دولة عرفها التاريخ فيها منذ عهد الفراعنة ـ الدولة الفاطمية ـ التي امتد سلطانها من المحيط الأطلسي إلىٰ قناة السويس. ولولا هزيمة جيوشها أمام الأتراك لخفقت أعلامها على جبال الهملايا في وسط آسيا.

والعالم كله مدين لها بمدينة القاهرة.

والمسلمون يدينون لها بالجامع الأزهر، الذي حفظ القرآن والسنة واللغة العربية، وعلومها كافة. ويدينون لتعاليم الإمام بقيام دولة كبيرة في ايران. ومجتمع عظيم بالعراق. ومعاهد علمية يتصدرها النجف الأشرف، وشعوب قوية في الهند وباكستان واليمن وأفغانستان ووسط آسيا ولبنان وسورية وكثير سواها.

وهو الإمام الذي علم بالمواقف التي وقفها، قدر ما علم بالمبادئ التي أرساها. فالمواقف أعمال. وهي أعلى صوتاً من الأقوال. ولقد يعدل الموقف الواحد جهاد عمر كامل، أو مهمة حياة رجل.

وهو، بمكانه من «أهل البيت»، وحَقِّهِ في الخلافة، وإمامته للفقهاء بلا استثناء، كان غرضاً يطلبه اعظم خلفاء بني العباس ليضيفه إلىٰ قوائم القتلىٰ من صناديد القادة، أو الشهداء من «أهل البيت». وكان درساً من السماء أن يسيطر الإمام على الميزان إذ يلتقيان، فيضعف الطالب عن المطلوب، ويرتفع الإمام الصادق بالخليفة القاتل إلىٰ مستوىٰ الحاكم العادل.

والمستقبليون الذين يتكلمون اليوم عن الأخذ بأسباب النهضة العلمية،

كالسياسيين الذين لا يرون النهضة بالغة شأوها إلا أن تكون شاملة لأمور الدين والدنيا ـ هؤلاء وأولاء، بحاجة إلىٰ الاطلاع علىٰ حياة الإمام الصادق، ليروا مقدار ما تفلح الدعوة الصادقة بالمبادئ الصحيحة، والخطط الرشيدة، في إقامة دول، ومجتمعات، قوامها الدين والعلم والعدل والاقتصاد.

والله نحمد: لقد غيرت مصر في سنة ١٩٧١ دستورها، ونصت على أن «الشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع» وهي دعوة صادقة لتقوم القوانين المطبقة جميعا علىٰ أساس الشريعة.



وبعد: فالكتاب الحالي يبلغ غرضه إذا كان صوتا يدعو إلىٰ الوحدة. والمسلمون تجمعهم أصول فكرية واحدة، وإن اختلفت الفروع أو تعددت الآراء. وفي تعدد الآراء ثراء. ولما عرض تلميذ لأحمد بن حنبل تسمية كتاب له «كتاب الاختلاف» قال له «سمه كتاب السعة».

ألا: وإنه لا صلاح للمسلمين والعرب اليوم في مواجهة التحدي العالمي إلاّ بالوحدة.

والعالم الغربي الذي تهز الأفكار المادية والإلحادية عقائده، ويزعزع الرعب النووي استقراره، بحاجة إلىٰ مبادئ الإسلام، وعرض شريعته علميا، كهيئة ما عرضها الإمام الصادق علىٰ ملحدي عصره فكانوا يسلمون، وكمثل ما علم تلاميذه ومعاصريه قواعد العلم والفقه والاقتصاد التي تكفل للمسلمين النماء الفكري والاجتماعي والاقتصادي.

والعالم الغربي، الذي يحسب للعالم الإسلامي حساب الطاقة التي خزنتها السماء في الأرض الإسلامية، التي جعلها الله مقراً لبيته العتيق، وحساب المعادن التي تعكس الأقمار الصناعية لمعانها وإشراقها كلما صورت أرض المسلمين، العالم الغربي الذي جمعته الحروب الصليبية في مواجهة العالم الإسلامي، والذي خططت حدوده الحالية حروب ومعاهدات دينية، وازدهرت قاراته الجديدة بعد هجرات تجري في جذورها

النوازع الدينية، هذا العالم الغربي جدير بأن يواجهه المسلمون كالبنيان المرصوص.

* * *

حياة الإمام تنقسم في ترجمتها الىٰ قسمين: الأول عن الرجل، والثاني عن علمه. وعلىٰ ذلك وردت الصورة التي صورنا فيها هذه الحياة في قسمين. كل منهما في ثلاثة أبواب.

يدور القسم الأول حول ظهور الإسلام وتألّق «علي» وأولاده من «فاطمة الزهراء» في الصدارة من الاشخاص والأحداث، والبيئة التي نتج فيها الإمام الصادق؛ فتعاونت علىٰ إعداده ظروف الوفاء، أو العداء، لأهل البيت، لتهيّئ منه إماماً خصيصته تعليم العلم الذي تلقاه عن جدّيه، وطريقته الأسوة الحسنة في أعمال حياته، وتحمّل التبعات حيث تزوغ الأبصار.

ويعرض القسم الثاني من الكتاب تصوّر المؤلف للعلم الذي علمه الإمام، والمدرسة التي أنتجته، والمنهج العلمي، العالمي، الذي أخذ به العلماء والفقهاء، والرياضيون والفلكيون والكيمائيون وعلماء الطبيعة الإسلاميون، ونقله عنهم رياضيو الوسيطة في اوربا، ليصير «منهج التجربة والاستخلاص» الذي يعمل به الفكر المعاصر، بعد إذ ترجم من العربية في جنوب فرنسا واسبانيا وصقلية وسواها من جامعات أوربا، وسبق إلىٰ التنويه به «روجير بيكون» ثم نسب إلىٰ «فرنسيس بيكون» بعد ثلاثة قرون ـ وكذلك المنهج السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي نهضت عليه الدول العظمى والمجتمعات الإسلامية التي يباهي بها المسلمون في العصر الوسيط وفي العصور الحديثة.

وفي هذا القسم باب أخير تبدو فبه عدالة التاريخ مصححة لانحراف الأعداء وافتياتهم على أبناء علي، كما يظهر فيه نصر اللّٰه للمسلمين إذ يتحدون.

واللّٰه نسأل أن يقينا الزلل.

القسم الأوّل

الباب الأوّل

ظهور الاسلام

«لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسولهُ ليس بفرّار. يفتح الله عزّ وجل علىٰ يديه»

«حديث شريف»

الإمام جعفر الصادق نتاج قرن كامل من العظائم يحني لها الوجود البشري هاماته، ويدين بحضاراته. على رأسها نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام. وفيها بطولات الإمام علي إلىٰ جوار النبي، وأثرها في انتصار الإسلام، ومشاركته إبان خلافة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوه. وآيات نبوغه تفوّقه في السياسة والإدارة والقضاء والفقه والتشريع والبيان العربي والعلم بوجه عام، وإجلال جميع المسلمين لمكانته والتفاف شيعته حوله وتفضيلهم له علىٰ سائر الخلفاء الراشدين. ثم قيام الفتنة في أخريات خلافة عثمان ومصرعه وبيعة المسلمين لعلي (عليه السلام)، وتمرّد معاوية في الشام، واشتعال الحرب بين أميرالمؤمنين وبين جيش معاوية، وحركة الخوارج واغتيال علي (عليه السلام)، والبيعة لابنه الحسن. ثم اضطرار الحسن للصلح مع معاوية حقناً للدماء، واستتباب الأمور للأخير نحو عشرين عاما.

ولما آلت الأمور إلىٰ ابنه يزيد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء، حيث استشهد الحسين بن علي (عليهما السلام) أبو الشهداء. وأعقبتها مذبحة الحرة، ومقتل المئات من الصحابة والتابعين، ثم ضربت جيوشه الكعبة بالمنجنيق ومات وجيوشه تقصف الكعبة. فتولىٰ بعده ابنه معاوية، فتنازل عن الخلافة. فانتهز مروان بن الحكم الفرصة للسيطرة علىٰ مقاليد الخلافة وتتابع بعده بنوه.

أما أبناء الحسين فانصرفوا الىٰ حمل هموم المسلمين وإعلاء كلمة الدين والقيام في الامة مقام جدهم الإمام «علي بن أبي طالب» والنهوض بتبعات الإمامة بتوفيق اللّٰه سبحانه من: علي بن الحسين (زين العابدين) إلىٰ ابنه الإمام (الباقر) إلىٰ حفيده الإمام (الصادق).

والإشارات السريعة إلىٰ كل أولئك، ولو باختصار، هو موضوع الفصلين الأول والثاني في هذا الباب، وفيهما مدخل الكتاب.

الفصل الأوّل

أخو النّبي

«أنت أخي وصاحبي»

«حديث شريف»

أول من آمن بالله ورسوله أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب. واختلفوا في سن علي يومئذ. قال ابن إسحق إن عليا أول من آمن بالله وصدق رسول الله، وهو ابن عشر سنين يومئذ.

وروى ابن إسحق كيف اسلم علي بن أبي طالب (عليه السلام)، بعد إسلام خديجة وصلاتها مع النبي بيوم واحد. إذ جاء فوجدهما يصليان. فقال علي: يا محمد ما هذا؟

فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «دين الله الذي اصطفىٰ لنفسه وبعث به رسله. فأدعوك الىٰ عبادة الله وكفر باللات والعزى».

فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم. فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب.

فكره رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره. فقال له: «يا علي إن لم تسلم فاكتم».

فمكث علي تلك الليلة. ثم إن الله أوقع في قلبه الإسلام. فأصبح غاديا إلى رسول الله حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علي يا محمد؟

فقال «تشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له. وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد». ففعل علي وأسلم. وكان مما أنعم الله به على علي أنه رُبّي في حجر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قبل الإسلام.

ومن رسول الله وخديجة ـ أول مسلمَين ـ وُلدت فاطمة الزهراء. ومن أبنائها ومن أبناء علي وأبي بكر، أي من أبناء نبي الإسلام، والمسلمين الثلاثة الأولين، وُلد جعفر بن محمد (الإمام الصادق).

فعلي بن أبي طالب يجيء دائما في صدارة أهل الإسلام.

وأبوه وأمه في الصدارة كذلك:

لقد كفل أبوه محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو ابن ثماني سنين. وخرج به إلىٰ الشام وهو ابن اثنتي عشرة. وهو الذي مثّله في الزواج من أم المؤمنين خديجة. ولما ماتت فاطمة بنت أسد (أم علي) نزل النبي في لحدها وألبسها قميصه ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقال «لم يكن أحد أبرّ بي بعد أبي طالب منها».

وجزى النبي صنيعهما في علي، إذ كفله وهو ابن ست سنين، ثم جعله سابقا في الإسلام. فلما كان النبي يعبد الله في غار حراء كان علي يعبد الله وهو صبي مميز. ثم بسق الفرع وسمق في جوار أخيه[1] ومربيه وعلىٰ عين أبيه.

وفي سنة سبع من البعثة تآمرت قريش على قتل الرسول. وأبى قومه بنو هاشم. وظاهرهم بنو عمهم «المطلب بن عبد مناف». فأجمع المشركون من قريش على إخراجهم من مكة إلى «الشِعب». فخرجوا؛ مؤمنهم وكافرهم. فلما عرفت قريش أن رسول الله قد منعه قومه اجمعت ألا تُدخِل إليهم شيئا، وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً قاسياً مدة ثلاث سنين.

وكان «أبو طالب» يأمر رسول الله أن يأتي فراشه كل ليلة، حتى يراه من أراد به شراً، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه، فاضطجع على فراش الرسول، وأمره أن يرقد على بعض فرشهم فيرقد عليها. حتى إذا أكملوا ثلاث سنين أخبر الله رسوله أن العهد الذي تعاهدته قريش في صحيفة علّقوها بالكعبة قد أكلته الأرضة.

فخرجوا من الشِعب إلى قريش. وأنبأ أبو طالب قريشا أن الصحيفة قد أُكلت، كما أخبره ابن أخيه، وأنبأهم أنه وأهله سيحمونه عن آخرهم.

وذات يوم سأل النبي قومه: أيّكم يواليني في الدنيا والآخرة؟ ـ وعليّ جالس ـ فسكتوا. وقال عليّ: أنا أواليك في الدنيا والآخرة. فكانت هذه أول موالاة من النبي لعلي.

---

(١) العرب تسمي ابن العم الشقيق أخا.

ولما حضرت الوفاة أبا طالب في السنة العاشرة من المبعث عن بضع وثمانين، جمع إليه وجوه قريش فقال بين ما قال «.. وإني أوصيكم بمحمد فإنه الأمين في قريش، والصديق للعرب. وهو الجامع لكل ما وصيتكم به... يا معشر قريش كونوا له ولاة..».

والنبي يقول «ما زالت قريش كاعة حتىٰ مات عمي أبو طالب».

وماتت خديجة بعد أبي طالب بأيام أو أشهر أو أكثر. وأذن اللّٰه للرسول في الهجرة إلى المدينة. وكان قد أمر أصحابه بالهجرة إلىٰ الحبشة ثم إلىٰ المدينة. ولم يبق فيها إلىٰ جواره إلا أبابكر وعليا. و الأول هو الصاحب والثاني هو «الفدائي الأوّل».

فلقد رأت قريش ذلك فأجمعت علىٰ قتل النبي فبيّتوه ورصدوه طول ليلهم ليقتلوه إذا خرج. فأمر عليا أن ينام في فراشه. ودعا ربه أن يعمي على قريش أثره، وخرج وقد غشي المتآمرين النوم.

وكان «الفدائي الأول» قد شارف العشرين من العمر. استبقاه الرسول لأمر يتعلق بحياة الرسول، ليضحي من أجله بحياته. وسلمت الحياتان، لأن الأولىٰ حياة الإسلام، ولأن الثانية سوف تفديها وتحرسها مرة إثر أخرى.

أخو النبي

أقام على بمكة أياما ليردّ فيها ودائع كانت عند الرسول، ثم لحق به في المدينة. فنزل معه بقباء، حيث أقام رسول اللّٰه مسجدها، ثم خرج إلىٰ دور أخواله من بني النجار فأقام بها أشهرا بنى فيها مسجده، و آخى بين تسعين من المهاجرين والأنصار علىٰ الحق والمساواة والتوارث، حتىٰ نزل قوله تعالى «وأولو الأرحام بعضهم أولىٰ ببعض».

أما «أبوبكر» فآخى بينه وبين خارجة بن زيد. وأما «عمر» فآخى بينه وبين عتبان بن مالك. وأما «عثمان» فآخى بينه وبين أوس بن ثابت (أخي حسان).

أما «علي» فآخى بينه وبين نفسه (ﷺ). وخاطبه ذات مرّة قائلاً: «أنت أخي وصاحبي». وفي ذلك رواية ابن عباس أن عليا كان يقول «واللّٰه إني لأخو رسول اللّٰه ﷺ ووليه». وهذه هي المؤاخاة الثانية. فالأولى كانت بمكة.

ثم خرج المسلمون ليوم «بدر»، فدفع رسول اللّه الراية إلىٰ علي، وراية أخرىٰ لرجل من الأنصار. فهذه أولىٰ معارك الإسلام وكبراها. وكان لعلي دور البطولة في هذه المعركة الحاسمة. ثم قدم الرسول فلذة كبده «لبطل بدر»، فبنى بفاطمة الزهراء وهي في الثامنة عشرة(١).

روىٰ ابن الأثير في أسد الغابة «أخبرنا.. عن الحارث عن علي فقال: خطب أبوبكر وعمر - يعني فاطمة - إلىٰ رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم). فأبى رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) عليهما. فقال عمر: أنت لها يا علي. فقلت: مالي من شيء إلا درعي أرهنها. فزوجه رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة. فلما بلغ ذلك فاطمة بكت. قال: فدخل عليها رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: «ما لك تبكين يا فاطمة! فواللّه لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم خلقا وأولهم سلما».

أما العلم والحلم والسلم فهي التي احتاج فيها علي - وهو في فتاء السن - إلىٰ الشهادة بها من النبي لدىٰ زهراء النبي.

وأما ميادين الوغى فقد شهدت له فيها رايات «بدر»، وستشهد له فيها الرايات الأخر:

في يوم أحد - أخطر معارك الإسلام - كان علي في الحرس، إلىٰ جوار النبي، حين أصيب النبي في المعركة. وكان طبيعيا أن يصاب علي بستة عشر ضربة، كل ضربة تلزمه الأرض. وكما يقول سعيد بن المسيب سيد التابعين «فما كان يرفعه إلاّ جبريل (عليه السلام)» فلما اشتد الخطب، وقتل حامل الراية - مصعب بن عمير - دفع الرسول الراية لعلي..

---

(١) روىٰ جميع بن عمير التيمي قال «دخلت مع عمي علىٰ عائشة فسألت: أي الناس كان أحبّ إلىٰ رسول اللّه؟ قالت فاطمة. قيل من الرجال؟ قالت زوجها. أن كان ما علمت صواما قواما» وفي مسند الإمام أحمد عن علي أنه قال: دخل عليَّ رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنا نائم، فاستسقىٰ الحسن أو الحسين فقام النبي إلىٰ شاة لنا بكيء (قليلة اللبن) فحلبها فدرّت فجاء الحسن فنحّاه النبي فقالت فاطمة: يا رسول اللّه. كأنه أحبّهما قال: لا ولكنه استسقىٰ قبله، ثم قال «أنا وإياك وهذين، وهذا الراقد، في مكان واحد يوم القيامة».

توفيت بعد رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) بستة أشهر وقيل ثلاثة. وقيل بسبعين يوما عن تسع وعشرين سنة أو ثلاثين.

وفي يوم الخندق أزفت الآزفة عندما تمكّن المشركون من اقتحام الخندق. فاعترضهم علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين، حتىٰ أخذوا عليهم الثغرة التي اقتحموا منها. وكان عمرو بن عبد ود ـ فارس العرب ـ يريد أن يعرف مكانه يوم الخندق، فنادى من فوق الخيل: هل من مبارز؟ فبرز له علي. قال له عمرو: ما أحب أن أقتلك لما بيني وبين أبيك. وأصرّ علي ونزل عمرو عن فرسه. وما أسرع ان قتله علي. وفرّ الآخرون مذعورين.

وفي غزوة بني قريظة كانت له راية المسلمين.

وفي صلح الحديبية كان «محرر» صحيفة الصلح علي بن أبي طالب، يملي عليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)! فذلك كان أيمن صلح عرفه التاريخ البشري. فلقد اصبح الذين أسلموا بعده وقبل فتح مكة، اكثر ممن أسلموا قبله. وبه حفظت دماء الذين بايعوا تحت الشجرة، ليظهر الإسلام على أعدائه وييسر فتح مكة.

وفي غزوة خيبر، قال عليه الصلاة والسلام: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. ليس بفرار. يفتح الله عز وجل على يديه». ولما اصبح دعا عليا وقال: «خذ الراية وامض حتّى يفتح الله عليك».

وحمي الوطيس. وسقط ترس علي. فتناول بابا وترس به. ولم يزل يقاتل حتىٰ فتح الله عليه.

وحمىٰ الله فضائل الإسلام على يد علي. فلم يره أحد في موقف المنكسر. ولما استشهد في دفاعه عن هذه الفضائل، كان الإسلام ينتصر.

وفي يوم حنين أعجبت المسلمين كثرتهم، فكادوا ينهزمون. وثبت الرسول. وقتل عليٌ صاحب راية المشركين وانتزعها منه، وكرّ المسلمون عليهم فهزموهم بإذن الله.

ولما قتل خالد بني خزيمة خطأ وسباهم ـ وهم مسلمون ـ بعث الرسول عليا فوداهم وردّ إليهم أموالهم وقال لهم: انظروا إن فقدتم عقالا لأدينه. فبهذا أمرني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وفي السنة التاسعة خرج رسول الله إلىٰ تبوك. واستعمل عليا علىٰ المدينة. فسأل

علي النبي في ذلك. فأجابه «إنما خلفتك لما تركت ورائي. فارجع فاخلفني في أهلي، وأهلك، فأنت مني بمنزلة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبي بعدي...» فكان تخليفه عن هذه الغزوة تقديما له، إذ وضعه موضع هارون من «موسىٰ» (عليه السلام). أي في منزلة أخ الرسول من الرسول.

وتتابع التقديم، إذ نزلت عشر آيات من صدر سورة «براءة» من عهد كل مشرك لم يسلم أن يدخل المسجد الحرام بعد هذا العام. فقالوا للرسول: ابعث بها إلىٰ ابي بكر. ـ وكان علىٰ الناس في حج البيت الحرام ـ فقال عليه الصلاة والسلام «لا يؤديها عني إلاّ رجل من أهل بيتي» وبعث عليا علىٰ ناقته (صلى الله عليه وآله وسلم) فأدرك أبابكر في الطريق.

وفي كتب السنن أن النبي بعد عودته من حجة الوداع نزل بغدير خم وأعلن أنه يترك القرآن و «عترته» للمسلمين ثم أخذ بيد علي ودعا ربه «اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه».

ولما بعث النبي عليه الصلاة والسلام عليا إلىٰ اليمن قال علي «يا رسول اللّه تبعثني إلىٰ اليمن ويسألونني عن القضاء ولا علم لي به». فضرب النبي بيده علىٰ صدره ثم قال «اللّهم ثبت لسانه واهد قلبه» قال علي «فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما شككت في قضاء بين اثنين بعد». وهي خصيصة يدرك جلال اليقين فيها من ولي القضاء.

بين الخلفاء الراشدين

صعدت روح رسول اللّه إلىٰ الرفيق الأعلىٰ وعلي بطل جيوشه غير منازع. وكان قد درّبه علىٰ القضاء والإفتاء. فهاتان الوظيفتان هما أسمىٰ عمل في الدول. وبخاصة في الدولة المسلمة، حيث الحفاظ علىٰ الشريعة وإدارة الدول وسياسة الأمم واستقرار النظم واطمئنان الجماعة واجبات دينية. والإفتاء يعدل التشريع في أيامنا هذه. والقضاء هو توزيع العدالة، والعدل صفة اللّه سبحانه.

لقد بعثه إلىٰ اليمن. فقضىٰ. وله قضاء مشهور عرض علىٰ النبي فاستحسنه. وله

السؤال المشهور يومذاك إذ سأل: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لا يراه الغائب؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام «بل الشاهد يرى ما لا يراه الغائب». فدل بذلك علىٰ تفويضه في أن يجتهد، وأن يعمل بمقاصد الشريعة.. وكان أيامئذ في عنفوان شبابه. فلم يفارقه الاجتهاد العظيم للأمة في كل مناسبة تقتضي الاجتهاد.

وبالتربية النبوية في القضاء والإفتاء نفَذ عليٌّ إلىٰ صميم الفكر التشريعي في الأمة، أي صميم شريعة الإسلام. فاحتاج أبو بكر وعمر إليه في جوارهما ليشير عليهما، ويقضي، ويفتي.

أما فتاواه التشريعية فستبقى مثلا أعلىٰ للفكر الإسلامي في سياسة الدولة وسياسة الناس.

إذا اشتهر عمر بأنه المجتهد الأكبر من كثرة ما واجه من ظروف طارئة علىٰ الدولة المنتصرة في الشرق والغرب، ومن طول ما حكم وهو خليفة، واتساع ما فتح من الفتوح، واختلاف من أسلم من أهل البلاد المفتوحة، فعلي كان يصحح الكثير من اجتهاداته.

ـ منع عمر تدوين الحديث ـ مخافة أن يخلط القرآن بشيء ـ وبهذا أبطأ التدوين عند أهل السنة قرناً بتمامه. وانفتحت أبواب للجرح والتعديل وللوضع، وللضياع. أما علي فدوّن من أول يوم مات فيه الرسول. ولعله إذ دوّن صار مرجع الصحابة بما فيهم عمر.

وهذا الاتجاه العلمي للتدوين، يؤازره اتجاه ديني، وفقهي، وسياسي، واقتصادي، لتوزيع الحقوق.

ـ قال عمر للناس يوما: ما ترون في فضْلٍ فضلَ عندنا من هذا المال (مال الصدقة)؟ قالوا: يا أميرالمؤمنين قد شغلناك عن أهلك وضيعتك فهو لك.

فالتفت إلىٰ علي وقال: ما تقول؟

قال: قد أشاروا عليك.

قال عمر: قل.

قال علي: لِم تجعل يقينك ظنا؟. أتذكر حين بعثك رسول اللّه (ﷺ) ساعيا فأتيت العباس بن المطلب، فمنعك صدقته. فقلت لي: انطلق إلىٰ رسول اللّه (ﷺ) فوجدناه خاثرا. فرجعنا ثم غدونا عليه، فوجدناه طيب النفس فأخبرناه بالذي صنع.

فقال لك: أما علمت أن عم الرجل صنو أبيه؟ وذكرنا الذي كان من طيب نفسه في اليوم التالي فقال: اما انكما أتيتماني اليوم وكان عندي من الصدقة ديناران. فكان الذي رأيتماه من خثورى له. وأتيتماني اليوم وقد وجهتهما غداً (صباح اليوم) فذاك الذي رأيتما من طيب نفسي.

ـ ودعا عمر امرأة فأجهضت ما في بطنها بفزعها فاستشار في الدية.

فقال له عثمان وعبد الرحمن: لا عليك. إنما أنت مؤدب.

وقال علي: إن كانا قد اجتهدا فقد أخطآ. وإن لم يجتهدا فقد غشّاك. أرىٰ عليك الدية.

فقال عمر: عزمت عليك ألا تبرح حتى تفرضها علىٰ بني عدي..

وهذه الفتوى تعتبر تقدما تحاول أن تبلغه الحضارة المعاصرة، ولا تكاد.

ـ ورأى عمر ذات يوم رجلا مع امرأة علىٰ معصية، فاستشار في أن يقضي بعلمه أم لابدّ من شهادة غيره؟

قال علي «يأتي بأربعة شهداء أو يجلد حدّ القذف شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين».

ـ ولما فتح المسلمون الأمصار طلب الفاتحون لأنفسهم أربعة أخماس الأراضي المفتوحة أخذاً بظاهر الآية. فاستشار عمر الصحابة. فاختلفوا. لكن عليا اشار علىٰ عمر بإبقاء الأرض في أيدي أصحابها وتكليفهم الخراج تسدّ من حصيلته حاجات الدفاع عن الأمة والإنفاق علىٰ المحتاجين.

وفي بقاء الأرض في أيدي أصحابها بقاء لهم أو لمن يجيئون بعدهم، وأثر هذه الفتوىٰ في نشر الإسلام يُذكر ويُشكر.

ـ وعليّ صاحب الرأي الشهير بتضمين الصنّاع ما يتلفونه إلا أن يثبتوا أنه من عمل

غيرهم بعد إذ كانوا لا يضمنون لأن يدهم يد الأمين. لكن الزمان تغير فاقتضى تغير الناس التضمين. وفي ذلك قول علي: لا يصلح الناس إلا ذاك. وهذا مضرب المثل علىٰ العمل بقصد الشارع من حفظ مصالح المسلمين وتوخّي المصلحة الإسلامية حيث تكون.

ـ ورفعت إلىٰ عمر قضية رجل قتلته امرأة وخليلها. فتردد هل يقتل الكثيرين بالواحد؟ قال علي أرأيت لو أن نفرا اشتركوا في سرقة جزور هذا عضوا وهذا عضوا، أكنت قاطعهم؟ قال: نعم.

قال علي: فكذلك.

فكتب عمر إلىٰ عامله أن: اقتلهما فوالله لو اشترك أهل صنعاء كلهم لقتلتهم.

ـ وجيء عمر يوما بأمراة زنت وأقرّت فأمر برجمها. لكن عليا قال: لعل بها عذرا. ثم سألها: ما حملك علىٰ ما فعلت؟ قالت: كان لي خليط وفي إبله ماء ولبن. ولم يك في إبلي ماء ولا لبن. وظمئت واستسقيته فأبى ان يسقيني حتىٰ أعطيه نفسي. فأبيت عليه ثلاثا. فلما ظمئت وظننت نفسي ستخرج أعطيته الذي أراد فسقاني.

قال علي: «الله أكبر. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم».

ـ لقد أمر عمر ألا يفتي أحد بالمسجد وعلي حاضر. فجعل القضاء وقفاً عليه في ساحة القضاء.

ـ وكان يقول: اللّهم لا تنزل بي شديدة إلا وأبو الحسن إلىٰ جنبي(١).

---

(١) لا يتسع المقام في هذا الباب إلا لبعض أمثال:

ـ قاضاه خصم إلىٰ عمر وناداه عمر: قم يا أبا الحسن. ولاحظ عمر أنه تألم فسأله. فقال «تألمت إذ كنيتني ولم تُكَنِّ خصمي فلم تسوِّ بيننا».

=

بل يحيل سائليه على علي(عليه السلام). ويجيب أذينة العبدي إذ يسأله: من اين أعتمر؟ إيت علي بن أبي طالب فاسأله.

بل يقول: لولا علي لهلك عمر.

ـ ولعلي عهده المشهور إلى الأشتر النخعي[1] إذ ولاه مصر. فهو دستور سياسي وديني وعالمي تتضاءل دونه كل العهود، بما فيه من شمول وتفصيل لقواعد الحكم الصالح. وإليه يرجع كل من أراد نجاحا للحكم بصلاح الدنيا والدين. والمصريون ـ مسلمين ومسيحيين ـ يحفظون قوله فيه لواليه «واشعر قلبك الرحمة بهم والمحبة لهم. واللطف بهم. ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق».

ـ وعلي هو الذي يضبط فحوى الشرع ويرفعه إلى مقامه الحق في تعريفه للفقيه فيقول للمسلمين «الا أنبئكم بالفقيه، حق الفقيه؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله. ولم يرخص لهم في معاصي الله. ولم يؤمنهم من مكر الله».

كان منذ شبابه الذي أنضجته أحداث النزال والطعان في الميدان ـ أعبد الناس

= ـ وقاضاه يهودي ـ وهو خليفة ـ في درع ـ ولم تكن للخليفة بينة. فقضى القاضي ضده، فأسلم اليهودي لما رأى من العدل.

ـ وأودع قرشيان مائة دينار ـ لدى قرشية على ألا تدفعها لأحدهما دون الآخر. ولبثا حولا ثم جاء أحدهما وادعى أن الآخر مات. فدفعت إليه المال. ثم جاءها الآخر فأخبرته. فترافعا إلى علي. وعرف علي أن الرجلين مكرا بها. فقال للرجل: أليس قلتما لها لا تدفعي لواحد دون صاحبه؟ قال بلى. قال اذهب فجئ بصاحبك. فذهب ولم يرجع.

وهذه اللفتات المرتجلة تصدر عن وحدة فكرية في أمور الإثبات والإجراءات وإدارة الجلسات وهي دلائل متضافرة على اقتدار مقطوع القرين «لعقل قضائي» أجمع الصحابة العظماء على أنه أقضاهم.

(١) الأشتر أول من قال العبارة الشهيرة في شأن معاوية حين سئل: أشهد معاوية بدرا؟ فأجاب: نعم من الجانب الآخر (أي جانب المشركين).

وأكثرهم في عبادته جمعا مع الله. لا يقطع صلاته والسهام تقع بين يديه يمينا وشمالا. يربط علىٰ بطنه من الجوع في حين يتصدق بأربعة آلاف درهم، وعليه إزار غليظ اشتراه بخمسة دراهم. أما قوته فمن دقيق الشعير، يأخذ قبضة فيضعها في الماء فيصب عليها قدحا فيشربه.. وفي يده كل مال المسلمين!

ولما أصهر عمر إليه في «أم كلثوم» كان يتوسل إلىٰ الآخرة بلحمة النسب. فلقد كان يقول: «لقد أعطي علي بن ابي طالب ثلاث خصال كل خصلة منها أحب إلي من حمر النعم: تزويجه فاطمة بنت رسول الله، (ﷺ). وسكناه المسجد مع رسول الله يحل فيه ما يحل له».

وعلي «باب مدينة العلم». يقول الرسول عليه الصلاة والسلام «أنا مدينة العلم وعليّ بابها فمن أراد العلم فليأت بابه».

وهو «إمام البلاغة». يجيء معاوية رجل من الكذبة فيقول له: جئتك من عند أعيا الناس ـ يقصد عليا ـ فيجيب معاوية، وهو أعدىٰ الناس لعلي، «ويحك فوالله ما سنّ الفصاحة للناس غيره».

كيف لا؟ وبلاغته من بلاغة النبي.. مذ كان فكره من فكره، وكان قد رباه فأحسن تأديبه، حتىٰ ليعيا بلغاء العرب عن فهم المعنىٰ النبوي ويراه علي بادي الرأي.

شكا العباس بن مرداس للنبي قسمه من الفيء بقوله:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... كنهب عيينة والأقرع

(والعبيد فرس الشاعر. وعيينة بن حصن والأقرع بن حابس من المؤلفة قلوبهم).

قال عليه الصلاة والسلام: «يا علي اقطع لسانه».

فأخذه علي ومضىٰ.

قال العباس: أقاطع أنت لساني يا أبا الحسن؟

قال علي: إني لممضِ فيك ما أمر..

ثم مضىٰ به إلىٰ إبل الصدقة وقال له: خذ ما أحببت.

ومن «نهج البلاغة» يسقى بلغاء العربية وحكماء الإسلام. ومن تعليمه وضع النحو العربي[1]. ووضع النحو بتعليم علي يذكر بالمكانة الخاصة لعلي في علوم الإسلام. فالنحو العربي هو الذي حفظ العربية لغة القرآن. وهو امر أصولي للغه، كأصول الفقه. وسنرى موقفه المبدع فيها. وكذلك كانت مواقف علي بعد ظهور الإسلام، وفي خلافة سابقيه، تتصدى للأساسيات في الإسلام.

لقد كان أطول الراشدين حياة في الإسلام مما يظهر أثره عميقا، عمق الحوادث والعلوم وأثرها في الإسلام، وطويلا لطول المدة التي حييها في المراكز الأولىٰ منذ

---

(١) روىٰ الأنباري في تاريخ الأدباء أن سبب وضع علي كرم الله وجهه لهذا العلم ما روىٰ أبو الأسود الدؤلي (٦٧) حيث قال: دخلت علىٰ أمير المؤمنين علي فوجدت في يده رقعة فقلت ما هذه يا أمير المؤمنين فقال: إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء (يعني الاعاجم) فأردت أن أضع شيئا يرجعون إليه ثم ألقىٰ إلي الرقعة ومكتوب فيها (الكلام كله اسم وفعل وحرف فالاسم ما أنبأ عن المسمىٰ والفعل ما أنبئ به والحرف ما أفاد معنى) وقال لى انح هدا النحو وأضف إليه ما وقع عليك واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة.. ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر. وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر (أراد بذلك الاسم المبهم) قال وضعت بابَي العطف والنعت ثم بابي التعجب والاستفهام إلىٰ أن وصلت إلىٰ باب ان وأخواتها فكتبتها ماخلا «لكن» فلما عرضتها علىٰ أمير المؤمنين (عليه السلام) أمرني بضمّ (لكن) اليها. وكلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه إلىٰ أن حصلت ما فيه الكفاية. فقال ما أحسن هذا النحو الذي نحوت فلذا سمي النحو.

وان المرء ليلاحظ أن هذا الفتح العظيم في العلم كان من اهتماماته وهو أمير للمؤمنين، ليس لديه يوم واحد خلا من معركة أو استعداده لمعركة. وان أبا الأسود هو واضع علامات الإعراب في المصحف في أواخر الكلمات بصبغ يخالف لون المداد الذي كتب به المصحف. فجعل علامة الفتح نقطة فوق الحرف. والضم نقطة إلىٰ جانبه والكسر نقطة في أسفله والتنوين مع الحركة نقطتين ثم وضع نصر بن عاصم (٨٩) تلميذ أبي الأسود النقط والشكل لأوائل الكلمات وأواسطها ثم جاء الخليل بن أحمد (١٧٥) فشارك في إتمام بقية الإعجام.. والخليل شيعي كأبي الأسود. وهو واضع علم العروض وصاحب المعجم الأول وواضع النحو علىٰ أساس القياس.

فاللغة العربية مدينة لعلي وتلاميذ علي. وكمثلها البلاغة العربية.

ويعدّ علي من ابرز خطباء التاريخ العالمي بخطبه والمناسبات التي دعت إليها.

ظهور الإسلام.

وربما اجمل القول في مكان علي بين المسلمين قول ابن عباس:

«لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أول عربي أو أعجمي صلى مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو الذي كان لواؤه معه يوم الزحف. وهو الذي صبر معه يوم فرّ غيره. وهو الذي غسله فأدخله قبره».

أما عن العلم فيقول ابن عباس «إذا ثبت لنا الشيء عن علي لم نعدل إلىٰ غيره»

واما عن العدل فيقول ابن مسعود معلم الكوفة وسادس المسلمين «كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علي».

من أجل هذا وكثير غيره، صحّ عند الشيعة أن النبي أفضى إليه بظاهر الشريعة وخافيها. وأنه أفضى بها إلىٰ من خلفه.

* * *

وعلي في كثير من الأمور هو الأوحد: فالنبي هو الذي رباه وآخاه وأعده للعظائم فصنعها. وعهد إليه في تبليغ آي القرآن.. وهي جميعاً «خصوصيات» لا يرقى رقيه فيها أحد. أما ما لم يشركه فيه بشر فهو ما أجمعت عليه كتب الشيعة وشاركها فيه كثيرون من علماء أهل السنة منذ القرون الأولىٰ ـ كالمسعودي والحاكم والكنجي ـ حتىٰ القرون الحديثة ـ كالالوسي، وهو أن عليا وُلد بالكعبة.

لقد كان الحسن والحسين يسميان الرسول أباهما. كما كان الرسول يسميهما ابنيه طول حياته. ولم ينادیا علیا بأنه أبوهما إلا بعد أن انتقل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلىٰ الرفيق الأعلىٰ.

الشيعة

لعلي ـ علىٰ ما رأينا ـ من فضل الله ما سلمه الجميع له وتؤثره من جرائه الشيعة، منذ القرن الأول، أي جيل الصحابة، ثم تلاحق عليه الجيلان التاليان. وهي الأجيال الثلاثة المفضلة بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) «خير القرون قرني ـ جيلي ـ ثم الذين يلونهم ثم الذين

يلونهم»، وتوالت علىٰ تكريمه به جماعة المسلمين إلا من ظلم. وهو موقعه الخاص من النبي ومن علوم الإسلام: إذ تتفرع عنه فروع النسب من أهل البيت. وتنبع منه بحار شتىٰ للمعرفة تسقىٰ منها المذاهب كافة، وفيها المتصوفة والمعتزلة، وتفيد منها العلوم كافة، ومنها العبادات والمعاملات والحرب والسلم والسياسة والاقتصاد والإدارة. فتطبع بطابعه العلوم الإسلامية عند الشيعة، وتظهر آثاره في علوم أهل السنة.

«والشيعة» كلمة قرآنية: «وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم».

والتشيع نلي مكانة للفوز تقررت بالسنة. روىٰ السيوطي عن جابر بن عبدالله قال: كنا عند النبي فأقبل علي فقال النبي «والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة».

وعن ابن عباس قال: لما نزلت «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات» قال رسول الله لعلي: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين».

وعن أم سلمة (رض) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي عليه السلام: «أنت واصحابك في الجنة».

وفي نهاية ابن الأثير ما نصّه في مادة (لواقح): وفي حديث علي قال له النبي «ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين ويقدم عليك عدوك غضابا مقمحين».

والزمخشري يروي في ربيع الأبرار حديث النبي عن (شيعة ولدك) وهو يتحدث إلىٰ علي. وفي مسند ابن حنبل وخصائص النسائي كثير في الدلالة علىٰ شيعة علي.

ويخصص المسلمون «الشيعة» بأنهم هم التابعون والمقتدون والمتميزون باتباعهم واقتدائهم الكامل بالامام علي والأئمة من بنيه.

وربما كان تعريف ابن حزم للشيعة جامعا مانعا، فهو يقول «من وافق الشيعة في أن عليا (أفضل) الخلق بعد رسول الله و (أحقهم) بالإمامة وولده من بعده، فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك فيما اختلف فيه المسلمون. فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيا».

ظهر تفضيل الشيعة لعلي علىٰ جميع الصحابة بمجرد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، إذ دعت إلىٰ ذلك دواعٍ سياسية. فقد اجتمع المهاجرون والأنصار ـ وعلي

مشغول بتجهيز رسول الله لقبره ـ فبايعوا أبابكر باشارة من عمر. وثقل على بطل الإسلام على أن يُمضي الصحابة الأمور دونه، وثقُل على الزهراء[١] و على «شيعة علي» من صحابة الرسول. كما رأى البعض أحقية علي بالخلافة[٢].

ولكن عليا لم يلبث أن كمل اجماع المسلمين بالبيعة، وجمل خلافة الأول بالمشاركة والمشورة، وتحمل في خلافة الثاني أعباء في أخطر شؤون الدولة والدين والناس والخلافة.

ولقد كان كله شجاعة فكر، وبراعة فقه، يوم استشاره عمر فى غزو الفرس بنفسه وكرر «أخو النبي» نصحه في بلاغة معلمة وأسانيد تترى.

قال لعمر بين ما قال: «إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة. وهو دين الله الذى أظهره.. ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمّه. فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا. والعرب اليوم وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع. فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب. وأصلِهم دونك نار الحرب. إنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب

---

(١) لم يورث الخليفة الزهراء من أبيها. وقصد إليها مع عمر يذكران لها حديث الرسول في حرمانها من ميراثها. قال أبوبكر: إني سمعته (ﷺ) يقول (نحن معاشر الأنبياء لانورث) ثم قال: والله إن قرابة رسول الله أحب الي من قرابتي. وإنكِ أحب الي من عائشة (بنته).

قالت: ارايتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتعملان به؟. قالا: نعم.

قالت: ألم تسمعا قول الرسول «رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي». قالا: سمعنا.

قالت: إني أشهد الله أنكما اسخطتماني. وما أرضيتماني. ولئن لقيت رسول الله لاشكونكما إليه.. وخرجا يبكيان. فلقد كانت تبكي.

(٢) ومنذئذ كانت لعلي شيعته. قال أبان بن تغلب «قلت لجعفر بن محمد (الصادق) جعلت فداك. هل كان أحد من أصحاب رسول الله (ﷺ) أنكر على أبي بكر فعله؟ قال: نعم اثنا عشر رجلا من المهاجرين: خالد بن سعيد بن العاص وسلمان الفارسي وأبوذر الغفاري، والمقداد بن الأسود وعمار بن ياسر وبريدة الأسلمي. ومن الأنصار: أبو الهيثم بن التيهان. وسهل وعثمان ابنا حنيف. وخزيمة بن ثابت وأبي بن كعب. وأبو أيوب الأنصاري.

من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع من الفورات أهـم إليك مـما بـين يـديك. إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدا يقولون هذا أصل العرب فإن قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشدّ لكلبهم عليك ومطمعهم فيك..»..

فلنلاحظ هذه الخطة المتعددة الغايات بالحركة الواحدة: أن يبقى قطبا للرحى، وان يستديرها بالعرب، وأن يجعلهم يحاربون العدو بـدلا مـن الخـليفة. ولنـلاحظ ذلك الاحتياط في الحرب حتى لا يجد العدو الخليفة غرضا قريبا في متناوله يستميت في إصابته.

ولنلاحظ تشبيه الخليفة بنظام العقد الذي يمسكه أن ينتثر.

ولنلاحظ الوجازة، والنصاعة، والبلاغة «العلوية»، ومستواها في لسان العرب.

ولا ينال من هذه العبقرية في وضع الخطط، مـا سـيصيبه والمسـلمين مـعه، يـوم يستحبون الدعة، بعد ربع قرن عندما آلت إليه المقاليد، وجاء إلىٰ الوجود جيل جديد، فعلت الفتن فيه أفاعيلها. فأتاحت لعلي بدلا من إنفاذ خططه، أن يلقي خطبه الخـالدة التي تعتبر مصادر للبلاغة العربية والحكمة السياسية والفلسفية علىٰ مر الزمان. فتخص الامام بمقام الصدارة بين خطباء التاريخ لا يرقىٰ إليه أحد.



عهد ابوبكر بالخلافة لعمر.

ودعا عمر يوم دوّن الديوان الأخ الأكبر لعلي، عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل وجبيرين مطعم، وقال لهم: «أكتبوا الناس علىٰ قدر منازلهم» فكتبوهم مبتدئين بـبني هاشم ثم ببني تيم ـ قبيلة أبي بكر ـ ثم بني عدي ـ قبيلة عمر ـ فقال «وددت أنه هكذا. ولكن ابدأوا بقرابة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حـيث وضـعه الله».

ويوم فضّل بعض الناس في العطاء جزاء ما قدّموا للإسلام. فلما ذكر له صنيع أبي بكر يوم رفض التفضيل وقال «إنما أسلموا لله. ووجب أجرهم عليه. يوفيهم ذلك في

الآخرة. وإنما هذه الدنيا بلاغ» أجاب عمر «لا أجعل من قاتل رسول اللّه كمن قاتل معه..»

ويوم فضل أهل بدر على من عداهم. ثم جعل الباقين درجات. ومع ذلك قدم الأدنين من رسول الله دون نظر إلىٰ جهاد أو سابقة إسلام. ففرض للعباس ـ عم النبي ـ اثني عشر ألف درهم. ولأخته صفية عمة النبي وعلي ـ ستة آلاف.. ولكل واحدة من زوجات النبي عشرة آلاف. وميّز عائشة فجعل لها اثني عشر ألفا.

ويوم فضل الحسن والحسين إذ فرض لكل واحد شهد بدرا خمسة آلاف، ولأبنائهم ألفين ألفين، الا الحسن والحسين ابني علي من فاطمة الزهراء ألحقهما بفريضة أبيهما لقرابتهما من رسول اللّه. ففرض لكل منهما خمسة آلاف.. حتى أسامة بن زيد بن حارثة ـ مولىٰ الرسول ـ فرض له اربعة آلاف. وأجاب ابنه عبداللّه إذ راجعه قائلا «فرضت لي ثلاثة ولأسامة اربعة. وقد شهدت ما لم يشهد أسامة» فقال لابنه «زدته لأنه كان احبّ إلىٰ رسول اللّه منك. ولأن اباه كان أحب إلىٰ رسول اللّه من أبيك».

وعبداللّه أخ شقيق لحفصة أم المؤمنين.

ولما فرض لعمر بن أم سلمة ـ أم المؤمنين ـ أربعة آلاف، وكان من شيعة علي، استعتب البعض الخليفة لحداثته فأجاب «فليأتني الذي استعتب بأمّ مثل أم سلمة أعتبه».

وأم المؤمنين أم سلمة أعلىٰ الأصوات في الدفاع عن علي.

ولقد كان عمر نادماً يوم عدل إلىٰ رأي أبي بكر وقال «لئن بقيت إلىٰ العام المقبل لألحقنّ آخر الناس بأوّلهم ولأجعلنهم رجلا واجدا».

وأوصى عمر أن تكون الخلافة لواحد من الستة الذين رشّحهم للخلافة. واجتمع أصحاب الشورىٰ وأدار المداولات عبد الرحمن بن عوف، مذ أعلن أنه لن يكون له في الخلافة أرب. واستجوب الناس حتى استيقن من تحقيقاته ان لكل من علي وعثمان مؤيدين في جماعة المسلمين ـ فرقى المنبر وجلس مجلس النبي وأخذ بيد علي وقال: هل أنت مبايعي علىٰ كتاب الله وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر؟

قال علي: اللّهم لا. ولكن على كتاب اللّٰه وسنة نبيه وعلى جهدي وطاقتي.

فأرسل عبد الرحمن يده وقال: هلم إليّ يا عثمان. فأخذ بيده وقال: هل أنت مبايعي على كتاب اللّٰه وسنة رسوله وفعل أبي بكر وعمر. قال عثمان: اللّهم نعم..

قال عبد الرحمن: اللّهم اشهد.. اللّهم اشهد..

وبايع عبد الرحمن عثمان. وقام الناس فبايعوا.. وبايع علي.

وكان في المسلمين يومئذ شبه إجماع علىٰ أن الخلافة آيلة إلىٰ علي (عليه السلام).

الفصل الثاني

أبو الشهداء

«هذان ابناي وابنا بنتي»
«اللّهم إني أحبهما. فأحبهما.
وأحب من أحبهما».

(حديث شريف)

هما ريحانتاي من الدنيا

(حديث شريف)

مضت سنوات ست على عثمان في الخلافة وهو يحدر إلى الثمانين أو منها، أعقبتها ست أخرى. منها اربعة تتناهى إلى سمعه فيها وشوشة الشكوى من كل صوب، ومنها اثنتان فيهما مراجعة الذين يتحملون المسؤولية معه: غاضبه عبد الرحمن بن عوف الذي اختاره للمسلمين. وغضب هو على عبدالله بن مسعود وعلى أبي ذر ـ أصدق الناس لهجة ـ وعلى عمار بن ياسر، الذي واعده الرسول وأباه وأمه على الجنة. وهذان الأخيران، منذ انفجر فجر الإسلام، شيعة لعلي.

ونفى عثمان أباذر من المدينة إلى الربذة[1]، لاحتجاجه على ما صار إليه أمر معاوية وعثمان.

في هذه الفترة الأخيرة اجتمع الناس فتذاكروا الأحداث، وكلفوا عليا أن يكلم عثمان كما روى الطبري في أحداث سنة ٣٤. ونصح علي عثمان أغلى النصيحة، وأجابه عثمان بمبرارته في تعيين الولاة من أهله، ومما قال: «إن معاوية عينه عمر». قال علي: «لكنه كان أخوف له من خادمه يرفأ».

واستمر الناس في ضيقهم بالأمور، حتى إذا كان الموسم حج الولاة فجمعهم عثمان للمشورة فكانوا ـ معاوية بن أبي سفيان (الشام) وسعيد بن العاص (الكوفة) وكلاهما ابن عم لعثمان[2]. وعبدالله بن سعد ابن أبي سرح (مصر) وهو أخو عثمان من الرضاع.

---

(١) قرية على مبعدة ثلاثة ايام من المدينة.

(٢) كان أبوسفيان إحدى تبعات معاوية، أرسل معه من دمشق أموالا وأغلالا إلى عمر ليظهره على الأغلال التي كان أسارى المسلمين مقيدين بها في حصون الروم. فلما رجع أبو سفيان إلى المدينة ذهب إلى عمر بالأغلال ولم يذهب بالمال. فسأله عمر: أين المال؟ قال: كان علينا دين ومؤنة، ولنا في بيت المال حق. فإذا أخرجت لنا شيئا؟ قال عمر: اطرحوه في القيود حتى يأتي بالمال.. فأرسل أبو سفيان من جاء بالمال.

وعبدالله بن عامر (البصرة) وهو ابن خال عثمان[1]. فلما انصرفوا إلىٰ أقاليمهم رد أهل الكوفة سعيد بن العاص، وطلبوا أن يتولى عليهم أبو موسى الأشعري، فولاه عثمان. وأرسل المصريون في سنة ٣٥ وفداً للعمرة يناظرون عثمان في سياسة ولاته. وكان علي رسول السلام بين الخليفة وبين الناس.

وانضم بعض أهل المدينة إلىٰ الناقدين، وعنّفوا علىٰ عثمان بالمسجد. فقنع بالبقاء في داره، وأحاط القوم بالدار.

وأقبل بعض بني أمية يحرسونها، لكن الحراسة الحق كانت حراسة أبناء الصحابة: الحسن بن علي، والحسين بن علي. وعبدالله بن عمر ومحمد ابن طلحة وعلىٰ إمرتهم عبدالله بن الزبير إذ عينه الخليفة. وأمر الرجال ألا يحاربوا أحدا. ولم يخرج الخليفة للحج وأمر عليه عبدالله بن العباس.

ولم يقدم للحج أحد من ولاة عثمان هذا العام، فلم يكن ذلك مفهوما لأحد، الا أن يكون تقصيراً من الولاة.. وليس في المدينة جند. فهي كما يقول الرسول (حرم آمن). وإنما الجند في الأقاليم وبخاصة في الشام حيث معاوية.

ولما تلا ابن عباس خطاب الخليفة علىٰ الحجيج لم يخفّوا لنصرته.. وأصبح عثمان صائما غداة ليلة. بقي يحدث الحرس ألا يقاتلوا، حتى أقبل الثوار وقتلوه.



اجتمع أصحاب الرسول بعد مقتل عثمان يشتورون، وفيهم طلحة بن عبدالله والزبير بن العوام، فأتوا عليا وقالوا: لابد للناس من إمام. فقال لهم والضيق يغلب علىٰ

---

(١) عبد شمس أخو هاشم جد النبي وهما ابنا عبد مناف. ولعبد شمس بنون منهم: حبيب جد عبدالله بن عامر. ومنهم أمية أبو حرب والد أبي سفيان، والد معاوية.

ومنهم أبو العاص وله أبناء منهم عفان أبو عثمان. والحكم أبو مروان. ومروان كاتب عثمان.

ومنهم أبو عمرو وله أبناء منهم أبو معيط جد الوليد بن عقبة الذي حده عثمان للخمر، وهو وال له. ومنهم العاص أبو سعيد أحد ولاة عثمان.

ومنهم أبو العيص جد عتاب بن أسيد عامل النبي علىٰ مكة. حيث ولي النبي أعداءه السابقين ولم يول أهله.

نفسه «لاحاجة لي في إمرتكم. فمن اخترتم رضيت به» قالوا ما نختار غيرك. وألحّوا، وهو يرفض ويقول: «لأن أكون وزيرا خير من أن أكون أميرا». قالوا: واللّه ما نحن منصرفين عنك حتىٰ نبايعك.

ولما رأى إلحاح القوم خرج إلىٰ المسجد وبايعه الناس. فصعد المنبر وقال «أيّها الناس. عن ملأ وأذن. إن هذا أمركم ليس لاحد فيه حق الا من امرتم. وقد افترقنا امس على امر وكنت كارها لامركم، فأبيتم إلا أن أكون عليكم. ألا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح أموالكم معي. وليس لي ان آخذ درهما دونكم».

وعيّن أميرالمؤمنين عمّاله في الأمصار، وتوقف بعض الناس في بعض الأمصار، فجمع رجلي شوراه (طلحة والزبير)، فقال: «إن الأمر الذي كنت أحذركم قد وقع، وافترق المسلمون وسأمسك الأمر ما استمسك. فإذا لم أجد بدا فآخر الدواء الكي».

وكتب إلىٰ الأمصار فأجمعت الطاعة إلا معاوية بن أبي سفيان بالشام، حبس رسول أميرالمؤمنين إليه ثلاثة أشهر، ثم بعث برده يصدره بقوله: من معاوية إلىٰ علي. كأنه ندّ له! بل طالبه فيه بدم عثمان، كأنما علي هو الذي قتله! وكأنما معاوية صاحب دمه! وهو واحد من تاركيه بالمدينة، للثوار، بلا نجدة! وعبأ معاوية جيشه لقتال الامام.

وفيما كان علي (عليه السلام) يتجهز لقتال معاوية أتاه الخبر أن طلحة والزبير قد نقضا البيعة وانهما، ومعهما عائشة وأهل مكة، خالفوه، وخرجوا عليه، قاصدين البصرة. فنهد للحرب. وكانت وقعة الجمل حيث انتصر، وذكّر يومذاك الزبير بقول النبي للزبير «لتقاتلنه وأنت ظالم له» فترك الزبير حربه. وندم طلحة قبل أن يلقىٰ مصرعه.

ثم رجع أميرالمؤمنين يسوي حسابه مع جيش الشام بقيادة معاوية، وتلاقى الجيشان في صفين[١] وفيها استشهد عمار بن ياسر، وهو في التسعين من العمر. وفيه قول الرسول «تقتلك الفئة الباغية». وهو ادانة واضحة لمعاوية وجيشه.

---

(١) شهد صفين مع علي ألفان وثمانمائة من الصحابة.. منهم سبعة وثمانون من أهل بدر وتسعمائة من الأنصار ومن بايعوا بيعة الرضوان.

أما أميرالمؤمنين يومئذ ففيه يقول ابن عباس جوابا لرجل سأله: أكان علي يباشر القتال في صفين؟ «والله ما رأيت رجلا أطرح لنفسه في متلفة مثل علي، رضي الله تعالى عنه. ولقد كنت أراه يخرج حاسرا عن رأسه بيده السيف إلىٰ الرجل الدارع فيقتله».

تراءت بشائر النصر للبطل الذي تعوّد النصر. فرفع جيش الشام المصاحف علىٰ أسنّة الرماح طالبين تحكيم كتاب الله بينهم، وعرف الامام انها خدعة واراد استمرار القتال فيما اصرّ قطاع كبير من جيشه علىٰ وقف العمليات الحربية. وتمت خدعة التحكيم باختيار معاوية عمرو بن العاص حكَما يمثّله، واختار الذين اوقفوا القتال أبا موسىٰ الاشعري، وراود عمرو ابا موسىٰ؛ علىٰ أن يخلع كل منهما صاحبه ويتركا الأمر للمسلمين يختارون من يشاءون. فقبل ـ ثم قدّم عمرو أبا موسىٰ فخلع صاحبه. فلما جاء دور عمرو ثبّت صاحبه...!

وانشق من جيش علي الذين فرضوا التحكيم. فحاربهم وانتصر عليهم في «النهروان» وأطلق عليهم المسلمون اسم «الخوارج».

وأخذ يعبئ جنده لمنازلة جيش الشام، وبدا علىٰ جنده آثار التعب من القتال، وعلىٰ جيش معاوية آثار شرائه للرجال.

وانقسم المسلمون فهذا حزب علي، وهذا حزب معاوية! والذين عاصروا الإسلام منذ ظهوره، كالذين درسوه والذين صدقوا فيه، يفهمون المرارة في قول أميرالمؤمنين (انزلني الدهر حتى قيل علي ومعاوية!).

رضي الله عن أميرالمؤمنين وأرضاه. فما كان ذلك ليقع إلا في آخر الزمان الذي قدره الله للخلفاء الراشدين[١]، وفي آخر الأيام التي قدرها الله لحياته.

---

(١) أما أهل السنة فيمثل رأيهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل إذ سئل: مَن الخلفاء؟ وأجاب. أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. قال: السائل فعاوية؟ قال أحمد: «لم يكن أحد أحق بالخلافة في زمن علي من علي.
=

لقد طعنه عبد الرحمن بن ملجم في التاسع عشر من رمضان سنة ٤٠، باتفاق بينه وبين زميلين من «الخوارج» أن يقتلوا عليا ومعاوية وعمراً. فأصيب معاوية في عجزه. ولم يصب عمرو إذ لم يخرج للصلاة وأناب نائبا عنه فقتل.

أمر معاوية بالرجل فقتل. وأمر عمرو برجله فقتل. لكن أميرالمؤمنين أمر باستبقاء قاتله قائلا ـ وهو الطعين المشرف ـ إنه إذا عاش فهو ولي دمه. وإذا مات فإنه ينهىٰ عن المثلة؛ ليعلم الناس الدين، كمثل ما علم العالم جميعه «قوانين الحرب والسلام» في حروبه في «الجمل» سنة ٣٦، و «صفين» سنة ٣٧، و«النهروان» سنة ٣٨. فتداولتها المذاهب الأربعة لتقدمها هدية من فقه الإسلام للقوانين المعاصرة.

= ورحم الله معاوية». [!] ولما ذكر عنده سير عائشة مع طلحة والزبير قال: فكرت في طلحة والزبير، أهما كانا يريدان أعدل من علي بن أبي طالب؟ رضوان الله عليهم أجمعين. [!]

وجاءه يوما جماعة فأكثروا القول وأطالوا في خلافة علي فرفع إليهم رأسه وقال: إن الخلافة لم تزين عليا ولكن عليا زينها.

ومثل الشافعي رأى المسلمين عندما قال رجل «ما نفر الناس من علي إلا لأنه كان لا يبالي بأحد» فبهته الشافعي بقوله «كان له أربع خصال لا تكون واحدة منها لإنسان إلا ويحق له ألا يبالي بأحد: انه كان زاهدا، والزاهد لا يبالي بالدنيا وأهلها. وكان عالما، والعالم لا يبالي بأحد. وكان شجاعا، والشجاع لا يبالي بأحد. وكان شريفا، والشريف لا يبالي بأحد».

وأما الخوارج علىٰ جيشه فكانوا ثمانية آلاف دعاهم ليزيل شبهتهم. فأبوا أن يجيئوه إلا أن يقر بالكفر علىٰ نفسه ثم يتوب، فحاربهم ونصره الله عليهم. ثم حاربوا الأمويين والعباسيين. ومع تكفيرهم الكثيرين من جمهور المسلمين بدعوى التهاون في الدين فالمسلمون لا يكفرونهم لانهم متأوّلون. وأميرالمؤمنين علي يعلّم المسلمين ذلك بقوله عنهم: «إخواننا بغوا علينا».

وفقه علي في معاملة العدو وفي الحرب عنوان على علم الإمام وحلمه. فهما من علم النبي وحلمه.

إذا كانت هند بنت عتبة (أم معاوية) مثلت بجثة أسد الإسلام حمزة يوم أحد، وقال النبي يومذاك «ما وقفت موقفاً قط أغيظ لى من هذا» فلما جاءه يوم فتح مكة «وحشي» قاتل حمزة اكتفى بقوله «ويحك غيّب عني وجهك». وعفا عن هند وقال للأعداء «أنتم الطلقاء». فلقد صنع علي صنيعه (يوم الجمل) عندما ظفر بابن الزبير فاكتفى بأن قال له «لا أرينك بعد اليوم» وظفر بسعيد بن العاص فأعرض عنه. وظفر بأهل البصرة فصفح الصفح الجميل.

وانتقل أميرالمؤمنين الىٰ جوار ربه بعد يومين عن ٦٣ عاما، وأربعة أعوام وتسعة أشهر ويوم واحد في خلافة كلها معارك.

ولم يوجد بخزائنه إلا ستمائة درهم استبقاها ليشتري بها خادما. بل ـ وكما لخص حياته سفيان الثوري ـ «ما بنى لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وإن كان ليؤتى بحبوته في جراب». الحبوة الخراج.

وكما يقول محمد بن كعب القرظي «سمعت علي بن أبي طالب يقول: لقد رأيتني وأنا أربط الحجر علىٰ بطني من الجوع وإن صدقتي لتبلغ اليوم أربعة آلاف دينار». ولما قال معاوية لضرار بن ضمرة: صف لي عليا، قال فيما قال:

كان ـ والله ـ بعيد المدىٰ. شديد القوىٰ. يقول فصلا. ويحكم عدلا. يتفجر العلم من جوانبه. وتنطق الحكمة من لسانه. يستوحش من الدنيا وزهرتها. ويستأنس بالليل ووحدته. كان ـ والله ـ غزير الدمعة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه.. ونحن ـ والله ـ مع تقريبه لنا ودنوّه منا لا نكلمه هيبة له. لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله.. يبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا إليَّ تعرّضت أم إليَّ تشوّفت. فهيهات، هيهات. غرّي غيري.

* * *

بايع المسلمون الحسن بن علي أميراً للمؤمنين، فخرج بجيش قوامه أربعون ألفا للقاء جيش معاوية. وتخاذل جنده كهيئة تخاذل الجند بين يدي أبيه. وتبودلت بينهما الرسائل وكانت النتيجة صلحا بعد خلافة دامت ستة أشهر وخمسة أيام (لعل اللّٰه أن يصلح به بين فئتين من المسلمين). فذلك قول جده عليه الصلاة والسلام.

ودخل المتصالحان الكوفة. فسمى البعض عامهما هذا عام الجماعة. وأسماه الجاحظ (عام فرقة وقهر وجبرية وغلبة).

حدث الشعبي قال: شهدت خطبة الحسن (رضي الله عنه) حين صالح معاوية فحمد اللّٰه وأثنىٰ عليه ثم قال «أما بعد فإن أكيس الكيس التقىٰ. وإن هذا الأمر الذي اختلفت أنا

ومعاوية فيه، إن كان له فهو أحق به مني، وإن كان لي فقد تركته إرادة لإصلاح الأمة وحقن دماء المسلمين. وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلىٰ حين».

وعاد الحسن إلىٰ المدينة. وعوتب علىٰ صلحه فقال «اخترت ثلاثا علىٰ ثلاث. الجماعة علىٰ الفرقة. وحقن الدماء علىٰ سفكها. والعار علىٰ النار».

وليس بغير هذا يتكلم الحسن. فلقد كان رجل عبادة وسلام للناس. خرج من ماله مرتين. وقاسم الله ماله ثلاث مرات. وحجّ عشرين حجة ماشيا من المدينة إلىٰ مكة.

وفي ربيع الأول سنة ٤٩ هـ. شعر بالسمّ يسري في جسده لتبدأ به سلسلة أئمة أهل البيت الذين يموتون مسمومين علىٰ أيدي بني أمية وبني العباس. فأوصى للحسين. وقال: «إذا مت فادفني مع جدي ما وجدت لذلك سبيلا».

لكن مروان بن الحكم والي معاوية علىٰ المدينة منع من تنفيذ الوصية، فدفن الحسن بالبقيع. وسيُدفن معه في قبره أئمة أهل البيت الرابع والخامس والسادس. فأكرم بها بقعة فيها أميرالمؤمنين الحسن، وعلي زين العابدين ـ ابن الحسين ـ وابنه محمد الباقر، وابن الباقر: «جعفر الصادق».



لما توفي الحسن كبّر أهل الشام، فقالت فاختة بنت قريظة لمعاوية: أعلىٰ موت ابن فاطمة تكبر؟ قال: ما كبرت شماتة بموته ولكن استراح قلبي.

وقال له ابن عباس: والله يا معاوية لا تسد حفرته حفرتك ولا يزيد عمره في عمرك.

وطلب معاوية البيعة لنفسه من محمد بن مسلمة فقال له «لعمري يا معاوية ما طلبت إلا الدنيا ولا اتبعت إلا الهوىٰ. ولئن كنت نصرت عثمان ميتا لقد خذلته حيا. ونحن ومن قبلنا من المهاجرين والأنصار أولىٰ بالصواب».

ولما دخل سعد بن أبي وقاص علىٰ معاوية قال: السلام عليك ايها الملك. قال معاوية: ما كان عليك يا أبا إسحٰق ان قلت أميرالمؤمنين؟

كتب معاوية إلىٰ عماله بنسخة واحدة «انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه» وأمر من يأتمرون بأمره ألا يرووا

أحاديث فضائل علي وشيعته، ثم تمادى، فكلف ولاته أن يلعنوا عليا ومن أحبه على المنابر. فكتبت إليه أم المؤمنين أم سلمة تقول «إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم لأنكم تلعنون عليا ومن أحبه وأشهد أن رسول الله ﷺ أحبه».

ولما دانت الدنيا لمعاوية قيل له: قد بلغت ما بلغت. فلو كففت عن الرجل؟ فقال «لا والله حتى يربو عليها الصغير ويهرم الكبير».

ولو عاش بضع سنين بعد عام موته لشهد انهيار دولته وانتهاء أسرته ـ أما الذين جاءوا بعده فسيشهدون صعود الشمس في السماء معلنة حق علي، مؤذنة بظهور أهل بيت النبي ـ صلوات الله عليهم اجمعين.

جعل معاوية الخلافة ميراثا لابنه يزيد، بالسيف على رؤوس أبناء الصحابة جهرة، وبالرعب في قلوب المستضعفين، وبالمال في جيوب الطامعين!

أما الحسين بن علي فلم يستدرج ولم يستضعف وأبى أن يبايع ليزيد.

وأما عبد الرحمن بن ابي بكر فقال لمعاوية كلمته الخالدة في خلافته وخلافة ابنه ومن جاءوا بعده: إنهم جعلوها (هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل).

وعبد الرحمن بن أبي بكر هو جد «جعفر الصادق» من ناحية أمه وأمها.

كان رأي محمد بن مسلمة وسعد بن أبي وقاص أن معاوية، صاحب ملك... ولكن ملك معاوية كان بصلح مشروط. فلما خرج على الشروط، أمسى حقا لكل مجتهد أن يقول فيه باجتهاده، في المرة الأولى والمرة الآخرة.

ولقد قال أميرالمؤمنين علي قوله فيه. وكشف الله لحكمة الإمام وجه الحق فيما صار إليه أمر معاوية وأمور المسلمين. فحسبنا وحسبه قول علي فيه ـ وقد اسلفناه ـ بل قول النبي لعمار عن جيش معاوية «تقتلك الفئة الباغية».

أما عمرو فلأئمة السنة فيه ما يكفيه، وحسبه قول الشافعي فيه، حول أساطين جامعه، حيث راح الشافعي يروي بعد قرن ونصف قرن في (جامع عمرو) بفسطاط مصر، دخول ابن عباس على عمرو، وهو ابن بضع وثمانين، وقول عمرو: أصبحت وقد ضيعت من ديني كثيرا وأصلحت من دنياي قليلا، فلو كان الذي أصلحت هو الذي

أفسدت والذي أفسدت هو الذي أصلحت لقد فزت.. فعظني بعظة انتفع بها يا ابن عباس. قال ابن عباس: هيهات. قال عمرو: ابن بضع وثمانين وتقنطني من رحمة اللّٰه! ثم رفع يديه وقال: اللهم إن ابن عباس يقنطني من رحمتك. فخذ مني حتىٰ ترضى.

قال ابن عباس: هيهات يا أبا عبداللّٰه. تأخذ جديدا وتعطي خلقا.

قال: من لي منك يا ابن عباس. ما أرسل كلمة إلا أرسلت نقيضها!

والمسلمون يتناقلون قول الشافعي في جامع عمرو عن عمرو: قدم ابن عمامة على عمرو فألفاه صائما وقد أحضر إخوانه طعاما. وصلى صلاة فأتقنها. ثم اتي بمال فأمر بتفريقه. قال ابن عمامة: يا أبا عبداللّٰه وأتاك مال أنت به أحق من غيرك ففرقته. بم ذاك يا أبا عبداللّٰه؟ قال: ويحك يا ابن عمامة فلو كانت الدنيا مع الدين أخذناها وإياه. ولو كانت تنحاز عن الباطل أخذناها وتركناه. فلما رأينا ذلك كذلك خلطنا عملا صالحا وآخر سيئا عسى أن يرحمنا اللّٰه.

وسمع العالمُ الشافعيّ في جامع عمرو يهتز تحتانا إلىٰ أبناء علي في الحجاز فينشد:

يا راكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
إن كان رفضاً حب آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي

ريحانة النبي في كربلاء

انتهىٰ عصر معاوية بعد ملك طال تسعة عشر عاما وثلاثة اشهر وخمسة أيام[1] ليبدأ

---

(١) بنو أمية: معاوية (٤١ـ ٦٠) يزيد (٦٠ ـ ٦٤) معاوية بن يزيد (ثلاثة اشهر في سنة ٦٤).

مروان بن الحكم	٦٤ ـ ٦٥	عبد الملك بن مروان	٦٤ـ ٨٦
الوليد بن عبد الملك	٨٦ـ ٩٦	سليمان بن عبد الملك	٩٦ـ ٩٩
عمر بن عبد العزيز	٩٩ـ ١٠١	يزيد بن عبد الملك	١٠١ ـ ١٠٥
هشام بن عبد الملك	١٠٥ ـ ١٢٥	الوليد بن يزيد	١٢٥ـ ١٢٦
يزيد بن الوليد	١٢٦	ابراهيم بن الوليد	١٢٦

مروان بن محمد بن مروان ١٢٧ ـ ١٣٢ هـ.

عصر يزيد (٦١ ـ ٦٤) فكان أفسد حكم. وقع فيه أفظع ظلم، وأعمق جرح في قلوب أهل الإسلام. أنهاه الله بإنهاء عمره وانقطاع عقبه وعقب أبيه من سجل الدولة التي سعيا لها كل ذلك المسعى!

وسيخلفه ابنه معاوية بن يزيد. فيعلن أنه وأهله لا يستحقون الخلافة. ويعتزل بعد نحو أشهر ثلاثة. فكان اعتزاله من تلقاء نفسه وعباراته وهو يعتزل، شهادتين بالفعل وبالقول، من نفس بني أمية، بأنهم جائرون.

أنهىٰ يزيد سنوات حكمه بتجريد جيش علىٰ المدينة يسفك دماء اهلها وينتهك حرمها، في وقعة الحرة سنة ٦٣. ليقتل فيها ثمانين من صحابة الرسول. فلم يبق بعدهم علىٰ ظهر الأرض بدري واحد! وقتل من قريش والأنصار ثمانمائة! ومن الموالي والتابعين وسائر الناس عشرة آلاف، ثم لفظ آخر أنفاسه وجيشه يحاصر الكعبة بعد أن أحرقها! وأي نهاية لبشر افظع من هذه النهاية! بل أي نهاية لدولة ابلغ في الدلالة علىٰ غضب السماء!

فما كان حرق الكعبة ولا قتل الصحابة وذبح الآلاف إلا تتابعا للأحداث التي بدأ بها السنوات الثلاث، وختاما طبيعيا للبداية الفظيعة لحكمه، وجزاء له ولدولته. ينزله بها وبنفسه.

لقد استفتح حكمه بمذبحة كربلاء في يوم عاشوراء! في العاشر من المحرم سنة ٦١. فوقع فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت، مثله أو قريبا منه، من استشهاد أبي الشهداء: الحسين بن علي الذي دعا له النبي «اللهم إني أحبه. فأحب من يحبه»، والذي عظمه الخلفاء الراشدون والناس جميعا علىٰ مدار العصور. وهو القدوة في عطائه وعبادته وتواضعه وشجاعته في كل موقف: في «الجمل» و «صفين» و«النهروان» إلىٰ جوار أميرالمؤمنين علي وفي فتح أفريقية. وخراسان. وجرجان. والقسطنطينية. متصدرا جيوش المسلمين.

كان بقية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم). وكانت آمال الأمة فيه آمالها في بقية الرسول.

وكان أبعد الناس عن أن يستخلف علىٰ المسلمين يزيد.. يزيد الصقور، و يزيد

الخمور، كما لقبه معاصروه. فلم يكن أحد ليأمل شيئا من عهد يزيد، إلا دنيا يصيبها أو أموالا يجمعها. ولذلك رفض الحسين أن يبايعه.

ودعا أهل الكوفة الحسين إليهم فبعث اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل. وخرج في أثره. فقتل عبيد الله بن زياد والي الكوفة مسلماً. وتخاذل أهل الكوفة عن نصرة الحسين. فمضي حتى بلغ (كربلاء) علىٰ مبعدة خمسة وعشرين ميلا من الكوفة وفي ركبه ثمانية عشر رجلا من أهل بيته وستون من شيعته.

هنالك لقيهم جيش عبيد الله بن زياد، علىٰ رأسه عمر بن سعد بن ابي وقاص، فأعلن لهم الحسين أنه لايريد الحرب، وخيرهم بين العودة الىٰ الحجاز أو اللحاق ببعض الثغور. ورفض ابن زياد إلا أن ينزل فيه ما صنعاه بأهل المدينة، بعد عامين، من استرقاق الرجال والنساء.

وحاول ابن بنت رسول الله أن يسير بأهله في أرض الله الواسعة، فسدت الجيوش أمامه كل الطرق، وانقضت عليه سهام الآلاف وسيوفهم، وهو يحارب كالأسد. وتسيل جراحات جسمه وهو في السابعة والخمسين حتىٰ استشهد[١] واستشهد رجال أهل البيت جميعا والرجال الستون الذين يتألف منهم ركبه، إلا غلاما مريضا عاجزا عن الحركة هو ابنه زين العابدين (علي بن الحسين) وساق المجرمون الحريم. وجهز عبيد الله بن زياد، زينب بنت علي[٢] وهذا الابن الوحيد الباقي من ذرية النبي، ومن معهما

---

(١) كان المحرض علىٰ قتل الحسين وأهل البيت شمر بن ذي الجوشن رقيب ابن زياد علىٰ قائد الجيش. وهو القائل

أوقر ركابي فضة وذهبا ... فقد قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسباً

(٢) اشتركت السيدة زينب أخت الحسين من ابيه وأمه معه في المعركة. وكان أثرها في مصير أهل البيت عظيا. كانت زوجا لابن عمها عبدالله بن جعفر وكان قد أذن لها في الخروج مع الحسين فكانت تمرض المصابين في الصفوف أثناء القتال. ولقد همّ شمر بن ذي الجوشن بقتل زين العابدين، فاحتضنته لتقتل معه، فانصرف المجرم مذموما مدحورا. ولما انتهت المعركة اقتيدت بين الأسرى إلىٰ ابن زياد في الكوفة وإلىٰ يزيد في دمشق ومعها زين =

من الحريم مع الرأس التي طالما مسح عليها وقبل فاها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، إلىٰ يزيد بن معاوية في دمشق. وأعاد يزيد الوفد إلىٰ المدينة.

إن في إنسانية البشر قابلية للفساد كهيئة قابلية المواد للهبوط إلىٰ الأرض بقانون الجاذبية. والإسلام لذلك يرفع الناس إلىٰ أعلى، إذ يدفع الأنفس إلىٰ ماهو أقوم، بالعبادة اليومية علىٰ مدار الليل والنهار، وتطهير النفس علىٰ مدار العمر.

ومن الفساد ما يستغلظ فيحوج إصلاحه إلىٰ آية من السماء مثل كسوف الشمس وخسوف القمر. وفي استشهاد أبي الشهداء آية من الآيات.

كانت كربلاء قارعة رجّت الأرض رجّاً يعيد الإسلام غضاً في الأنفس، بما كان فيها من التصميم والإجماع علىٰ الاستشهاد في سبيله.

لقد انقضىٰ بين يوم وفاة النبي وبين كربلاء خمسون عاما، كانت كافية لتدهور إحساس بعض الرجال في أجيال، تدهورا يدفعهم لقتل ابن نبيهم! وهم يصلون عليه! وعلى آله الذين يقتلونهم!

ولقد كرروا يوم «الحرة» ما فعلوه منذ عامين في كربلاء، كما صنعوه مرة ثالثة إذ قصفوا الكعبة بالمنجنيق من اعلى جبل أبي قبيس. فالجريمة الأولىٰ تدفع إلىٰ الثانية، فالثالثة وغيرها. والجرائم يصنعها المجرمون، وتصنع المجرمين.

= العابدين تكلؤه بعناية الله على يديها لينجب، فيتسلسل منه أئمة أهل البيت الاثنا عشر، بل كل نسل الحسين من الرجال. وكانت مثال الشجاعة والبلاغة العلويتين في وجه ابن زياد ويزيد.

ولما أعيد الأسرىٰ إلىٰ المدينة أمر يزيد بإبعادها إلىٰ مصر فسارت إليها، فاستقبلها أهل مصر في بلدة بلبيس علىٰ مبعدة عشرات الأميال من الفسطاط، وعلىٰ رأس مستقبليها أمير مصر «مسلمة بن مخلد» فعاشت في مصر عاما. ثم ماتت سنة ٦٢. وقبرها في الحي المعروف باسمها وهو من أقدم أحياء القاهرة. وعلىٰ مقربة منها حي السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن. جاءت إلىٰ مصر مع زوجها في المائة الثانية للهجرة ولقيها الامام الشافعي ولما مات حملت جنازته إليها فصلت عليها وقالت (رحم الله الشافعي) ويحمل اسم السيدة نفيسة حي معروف بالقاهرة، كما يحمل اسم «الحسين» المسجد الأشهر بالقاهرة والحي الذي يجد عاصمة مصر وتتعالىٰ فيه معاهد الجامع الأزهر وغيره من آثار الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ودولتي المماليك.

باعوا أنفسهم للشيطان لقاء متاع قليل، لا يلبث أن يزول.

قالوا: كان الحسين يستطيع بالمداورة أو المناورة أن يكسب الزمن، أو يستطيع بالاستسلام أن يكسب الحياة، لكنه الذي قال فيه وفي أمه وأبيه وجده، إقبال[١]:

هي بنت من! هي زوج من! هي أم من! ‏ ‏ ‏ من ذا يداني في الفخار أباها!

ومن قبله رفض أبوه رأي المغيرة بن شعبة أن يكسب الزمن بترك معاوية على الشام حتى يبايع. فلم يقبل علي أن يناور على حساب المبادئ.

وناور المغيرة فصار عاملا لمعاوية!

الحق أن الحسين قدم للمسلمين الذين تعاقبوا في آثاره على مدار الزمان حجة بالغة من أهل بيت الرسول، إذ ينفردون في التاريخ بهذه الخصيصة التي لم يماثلهم، أو يقاربهم، فيها أهل بيت آخر في تاريخ الإنسانية: الاستشهاد في سبيل هداية البشر لما هو أقوم. وهي بعض خصائص الرسل.

منح الاستشهاد اسما لكربلاء وخلد الأسماء التي تساقط أصحابها كالكواكب المنتثرة من السماء فوق رمال الصحراء، لا لتنطفئ، ولكن لتقدم للبشر دروساً في الدفاع عن الحق. من فئة قليلة، واثقة في الحق سبحانه، لا تهمها أرواحها، وإنما يهمها العمل الصالح في ذاته. ولا تنظر إلى الساعة التي هي فيها، وإنما تمد ابصارها إلى مستبقل الإنسانية كله، لترتفع بالدنيا إلى مستوى أفكار الأئمة.

ولقد صدق الحسين المسلمين في كل موقف وقفه. وكان عند وصية أبيه له ولأخيه الحسن وهو يجود بأنفاسه الأخيرة (أوصيكما بتقوى الله. ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما) فلم يبتغ الدنيا واشترى بها الآخرة.. فأمسى يقول «إني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

وشملت السماء ابن النبي في كربلاء بمزيد من التأييد بمعان جليلة من جلال الإسلام، تختار منها هنا واقعة منه وواقعة من عدوه: في الأولى أخذ إخذ أبيه فسقى

---

(١) الشاعر محمد إقبال شاعر الهند وباكستان.

جيش العدو من العين التي نزل عندها ولم يحرم الماء قاتليه[١]. وفي الأخرىٰ ترك قائدان من قادة جيش ابن زياد، في وطيس المعركة، إلىٰ الجماعة العزلاء حول الحسين، ليستشهدوا في الدفاع عن سيد الشهداء بين رجاله الذين ماتوا عن آخرهم، وهم يدركون أنهم يخوضون معركة خاسرة بكل المقاييس التي يتقايس بها المتحاربون، مظفرة بمقاييس المؤمنين.

ولو عاش هؤلاء الشهداء العظماء، سنوات أو أشهراً أخرىٰ، لماتوا كما يموت الآخرون. لكنهم ماتوا شهداء «كربلاء»، ليحيوا في ضمير الزمان كله امثلة للحق، وعناوين علىٰ عظمة الإسلام.



كانت كربلاء رسالة من ابن النبي للمسلمين: هي الأولىٰ من نوعها بما تحتويه من دروس لا تحصى، فحسبنا أن نشير إلىٰ البعض منها، وفي الدرس الواحد جماع دروس:

وأول الدروس يتعلق بالحق ذاته، وفي الحق أعظم الدروس: أن لا يقر أحد الباطل. وأن يقدم في سبيل ذلك نفسه، وأن يكون قدوة، وألا يهاب المكثورون كثرة الظلمة. فالأمم تبقى بالمقاومة ولا تصيبها الهزيمة إن خسرت معركة، ما دامت فيها إرادة النصر، يسعى إيمانها بين يديها لتبلغ غرضها كله، إن لم يكن من فورها، فمرحلة بعد مرحلة.

وأول من تعلم علىٰ الحسين بن علي درس سنة ٦١ كان عبدالله بن الزبير في مقاومته بمكة بعد أعوام عشرة، وهو مكثور بجند عبد الملك بن مروان بعد إذ حرقوا الكعبة، كما حرقها جند يزيد بن معاوية.

---

(١) وتعلم عليها صلاح الدين في حربه مع الصليبين يوم أرسل طبيبه إلىٰ الملك رتشارد قلب الأسد قائد الصليبين.

وأين من قواعد الحرب الإسلامية قواعدها عند الأوروبيين. إن ابقراط أبا الطب اليوناني الذي ورثت اوربا قسمه الشهير يقسمه كل طبيب قبل اداء واجبه بالنزاهة والأمانة ، عدم التعصب ـ لكن أبقراط علم الأوربيين درسا آخر حين رفض أن يعالج مرضىٰ الطاعون في الجيش الفارسي قائلا إن شرفه يمنعه من معالجة عدو لبلاده!

وتعلم عمر بن عبد العزيز وعلم المسلمين ـ في مدة خلافته ـ أن الكلام أو الصياح، ليس الأداة المثلىٰ للإصلاح، وإنما المواقف هي التي تهزّ وجدان الشعوب. فكان له أعظم المواقف إذ بدأ بنفسه وأهله فضحىٰ. فكانت فيه الأسوة الحسنة. وكلل الله سعيه في أقصر مدة: ثلاثين شهرا كانت كافية لإصلاح دولة أدماها نحو قرن من الفساد، ولإسعاد أمة تنتظر القدوة من حكامها فلا تجدها.

والدرس الثاني: يتعلق بجزاء السماء ومصير الطغاة وطرائقهم: إنهم يحسبون الدنيا تدوم ولا تدور، ولا يدركون أن (الدهر بالإنسان دوّار). كما يقول الشاعر العربي. تركبهم شياطين الشهوة فيخالون أنهم يمسكون كرة الأرض في قبضتهم. يصطنعون اسباب الوثوب علىٰ أعدائهم من حين لآخر، ويتحينون الفرص المواتية، ويختلقون الأعذار الزائفة، ليقطعوا دابر العدو. وكلما جد جيل جدت لهم الأعذار ولم تغنهم النذر.. فالذي حاوله فريق معاوية مع علي في صفين ولم يظفر به ـ من إفناء شيعة علي أو من الإطاحة بخصومه بالسم من الوجود ـ قد أتاحته ليزيد فرصة في كربلاء.

وللطغيان طبيعة ومنهج. ومن طبيعته أن يعمي ويصم. فلا ينظر ولا يسمع إلا ذاته وأصواته. وأما المنهج فهو الغيلة. مرة واحدة إن أمكنه، وإلا فوثبة. ولكل واحدة ما بعدها.

والذي اقترفه يزيد ليس مجرد سقطة وإنما كانت أم السقطات. فمن بعد كربلاء كانت وقعة الحرة، ثم كان حريق الكعبة.. في سنوات ثلاث متعاقبة. فحق عليه جزاء السماء فأوردته حتفه.. والسماء تملي للظالم، حتى إذا أخذته لم تفلته.

والدرس الثالث: يتعلق بأهل البيت أنفسهم.

١ ـ فهم العترة الطاهرة. يدخلون الجنة مع جدهم، بعملهم، فلا يعملون إلا العمل الأصلح. والذي صنعوه في كربلاء هو الذي كان يصنعه جدهم. والذي صنعه أصحابهم معهم هو الذي كان يصنعه الصحابة ـ وأعظم به وبهم صنيعا وصناعا. فما هو إلا صفحات جديدة يضيفونها إلىٰ السيرة العطرة.

٢ ـ وهم مثل جميع المسلمين، إن لم يكن قبل جميع المسلمين، مطالبون بالجهاد

والتضحية وليس فضلهم ليسقط التكليف عنهم، كما يزعم بعض المتصوفة عن رجال من المتصوفين.

وهذا درس للمتواكلين الذين لا يقبل الإسلام تواكلهم.

٣ ـ وهم يبلغون الذروة فيما يعملون: إذا حاربوا ماتوا شهداء، ولم يعطوا الدنية أو يستسلموا؛ لأن للمسلمين فيهم، كما كان لهم في جدهم، الأسوة الحسنة. وفي بيتهم سمقت المبادئ الكبرىٰ. فمنهم يطلب الشهادة. ومِن هذا كان صغارهم ـ كالكبار منهم ـ أبطالا يستشهدون ولا يتراجعون.

لقد أذن الحسين لصحبه في أن يفرّوا تحت جنح الليل ويدَعوه وحيداً يواجه مصيره، فلم يقبل ذلك واحد منهم، ولم يرجف المرجفون من خصومهم، حتى اليوم، بأن واحدا منهم قد تردد. بل قال له ابنه علي الأكبر وهو في طريقه الىٰ الكوفة «ألسنا علىٰ الحق» قال «بلى والذي إليه مرجع العباد».

قال الفتىٰ «فإذن لا نبالي».

والدرس الرابع: يدور حول وحدة العمل الصالح. وفيه يجتمع الحق والحقيقة في المبدأ والمنتهى وما بينهما. فإذا كانت الحقيقة أن أبناء الرسول رجال سلم وعلم وقيادة، فهم لا يدارءون وراء هذه الحقيقة، فيقعدون عن الجهاد ـ جنودا ـ للحق، أو يكتفون دونه بالعلم إذا دعا الداعي إلىٰ الجهاد، أو يوصون بالسلم حيث الحرب واجبة لإعلاء كلمة اللّٰه، بل يستمسكون بالحق ويضعون الحقيقة كلها في خدمته.

والحق والحقيقة والعمل الصالح كل لا ينقسم. والأهداف العظيمة لا يبلغها الناس إلا باعمال عظيمة ووسائل سليمة.

والدرس الخامس درس في الواجب وأدائه في كل الظروف. وإن وهم المطالب به أنه غير مجد عليه أو على غيره، فهو لم يصبح واجبا إلا لأن التكليف به يحقق المصلحة العامة أو الخاصة، إن حالة وإن مؤجلة، منظورة أو غير منظورة. وهو قد اصبح واجبا لأنه فضيلة وإذا لم يكن مجديا في لحظة، أو لرجل، ففي القيام به خير للناس، وللدنيا، في الظرف ذاته أو في ظروف أخرى.

والظروف غير المواتية لا تجعل الفضائل غير مواتية. فالفضائل مواتية أبدا، مطلوبة دائما.

وإذا كانت القدرة شرط التكليف والرخص متروكاً تقديرها للرجال، فبالمعاناة او التضحية ينسلخ الأقوياء من حالة الضعف ويخلع الناس على العظماء وصف العظمة.

وما المعاناة والتضحية إلا محاولات للثبات في وجه الخطر، أو لاقتحامه، فهي درجات فضل وأدوات تقدم في معترك الوجود الإنساني، تضيف إلى تياره المتدفق أسباب طهر ونقاء، وأساليب بقاء، منظورة للكثيرين، وإن عمي عنها آخرون.

والدرس السادس: يتعلق بوظيفة التاريخ. فهو يصحح العوج ويصوب الانحراف، بالاستقامة على الجادة، خضوعا للعدل. وهو قانون السماء.

إن الغلام المريض الذي بقي في خيمة ابيه يوم كربلاء (زين العابدين) سيحيا ثلاثة وثلاثين عاما حتى عام ٩٤، لتتسلسل منه ذرية ترفع أعلام الإسلام عالية في ضمائر البشر. في حين أن الطاغية الذي يرسل كتل النار والدمار على البيت العتيق بالحجاز وعلى أهل البيت، في صحراء العراق، سيزول ملكه ـ وينقطع دابره ـ بعد ثلاثة سنين بتنازل ابنه عن ذلك الملك، ليزول اسم معاوية بن أبي سفيان، ويزيد بن معاوية من سجل الحوادث، وتخلد آثار أهل البيت ما تعاقب الجديدان، آية من السماء على أن دول القتلة لن تدوم، وأن هيمنة القتلى ستظل أبدا. وأن دولة الظلم لا تبقى بمقاييس الزمن إلا ساعة ـ أما دولة العدل فتبقى إلى قيام الساعة. وأنه تعالى صادق الوعد:

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين».

وما أكثر ما كانت الغلبة ببقاء أسباب الانتصار، يتحقق بها النصر في مكان آخر أو زمان آخر، بقوم يحبهم الله فينصرهم مهما كان عددهم، ويحبونه فيجودون بأرواحهم.

والدرس السابع: درس في مبلغ ما تنجح الاستقامة ويفلح الإخلاص: فإذا كان أقرب الخطوط إلى الهدف هو الخط المستقيم وإن كان ترسمه أشد رهقا، فإن استشهاد أبي الشهداء كان الأساس السليم لقيام الصرح العظيم الذي جمع بين عمله وبين اسمه

فصيرهما مبدأيحدث أثره في عمارة الدنيا وإصلاح الجماعة، في شكل قيام دولة، أو غلبة مذهب، أو وجود قدوة، أو ازدهار أمل، في بعث منتظر.

بهذا دارت الأفكار الدينية والمذاهب الفقهية للشيعة، سواء الإمامي منها، أو الاسماعيلي، أو الزيدي، في آفاق الحسين العالية، وبلغت أوجها في الفقه العملي القدير على التطور وفق حاجات البشر، في العبادات والمعاملات والأخلاق والنهج العلمي.

واستمسك المسلمون عموما والشيعة خصوصا، بالحسين وآله وأبنائه، واقتدوا ببطولاتهم، ومقولاتهم، فاستخرجوا منها أصولا زخارة، وبنوا عليها فروعا في الدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع، لتقيم نظما سياسية وعلمية وفكرية واقتصادية متكاملة، هي كالنهر العظيم يجري إلى جوار النهر الذي يسبح في تياره أهل السنة.

والنهران يتجاريان، كأنهما البحران يلتقيان، على أصول الإسلام، ويعملان ـ كل على شاكلته ـ في تدعيم مبادئه.



وفي استشهاد علي بطعنة خارجي ركبته الشياطين، وفي ظلم معاوية وقومه له، حيا وميتا، وفي استشهاد الحسين وبنيه، وبني أخيه، ومن كانوا معه من الشهداء الذين ذكرناهم، والذين سنذكر البعض منهم، على ايدي الكثيرين ممن سنرى فظائعهم بعد، نمت وترعرعت عقيدة أهل الإسلام.

١ ـ أن عليا قبل التضحية دائما، في جوار النبي، وبعده، هو وبنوه. وأنهم ضربوا الأمثال من أنفسهم، لا بمجرد النصيحة أو الفصاحة أو السياسة، ولكن بالدم الذي يتكلم، فتكون له بلاغة الشهادة بين يدي الله سبحانه. فأصبحوا عنوانا على العدل المفقود، والأمل المنتظر، وبابا للرجاء في عدل السماء، لتتدارك المسلمين برحمتها ومغفرتها.

٢ ـ أن المسلمين يضيفون إلى حساب الحسين، من حساب بني أمية وعمالهم وسفاحيهم، إذ أرادوا السلطة والمال وشفاء صدور قوم مبطلين. فقطعوا صلتهم بالله

يوم قطعوا رأس ابن بنت رسول الله.

وفي حين يتراءى قتلة أميرالمؤمنين علي «خوارج» ـ كما تضافرت الأمة على وصفهم ـ أو «بغاة» ـ كما سماهم أميرالمؤمنين نفسه ـ يتدلى قتلة الحسين إلى أدنى درك في جهنم، سفاحين أجراء. وتتعالى بطولات الحسين قدر ما تتعمق الحسرة من أجل استشهاده. فتبرز في إجماع المسلمين عليه بطلا، وفي الفكر الشيعي، حيث يضاف جهاده إلى الوصية له بالإمامة.

فهذا يوم للحسين وحده. ناله بحقه. وفيه سند لإمامة الأئمة من أبنائه: علي زين العابدين. فمحمد الباقر. فجعفر الصادق. فالباقين من الأئمة.

ظلت شجرة العدل، والعلم، والأمل، تسقى بدماء الشهداء كلما رأت السماء مصلحة للأمة. فلم تلبث الكوفة بعد نحو عام واحد من وقعة الحرة أو ثلاثة أعوام من يوم كربلاء أن هز ضميرها تقصيرها. فقامت من الفور حركة التوابين سنة ٦٤[1] بين أهل الكوفة الندامى على ما فرط منهم من تقصير. ولم تنته حالة الندم بمصرع سليمان بن صرد زعيم التوابين، بل توالت الثورات على دولة بني امية، بقيام المختار الثقفي ثم عبدالله بن الزبير، وتحرك الخوارج، وقيام الفتن، ومنها فتنة ابن الأشعث وقد انضم إليها العلماء. وثورة زيد بن علي زين العابدين، وخذلان أهل الكوفة له سنة ١٢١ هـ. كما خذلوا جده سنة ٦١ هـ. فاستشهد زيد ومثل برأسه[2] الخليفة هشام بن عبد الملك، ثم استشهد ابنه يحيى سنة ١٢٥.



وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين شجرة باسقة تترعرع في كل

---

(١) قادها سليمان بن صرد الخزاعي احد صحابة الرسول (ﷺ).

(٢) لم تمض أعوام حتى انهارت الدولة الأموية، ونبش العباسيون قبور معاوية وابنه يزيد وعبد الملك بن مروان فلم يجدوا فيها ما يصنعون فيه مثلة. أما قبر هشام فوجدوا فيه جثة هشام لم تبل بعد، فصنعوا فيها أكثر مما صنع برأس زيد. إذ أمر السفاح بضربها بالسياط وصلبها وحرقها وتذريتها في الهواء.

ورقة من أوراقها خصيصة من خصائص أهل البيت في عصر جديد للعلم. تعاونت فيه أجيال ثلاثة متتابعة منه ومن أبيه وجده.

ولما استمسك بإمامته وانصرف الى نهجه التعليمي، أمن جانبه طلاب السلطة، واتخذوا من زهده فيها شهادة لهم ضد من ينازعونهم.

لكنه كان الغرض الذي تنجذب إليه الأنظار: فهو يمثل العقيدة الدينية التي يقاس بفضائلها عمل الحكام في الإسلام، وما يتبعه من رضى العامة عنهم، أو سخطها عليهم.

وهو ـ بوجه خاص ـ حجر الزاوية من صرح «أهل البيت» ترنو إليه أبصار الذين يدعون الخلافة بدعوى أنهم من «أهل البيت».

وهو مقيم في المدينة، العاصمة الأولى، والدائمة، للإسلام، يتحلق فيها المتفقهة، حول علماء الإسلام في مسجد الرسول، يحملون بأيديهم مصابيح السنة، أو يعلنون شرعية الحكومة أو عدمها، وحسن السيرة أو فسادها، وإقرار أهل العلم أو إنكارهم. وهي أمور أساسية، تحرص عليها الدولة العادلة، وتتجنب الاتهام بمخالفتها أي دولة.

وإذا كانت دمشق قد أدارت ظهرها لمدينة الرسول، أو كانت بغداد قد فتحت أبوابها على العالم، وأوصدتها دون أهل المدينة، فالمسلمون يأتون إلى مدينة الرسول كل عام، رجالاً وعلى كل ضامر، إذ يحجون إلى البيت العتيق بمكة، ويزورون قبر الرسول ويشهدون آثاره في المدينة.

وإذا كان الخليفة المنصور يقول عن نفسه: «إنما أنا سلطان اللّه في الأرض» فهو يحس وطأة «سلطان الدين والعلم» في المدينة، حيث إمام المسلمين غير منازع «جعفر بن محمد» الذي يصفه الناس ـ وأبو جعفر المنصور في طليعتهم ـ «بالصادق».

ومن أوصافه كذلك: «الطاهر» و «الفاضل» و «الصابر».

الباب الثاني

بَين السلطان والإمام

«السلطان كراكب الأسد»

«يهابه الناس، وهو لمركوبه أهيب»

أفلاطون

آلت الخلافة إلىٰ بني العباس سنة ١٣٢ وكان «السفاح» أوّل خلفائهم. ثم مات فخلفه أبو جعفر المنصور، ليبقى في الخلافة اثنين وعشرين عاما (١٣٦ ـ ١٥٨)، وطد فيها أركان الدولة العباسية، وأخضع الخارجين عليها في كل أرجاء «الإمبراطورية». فهي لم تعد دولة دينية كما دعوا لها منذ بثّوا دعاتهم من فاتحة القرن. ولم تصر «للرضا من آل محمد» كما كانوا يدعون، بل غصبوا حق أبناء علي، كما كان بنو علي عند قيامها عاجزين عن تولي السلطة، وكان أحقهم بها ـ وهو جعفر بن محمد ـ عازفا عنها، عارفا أن مهمته الأولىٰ هي تعليم المسلمين.

وجرت الأمور مجراها الطبيعي للحاكمين الجدد، يطوون أضالعهم علىٰ الخوف والحقد والحذر، ويشرعون أسلحتهم في كل مكان للدفاع عن دولتهم. وكان ذوو القربىٰ في طليعة الأعداء. فاستعرت الشحناء بين الأقرباء، ثم سالت الدماء. وجعفر الصادق، بعزوفه واستعلائه، بعيد عن المذابح. لكن بعده عنها، لا يقيه بطش خليفة حذر، متنمّر، تدعوه إلىٰ المواجهة الشرسة ماتوسوس له هواجسه مخافة أهل البيت وشيعتهم. وكان توفيق السماء حليف الإمام في مواجهاته، وإن بقيت الدولة علىٰ حذرها، تُنزل بأهل البيت ألوان العذاب والارهاب والحبس والقتل لابادتهم.

الفصل الثالث

أهل البيت

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجل أهل البيت ويطهركم تطهيرا».

(الأحزاب / ٣٣)

اختلف أهل التأويل في صدد «أهل البيت»، وهم يفسرون قوله تعالىٰ في سورة الأحزاب «يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالَين أمتّعكنَّ وأسرِّحكنَّ سراحاً جميلا. وإن كنتُنَّ تُرِدْنَ اللّٰه ورسوله والدار الآخرة فإن اللّٰه أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيما» ثم يوجه الخطاب في الآيات ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤ - وفي الأخيرتين يقول - لنساء النبي - «وقرن في بيوتكن ولا تبرّجن تبرّج الجاهلية الأولىٰ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن اللّٰه ورسوله إنما يريد اللّٰه ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات اللّٰه والحكمة إن اللّٰه كان لطيفا خبيرا».

وإذ كان التطهير هو الدرجة العليا للبشر، والاختصاص به بين المسلمين يجعل لأهل البيت حقوقا وامتيازات تؤهل لإمامة الدين، وإمامة الدنيا، أي خلافة الدين والدنيا، وكان ثمة سنن مروية في تفضيل علي وبنيه وجعلهم من الأمة مجعل الأوصياء أو الأئمة - وهذا شأن لا يسلّمه بنو أمية، ولا بنو العباس، ولا كثير من قريش - فقد ذهب الفقهاء عموما، والمفسرون خصوصا، مذاهب شتى في تعريف أهل البيت، يمكن تحصيلها فيما يلي:

١ - قال الشيعة: إن أهل البيت هم رسول اللّٰه (ﷺ) وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. يؤيدهم في ذلك حديث أم سلمة أم المؤمنين أن النبي أجلس الأربعة حوله علىٰ كساء له وضعه فوق رؤوسهم وأومأ بيده اليمنىٰ إلىٰ ربّه ثم قال «اللّهم هؤلاء أهل البيت. فاذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيرا».

وعن أم سلمة أن الآية نزلت والرسول (ﷺ) في بيتها وإنها عندئذ كانت علىٰ

باب البيت فقالت: أنا يا رسول الله من أهل البيت؟ وأنه قال «وإنك إلىٰ خير وأنت من أزواج النبي» وعنها أنها قالت: يا رسول الله أدخلني معهم. وأنه قال «إنك من أهلي».

٢ ـ وقال البعض: بل عنى الله بذلك أزواج النبي. والحجة في ذلك توجيه الخطاب إليهن. ونقلوا ذلك عن ابن عباس ـ تلميذ علي، وشيعته، وعامله ـ وذهبوا إلىٰ أن «البيت» أريد به مساكن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٣ ـ وقال فريق: بل إن (أهل النبي) هم أهل بيته. ولو كان أهل البيت هم زوجاته فقط لكان النص (ليذهب عنكن الرجس) لا (عنكم) كما هو النص في الآية. فدخل في ذلك رجال. وأهل النبي ـ بدلالة السنن التي أشرنا إلىٰ بعضها ـ هم فاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام؛ ويؤيد ذلك قول الآية (ويطهركم). وهذا يوافق الرأي الأوّل.

٤ ـ وإذا دخل الرجال فهم ـ كما قال فريق آخر ـ بنو هاشم. والبيت يراد به بيت النسب. فيدخل في ذلك أعمام النبي، وفيهم بنو العباس وبنو أبي طالب.

٥ ـ ويتوسع محيي الدين بن عربي (٥٦٠) ـ في الفتوحات المكية ـ فيدخل «سلمان الفارسي» في أهل البيت. إذ الرسول يقول «سلمان منا أهل البيت» ويضيف ابن عربي أن جميع ما يصدر عن أهل البيت (عليهم السلام) معفو عنهم فيه، فهم مطهرون بالنص، معصومون، وإن توجهت عليهم الأحكام الشرعية.

ويذكر البعض قول الرسول «سألت ربي أن لا يدخل النار أحدا من أهل بيتي فأعطاني ذلك» وقوله: يا فاطمة أتدرين لم سميتِ فاطمة؟ فقال علي: لم سميت؟ قال عليه الصلاة والسلام «إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة».

٦ ـ وفريق يرى أن أبناء علي من الزهراء هم الذرية المقصودة في سورة الطور حيث قوله ـ جل ثناؤه «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء» ورووا عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن إليه في درجته».

وبهذا ترتفع ذرية النبي ـ وهي ذرية علي من الزهراء ـ فتلتحق بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم). وهذا المعني تفيده الآية ٢٣ من سورة الرعد «جنات عدن يدخلونها ومن صلح من

آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» فأهل البيت ذرية داخلة الجنة مع جدها عليه الصلاة والسلام.

٧ ـ وهذا فريق يوسع فيشمل ذوي القربىٰ، وتشمل آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، بقوله تعالىٰ في سورة الشورىٰ: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربىٰ».

وقال قوم إن للنبي قرابة في كل بطن من بطون قريش، وإن كان أخص القرابة هم الذرية.



وظاهر هذه الافراق على ان ذرية علي من فاطمة من اهل البيت، وان الخلاف فيما عدا ذلك، والحقيقة إن الذرية وحدها وعليا وفاطمة هم أهل البيت، بدلالات شتى من الحديث.. ثابت منها أن النبي طفق ستة أشهر ـ بعد نزول آية التطهير ـ يمر وقت صلاة الفجر علىٰ بيت فاطمة فينادي «الصلاة يا أهل البيت. إنما يريد اللّٰه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا». فهذا نص، وأنص منه حديث أم سلمة، إذ أفصح عنهم، واستبعد سواهم.

وفي بعض الروايات أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أدخل عليا وفاطمة وابنيهما تحت الكساء ثم جعل يقول «اللّهم إليك لا إلىٰ النار وأنا وأهل بيتي. اللّهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي ـ وفي رواية وحامتي ـ اللّهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا».

وسيظل وصف أهل البيت قضية بين بني العباس وبني علي؛ فهو من مسوغات الخلافة واستمرار الرضى عنها.

سأل الرشيد يوما الإمام موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق (عليه السلام): بم قلتم نحن ذرية رسول اللّٰه وأنتم بنو علي؟ قال: قال تعالىٰ: «ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسىٰ».

وليس لعيسىٰ أب، وإنما ألحق بذرية الأنبياء من قبل أمه. وكذلك ألحقنا بالنبي من أمنا فاطمة. وزيادة علىٰ ذلك قال عز وجل:

«فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة اللّه علىٰ الكاذبين» ولم يدع رسول‌الله() عند مباهلة النصارىٰ غير علي وفاطمة والحسن والحسين.

ولم يكن لوصف أهل البيت كبير خطر، في دنيا الملوك منْ بني أمية، فلقد قهروا أهل البيت جهارا نهارا، برماحهم، واستقرار الأمور لهم ـ لكن الدولة في عهد بني العباس قامت على شعار الدعوة «للرضا من آل محمد» دون تسمية أحد بذاته.

ولما أقبلت جيوش خراسان يقودها أبو مسلم الخراساني، بالدولة الجديدة، بعد ربع قرن من الإعداد السري، كان مقدمها وانتصارها استجابة لهذا الشعار.

* * *

كتب أبو مسلم الخراساني أيامئذ إلىٰ الإمام جعفر الصادق «إني قد أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن بني أمية إلىٰ موالاة (أهل البيت) فإن رغبت فلا مزيد عليك» وأجاب جعفر الصادق معلنا فلسفته «ما أنت من رجالي. ولا الزمان زماني»[1].

وفي الوقت ذاته بعث أبو سلمة الخلال ـ الملقب بوزير آل محمد، والذي سيصبح وزيرا للسفاح أول خلفاء بني العباس ـ إلىٰ جعفر الصادق (عليه السلام)، وعبداللّه بن.. «الحسن»، وعمرو الأشرف، من أبناء علي، مع رجل من موالي أبي سلمة قائلا له: إن أجاب جعفر فلا تذهب إلىٰ غيره، وإن لم يجب فاقصد إلىٰ عبداللّه، فإن أجاب فأبطل كتاب عمرو. وذهب الرسول إلىٰ جعفر فقال: مالي ولأبي سلمة، وهو شيعة لغيري. ووضع الكتاب في النار حتىٰ احترق ـ وأبىٰ أن يقرأه. قال الرسول: ألا تجيبه؟ قال: قد رأيت الجواب.

---

(١) خرج عبداللّه بن معاوية بن عبداللّه بن جعفر بن أبي طالب على بني مروان سنة ١٢٧ في الري بخراسان ثم استسلم لأبي مسلم بعد إذ ظفر الأخير بجيوش بني مروان. وكتب إليه يستعطفه بقوله «من الأسير بين يديه بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه. فان الناس من حوضك رواء ونحن منه ظماء رزقنا اللّه منك التحنن... فإنك أمين مستودع ورائد مصطنع. والسلام عليكم ورحمة اللّه» ولم يطلقه أبو مسلم، بل أورده حتفه. وقيل سمه.

ثم مضى الرسول إلىٰ عبدالله. فقرأ الكتاب. وقصد إلىٰ جعفر الصادق ينبئه بورود الكتاب إليه من شيعته بخراسان. قال الصادق له: ومتىٰ كان لك شيعة بخراسان؟ أأنت وجهت أبا مسلم إليهم؟ هل تعرف أحدا منهم باسمه؟ فكيف يكونون شيعتك وهم لا يعرفونك وأنت لا تعرفهم.

قال عبدالله: كأنَّ هذا الكلام منك لشيء؟

قال الصادق: قد علم اللّه أني أوجب النصح علىٰ نفسي لكل مسلم. فكيف ادخره عنك؟ فلا تمنَّ نفسك فإن الدولة ستتمّ لهؤلاء.

وذات يوم دخل علىٰ جعفر الصادق سدير الصيرفي قال: يا أبا عبدالله! ما يسعك القعود. قال لمَ؟ قال لكثرة أنصارك.. مائة ألف. مائتي ألف. فتساءل الإمام عن عدد المخلصين منهم. وأبدى زهدا وبصرا بالعواقب.

وإبراهيم الإمام يكتب إلىٰ واحد من دعاته في خراسان (.. وإن استطعت ألا تبقي في خراسان من يتكلم العربية فافعل) وهو تعطش للدم في سبيل السلطة، وسفك لدماء العرب خاصة، لا يقول به واحد من ائمة أهل البيت (عليهم السلام).



وكان بنو هاشم قد اجتمعوا قبل ذلك بالأبواء ـ شمال المدينة ـ والأوضاع تغلي في خراسان، والجو يزخر بالنذر، فعلىٰ الذين يرسلون الدعاة إلىٰ خراسان، والذين تجري الدعوة لهم، أن يتدارسوا أمورهم، ليعرفوا لمن تؤول الأمور. فمثل فرع العباس بن عبد المطلب عم النبي إبراهيم الإمام (ابن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس)، وأخوه أبو جعفر (المنصور). وعمهما صالح بن علي. ومثل فرع بني علي بن أبي طالب، عبدالله بن الحسين (بن الحسن بن علي) وابناه محمد وإبراهيم. ومحمد بن عبدالله بن.. عثمان بن عفان (لأن أمه من بني الحسن بن علي) وهو أخو عبدالله لأمه.

وأجمع الفرعان على «محمد بن عبدالله بن الحسن» الملقب بالنفس الزكية لورعه الكامل وعلمه المشهود به. بل قد تحمس له أبو جعفر، وكان يومئذ يلبس قباء

اصفر. ولما حجّ محمد لقي أبا جعفر فبايعه مرة أخرىٰ بالمسجد الحرام ذاته، وأمسك أبو جعفر بركابه يومذاك وراح يقول للناس: هذا مهديّنا أهل البيت.

وإذ لم يكن لبيت الحسين ممثل في اجتماع يوم الأبواء، بعثَ عبدالله بن الحسن إلى كبيرهم جعفر بن محمد فحضر واعترض علىٰ بيعة محمد بن عبدالله.

قال: لا تفعلوا. فإن هذا الأمر لم يأت بعد.

فغضب عبدالله وقال: لقد علمت خلاف ما تقول. ولكن يحملك علىٰ هذا الحسد لابني.

قال جعفر: والله ماذاك يحملني. ولكن هذا وأخوته وأبناؤهم دونكم.. إنها والله ما هي إليك ولكن لهم. وإن ابنيك لمقتولان. ثم نهض وتوكأ علىٰ يد عبدالعزيز بن عمران الزهري فقال: «أرأيت صاحب القباء الأصفر» ـ «أبا جعفر» ـ قال نعم: قال: فإنا والله نجده يقتله.

قال عبدالعزيز: أيقتل محمدا؟ قال: نعم.

قال عبدالعزيز ـ فيما بعد ـ فقلت في نفسي (حسده ورب الكعبة). ثم قال عبدالعزيز: ثم والله ما خرجت من الدنيا حتىٰ رأيته قتلهما (محمداً وأباه).

قال: فلما قال جعفر (عليه السلام) ذلك، انفض القوم فافترقوا ولم يجتمعوا بعدها. وتبعه أبو جعفر (المنصور) وعبد الصمد (من أعمام أبي جعفر) فقالا: يا أبا عبدالله أتقول هذا؟ قال: نعم. أقول والله وأعلمه..

قالوا: كان أبو جعفر يسميه الصادق لصدق نبوءته.

وقالوا: دعا محمد عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة لمبايعته فاعتلّ عليه وقال: لا أبايع أحدا حتى أختبر عدله.

ولقد ظل أبو جعفر المنصور يذكر هذا لعمرو.

وكان جعفر الصادق (عليه السلام) إذا رأى محمد بن عبدالله بعد ذلك اغرورقت عيناه وقال: بنفسي هو.. إن الناس ليقولون إنه المهدي. وإنه لمقتول. ليس في «كتاب علي» من خلفاء هذه الأمة..

بايع أبو سلمة الخلال للسفاح. ولم يبايع لأبي جعفر، الأخ الأكبر، لأن أمه كانت أم ولد بربرية تدعى سلامة. وبدأ حكم بني العباس في سنة ١٣٢.

وأذيع في الملأ أن محمد بن علي ـ أبا السفاح ـ موصى له بوصية من «أبي هاشم» عبدالله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب، إذ أحس عبدالله أثر السم الذي سقاه دسيس من الخليفة سليمان بن عبد الملك بن مروان (٩٨) فمال في الطريق إلىٰ حيث مات عند محمد «بالحميمة». وثمة من يعتقد أنَ الإمامة قد انتقلت بعد استشهاد الحسين إلىٰ أخيه محمد بن الحنفية (امه خولة بنت جعفر من بني حنيفة).

وهذه الوصية تغني بني العباس عن الخلاف مع أبناء علي، في أن يكون العباسيون من أهل البيت أو لا يكونون.

بهذا صير بنو العباس محمد بن علي بن عبدالله بن العباس إماما. فلما مات آلت الإمامة إلىٰ ابنه إبراهيم فنودي بأنه «ابراهيم الإمام». فلما قتل ابراهيم بايعوا للسفاح سنة ١٣٢.

بين ابناء علي وبني العباس

قضى «السفاح» علىٰ الأحياء من بني أمية وبني مروان، فاستحق في التاريخ لقبه. وأدار وجهه للآخرين. فسأل عبدالله بن الحسن عن ابنه محمد (النفس الزكية) وأخيه إبراهيم، فلما علم باختفائهما سكت عن الطلب حينا، ثم عاجله أجله. وولي أبو جعفر سنة ١٣٦، وألحّ في طلبهما، فأعجزاه هربا.

وللأقرباء، أو الأصدقاء، أولوية في سورة السلطة إذا عريت من خشية الله. وأولىٰ الناس بالفتكة البكر منها: الأقرباء إذا خيف أن يصيروا أعداء، والأصدقاء الذين يحتمل أن يقدروا علىٰ الإيذاء.. فالأولون يغري السلطان بهم الحسد أو الحقد أو الخوف من جانبه، لما يعرفون من دخائل يخشاها، أو لما يتضح لهم من عورات، أو فيهم من مطامع، أو استخفاف بالسلطان، الذي رأوه وهو سوقة، أو مطالبة السلطان لهم بإعطائه حقه، أو أكثر من حقه. والآخرون أحرى بالخوف والحذر، سداً لذريعة

الوثوب وانتهاز الفرص. أو شغلا لهم بأنفسهم، أو معالجة من السلطان لما يكابده من الشجن أو الفزع من جراء الحكم، أو من العجز أو الجشع أو ضيق الصدر أو الأفق. وكالسلطان أعوانه.

ولا يتوازن في سدة السلطة الا القليلون. وقل ما يتوازنون. وللإمام الصادق(عليه السلام) في ذلك مقولة دالّة «إذاكان لك صديق فولي ولاية فأصبته على العشر مما كان لك عليه قبل ولايته فليس بصديق سوء».

قيل لأبي جعفر «لقد هجمت بالعقوبة حتىٰ كأنك لم تسمع بالعفو»! فقال: (لأن بني مروان لم تبل رممهم بعد. ونحن بين قوم قد رأونا بالأمس سوقة ونحن اليوم خلفاء، فليس تتمهد هيبتنا في نفوسهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة).

وصاحب السلطة كراكب الأسد (علىٰ ماقال افلاطون) يهابه الناس وهو لمركوبه أهيب.

لهذا أخذ بنو العباس أبناء علي، أخذ ظلوم غشوم، وبطشوا، وغدروا بمن حذروهم من أنصارهم وذويهم، كعبد اللّه بن علي عم المنصور، وأبي مسلم الخراساني قائدهم، وأبي سلمة الخلال وزيرهم، بمثل ماغدروا باعدائهم بعد أن أمنوهم.

ولما أعطى أبو جعفر المنصور محمد بن عبداللّه أمانا كتب إليه محمد ساخرا (أي أماناتك هو؟ أأمان ابن هبيرة، أو أمان عمك عبد اللّه أو أمان أبي مسلم).. فقد أعطى أبو جعفر عهودا للكل، وقتل الأول والثالث ولم يكن قد قتل الثاني بعد. لكنه كان قد حبسه من سبع سنين ليقتله بعد أن يقتل محمد بن عبداللّه بن الحسن ذاته. فصير خلافته، كالمسبعة، لا يأمن فيها الصديق، والعدو، والصياد، والفريسة!

وزاد ضراوة أبي جعفر علىٰ أقربائه أن لواحد منهم في عنقه بيعة، علىٰ ملأ منهم. كانت حريّة أن تمنعهم وتمنعه، لولا ما للشهوة من خدر يطيح بالتوازن، فسولت له نفسه أن يتخلص من البيعة بالخلاص ممن بايعه، وان كان من قبل يمسك بركابه. بل طوعت له شهوته أن يتخلص ممن قد يشهد ضده حتى لايراه الناس أو يسمعوه

يحكي لهم ماقد رأى وقد سمع:

قال يعقوب بن عربي: (سمعت أبا جعفر يقول في ايام بني أمية ما في آل محمد أعلم بدين الله ولا أحق بولاية الأمر من محمد بن عبدالله.. وبايع له.. وكان يعرفني بصحبته، والخروج معه.. فلما قتل (محمد) حبسني عشرين سنة).

* * *

طلب أبو جعفر من عبدالله بن الحسن ابنيه محمدا وإبراهيم؛ فأنكر علمه بمكانهما، فجرت بينهما مشادّة، وأغلظ كلّ لصاحبه، وانصرف المنصور من المدينة، فبثّ الجواسيس يأتونه من كل مكان بأخبار بني الحسن.

وفي سنة ١٤٠ قصد أبو جعفر للحج فنزل بالمدينة، ودعا عبدالله بن الحسن وطالبه بولديه.

وكانا يأتيان أباهما معتمين في هيئة الأعراب فيستأذنانه في الخروج فيقول «لا تعجلا حتى تملكا. إن منعكما أن تعيشا كريمين فلا يمنعكما أن تموتا كريمين».

ولما لم ينل أبو جعفر منالا انصرف من المدينة وأمر بحبس عبدالله وأهل بيته، فبقوا في السجن ثلاث سنين في دار مروان ـ دار الإمارة في حكم بنى أمية ـ حتى إذا كانت سنة ١٤٤ ولى أبو جعفر المنصور رباح بن عثمان عاملا على المدينة.

وحج فى العام ذاته فتلقاه عامله بالربذة فردّه إلى المدينة لإشخاص عبدالله بن الحسن وأهل بيته ـ بما فيهم محمد بن عبدالله.. بن عثمان ـ شاهد البيعة يوم الأبواء ـ فكانوا خمسة عشر أخذوا فى محامل إلى الربذة. ونظر الإمام الصادق(عليه السلام) إليهم وعيناه تهملان حتى جرت دموعه على لحيته. واقتيدوا إلى الربذة في الاغلال، ومزقت السياط جسد (محمد بن عبد الله .. ابن عثمان) حتى إذا خرج أبو جعفر فى محمل، ناداه عبدالله بن الحسن قائلا: يا أبا جعفر! والله ماهكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر... فلوى أبو جعفر رأسه كبرا ولم يعرج.

وحمل أهل البيت تلقاء النجف. حتى إذا دخلوا الكوفة حبسوا فى قصر كان لابن هبيرة في شرقي الكوفة.. وهدم عليهم البيت بعد ستين يوما، فمات الذين لم يموتوا

فى أثنائها، ودفن الجميع تحت الأنقاض.. وشيخهم عبدالله فى الخامسة والسبعين!

واعلن محمد بن عبد الله الثورة لليلتين بقيتا من جمادى سنة ١٤٥ فاستولى على المدينة. وخرجت المدينة بأسرها مع محمد. فكان فى جيشه علماؤها الفحول. فيهم ابن هرمز شيخ مالك، وابن عجلان، وابن أبي سبرة، وعبد الله بن عمر العمري، ومصعب بن ثابت الزبيري. اما مالك فاكتفى في الحرب بفتياه أن بيعة المنصور كانت مكرهة، ومن أجلها أصابه ما أصابه[١] من والي أبي جعفر وابن عمه سنة ١٤٦.

وخرج مع محمد موسى وعبد الله ابناء الإمام جعفر الصادق (عليه السلام).

وقصد جعفر الصادق(عليه السلام) إلى محمد فى مجلس حربه قال: أتحب أن يصطلم أهل بيتك (يستأصل)؟. قال: ما أحب ذلك. قال: فإن رأيت أن تأذن لي، فإنك تعرف علتي. قال محمد: قد أذنت لك.

ومضى جعفر الصادق(عليه السلام)، فالتفت محمد إلى ابني جعفر وقال لهما: الحقا بأبيكما فقد أذنت لكما. والتفت الامام فقال: ارجعا فما كنت لأبخل بنفسي وبكما.

ووجه المنصور إلى المدينة جيشا بقيادة ابن عمه، وولي عهده، عيسى بن موسى. وفي غرة رمضان ثار إبراهيم أخو محمد واستولى على أكثر من مكان في إقليم البصرة ـ ثم استشهد محمد في ١٤ من رمضان سنة ١٤٥ هـ. واستشهد إبراهيم[٢] عند باخمرى[٣] لخمس بقين من ذي القعدة، وأرسل رأسه إلى أبي جعفر المنصور.

واستولى عيسى بن موسى على «عين أبي زياد»، وهي ضيعة لجعفر الصادق(عليه السلام) التي يقتات منها، ويشرك في ثمرها أهل المدينة.

---

(١) مالك بن أنس ـ عبد الحليم الجندي ـ طبعة دار المعارف ص ٢٣٨ حيث تفصيل الواقعة.

(٢) كان صاحب فقه وأدب. سأل عن صاحب له فقيل تركناه يريد أن يموت فضحك قوم، فقال: لقد ضحكتم منها عربية! قال عز وجل «فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه» يعنى يكاد أن ينقض. فوثب أبو عمرو بن العلاء فقبل رأسه وقال «لا نزال والله بخير مادام مثلك فينا» وأبو عمرو من أئمة اللغة الأولين.

(٣) فى ضواحي مدينة الحلّة العراقية.

وسنرى المنصور بعد عامين من انتصار عيسى بن موسى يخلعه من ولاية العهد، ويولي ابنه المهدي سنة ١٤٧. وكان قد حبس عمه عبد الله بن علي من سنة ١٣٨ في دار تهدم عليه فيموت سنة ١٤٧!

و عبد الله عمه وقائده المنتصر على آخر ملوك بنى أمية في معركة الزاب. لكنه تمرّد عليه، فأرسل إليه جيشا بقيادة أبي مسلم الخراساني، ولجأ عبد اللّه إلى أخويه سليمان وعيسى فأخذا له عهدا على المنصور كتبه «ابن المقفع» وفيه (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته) فأما «أبو مسلم» فسيدعوه أبو جعفر إلى قصره بعد أمان يعطيه إياه ثم يخرج عليه عبيده فيقتلونه أمامه.

وأما عبد الله بن المقفع فسيقتله والي أبي جعفر سنة ١٤٢. فيشفي صدر أبي جعفر.



روى الإمام الصادق ما كان بعد أن كان بعد أن هدأت الأحوال.. قال: (لما قتل إبراهيم بن عبد الله بباخمرى حسرنا عن المدينة ـ ولم يترك فينا محتلم حتى قدمنا الكوفة. فمكثنا فيها شهرا نتوقع القتل. ثم خرج إلينا الربيع الحاجب فقال: أين هؤلاء العلوية؟ أدخلوا على أمير المؤمنين رجلين منكم من ذوي الحجى. فدخلنا إليه أنا والحسن بن زيد، فلما دخلنا عليه قال: أأنت الذي تعلم الغيب؟.

قلت: لا يعلم الغيب إلا الله.

قال: أنت الذي يجبى إليه هذا الخراج؟

قلت: إليك يجبى ـ يا أمير المؤمنين ـ الخراج.

قال: أتدرون لم دعوتكم؟

قلت: لا.

قال: أردت أن أهدم رباعكم، وأروع قلوبكم، وأعقر نخلكم، وأترككم بالسراة.. لا يقربكم أحد من أهل الحجاز وأهل العراق. فإنهم لكم مفسدة.

قلت له: يا أمير المؤمنين إن سليمان أُعطي فشكر. وان أيوب ابتُلي فصبر. وان يوسف ظُلم فغفر. وأنت من ذلك النسل.

فتبسم وقال: أعد علي ما قلت. فأعدت، فقال: مثلك فليكن زعيم القوم. وقد عفوت عنكم ووهبت لكم جرم أهل البصرة. حدثني الحديث الذى حدثتني عن أبيك عن آبائه عن رسوله الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

قلت: حدثني أبي عن آبائه عن علي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «صلة الرحم تعمر الديار وتطيل الأعمار وإن كانوا كفارا».

قال: ليس هذا.

قلت: حدثني أبي.. عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

«الأرحام معلقة بالعرش تنادي: اللّهم صل من وصلني واقطع من قطعني».

قال: ليس هذا.

قلت: حدثني أبي، أن اللّه عز وجل يقول: «أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن وصلها وصلته ومن بتها بتته».

قال ليس هذا الحديث.

قلت: حدثني أبي.. «أن ملكا من الملوك كان بقي من عمره ثلاث سنين فوصل رحمه، فجعلها اللّه ثلاثين سنة».

قال: هذا الحديث أردت. أي البلاد أحبّ إليك؟ فواللّه لأصلن رحمي إليكم.

قلنا المدينة. فسرحنا إلى المدينة. وكفى اللّه مؤنته).

في هذا اللقاء دليل على ما يخشاه من بني علي، ومن الصادق (عليه السلام) بالذات. فما يخشاه من بني علي هو فتنة الناس إذ يجتمعون إليهم. أما ما ينعاه على الصادق وهو الوحيد الباقي ممن يمكن أن يجتمع بنو علي، والناس، حولهم ـ فلقد كان خليقا أن تطيب به نفسه لما فيه من مصلحة له.. وهو الادعاء على الصادق بأنه يعلم الغيب. فإنه لم يبايع لأحد يوم الأبواء. بل ذكر أنها (الخلافة) ستكون لصاحب القباء الأصفر وهو أبو جعفر.

لكن الصادق (عليه السلام) كان حاسما في ردّه عليه بأنه لا يعلم الغيب إلا اللّه.

وكان مما يخشاه أن يجبى إلى الصادق خراج بعض الرعية، مما يعطى للإمام، وكان الصادق في ذلك حاسما أيضاً، إذ أعلن أن الخراج لا يجبى إلا لأبي جعفر، لانه أمير المؤمنين. قال: إليك يجبى ـ يا أمير المؤمنين ـ الخراج. وجعل التسليم بإمارة المؤمنين يسبق كلمة الخراج، فهذه العبارة بيعة بتمامها. والخراج حق من بويع له.

وكان انتقال أبي جعفر من استجوابهم إلى إخبارهم بأسباب دعوتهم، نقلة من الغضب إلى غيره.. ومن الاستجواب إلى الوعيد، وإلى الاستعلاء.

لكن الصادق نقله من عالم الكبرياء المظلم، إلىٰ آيات اللّه التي تطمئن لها القلوب فجعله ـ دون أن يشعر ـ مقارنا في موقفه بمواقف الأنبياء لعله يهتدي بهم، وذكّره كلام ربه جل وعلا، وذكره الشكر والصبر والمغفرة، وذيّل ذلك كله بأنه من نسل الذين يغفرون ويشكرون ويصبرون.

بهذا أمكن الرجل الذي قدّ قلبه من الصخر أن يبتسم. بل أقبل يسأل أن يتعلم. فحدثه الإمام الأحاديث، واحدا بعد واحد، حتى وقف منها عند حديث طول العمر. فلقد كان يرجو أن يطول عمر دولته، التي يخسر من أجلها في كل يوم آخرته، فظن أنه بهذا الحديث يجد أمانا لنفسه أو تخفيفا لما تكابده. وعندئذ ظهر ضعف نفسه، وجلال شأن المعلم الذي يتعلم عليه.

ولم يكد الإمام يأخذ زمام الكلام حتى راح يعلمه درسا من الدروس في البداء؛ وهو: أن القضاء الذي يتوقف على الشرط يتحقق عند وقوع الشرط. فهذا ملك وصل رحمه فطالت عمره من ثلاث إلى ثلاثين، ـ وكان أبو جعفر ملكا ـ ولكم طالت العمر على ملك بنيه وحفدته. فلقد كان كل خلفاء بني العباس بعده منه، ملكوا خمسة قرون، حتى دمّر الظلم دولتهم.

إنما كان أبو جعفر يتداول الإمام الصادق بحذر خليق بما للصادق من كرامة عند اللّه والناس. وهو صاحب أكبر مدرسة شهدتها حواضر الإسلام في ذلك الزمان: المدينة ومكة والكوفة وبغداد والفسطاط. وكان في الستين من العمر، يروي عنه

الآلاف حديث النبي وفقه الصادق وأبيه وأجداده.

والذين يحسنون الظن بالمنصور لا يتصورون حلمه يطيش فيفقد الأمة الإمام الذي لا ينازعه ملكه. وربما جاز للذين لا يحسنون الظن، أن يخالفوه يحسب حسابا للأعداد التي لا تحصى من تابعي الإمام. وقد كان أبو جعفر يحسب حساب العلماء.

ومن بطش الحكام بالعلماء ما يدمر الدول. ومن فداء الأتباع ما يستهان فيه بعرين الأسد.

لقد اقتحم الفدائيون من أتباع سنان (شيخ الجبل) خيمة صلاح الدين وهو في عسكره ليصيبوه بخناجرهم في وجهه.

* * *

ظاهر من حديث الإمام أنه حدثه في صلة ذوي الأرحام، وإن كانوا كفاراً، فما أحراهم بالصلة إن كانوا غير ذلك. ويظهر مما يرويه الطبري أن أبا جعفر كان يودّ أيامئذ لو نسي الناس ما كان من أهل البيت في حقه، وما كان منه في حقهم.

روى الطبري: لما أُتي المنصور برأس إبراهيم بن عبد الله وضعه بين يديه وجلس مجلسا عاما وأذن للناس. فكان الداخل يدخل فيسلم ويتناول إبراهيم فيسيء القول فيه، ويذكر منه القبيح التماسا لرضى أبي جعفر، وابو جعفر ممسك متغير لونه.. حتى دخل جعفر بن حنظلة البهراني فسلم ثم قال «عظم الله أجرك يا أمير المؤمنين في ابن عمك وغفر له ما فرط فيه من حقك» فاصفرّ لون أبي جعفر وأقبل عليه فقال: أبا خالد! مرحبا وأهلا. فعلم الناس أن ذلك قد وقع منه.. فدخلوا فقالوا مثل ما قاله جعفر بن حنظلة.

وربما دل على ذلك الميل ما يرويه عيسى بن رؤبة: لما جيء براس ابراهيم فوضع بين يدي ابي جعفر بكى حتى رايت دموعه على خدي إبراهيم.. ثم قال: أما والله إن كنت لهذا لكارها، لكنك ابتليت بي وابتليت بك.

ولقد ترك أبو جعفر الذين تواروا عنه ممن خرجوا مع محمد و إبراهيم، ومنهم الحسين بن زيد. وكان الحسين قد تربى في بيت جعفر الصادق بعد قتل زيد. وكان

يسمى «ذا الدمعة الكبيرة» لكثرة بكائه على أبيه وأخيه يحيى. ولم يستجوب المنصور ولدي جعفر الصادق عبد الله وموسى.. وقد خرجا مع محمد، وترك علماء المدينة، وترك عيسى بن زيد إذ توارى عنه. ولما قيل له من حرسه أو من المنافقين: ألا تطلبه؟ قال لا. والله لا أطلب منهم رجلا بعد محمد و إبراهيم: أنا أجعل لهم ذكرا؟

ومن ناحية أخرى ففقه الإمام الصادق يعلم الناس طاعة الإمام العادل. والصادق هو القائل: (لا يستغني أهل بلدة عن ثلاثة يفزع إليهم في أمر دنياهم وآخرتهم. فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة، فإن عدموا ذلك كانوا همجا).

وهو فقه في طاعة الخليفة العادل أو الأمير الخير. وأبو جعفر يتمنى أن يظهر في الناس كذلك.

و الصادق يقول ـ ولا نحسبه يقصد إلا أبا جعفر وأبناء عمه ـ (ما تثبت الدنيا إلا على بني العم المتعاطفين بالبر المتعلقين بالأدب المجتمعين على التناصر). فهذه يد ممدودة بالسلام من الإمام، ودرس للرعية لتسلم العنان لامير خير.

وفي سنة ١٤٧ عزم المنصور وهو راجع من موسم الحج أن يسير الإمام الصادق من المدينة إلى العراق فاستعفاه الإمام فلم يعفه وحمله معه. ولكن الصادق كان يقبل عليه بمقدار فليست دنيا أبي جعفر لتجدر بالمقاربة.

وفي ذات يوم أرسل إلى الصادق: لماذا لا تغشانا كما يغشانا سائر الناس فأجابه «ما عندنا ما نخافك عليه ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له. ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها. ولا نعدها نقمة فنعزيك عليها. فلم نغشاك»؟

ويجيب أبو جعفر: تصحبنا لتنصحنا.

ويجيب الإمام: «من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك»

فالذي يريد الدنيا يسير في ركب صاحبها فلا يقول كلمة لله. والذي يريد الآخرة يعتزل مجالس رجل يعجزه عمله ويعميه أمله عن طريق الآخرة.

وصدق «جعفر الصادق».

* * *

دخل عليه سفيان الثوري يوما فقال له: اتق الله فقد ملأت الارض ظلما وجورا فطأطأ رأسه وقال: ارفع حاجتك..

قال سفيان: حج عمر فقال للخازن: كم أنفقنا من بيت المال. قال: بضعة عشر درهما. وأرى هنا أموالا لا تطيق الجمال حملها...

وخرج سفيان.

ولما راجع المنصورَ كاتبهُ ليقتل سفيان قال له «اسكت يا أنوك (أحمق). فما بقي على الأرض من يستحى منه غير (مالك) وسفيان»[1].

---

(١) يروي مالك أنه استدعاه فدخل فوجد عنده ابن أبي ذؤيب (١٥٩) والقاضي ابن سمعان. فسأل مالكا عن حكمه (حكم المنصور) هو عدل أم جور؟ فاستعفاه مالك من الجواب. فسأل ابن سمعان عن حكمه فأثنى عليه. فسأل ابن أبي ذؤيب فأجاب: أنت والله عندي شر الرجال.. استأثرت بمال الله ورسوله وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين وأهلكت الضعيف وأتعبت القوي وأمسكت أموالهم. فما حجتك غدا بين يدي الله؟. قال المنصور: ويحك! ما تقول؟. قال: رأيت أسيافاً وإنما هو الموت ولا بد منه. عاجله خير من آجله.
قال مالك: ثم خرجا وجلست. فقال المنصور: أجد رائحة الحنوط عليك؟ قلت: أجل، لما نمى إليك عني ما نمى وجاءني رسولك ظننت أنه القتل. قال: أو ماتراني اسعى فى أود الإسلام وإعزاز الدين عائذا بالله.. يا أبا عبدالله انصرف إلى مصرك راشدا مهديا.. وإن احببت ما عندنا فنحن ممن لا يؤثر عليك أحدا. قلت: إن يجبرني على ذلك أمير المؤمنين فسمعا وطاعة، وإن يخيرني اخترت العافية.. قال: انصرف إلى أهلك معافى مكلوءا. فلما أصبحنا أمر بصرر دنانير في كل صرة خمسة آلاف درهم ثم دعا برجل من شرطته فقال له: تدفع إلى كل رجل منهم صرة. أما مالك إن أخذها فبسبيله، وإن ردها عليك فلا جناح عليه. وإن كان ابن سمعان ردها، فأتني برأسه وان أخذها فهي عافيته. وإن أخذها ابن أبي ذؤيب فأتني برأسه وإن ردها عليك فسبيله.
قال مالك: أما ابن سمعان فأخذها وسلم. وأما ابن أبي ذؤيب فردها وسلم. وأما أنا فكنت والله محتاجا إليها فأخذتها. ثم رحل أبو جعفر متوجها إلى العراق.
وروى مالك أنه استدعاه يوماً وعبيدَ الله بن طاووس بن كيسان، وكان طاووس فقيه اليمن حتى مات في سنة ١٠٦ (طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس جد أبي جعفر). قال أبو جعفر: حدثني حديث أبيك. قال عبيد الله: حدثني أبي أن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في سلطانه فأدخل عليه الجور في حكمه. قال مالك:
=

وإذا كان هذان الإمامان اللذان ليس فى الأرض غيرهما، تلميذين فى مجلس الإمام الصادق.. يلتمسان علمه ويترسمان هديه، فما أحوج الخليفة إلى أن يقارب مجلس الصادق بأن يدعوه إلى مجلسه.

الحق أن أبا جعفر كان من فزعه من الآخرة و حاجته إلى رضى الرعية صادق

= فضممت ثيابي خوفاً من أن يصيبني دمه. فقال المنصور ناولني هذه الدواة.. ثلاث مرات. فلم يفعل. قال أبو جعفر: لم لا تناولني؟ قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون قد شاركتك فيها. قال: قوما عني، ذلك ماكنا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاووس فضله منذ ذلك اليوم.

ويروي الإمام الشافعي حول أساطين جامع عمرو عن عمه محمد بن علي بن شافع مثل ذلك. عندما قال له ابن أبي ذؤيب أخذت المال من غير حله وجعلته في غير أهله وأن المنصور رد عليه بقوله: والله لولا أنا لأخذت أبناء الفرس والروم والديلم هذا المكان منك. فوالله لولا أني أعلم أنك صادق لقتلتك.

أما عمرو بن عبيد فكان أبو جعفر المنصور يستقبله بالترحاب وينشد في نزاهته الشعر (كلكم يمشي رويد. كلكم طالب صيد. غير عمرو بن عبيد) وهو زعيم المعتزلة الذين يطلقون ألسنتهم في الملوك والصحابة. دخل عليه فقال له «إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها واذكر ليلة تتمخض عن يوم لا ليلة بعده» قال الربيع بن يونس حاجب المنصور: يا عمرو غممت أمير المؤمنين. قال عمرو للمنصور «إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوماً واحداً. وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه» قال أبو جعفر المنصور: فما أصنع، قلت لك خاتمي في يدك فتعال وأصحابك فاكفني. قال عمرو: لا. أدعنا بعدلك، تتسخ أنفسنا بعونك، ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق. ولما مات عمرو كان أول واحد من الرعية، وآخر واحد، ينظم فى رثائه الخليفة شعراً. ومن أبياته:

وإذا الرجال تنازعوا في شبهة ... وصل الحديث بحجة وبيان

ولو ان هذا الدهر أبق صالحا ... أبق لنا عمراً أبا عثمان

والجاحظ من تعصبه لزعيمه يقول فيه «إن عبادته تفي بعبادة عامة الفقهاء والمحدثين».

وستبقى صلة المعتزلة بالدولة العباسية طويلا بعد وفاة عمرو وأبي عمرو وأبي جعفر لأن المعتزلة يمدون إلى بني العباس سببا علميا وسببا سياسيا. قالوا: إن واصلا (وهو زعيمهم مع أخي زوجته عمرو ابن عبيد) أخذ أصوله عن أبي هاشم (٩٨) عبدالله بن محمد بن الحنفية ـ ابن علي بن أبي طالب وكان أبو هاشم قدريا مثلهم ـ ينفي القدر ـ ويضيفون أن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ١ ـ تعلم على أبي هاشم، ـ ٢ وتلق منه الوصية بالإمامة بعده ـ دون بني علي بن أبي طالب ـ عندما أحسّ أبو هاشم بدنو أجله إذ دس السم إليه سليمان بن عبد الملك.

الرغبة فى التقرب إلى العلماء، و من أجل ذلك كان يرضى منهم ما يصك مسامعه من النقد وإن كان لا يستجيب له.(!)

طلب ذلك من صديقه عمرو بن عبيد، و المعافري[1]، فاعتزلاه لكثرة الظلم على بابه كما قالا له. وهزّ ضميره ابن أبي ذؤيب و توعده بجهنم. و كمثله صنع ابن طاووس فقبل استعفاء الصديقين، و أقر صدق ابن أبي ذؤيب[2] فقال له: لولا أنني أعلم أنك صادق لقطعت عنقك، كما ارتاح لابن طاووس مع رفضه أن يطيعه مخافة أن تؤدي طاعته إلى المشاركة في معصية. ولقد رفض أبو حنيفة أن يجلس للقضاء في دولته بحجة الخوف من أن يظلم الناس إرضاء لحاشية يحب أبو جعفر أن يكرمها. و ما إكرام الحاشية إلا الحكم لمصلحتها فيما ترتكب من مظالم، لحساب صاحب السلطان أو نتيجة إغضائه. و هذا رد فقهي من إمام أهل الرأي يتضمن التنديد بأبي جعفر وصحبته.

وصحبة الظالم وجه مشاركة في الحكم، وربما في الظلم، بتوطيد الأمور للظالم أو بتمكينه أن يبلغ غرضه، أو تقديم مصلحته على مصلحة المحكومين. وفيها شهادة له في الناس. فهي شركة خاسرة في الدنيا و الآخرة.والإمام الصادق هو القائل «أيما مؤمن قدم مؤمنا إلى قاضٍ أو سلطان جائر، فقضى عليه بغير حكم اللّه، فقد شركه في الإثم»

---

(١) لما استخلف أبو جعفر قصد إليه عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري قادماً من القيروان وكان زميلا له فى عهد الطلب، فعرض عليه المقام ببغداد. و قال له كيف رأيت ماوراء بابنا؟ فأجابه: رأيت ظلما فاشيا و أمرا قبيحاً. قال: لعله فيا بعد من بابي. فأجابه: بل كلما قربت استفحل الأمر و غلظ. قال: ما يمنعك أن ترفع ذلك إلينا و قولك مقبول عندنا؟ فأجابه: رأيت السلطان سوقا.. و إنما يرفع إلى كل سوقٍ ماينفق فيها. قال: كأنك كرهت صحبتنا؟ فأجابه: مايدرك المال و الشرف إلا من صحبتكم. ولكني تركت عجوزاً، وإني أحب مطالعتها.

(٢) يفضل أحمد بن حنبل ابن أبي ذؤيب على مالك لمجاهرته بالحق فى وجه أبي جعفر. وتقدير الشافعي لابن أبي ذؤيب يتراءى في رأي تلميذه أحمد. و في رواية الشافعي عن عمه في صدده. أما تقدير مالك فكان عن مشاهدة أو مشاركة.

وذات يوم دخل زياد الفندي على الامام الصادق (عليه السلام) فقال له: وليت لهؤلاء؟ - يقصد أصحاب السلطان - قال زياد: نعم.. لي مروة وليس وراء ظهري مال. وإنما أواسي إخواني من عمل السلطان. فقال: «يا زياد. أما إذ كنت فاعلا، فإذا دعتك نفسك إلى ظلم الناس عند القدرة على ذلك فاذكر قدرة الله عز وجل على عقوبتك وذهاب ما أتيت إليهم عنهم، وبقاء ما أتيت إلى نفسك عليك».

وفي واحد من اللقاءات يقول الصادق (عليه السلام) مخاطباً المنصور «لقد بلغت ثلاثة وستين، وفيها مات أبي وجدي» ليعلن له الاستخفاف بالموت الذي يتهدد الناس به، وأن الإمامين اللذين قضيا - زين العابدين والباقر عليهما السلام - لم يعمرا أكثر مما عمر، ولكل أجلٍ كتاب.. فماذا يهاب؟ إنه يطلق إعلانه بلغة عالية، وفي هدوء قادر على أن يطفئ جذوة رجل خصم، وفي توكل على الله يبلغه مأمنه. فهو إذا واجهه واجهه والله معه.

أرسل إليه المنصور ذات يوم رزام بن قيس يدعوه للقائه، ففصلا عن المدينة، حتى بلغا النجف فنزل الامام عن راحلته فأسبغ الوضوء وصلى ركعتين ثم رفع يديه وهو يقول: «اللّهم بك أستفتح، وبك أستنجح، وبمحمد عبدك ورسولك أتوسل. اللّهم سهّل حزونته وذلّل لي صعوبته وأعطني من الخير أكثر مما أرجو واصرف عني من الشر أكثر مما أخاف».

ثم ركب راحلته حتى إذا بلغا قصر المنصور، أعلم المنصور بمكانه. فلم يحجبه قليلاً أو كثيرا، بل تفتحت الأبواب ورفعت الستر. فلما قرب من المنصور قام إليه فتلقاه، وأخذ بيده وماشاه.. حتى انتهى به إلى مجلسه.. ثم أقبل عليه يسأله عن حاله.

وذات يوم عزم المنصور على حاجبه الربيع بن يونس أن يدعوه، وكانت تبرق في أساريره بوارق الخطر. فلما خرج من اللقاء بسلام، سأل الربيع الإمام الصادق عليه السلام عن الدعاء الذي دعا به ربه، فأكرمه اللّه في لقاء المنصور. فأخبره به. فالصادق يستحضر رضى بارئ السماء في كل آونة، وتعينه السماء.

ومع ذلك السلام الذي نشده الصادق وعلمه، يروي الطبرى أن المنصور لما عزم

الحج ـ في آخر أيامه ـ دعا ريطة بنت أبي العباس زوج المهدي، وكان زوجها بالري، فأوصاها بما شاء ودفع إليها مفاتيح غرفة بها خزانته، وأمرها ألا تسلمها إلى المهدي إلا عندما يجيء نبأ موت المنصور. فلما مات ذهبت ريطة والمهدي ففتحا الغرفة فإذا بقتلى من بني علي (عليه السلام) في آذانهم رقاع.. فيها أنسابهم.. وهم بين شيوخ وشباب وأطفال. فلما رأى المهدي ذلك ارتاع. فحُفرت لهم مقبرة دفنوا فيها ثم بنى عليها دكانا.

لم يكن المنصور يكتفى بأن يقول مقالة لويس الرابع عشر بعد ثمانية قرون «أنا الدولة».. ذلك المقال الذي نبذه واستهجنه الساسة والمؤرخون في الشرق والغرب، بل كان المنصور يدعي دعوى أبعد وأشدّ. كان يخطب فيقول: «إنما أنا سلطان اللّه في الأرض» فيجمع فى يده ما عجز عنه الأباطرة والبابوات جميعا! فإنما تقاسم الإمبراطور والكنيسة الأشياء، في القرن التاسع للميلاد، فصار لقيصر ملك الأرض وللكنيسة مملكة السماء. أما أبو جعفر المنصور فادعى في الأرض سلطان السماء. وأي شيء يستبعد على صاحب هذه الدعوى!!



والمنصور ـ مع ذلك ـ ليس إلا واحد من المستبدين الذين يزخر التاريخ بخطاياهم أو ضحاياهم.

إليك مثلا واحدا من تاريخ الدولة التي تلقي إليها الديمقراطية الغربية مقاليدها: لقد أرسل (هنري الأول) ملك إنجلترا فرسانه يقتلون (توماس) بيكت رئيس أساقفة لندن من أجل خلافه معه في ولاية العهد لابنه في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر. وفي الثلث الأول من القرن السادس عشر القىٰ (هنري الثامن) ملك إنجلترا (توماس) ولزي رئيس أساقفة يورك في السجن ريثما يصدر عليه حكم الإعدام فمات قبل أن يعدم. ثم أرسل إلى المقصلة (توماس) مور كبير قضاته من أجل خلافهما له في زواجه وطلاقه.



ولقد كان فزع المنصور من أجل دولته حريا أن يخرجه عن الاتزان فيستحوذ عليه الشيطان، لولا دور الإمام الصادق(عليه السلام) في كبح جماحه في بعض الاحيان.

والذين يهابون لقاء الملوك ضعفاء عن إخفاء دخائلهم، من البغض أو الحسد أو الخوف. والذين ليس في قلوبهم من ذلك شيء يشجعون. أما الأمة فالله معهم. وهو حسبهم.. وأين من هذا الذي معه مالك الأرض والسماء، ملوك دولة أو إقليم!

من أجل ذلك يشجع الرجال الصدق إذ يستشهدون. ومن أجله نظر الصادق إلى المنصور في شجاعة وصدق.. فكان يلزمه القصد والنصفة.

والمنصور عليم بما يجري في ملكه، وهو يبثّ جواسيسه في كل مكان.. فلم يلبث سنين حتى أصبح يعلم بكاء بنت (مالك بن أنس) من الجوع في داخل الدار، وهي وأبوها يكتمانه إلا على الله سبحانه!

والمنصور هو القائل عن أوتاد حكمه: ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعفّ منهم. وهم أركان الدولة لا يصلح الملك إلا بهم. أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم. والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي. والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية. ثمّ عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول: آه آه. قيل ما هو يا أمير المؤمنين؟. قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة.

وبقي عاضّاً على اصبعه وسيعضّ علىٰ يده يوم القيامة.

الفصل الرابع

الرجلان

الحق ان الاختلاف كان شديداً بين الإمام الصادق (عليه السلام) وبين الخليفة أبي جعفر المنصور: في طبيعتهما وطريقتهما وغاياتهما.

هذا صاحب سلطان.. فيه شركاء متشاكسون، تركبه هموم الدنيا، وتلبس جلده شياطينها.. يترافع لينحني الناس له، ويجمع دنياهم في قبضته. شحيح النفس منقبض اليد، «دوانيقي»، يحسب بالدرهم والدانق[1] تبدو منه صعقات السلطان عند الفزع.. وتحوله مطامعه من الدماثة الى الشراسة، فلا يطمئن له أحد.. أقام دولته على أشلاء الأعداء، وفزع الأقرباء؛ وجماجم أهل البيت في خزائنه!

أما الإمام فرجل سلم لكل رجل: يتواضع ليرفع الناس كلهم، ولا تستعبده الدنيا قيد أنملة.. يعطي ولا يأخذ.. ويحيي أنفس الناس بالعطاء السمح من العلم، والجاه، والمال «ماقال لا قطّ إلا في تشهده»؛ فهكذا كان أبوه وجده.

والحق كذلك أن المنصور ـ بنجاحه في إقامة أكبر دولة في التاريخ الوسيط ـ يعتبر واحداً من ثلاثة لا يعرف لهم التاريخ الاسلامي رابعاً، ولاينزل بهم التاريخ العالمي عن أعظم المؤسسين للدول.

أولهم معاوية بن أبي سفيان، وثانيهم عبدالملك بن مروان. مصايرهم متشاكلة. ووسائلهم متشابهة. وخصامهم لأهل البيت أساس دولتهم. ونجاحهم في دنيا السلطة مقطوع القرين:

بدأوا علماء، وانتهوا ملوكاً طغاة! والإسلام فضل من الله، يسخر لخدمته من يشاء.

---

(١) الدانق سدس درهم.

ولو مال عن الجادة رجل، فإنما يخذل نفسه ولا يصيب الإسلام بسوء.

لقد أخطأ معاوية في إقامة دولته وفي حربه. وكان لزاماً أن يقوده خطؤه الىٰ أن يجعل الدولة «هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل» فيكون ابنه يزيد أشأم والأم خلف لسلف. لكن أحداً لا يتنازع في أن دولته ـ وإن لم تمثل دولة الدين ـ قد انتشرت في البر والبحر ونشرت الإسلام وجاهد في غزواتها الصحابة وبنوهم والعلماء والفقهاء، بل غزا وجاهد فيها بين جيوش المسلمين أبو الشهداء (الحسين بن علي) في فتح أفريقية وغزو جرجان وطبرستان والقسطنطينية.

ومعاوية هو الذي مهّد لدولة ابن عمه مروان بن الحكم.

وعبد الملك بن مروان هو المؤسس الحقيقي للدولة المروانية التي أينعت فروعها بالأندلس وأبقت الإسلام في أوربا ثمانمائة عام، لتهيئ للحضارة الحديثة أن تنطلق من جامعات الأندلس وجوامعها. وهو عم عمر بن عبد العزيز وصهره.

وعمر بن عبد العزيز الذي كتب لعامله على المدينة يوم ولي الخلافة: أقسم في ولد فاطمة رضوان الله عليهم عشرة آلاف دينار فقد طالما تخطتهم حقوقهم. وقال معلناً حق علي وباطل بني أمية ومروان «كان أبي[1] إذا خطب فنال من علي تلجلج. فقلت يا أبتِ إنك تمضي في خطبتك فإذا أتيت على ذكر علي عرفت منك تقصيراً؟ قال: أو فطنت الىٰ ذلك؟ يابني ان الذين حولنا لو يعلمون من علي ما نعلم تفرقوا عنّا الىٰ أولاده..».

لكن أبا جعفر كان أثقل الثلاثة حملاً. إذا كان معاوية وعبد الملك قد سبقاه ففصلا بين الدين والدولة وجزءا نظرية الدولة الاسلامية، وكان هو قد سار علىٰ الدرب الذي اختطاه، ان المعارك التي خاضها من أجل دولته كانت أوسع مدىً وأشدّ قسوة.

---

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم، عينه عبد الملك على مصر وأفريقية. وهو الذي بنى مدينة حلوان ضاحية الفسطاط ـ القاهرة. وفيها عاش عمر بن عبد العزيز زماناً. وجيوش أفريقية هي التي فتحت الأندلس بقيادة طارق بن زياد وموسىٰ بن نصير.

ففزعه من أبي مسلم وجنده لم يكن إلا رجع الصدىٰ لصوت يتصايح في آفاق حياته وأعماق ذاته: أنهم سرقوا الدولة من ابناء علي. ومن هنا خوفه المستمر من انتفاض أهل خراسان الذين جاءوا لمبايعة «الرضا من آل محمد». وأهل البيت أولىٰ منه في أنظار الذين جاءوا به وبأخيه الىٰ السلطة.

وخوفه من أعضاء بيته أشد؛ فلقد كان عمه عبدالله بن علي قائد جيش الشام، لكنه خرج عليه، وأخمد فتنته أبو مسلم الخراساني، حتى إذا استسلم ـ بشروط ـ حبسه أبو جعفر ليقتله بعد زمن من قتله أبا مسلم ذاته. وكان غدر بعيسىٰ بن موسىٰ الذي انتصر على محمد وابراهيم فسلبه حقه في ولاية العهد، وولى ابنه المهدي عهده. فكان غدره كهيئة ما غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق في ولاية العهد، قائلاً: «ماجتمع فحلان في شول إلا أخرج أحدهما صاحبه».

وما كان نقض معاوية عهده مع الحسن بن علي (عليه السلام)، إلا درس المعلم الأول للرجلين: أن يستعملا الزمن، وان ينتهزا الفرص، وان يحركا الحوادث بدهاء، وأن يقطفا الثمار؛ ثمرة فثمرة.

والمنصور لايتردد في إعلان التشابه بينهم وفي تعطشه للدم.. فيعلن في الناس أن «الملوك ثلاثة: معاويه وكفاه زياده. وعبد الملك وكفاه حجّاجه. وأنا.. ولا كفاة لي».

كأنما لم يكن في ما سفكه كفاية، فكان يريد أن يسفك له دماً أكثر سفاحون أصغر!

الواقع ان أزمات المنصور الدوانيقي كانت آخذة بخناقه من كل صوب. فهي فيٖنفسه، وفي بيته، وفي دولته، وفي صلته بالأمة؛ ان كانت القوة العسكرية التي أجاءته الىٰ الحكم، قد تخلت عنه بل حملت السلاح ضده، وكانت القوة الفكرية التي قامت عليها الدولة قد صار أصحابها فرائس له، وكانت القوة العصبية (قوة أسرته) تترنح بخروج عمه عبدالله وقتله.. وبمغامراته للاستئثار لبنيه بالخلافة دون سائر أهله.

فإذا كان ثمة من أحبه، فإن حبهم كان أقبح من البغض، مذ كانوا يؤلهونه، فيكفرون أنفسهم ويفضحونه، بل كادوا يقتلونه، يوم أحاط الراوندية بقصره فلم يمكنه الله

منهم إلا بمساعدة عدو كان يطلب رأسه، هو معن بن زائدة الشيباني. وكان معن حرياً أن يقتله في وطيس المعركة. حتىٰ الذي أنجاه كان عدواً له!

وفي سنة ١٤٥ انتفضت خراسان فقتلت جيوشه من أهلها سبعين ألفاً وأسرت بضعة عشر ألفاً.

ولم يكن شغله بالجيوش المحاربة في المشرق أو في جزيرة العرب همّه الأول. ففي أفريقية خرج عليه محمد بن الأشعث والي أفريقية، فجرد عليه جيشاً بقيادة الأغلب بن سالم، وسيقتل الأغلب بعد سنين سنة ١٥٠. ولم ينهزم الخوارج إلا بعد أن خاضوا ثلثمائة وخمسة وسبعين وقعة! وأمام جيش قوامه خمسون ألفاً.

كل أولئك وهو من شح نفسه، ومن اصطحاب جماجم أهل البيت (عليهم السلام) في خزائنه، في أمر مريج.. يحسب ان كل صيحة عليه هي العدو، وان كل خروج عليه يدعو الجميع ليخرجوا.. وهم علىٰ خروج قادرون.

مع كل ذلك نجح المنصور بالحذر والغدر ومعاجلة الخصوم. فاستبقىٰ دولته لتكون أطول الدول الإسلامية عمراً.. وأبعدها في الحضارة العالمية أثراً.

لكن التاريخ ـ وقانون الاستقامة ـ وطبيعة الأشياء ـ وقانونها (لكل فعل رد فعل، مساوٍ له في المقدار، ومضاد له في الاتجاه) ـ لم يتركا أبناءه وحفدته دون عقاب. وكأنما كان طول عمر دولته تطويلاً للعقاب عليهم وتكثيراً لمن ينزل بهم.

* * *

كان من لوازم السلطة أو علامات عدم الثقة بالنفس أو بالغير أن تتراءىٰ من أبي جعفر في لقائه لأهل البيت (عليهم السلام) أو التعامل معهم نزعات المستوفز الحذر، أو مظاهر الاستعلاء عند مواجهة الأعداء، أو من يضعهم في مواضع الأعداء. لكن الإمام «الصادق» (عليه السلام) كان يمسك بالزمام فيرد الخليفة دائماً الىٰ حيث يطلب الموعظة، أو العلم.

ومن إمساك الزمام في أحد هذه اللقاءات إمساك الخليفة ذاته أن يميل علىٰ أهل البيت (عليهم السلام)، فيقول له «لاتقبل في رحمك وأهل الرعاية من أهل بيتك من حرّم الله

عليه الجنة وجعل مأواه النار. فإن النمام شاهد زور وشريك إبليس في الإغراء بين الناس. فقد قال الله تعالىٰ «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا علىٰ ما فعلتم نادمين» ونحن أنصار وأعوان، وللملك دعائم وأركان، ما أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، وأمضيت في الرعية أحكام القرآن، وأرغمت بطاعتك الله أنف الشيطان. وإن كان يجب عليك في سعة فهمك وكثرة علمك ومعرفتك بآداب الله أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتعفو عمّن ظلمك. فان الكافي ليس بالواصل. إنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها. فصل رحمك يزد الله في عمرك، ويخفف عنك الحساب يوم حشرك».

ويقول المنصور: قد صفحت عنك لقدرك، وتجاوزت عنك لصدقك، فحدثني عن نفسي بحديث أتّعظ به ويكون لي زاجر صدق عن الموبقات.

وبهذا السؤال انتشل المنصور نفسه من موقع قاطع الرحم، الىٰ موضع المواسي لذوي القرابة، ومكانة طالب الموعظة، فأدلىٰ بها اليه الأمام (عليه السلام)؛ قال:

«عليك بالحلم فإنه ركن العلم. وأملك نفسك عند أسباب القدرة، فإنك إن تفعل ما قدرت عليه كنت كمن شفى غيظاً وداوى حقداً، وأحب أن يذكر بالصولة. واعلم أنك إن عاقبت مستحقاً لم يكن غاية ما توصف به إلا العدل. والحال التي توجب الشكر أفضل من الحال التي توجب الصبر».

تلك آداب الله، وأسباب الحكم الصالح، وملاك السيطرة للحاكم المسلم علىٰ قلوب الرعية.

ومن الواضح أن المنصور كان يتظاهر بالاستعلاء إذ يدعي الصفح، وليس لديه تهمة. ولو كانت عنده تهمة للصادق لما طلب الموعظة اليه.

وللملوك سماعات، أو أبواق دعايات منتشرة في الرعية، تلتقط موجات الرضا والغضب، والهدوء والقلق، وتبث نظائرها، حسب الحاجة. والنمامون كثر، كخفافيش الليل. وللمنصور جهاز لايني عن استعماله ليروّع خصومه، أو ليجعلهم في قبضة يده...

فلقد يدسّ من أجهزته دسيسا بعد دسيس على بني الحسن، والحسين، مثل أن يدعو ابن مهاجر ذات يوم فيقول له: خذ هذا المال وائت المدينة والق عبدالله بن الحسن وجعفر بن محمد (الصادق) وأهل بيتهم وقل لهم إني رجل من خراسان من شيعتكم وقد وجهوا اليكم هذا المال. فادفع الىٰ كل واحد منهم علىٰ هذا الشرط.. كذا وكذا.. فإذا قبض المال فقل اني رسول، وأحب أن تكون معي خطوطكم بقبض ما قبضتموه مني... وذهب ابن مهاجر. فلما رجع قال له المنصور ما وراءك؟ قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم ما خلا جعفر بن محمد. قال لي: يا هذا! اتق الله ولا تغرن أهل بيت محمد، فإنهم قريبو العهد بدولة بني مروان. وكلهم محتاج. فقلت وما ذاك أصلحك الله؟ فقال: ادن مني. فدنوت فأخبرني بجميع ما جرىٰ بيني وبينك كأنه ثالثنا.

قال المنصور: يا ابن مهاجر إنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم محدث، وان جعفر بن محمد محدثنا اليوم.

فالصادق يكشف للمنصور ودسيسه حقائق يعلمونها، وينبههما علىٰ ألا يورطا أهل البيت من جراء حاجاتهم. يريد لأهله السلامة، وللخليفة الاستقامة، وللأمة الطمأنينة، وفي كل ذلك خير للمنصور.

ولقد كان المنصور ـ نفسه ـ يجعل الصادق (عليه السلام) حجة من حججه، وإذا فاخر أهل البيت فاخرهم به!

كتب اليه محمد بن عبدالله (النفس الزكية) يدعوه ليبايعه، وعيّره بأمهات العباسيين لأنهن أمهات ولد.. وأم المنصور بربرية تدعى سلامة، يتردد اسمها علىٰ ألسنة الذين فاخروه؛ فتولى المنصور كبره في الرد على محمد، ولم يدع الفرصة تفوته ليستفيد حجة من مكانة الإمام الصادق. قال فيما قال «وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل من علي بن الحسين زين العابدين وهو لأم ولد. ولهو خير من جدك حسن بن حسن. وماكان فيكم بعده مثل محمد بن علي الباقر وجدته أم ولد، ولهو خير من أبيك. ولا مثل ابنه جعفر، وجدته أم ولد، وهو خير منك».

وغض المنصور طرفه عن أن أم الولد في شجرة الباقر «شاه زنان» بنت كسرىٰ ملك الفرس. وأين منها ـ بعد إذ أسلمت ـ سلامة!

على أن اللقاءات ـ أو الاحتكاكات ـ بين الرجلين لاتتوقف.

فهذان قطبان، لكل منهما عالمه. وهما ضدان لهما مستويان. والشرف فيهما لرجل الدين والزهد والعلم. والملوك أحوج الىٰ العلماء، من العلماء الىٰ الملوك.

وأبو جعفر حريص غدر، يسلط علىٰ الصادق من وقتَ لآخر، وفي مكان بعد آخر، وجوهاً من التهديد لشخصه والاتهام لولائه والإزراء بعلمه.

يقول له ذات يوم في لقاء له بالكوفة: أنت يا جعفر ما تدع حسدك وبغيك وفسادك علىٰ أهل البيت من بني العباس، وما يزيدك الله بذلك إلا شدة حسد ونكد، وما تبلغ به ما تقدره.

فيجيبه الصادق (عليه السلام): «والله ما فعلت شيئاً من ذلك. ولقد كنت في ولاية بني أمية ـ وأنت تعلم أنهم أعدىٰ الخلق لنا ولكم، وأنه لا حق لهم في هذا الأمر ـ فوالله ما بغيت عليهم ولا بلغهم عني شيء مع جفائهم الذي كان لي. وكيف أصنع هذا الآن، وأنت ابن عمي، وأمس الخلق بي رحما.. وأكثر عطاء وبراً. فكيف أفعل هذا»!

والصادق (عليه السلام) بهذا يسجل للخليفة بره، ويقدر له أولية ذوي الأرحام عنده في البر بهم، ويقرر له حقه في الخلافة.. وليس للمنصور فوق ذلك طلبات. وبهذا يستل الضغن من صدره، ليدعه في ميدانه الذي يسّره الله له.

ومع ذلك يعاد المشهد في بغداد، بعد سنة ١٤٥، فيستحضره المنصور لمواجهة جديدة.

يقول له: ياجعفر. ماهذه الأموال التي يجبيها لك المعلى بن خنيس؟

قال الصادق (عليه السلام): معاذ الله ماكان من ذلك شيء.

قال المنصور: تحلف علىٰ براءتك بالطلاق والعتاق.

قال الصادق(عليه السلام): نعم أحلف بالله ماكان من ذلك شيء.

قال المنصور: بل تحلف بالطلاق والعتاق.

قال الصادق (عليه السلام): ألا ترضى بيميني: الله لا إله إلا هو!

قال المنصور: لا تتفقه علي.

قال الصادق (عليه السلام): وأين يذهب الفقه مني؟

قال المنصور: دع عنك هذا فإني أجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عنك هذا حتىٰ يواجهك.

فأتوه بالرجل..

قال الصادق (عليه السلام): تحلف أيها الرجل أن الذي رفعته صحيح؟

قال: نعم. ثم بدأ باليمين؛ قال: والله الذي لا إله إلا هو الغالب الحي القيوم.

قال الصادق (عليه السلام): لاتعجل في يمينك فإني استحلفك.

قال المنصور: ما أنكرت من هذه اليمين؟

قال الصادق (عليه السلام): ان الله تعالىٰ حي كريم اذا أثنىٰ عليه عبده لا يعاجله بالعقوبة. ولكن قل أيها الرجل: أبرأ الىٰ الله من حوله وقوته، وألجأ الىٰ حولي وقوتي. إني لصادق بر فيما أقول.

قال المنصور للرجل: احلف بما استحلفك به أبو عبدالله.

قال راوي الخبر: فحلف الرجل. فلم يتم الكلام حتىٰ خرّ ميتاً. فارتعدت فرائص المنصور. وقال للصادق (عليه السلام): سر من عندي الىٰ حرم جدك إن اخترت ذلك. وان اخترت المقام عندنا لم نأل جهداً في إكرامك. فوالله لا قبلت بعدها قول أحد أبداً.

وأين يذهب الفقه من إمام المسلمين(عليه السلام)، وهو الذي يوجه اليمين، ومن حقه صياغتها! وفي الصيغة ما ذكر المفتري بعظم افترائه، وبالخالق سبحانه «ومن أظلم ممن افترىٰ علىٰ الله كذباً». ومن الإنساني، ومن جلال مقام الإمام عند الله والناس، ان يخرّ صريعاً من يفتري علىٰ الله وعلىٰ الامام، في مجلس الخليفة.

بهذه الآية هدىٰ جبار السمٰوات جباراً علىٰ الأرض لا يطأطئ رأسه. فإذا حرّكها عندما يناوشه الذباب سأل حضاره كالمستنكر: لِمَ خلق الله الذباب!!. وكان الصادق(عليه السلام) حاضراً يوما فأجاب: ليذلّ الله به الجبابرة.

ولئن كان في وجود الذباب في المجلس تذكرة للجبابرة، ففي سقوط المفتري علىٰ الامام (عليه السلام) بين أيديهم آية ما بعدها آية.

وكما يضمن المنصور طاعة الامام بالبغتات يصطنعها من حين لآخر، لا يتورع عن محاولة إفحام الإمام بين علماء العصر، أو تسخير أعظم علماء العراق، لينصب منه شركاً يوقع فيه الامام! وليس هوى المنصور مع أي منهما. ولا بأس عنده إذا أعجز كل منهما، أو أحدهما، صاحبه.

وإن المرء ليلمس خساسة الحيل الظاهرة من المنصور، باتخاذ العلم والفقه أداة للشر المدبر، وعظماء العلماء وسائل للإساءة للمسالمين الذين يأمن جانبهم. فلنقس عليها فظاعة تدابيره السرية لمن يخشىٰ العواقب منهم، ولندرك جلالة الحق إذ ينتصر علىٰ الحيلة، وجلجلة الحقيقة إذ تظهرها وسيلة أُريد بها طمس معالمها، ومكانة الامام الصادق (عليه السلام) في العلم إذ يتواضع أمامه العظماء من الفقهاء، في مجلس علمي يسيطر عليه الخليفة:

أقدم المنصور الإمام الصادق (عليه السلام) من المدينة الىٰ العراق وبعث الى أبي حنيفة فقال له: إن الناس قد افتتنوا بجعفر، فهيئ له المسائل الشداد.

ويقول أبو حنيفة عن لقائه بعد ذلك: «بعث اليّ أبو جعفر المنصور وهو بالحيرة فأتيته. فدخلت عليه وجعفر بن محمد (عليه السلام) جالس عن يمينه. فلما أبصرت به دخلتني من الهيبة لجعفر بن محمد الصادق مالم يدخلني لأبي جعفر فسلمت عليه، فأومأ اليّ فجلست. ثم التفت اليه فقال: يا أبا عبدالله هذا أبو حنيفة. قال جعفر (عليه السلام): إنه قد أتانا. ثم التفت الي المنصور وقال: يا أبا حنيفة ألق على أبي عبدالله (الصادق) مسائلك. فجعلت ألقي عليه فيجيبني فيقول: أنتم تقولون كذا. وأهل المدينة يقولون كذا. ونحن نقول كذا. فربما تابعهم. وربما خالفنا جميعاً. حتىٰ أتيت علىٰ أربعين مسألة»..

ولقد قال أبو حنيفة في مقام آخر: «ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس».

وانما يقصد أبو حنيفة باختلاف الناس الاجتهاد الفقهي للمقارنة بين مذاهب المجتهدين.. فأبو حنيفة ـ وهو الإمام الأعظم عند أهل السُّنة ـ يقرر أن الامام الصادق(عليه السلام) أعلم الناس باختلاف الناس في المدينة حيث علم المحدثين، وفي الكوفة حيث علم أهل الرأي؛ وكانتا قد بلغتا أوجهما، علىٰ أيدي أبي حنيفة ومالك؛ وهما التلميذان في مجالس الامام الصادق (عليه السلام). وكمثلهما كان إمام العراق الآخر سفيان الثوري.

وأبو حنيفة أكبر سناً من جعفر الصادق. ولِدَ قبله بأعوام وسيموت بعده. وكان أبو حنيفة ـ كما قال مالك ـ لو حدثك أن السارية من ذهب لقام بحجته.

والجاحظ كبير النقاد يقول بعد مائة عام: «جعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه ويقال إن أبا حنيفة من تلاميذه وكذلك سفيان الثوري. وحسبك بهما في هذا الباب».

والجاحظ يذكر تلاميذ العراق. ولو ذكر تلاميذ المدينة لما نسى مالك بن أنس.



بلغ الامام الصادق (عليه السلام) بمسالمته للمنصور بعض آماله لأهل بيته (عليهم السلام)، بقية أيام حياته، بل طوال خلافه أبي جعفر المنصور. فكان ميمون النقيبة بالسلام الذي نشده، والامان الذي دعا له، وأطال زمانه. ومنع كثيراً من الطغيان الذي طالما شكاه أبوه، علىٰ ما سيروي ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ـ «ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام، ونقصى ونمتهن، ونحرم ونقتل، ولا نأمن علىٰ دمائنا ودماء أولبائنا، ووجد الكاذبون والجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً.. فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ورووا عنا ما لم نقله وما لم نفعله ليبغضونا الىٰ الناس. وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن. فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل علىٰ الظنة. ومن يُذكر بحبنا والانقطاع الينا سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره. ثم لم يزل البلاء يزداد الىٰ زمان عبيد الله بن زياد قاتل

الحسين. ثم جاء الحجاج[1] فقتلهم كل قتلة وأخذهم بكل ظنة وتهمة، حتى ان الرجل يقال له زنديق أحبُّ اليه من أن يقال شيعة علي».

وفي عصر الباقر(عليه السلام) كان الحسن البصري (١١٠) الجسور (قاضي عمر بن عبد العزيز وشيخه الذي لا يهاب الخلفاء) إذا روى عن أمير المؤمنين علي(عليه السلام) يقول (قال أبو زينب) ليخفي الاسم الذي لا خفاء له!

بل كان الشعبي (١٠٤) شيخ المحدّثين بالعراق يقول: «ماذا لقينا من آل علي إذا أحببناهم قتلنا وإذا أبغضناهم دخلنا النار».

وكان طبيعياً من دولة «هرقلية» يكون همها الملك لا الدين أن تعاقب من تتوهم خطره عليها وتترك من تزندق، وأن تزداد الاستهانة بالدين في مقابل السلام الذي تنشده الدولة، والبلهنية التي يؤثرها دعاة الدعة. بدأ ذلك من عهد معاوية وسيستمر استمرار فساد الدولة. وستستبقيه لتصرف الناس عن الاهتمام بأهل بيت النبي(عليهم السلام)، أو توقع بهم لفرطات تفرط من أحدهم، أو تعزى كذباً اليهم، منتهزة للفرص حيناً، أو مفتعلة لها في أغلب الأحيان.

كانت الأوامر تصدر من بغداد الى أرجاء الامبراطورية التي تدين لبني العباس، ومنها مصر؛ أن «لايقبل علوي ضيعة. ولا يسافر من الفسطاط الى طرف من أطرافها. وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد (والرقيق يومذاك قوة العمل). وإن كانت بين العلوي وبين أحد خصومه فلا يقبل قول العلوي. ويقبل قول خصمه بدون بيّنة»!

وكانوا يسفَّرون من الأطراف الى العاصمة ليكونوا تحت الرقابة. بل أمر الرشيد ان يضمن العلويون بعضهم بعضاً. وكانوا يعرضون على السلطان كل يوم، فمن غاب عوقب.. وكأن «أهل بيت النبي» جالية من العدو أو شرذمة من المشبوهين.



(١) أطلق الخليفة سليمان بن عبد الملك من سجون الحجاج في يوم واحد ثمانين ألفاً. منهم ثلاثون ألفاً بغير ذنب. ومنهم ثلاثون ألف امرأة.

ولقد كان يكفي للحيطة أقل القليل من حاكم يريد أن يطمئن. وإنما كان ذلك الكيد سياسة إبادة مستمرة، يشترك في تنفيذها الخلفاء، والأشياع والظلمة، تدفع الثائرين الى أن يثوروا، فيؤخذوا بثوراتهم، أو يؤخذ غيرهم بجرائر تنسب اليهم. أما سياسة أهل البيت(عليهم السلام) فواضحة من شعار أبناء علي في كلمة مسلم بن عقيل: «إنّا أهل بيت نكره الغدر».. قالها عندما عرض عليه البعض قتل عبيدالله بن زياد في إحدىٰ زياراته. فنجا ابن زياد بهذا الشعار ليقتل مسلماً فيما بعد. أما شعار حاشية معاوية فكان: «ان لله جنوداً من عسل» يقصدون دسّ السمّ الى أعدائهم فيه.

ولقد طالما استخدم الطغاة السم في تصفية أهل البيت في القرون التالية. فإن لم يكن سم في خفاء فالقتل جهرة. ومن الروايات أن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) ـ الاثني عشر ـ ماتوا مسمومين ماعدا أمير المؤمنين علياً وأبا الشهداء الحسين(عليهما السلام) ـ فكانت شهادتهما بالسيف.

وفي أيام الخليفة الهادي (سنة ١٦٩) كان أهل بيت النبي في المدينة يستعرضون كل يوم! لكل واحد منهم كفيل من نسيب أو قريب. بل ولي عليهم واحد من ذرية عمر بن الخطاب هو عبد العزيز بن عبدالله. فولىٰ بدوره على أهل البيت رجلاً يُقال له عيسىٰ الحائك. فحبسهم الحائك في المقصورة، فثارت لأجلهم المدينة إذ ثاروا، وكسرت السجون وأخرج المسجونون، وبويع للحسين بن علي بن الحسن. فبقي واحداً وعشرين يوماً بالمدينة ثم ارتحل الىٰ مكة فأقام بها الىٰ زمن الحج.

وكرر التاريخ نفسه في خروج الحسين ومن معه من أهل المدينة إذ جاءه الامام موسىٰ الكاظم (عليه السلام) يستقيله من الخروج معه، كما صنع أبوه مع النفس الزكية (محمد بن عبدالله).

قال الكاظم للحسين «أحب أن تجعلني في حل من تخلفي عنك».

قال: أنت في سعة.

قال الكاظم (عليه السلام): «أنت مقتول.. وعند الله عزوجل أحتسبكم من عصبة..».

وجهز الهادي جيشاً لاقاه حيث استشهد في موقع يقال له (فخ) ومعه كثير من

العلويين. وحملت رأس (الحسين شهيد فخ) الىٰ القائد العباسي بالبشرىٰ! مع رؤوس مائة آخرين. واستعرض القائد الرؤوس بالمدينة فقال الامام الكاظم (عليه السلام) عندما عرضوا رأس الحسين: «إنّا لله وانا اليه راجعون. مضىٰ والله مسلماً، صالحاً، صوّاماً، قوّاماً، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. ماكان في أهل بيته مثله».

وكان مع الحسين يحيى بن عبد الله بن الحسن (أخي محمد وإبراهيم، وإدريس ابناء عبدالله بن الحسن) فلما انتهت المعركة استتر، ثم ظهر، فخرج علىٰ الرشيد في بلاد الديلم، ووجه اليه الرشيد جيشاً بقيادة الفضل بن برمك حتىٰ استسلم بعهد مكتوب. ومع ذلك استفتى الرشيد العلماء لقتله، فأبى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة وصاح: ماذا تصنع لو كان محارباً وولى كان آمنا.

لكن الرشيد وجد من علماء السوء من أفتاه بقتله، وكان هو أقدر علىٰ النفاق السياسي من مفتيه. أخذ من المفتي ما يملكه، ليصنع هو ما يقدر عليه.. فسجن يحيى وضيق عليه الخناق حتى مات في سجنه، كمثل ما سيموت في سجن الرشيد الإمام موسىٰ الكاظم ويشهد الرشيد الناس عليه، ليبرئ نفسه من تهمة اغتياله.

أما الأخ الرابع إدريس فأفلت هارباً الى مصر، ثم الىٰ المغرب، هناك تمكن الرشيد من دسّ السم اليه واغتياله، فأسس ابنه دولة الأدارسة.

وسيموت في حبس الرشيد كذلك عبدالله بن الحسن (الأفطس). قتله جعفر بن برمك وزير الرشيد. وسيموت في حبسه محمد بن يحيى بن محمد بن عبدالله بن الحسن، والعباس بن محمد بن عبدالله، وكذلك الحسين ابن... عبد الله بن جعفر[1].

---

(١) وتستمر عجلة الطغيان في الدوران. وتتوالى مقاتل الطالبيين توالي الخلفاء العباسيين ـ في بدء عهد المأمون يقتل بالعراق: الحسن بن الحسين بن زيد عند قنطرة الكوفة مع ابي السرايا، والحسن بن اسحق بن علي في وقعة السوس مع أبي السرايا. ومحمد بن الحسن بن الحسين يقتل باليمن في أيام أبي السرايا. وعلي بن عبدالله بن محمد يقتل باليمن في أيام أبي السرايا ومحمد بن إبراهيم بن اسماعيل(وهو ابن طباطبا) الخارج مع أبي السرايا سنة ١٩٩ مطالبين بالبيعة (للرضا من آل محمد). وقد انهزموا بجيش هرثمة بن أعين قائد المأمون سنة ٢٠٠. وقتلىٰ العلويين علىٰ يد هذا الجيش كثيرون.

وفي عهد المأمون وجه الى جماعة من آل أبي طالب. فحملوا اليه في مرو عاصمة خراسان وفيهم الامام علي الرضا (بن الكاظم بن الصادق) (عليه السلام) فخاطبه في أن يكون ولي عهده. فأبى. فتهدده بقوله: «ان عمر جعل الشورى في ستة آخرهم جدك. وقال من خالف فاضربوا عنقه. ولابد من قبول ذلك» فقبل. وبايع له المأمون والعباس بن المأمون.

ثم دعاه المأمون للخطبة فأوجز، وكأنه يتوقع وجازة أيامه. فاكتفى بعد أن حمد الله بقوله (عليه السلام): «إن لنا عليكم حقاً برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). ولكم علينا حق فإذا أديتم إلينا ذلك وجب علينا الحق لكم». لكنه مات بعد قليل في ظروف غامضة لايستبعد منها دسّ السم كما تؤكد ذلك الشيعة، فموت علي الرضا(عليه السلام) كان حلاً لإشكالات بني العباس سواء من يحبون المأمون، أو الكارهين للرضا، أو للمأمون ذاته[1].

---

(١) وفي عهد المعتصم خرج محمد بن القاسم.. بن علي بالطالقان فقبض عليه عبدالله بن طاهر وبعث به الى الخليفة. وحبس المعتصم عبدالله بن الحسن.. بن جعفر حتى مات في محبثه. فلما جاء الواثق أمن العلويون بضع سنين، إذ جمعوا ثم حبسوا، عن الانطلاق خارج العاصمة سامرا، فتطامنوا وأطمأنت السلطة. ثم هبت عليهم في أيام المتوكل ريح عاتية من جنون الفزع.

فلقد أزال قبر الحسين (عليه السلام) وحرثه حتى لا يُزار، وشتت شمل شيعته وفرّقهم في النواحي. فمنهم من حبسوا ومنهم من تواروا حتى ماتوا في مهربهم ـ وتناقل الناس أشعاراً منسوبة الى ابن السكيت عالم النحو الكبير، وكان يعلم ولدي المتوكل. وفي هذه الأشعار:

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله ... هذا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على ألا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما!

وربما أراد المتوكل أن يتيقن من صدور هذا الشعر أو من ولاء العالم حين سأله:

أيهما أحسن: ولداي (المؤيد والمعتز) أم الحسن والحسين؟.. ولم يرضه جوابه. فأمر بقتله فقتلوه. ولم يلبث المتوكل إلا قليلا حتى قتله ابنه (المنتصر) في مؤامرة!

وانما كانت فظاعة الجريمة الأخيرة قصاصاً عجلت به السماء لمقتل عالم آثر الصدق.

ولم يصلح للعلويين بال إلا أشهراً بعد مصرع المتوكل، ليعود البطش بهم الى عنفوانه في أيام المستعين. فمنهم من

ولا نستطرد للسرد. فليس في تاريخ البشرية، كلها، أسرة شردت وجردت، وذاقت العذاب والاسترهاب، مثل أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

بدأ بهم تاريخ الاسلام مجده. واستمر فيهم بعبرته وعظمتها. قدم أبوهم (عليه السلام) للبشرية أسباب خلاصها بكتاب الله وسنة الرسول. وقدم أهل بيته (عليهم السلام) أرواحهم في سبيل القيم التي نزل بها القرآن وجاءت بها السنة. كانت مصابيحهم تتحطم لكن شعلتهم لا تنطفئ، لتخلد الجهاد والاستشهاد والإرشاد، بالمثل العالي الذي كانوه، والضوء الذي لم تمنع الموانع من انتشاره، وعلم فيه أبناء النبي أمته بعض علومه: ان الاستشهاد حياة، للمستشهدين وللأحياء جميعاً[1].

خرج وخرج الناس معه، كيحيى بن عمر خرج فقتل. ومنهم من خرج ولم يخرج الناس معه، فحبس ليموت سنة ٢٧١. وهو الحسن بن محمد المعروف بالحرون. ومنهم محمد بن جعفر خرج وحبس حتىٰ مات في سامراء ليتتابع سجل الشهداء...

(١) نقف عن السرد، عند أبيات لابن الرومي (٣٢١ ـ ٣٨٤) من جيميته في رثاء يحيى بن عمر بعد مقتله إذ خرج على بني العباس في القرن الرابع من جراء ظلمهم:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج ... طريقان شتى؛ مستقيم وأعوج
أكل أوان للنبي محمد ... قتيل زكي بالدماء مضرج؟
بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم ... لبلواكمو عما قليل مفرج
أبعد المسمى بالحسين شهيدكم ... تضاء مصابيح السماء فتسرج؟
أيحيى العلا لهفي لذكراك لهفة ... يباشر مكواها الفؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة ... فتصبح في أثوابها تتبرج؟
سلام وريحان وروح ورحمة ... عليك وممدود من الظل سجسج
ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلت عليكم غمة لا تفرج
نظار لكم ان يرجع الحق راجع ... الى أهله يوماً فتشجوا كما شجوا
غررتم إذا صدقتمو أن حالة ... تدوم لكم. الدهر لونان. أخرج
أبى الله إلا ان يطيبوا وتخبثوا ... وان يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
لعل قلوباً قد أطلتم غليلها ... ستظفر منكم بالشفاء فتثلج

الباب الثالث

امام المسلمين

انت ياجعفر فوق الـ مدح والمدح عناء
جـاز حد المدح مـن قد ولدته الانـبياء

قامت الدولة الاسلامية بالمدينة المنورة حيث طبّق الدين أكمل تطبيق. فلم تكن العاصمة المناسبة لدول ثلاثة أقامها أصحابها من أجل خلافة الدنيا لا خلافة الدين.

والمدينة هي المقر الأمثل لأهل بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يرتبطون بكل أثر فيها وترتبط بهم المعاني التي خلد بها الاسلام، وانتصر المسلمون.

والسُنة هي الشجرة المباركة وفروعها؛ في ثمرها اليانع رحمة ويسر ومعرفة، وفي ظلالها الوارفة مودة وإيلاف وتواصل. ومن هذه العناصر نتج الفكر الرفيع للمجتمع العظيم، يسقى من القرآن ويحيا به.

وبالقرآن والسنة، والفكر الرفيع والفقه المحيط، اعتصم أهل البيت (عليهم السلام) في المدينة. فاختصم وإياهم خلفاء الدول الثلاثة الأموية والمروانية والعباسية، وولاتهم علىٰ المدينة. لكنها ظلت مدرسة السنة والفقه. وتتابع فيها أئمة أهل البيت(عليهم السلام): زين العابدين، والباقر، والصادق.

والفصل الثاني من الباب الحالي مداره مجلس إمام المسلمين جعفر الصادق(عليه السلام)، وأمثال لما يجري فيه من أقوال، ومن يشرف بالانتهاء اليه من رجال، ليسوا كسائر الرجال. فهم أئمة الفكر الإسلامي جميعه.. من سنن وفقه، وزهد وكلام، وعلوم تطبيقية.. منذ القرن الثاني للهجرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الفصل الخامس

في المدينة المنورة

«اللّٰهم ان إبراهيم عبدك وخليلك ونـبيك.
وإنه دعاك لمكة. وإني أدعوك «للمدينة»
بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه».

(حديث شريف)

ولي مروان بن الحكم إمرة المدينة لمعاوية سنة ٤٢. وكان مروان طلبة الثوار على عثمان؛ لو تسلموه لما قتلوا الخليفة ـ كما قيل ـ وكان مروان يبحث لنفسه في الفتنة عن مكان. ومن أجل ذلك رمى معاوية المدينة به، أو رماه بها، من فور ولايته للسلطة. وهو ابن عمه وابن عم عثمان.

كان معاوية يصرفه عن الإمرة ثم يعيده. وآثر مروان وأهله الإقامة بالمدينة، في الحالين، على الذهاب الى دمشق عاصمة بني أُمية، حيث الصدارة لغيره، وحسن صِلاته بأهل المدينة. فلما وقعت مجزرة كربلاء كانت عواطفه مع أهل بلدته.

ثم أجاءته الرياح الى حيث نصبه أهله خليفة سنة ٦٤ بعد اعتزال معاوية بن يزيد. ثم خلف مروان ابنه عبد الملك لتبقى خلافته عشرين عاماً من سنة ٦٦ الى سنة ٨٦. وفي عبد الملك يقول عبد الله بن عمر: إن لمروان ابناً فقيهاً فاسألوه. لكنه بعد الخلافة صار ظلوماً غشوما:

أدخل عليه الأسرىٰ ذات يوم فأمر بضرب أعناقهم ـ دون استجواب! فقال له رجل من أهل الشام كان يعرفه أيام تنسكه ـ لقد أقست الخلافة قلبك. وكنت رؤوفاً!

فأجاب: كلا. ولكن أقساه الضغن بعد الضغن.

كان يستنكر ضرب جيوش يزيد بن معاوية للكعبة سنة ٦٣ في حصار مكة، حتى إذا ولي الخلافة ضربها الحجاج له في سنة ٧٣!

ولما سئل الحسن البصري أن يقول قوله في عبد الملك بن مروان أجاب: ماذا أقول في رجل؛ الحجاج إحدىٰ سيئاته!!

ولم يتمهد الملك لابنه الوليد إلا بعد عشرين عاماً من حكم عبد الملك، فلقد

بويع لابن الزبير بمكة سنة ٦٤ من أهل الحجاز والعراق ومصر، فدارت رحىٰ الحرب، واستمرت بيعة العراق لابن الزبير حتىٰ سنة ٧١ عندما قتل جند عبدالملك مصعب بن الزبير، وهدموا قصر الخلافة الزبيرية بالكوفة. وفي العام التالي استرجع «المدينة» لعبد الملك طارق بن عمر، وفي سنة ٧٣ قتل عبد الله بن الزبير، واستسلم للحجاج أهل «مكة».

وفي حياة الإمام جعفر الصادق كان على إمرة المدينة أبان بن عثمان حتى سنة ٨٢ حين عزله عبد الملك بهشام بن اسماعيل، الذي ضرب سعيد بن المسيب سنة ٨٥ من جراء رفضه بيعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك، وطاف به في المدينة.

ثم عزل الوليد هشاماً بعمر بن عبد العزيز سنة ٨٧؛ وعمر زوج اخته وهو زوج أخت عمر. والأربعة حفدة مروان.

وأمر الوليد عمر أن يوقف هشاماً للناس أمام دار مروان، ولكل عنده مظلمة. فمر الناس به يلمزونه ويغمزونه. فصاحب المعروف لا يقع وان وقع وجد متكأً. وكان هشام من كثرة ما أساء الىٰ علي بن الحسين (زين العابدين)(عليه السلام) يقول: ما أخاف إلا من علي زين العابدين ـ فلو أزرى به زين العابدين لحق عليه الدمار من العابدين ومن العامة ـ لكن زين العابدين(عليه السلام) ومواليه وخاصته مروا به لا يتعرضون له بكلمة. فلما مروا وسلم هشام، صاح: الله يعلم حيث يجعل رسالته.

ورد عمر بن عبد العزيز لأهل البيت(عليهم السلام) فدكا. وكان النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قد أعطاها لفاطمة الزهراء(عليها السلام) ولم يورثها أبو بكر وعمر لها. فكان اجتهاد عمر بن عبد العزيز خلافاً في الفقه مع أبي بكر ومع جده عمر بن الخطاب.

ومنع عمر الشعار الأموي الآثم؛ وهو سبّ علي(عليه السلام)، وزاد إنصافاً فاستعاض عنه شعاراً تبدو فيه معاني التوبة النصوح والاستغفار من الذنوب. وهو الآية الكريمة «ربنا اغفر لنا. ولإخواننا الذين سبقونا بالايمان».

وكان معاوية قد استحدث نظام القصص ليثني القصاص على الخلفاء من بني أمية ويزينوا للناس حالهم، فأمرهم عمر ان يقصروا الثناء (علىٰ المؤمنين).

وفي عمر يقول أحمد بن حنبل «ليس من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز» ويخاطبه كثير ـ وهو من شعراء الشيعة ـ بقوله:

وليت ولم تسبب علياً ولم تخف مريبا ولم تقبل مقالة مجرم
وصدقت بالقول الفعال مع الذي أتيت فأمسىٰ راضياً كل مسلم

وفي العام التالي لولاية عمر على المدينة حجّ الوليد، وبدا له أن يأمر بتوسعة المسجد، لتدخل فيه حجرات أمهات المؤمنين وبيت علي، الذي اذن له به النبي، في حين ردم أبواب سائر الصحابة. فنصح بعضهم الخليفة أن يعود الى مقر الملك في دمشق ويصدر أوامره منها بتوسيع المساجد عامة في مكة والمدينة وبيت المقدس، وان يبني مسجداً بدمشق، وبهذا يتحقق غرضه دون أن يلومه الناس. فرجع الىٰ دمشق وأصدر منها أوامره.

وشق الأمر علىٰ أهل المدينة وتظاهروا عليه طالبين ترك (الحجرات) كما تركها صاحب الشريعة. فأصر الوليد وأنفذ، لتنفيذ أمره، بعثة من العمال من بلاد الروم.

قال خبيب بن عبد الله بن الزبير لعمر «نشدتك الله ياعمر ان تذهب بآية من آيات الله تقول «إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون».. وطعن في بني أُمية، وبلغ خبره الوليد بدمشق فأمر بجلده. فجلد. ومضى زمن ومات خبيب. فكان عمر يقول كلما بشره بالجنة أحد: «كيف. وخبيب علىٰ الطريق!».

وفي سنة ٩١ حج الوليد فزار المسجد، وخطب على منبر الرسول (صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) قاعداً في كبرياء فنفر الفقهاء، وترضى السادات فاستفز الفقراء.

وكان عمر يؤوي بالمدينة من يتهددهم بطش الحجاج في العراق، لكن الوليد ولى الحجاج علىٰ الحج سنة ٩٢، فاستعفاه عمر من مرور الطاغية بمدينة الرسول (صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)، فقبل.



ولم يكن عدل عمر مانعاً، بل ربما صار مقتضياً، أن يعزله الوليد بعثمان بن حيان المري سنة ٩٣، فأنزل الوالي الجديد النكال بالعلماء، ومنهم ناسك المدينة محمد

بن المنكدر فقيه بني تيم قبيلة أبي بكر وأخوال جعفر الصادق(عليه السلام)، وقذف أهل المدينة من فوق المنبر بقوله «أيها الناس إنّا وجدناكم أهل غش لأمير المؤمنين في قديم الدهر وحديثه».

وامتدت يد البطش الىٰ أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري (وجده عمرو عامل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم)، فأمر بحلق لحيته لولا ان عزل الخليفة الجديد (سليمان بن عبدالملك) عثمان بأبي بكر ذاته سنة ٩٦. وبقي أبو بكر أميراً على المدينة حتى سنة ١٠١. واجتمع له القضاء والإمرة عليها في خلافة عمر بن عبد العزيز.

ولما عزلهُ يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر، بعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عذب الوالي الجديد أبا بكر. فلما عزل عبد الرحمن سنة ١٠٤، حاقت البأساء والضراء بعبد الرحمن، حتى صار يلتمس الصدقة من سوء حاله.

وفي سنة ١٠٦ تولى إبراهيم بن هشام بن اسماعيل ـ وهو خال الخليفة هشام بن عبدالملك ـ فبقى ابراهيم والياً الى سنة ١١٤. ثم عزل بخالد بن عبد الملك بن الحارث بن أبي العاص، فبقيت له الإمرة حتى سنة ١١٨.

وخطب خالد على منبر الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، فانتقص أولاد الرسول وأباهم علياً(ع)، فقام اليه داود بن قيس فبرك على ركبتيه وقال: كذبت كذبت؛ حتىٰ حيل بينهما. ثم عزل بمحمد بن هشام بن اسماعيل أخي إبراهيم فبقى حتى سنة ١٢٥.

وكما ولي محمد وابراهيم ابنا هشام، لخؤلتهما لهشام بن عبد المك، ولي الوليد ابن يزيد إمرة المدينة «خاله» محمد بن يوسف الثقفي، وأمره ان يعذبهما، وان يقيمهما للناس، وان يبعث بهما الى والي العراق ليذيقهما الهوان حتى يموتا من العذاب. ففعل. وبقي حتىٰ سنة ١٢٦ فعزل بعبد العزيز ابن (عمر بن عبد العزيز) ليبقى ثلاث سنوات حتى سنة ١٢٩، فيحل محله عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك.

وفي ولاية عبد الواحد كانت شمس بني أمية في طريقها الىٰ الغروب: لقد طرد

الحارث بن سريج عاملهم نصر بن سيار من أقصى الشرق في مرو ـ وأقبل أبو حمزة «الخارجي» يخرجهم من قلب الاسلام في المدينة سنة ١٣٠ بعد وقعة قديد. وفيها قتل من أهل المدينة خلق كثير، وفرّ عبد الواحد.

وسفر الى أبي حمزة، وهو على أبواب المدينة، السفراء: شيخ بني هاشم عبدالله بن الحسن، ومحمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان، وكان محسوباً مع بني هاشم لما يجمعه بهم من رحم، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر خال الإمام الصادق(عليه السلام)، وعبدالله بن عمر بن.. عمر، ومعهم ربيعة الرأي شيخ مالك بن أنس، في رجال آخرين. فعامل أبو حمزة الوفد معاملة الخوارج للصحابة: عبس وبسر في وجه الأولين حفيدي علي وعثمان. وبشر في وجه الثالث والرابع ـ حفيدي الشيخين: أبي بكر وعمر. وقال لهما: والله ما جئنا إلا لنسير بسيرة أبويكما.

قال شيخ بني هاشم والله ما جئناك لتفضل بين آبائنا، ولكن بعثنا اليك الأمير برسالة، وهذا ربيعة يخبرك بها..

أقام أبو حمزة بالمدينة ثلاثة أشهر ثم خرج لقتال جند الشام فانهزم..



ثم جاءت دولة بني العباس. وتولى إمرة المدينة للسفاح عمه داود بن علي فقام فخطب فقال: أيها الناس أغرّكم الإمهال حتىٰ حسبتموه الإهمال؟.. والسيف مشهر:

حتى يبيد قبيلة فقبيلة ... ويعض كل مثقف بالهام

ويقمن ربات الخدور حواسراً ... يمسحن عرض ذوائب الأيتام

لكن الله عاجله بعد ثلاثة أشهر فلقي حتفه ـ وولي بعده زياد بن عبد الله بن المدان خال السفاح.

وأحاط السفاح ببني أمية: دعاهم، ومنحهم الأمان، حتى إذا اجتمعوا به أعمل رجاله السيوف فيهم، وكانوا نيفاً وثمانين رجلاً. وفي سنة ١٣٢ قتل عمّاله من أشياعهم ثلاثين ألفاً بالشام.

واستدعى عبدالله بن علي، أخو داود، وقائد جيش الشام، الإمام الأوزاعي إمام

الشام الىٰ عسكره فسأله: ماتقول في بني أمية؟

قال: لقد كانت بينك وبينهم عهود، وكان ينبغي أن تفوا بها.

قال: ويحك! اجعلني وإياهم لا عهد بيننا.

يقول الأوزاعي «فأجهشت نفسي وكرهت القتل.. فذكرت مقامي بين يدي الله فقلت: دماؤهم عليك حرام»

فانتفخت عيناه وأوداجه وقال: ويحك لِمَ؟

قلت: قال رسول الله: «لايحل دم امرئ مسلم إلا بثلاث: ثيب زان ونفس بنفس وتارك دينه».

قال: ويحك أوليس الأمر لنا ديانة؟ أليس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أوصي لعليّ؟

فسكت.. وجعلت أتوقع رأسي يسقط.

وقال: أخرجوه. فخرجت.

وروى عبدالله بن علي رماحه من الدم بما لم يسمع التاريخ بمثله. حتى إذا ولى أبو جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨) ـ عزل زياد بن عبدالله بن المدان عن المدينة بمحمد بن خالد القسري، وأمر بحمل زياد بن عبدالله الى العراق مكبلاً بالحديد.

ثم عزل محمد بن خالد وولى مكانه رباح بن عثمان بن حيان سنة ١٤١، وهو ابن عم مسلم بن عقبة (الذي يسميه البعض مجرم بن عقبة ـ فهو قائد الجيش الذي دمر المدينة وارتكب الفظائع في معركة الحرة سنة ٦٣) ففاخر الناس بنقائصه قال: أنا الأفعىٰ ابن الأفعىٰ أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفني رجالكم.

فوثب عليه الناس فحصبوه بالحصىٰ ورموه بالحجارة.

وفي إمرته اقتحم الجند منازل أهل البيت (عليهم السلام) فأخرجوا منها رجالهم الىٰ السجون. ومرت مواكب أهل البيت في شوارع المدينة وهم في الأصفاد. هزلهم العذاب والأيام الشداد، ثم سيقوا الى الكوفة، ليودعوا السجن حيث حبسوا ـ كما

يقول المسعودي في مروج الذهب ـ في سرداب تحت الأرض لا يعرفون الليل من النهار حتىٰ مات أكثرهم، ثم خرّ عليهم، ليموت تحت أنقاضه الأحياء منهم، ويدفن الذين سبقوهم الىٰ الموت دون أن يعني بهم أحد.

وبقي رباح حتى خرج محمد بن عبدالله (النفس الزكية) علىٰ المنصور وقبض الخارجون علىٰ رباح وأدخلوه سجن المدينة هو وأخاه.

ولما انتهت الحرب عيّن المنصور على المدينة عبدالله بن الربيع الحارثي فبقي حتى سنة ١٤٧ ثم عزل. فولى مكانه جعفر بن سليمان بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس، فبقي والياً حتى سنة ١٤٩. وهو الذي أمر بضرب مالك بن أنس حتى انخلعت كتفه وطافوا به في المدينة.

وفي ولاية جعفر بن سليمان توفي الامام الصادق(عليه السلام).

* * *

بهذه الوجازة العجلى لأمر الولاة في نحو قرن من الحكم الأموي والمرواني والعباسي للمدينة، عاش فيه الامام الصادق(عليه السلام)، تتكشف أمور حسبنا أن ننبه علىٰ بعضها الآن:

١ ـ ففي حكم مروان، لم يكن لأهل البيت(عليهم السلام) بخاصة مشكلة مع الدولة، وإنما كانت المشكلة لأهل المدينة عامة مع العاصمة. أما ثورة زيد بن علي زين العابدين(عليهما السلام) سنة ١٢١ وابنه يحيى سنة ١٢٥[1] فكان في أواخر أيام بني مروان.

(١) ادعى خالد بن عبدالله القسري مالا قبل زيد وأبناء الصحابة. فدعاهم الخليفة هشام بن عبد الملك الى العاصمة وسألهم فأنكروا مزاعمه. فأعادهم الى واليه على العراق يوسف بن عمر ليستحلفهم. وقيل ان هشاما لم يرد السلام على زيد فأغلظ له زيد في الكلام. وكان زيد في الذروة من فقهاء العصر ـ ولما رجعوا الىٰ الكوفة استحلفهم يوسف فحلفوا، لكنه أبقاهم محبوسين في انتظار رأي هشام. فأمره بإخلاء سبيلهم فخرج زيد من الحبس قاصداً القادسية. واجتمع اليه شيعة الكوفة وطلبوا اليه الخروج علىٰ الخليفة وتعهدوا بنصره. فخرج اليهم، فجمعوا له أربعة آلاف رجل ثم انفضوا من حوله. فحارب حرب الأبطال حتىٰ استشهد. فكان منهم معه ماكان من آبائهم مع جده أي (فعلوها حسينية) كما قال. ثم خرج ابنه يحيى فقتل سنة ١٢٥.

وكذلك كان خروج عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر سنة ١٢٧، بعد عامين من استشهاد يحيى بن زيد. ولقد سلم عبدالله نفسه لأبي مسلم الخراساني بعد أن انهزم نصر بن سيار والي خراسان لبني مروان. فقضى أبو مسلم عليه بعد ان استسلم.

بهذا يمكن القول ان زين العابدين، وابنه محمدا الباقر (عليهما السلام) عاشا أكثر من نصف قرن في سلام مع السلطة. وبهذا السلام تبوءا الذروة من الاحترام والطمأنينة اللذين يمهدان للعلم أن ينتشر، وللقدوة الصالحة ان يشيع هداها، كالشعاع ينشر النور في المدينة ويحمل الدفء الى الأفئدة الوافدة من شتى الأقطار.

٢ ـ كان الأمراء على المدينة إما أقرباء للخلفاء في دمشق والأنبار والكوفة، وإما صنائع لهم. لكنهم كانوا ـ عدا عمر بن عبد العزيز ـ مستضعفين من الجميع، يعزلون، ويقامون للناس، ليتخذوهم سخريا أو ينكلوا بهم.

وفي أواخر أيام بني مروان سخر الناس منهم علانية، واصطدموا بهم، إذا مسوا أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) بسوء.

وكان عبدالملك قد أوصى عامله على المدينة بقوله: «جنبني دماء بني هاشم فإني رأيت آل حرب لما تهجموا عليهم لم ينصروا» ـ وهو الباطش، الذي تولى له بالعراق الحجاج، وبخراسان المهلب بن أبي صفرة، وبمصر هشام بن اسماعيل وابنه عبدالله، وباليمن محمد أخو الحجاج، وبالجزيرة محمد بن مروان (أخو عبدالملك). وكل من هؤلاء ظالم فاتك.

ولما سئل عبدالله بن المبارك: أبو مسلم خير أم الحجاج؟ أجاب: «لا أقول أبو مسلم خير من أحد، لكن الحجاج شر منه».

٣ ـ أما في عهد العباسيين ـ أبناء العمومة ـ فقد هبت على بني علي (عليه السلام) ريح صرصر، من الطغيان المدمر، لتنزل بهم وبأحفاد الصحابة والتابعين الفزع الأكبر، كهيئة ما صنع بنو أمية في كربلاء والحرة. وطبائع الطغيان واحدة.

أهل المدينة

غاضبت دمشق العراق والحجاز أيام صيرها معاوية حاضرة بني أمية. وتابعته علىٰ ذلك دولة بني مروان. لكن المدينة بلدة طيبة وشعب كريم. ثار أهلها علىٰ الأمويين بعد كربلاء ثم تركوهم يجلون عنها، علىٰ موثق من أهلها، ألا يدلوا جند يزيد علىٰ عوراتها.

رحل الأمويون الى الشام إلا زوج مروان بن الحكم، عائشة بنت عثمان بن عفان، توجهت الىٰ الطائف في حماية «علي زين العابدين عليه السلام».

والمدينة واحة في قفر، والرزق نزر في الصحاري الساخنة، إلا ما يرد الى الناس من تجارة أو عطاء، متقطع كسحائب الصحراء، يجري، ويجف، حسب الشهوات، في دمشق. وأهل البيت (عليهم السلام) تجيئهم حقوقهم في بيت المال أو لا تجيء، لكنهم ينفقون المال خفية وعلانية ـ ولو كان بهم خصاصة ـ فعلي زين العابدين (عليه السلام) مصدر من مصادر الرزق المجهولة للناس، لايُعرف إلا بعد أن يموت، فيتفقد الناس المصدر فيعرفونه. وكذلك أبناؤه، يتزعمهم الباقر (عليه السلام)؛ وهو القائل: إن استطعت ألا تقابل أحداً إلا ولك الفضل عليه فافعل.

أما ابن عمهم عبدالله بن جعفر بن أبي طالب فكان وثيق العرى بالخلفاء. سأله يزيد بن معاوية يوماً: كم عطاؤك؟

قال: ألف ألف درهم.

قال يزيد: قد أضعفناها لك.

قال ابن جعفر: فداك أبي وأمي. وما قلتها لأحد قبلك. فضاعف يزيد عطاءه مرة ثانية.

ولما خرج عبدالله من المجلس، قال جلساء يزيد: تعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف درهم!

قال: ويحكم إني أعطيتها أهل المدينة أجمعين. فما يده فيها إلا عارية.

والحق ان الفقراء كان لهم في أمواله حق معلوم، فكانوا يستدينون في انتظار ورود عطاء عبدالله بن جعفر من العاصمة.

وكان الخلفاء يحجرون على شباب قريش أن يبرحوا الحجاز إلا بإذن فأمسىٰ سجنا واسعاً لمن فيه منهم. وازداد أهله انعزالاً وارتباطاً فتراحموا، وتصاهروا، لتصير المدينة مجتمعاً مقطوع القرين، نرى فيه: «سكينة بنت الحسين» يبنى بها «مصعب بن الزبير» ثم يبني بضرة لها «عائشة بنت طلحة».. أي أطراف يوم الجمل تجتمع في بيت واحد.

واليك أطرافاً أخرىٰ في أختها فاطمة: ولدتها أم اسحق بنت طلحة. وتزوجها عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان. ويرزقان محمداً. وله بنت من خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير تدعى حفصة. وأم عروة أسماء بنت أبي بكر. فهؤلاء: رسول الله وخمسة من العشرة المبشرين بالجنة علي وأبو بكر وعثمان وطلحة والزبير يجتمعون في حفصة!

أما الإمام الصادق(عليه السلام) فآية من الآيات.

جدّه لأبيه زين العابدين. وزين العابدين وسالم بن عبدالله بن عمر والقاسم بن محمد بن أبي بكر أولاد خالات ثلاثة. هنّ بنات كسرىٰ يزدجرد.

وأبوه الباقر ولدته لزين العابدين بنت عمه فاطمة بنت الحسن.

وأمه أم فروة بنت «القاسم» بن محمد بن أبي بكر. وقد تزوج أمير المؤمنين علي(عليه السلام) أم محمد، أسماء بنت عميس، بعد موت أبي بكر. فصار ربيبه، وترعرع في كنفه حتى شهد معه الجمل. وكان علىٰ الرجالة. وشهد معه صفين. وولاه مصر حتى قتلته جيوش معاوية في مصر.

وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر عم القاسم وشقيق عائشة. شهد اليمامة مع خالد. وقتل محكم اليمامة في الحصن فاقتحمه المسلمون. وبعث اليه معاوية بمائة ألف درهم فردها وقال: لا أبيع ديني بدنياي.

وعبد الرحمن هو القائل وهو يرفض البيعة ليزيد: «جعلتموها هرقلية كلما مات

هرقل قام هرقل».

فجعفر الصادق قد ولده النبي عليه الصلاة والسلام مرتين، وعلي مرتين، والصديق مرتين، ليدل بهذا المجد الذي ينفرد به في الدنيا على أنه نسيج وحده.

ومن الناحية الأخرى ولده كسرى مرتين، ليدل الدنيا ـ من أعلى مواقعها ـ على ان الإسلام للموالي والعرب. فذلك هو الدين الذي جاء به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).. والذي دافع من أجله عن المساواة بين المسلمين كافة، أمير المؤمنين علي (عليه السلام).

هكذا وحدت المدينة مجتمعها، ورفعت أبناء الصحابة الى أعلى مقام. وأهل البيت الى صدارة المجتمع، يمدون أنسابهم الى هاماته وأسبابهم الى طبقاته.

وذات يوم أصهر الحجاج الى عبدالله بن جعفر في بنته أم كلثوم، فأبرد اليه الخليفة عبد الملك ليسوغ أباها المهر ويعجل طلاقها، لأنه تجاوز قدره. وهي حجة ظاهرة، قد تخفي حجة حقيقية، إذا كان يخشى أن يمد الحجاج بسبب الى أسرة قد يشمله هداها، أو يأسره الإخلاص لها، أو يبعده عن أن يكون ـ بجمعه ـ لعبد الملك، وبقسوته على من عداه.



لكن العلم ظل الخصيصة الكبرى «للمدينة». ففيها وضعت القواعد العامة لتطبيق المبادئ الإلهية التي بعثت بها السماء آخر رسلها لإصلاح البشر، ووضعت أسس الدولة ومبادئ الجماعة وانتشر الدين في القارات الثلاث المعروفة؛ لتقدم الحضارة الإسلامية، سياسة وإدارة، وتشريعاً، دولياً ومدنياً وجنائياً، واقتصادياً، وقواعد علمية، وعلوماً تطبيقية ورياضية لم تشهدها القرون من قبل، وستبنى عليها الحضارات جميعاً، فتكون طريقاً للبشرية من جهالات القرون الأولى الى حضارات العصور الحديثة العلمية والاقتصادية والتشريعية والاجتماعية.

ولما انقضى عهد الرسالة والراشدين الأربعة، تابعت عاصمة الإسلام ـ وان لم تعد عاصمة الدولة ـ رسالتها بالفقه.. وهو في الحضارة الإسلامية كحجارة الأساس في البنيان: ان كانت منه قواعد الفكر الاسلامي كافة، وكانت الحرية الفكرية لحمته

وسداه، والفضيلة الإنسانية مبدأه ومنتهاه. وفيه صلاح الناس، والتخفيف عليهم، وفتح أبواب الرجاء لهم، وتمكينهم من التطور لملاحقة حاجات الأعصر، بأداته «الديناميكية» ـ المحركة ـ نحو التقدم، وهي اجتهاد الرأي.

وفي أهل البيت (عليهم السلام) كان النبي مدينة العلم وعلي بابها، وريحانتا الرسول من الدنيا الامام «الحسن» و«الإمام الحسين» يمثلون الجيل الأول. وفي الجيل الثاني كان السجاد ـ من كثرة السجود ـ أو زين العابدين ـ من كمال عبادته ـ وابناه الباقر وزيد. وكان لزيد مذهبه.

أما الجيل الثالث من القرون المضلة فقد تراءى فيه للمسلمين جعفر بن محمد الصادق(عليه السلام)، بدر تمام، لجيل كان ختام أجيال.

وأما من عدا أهل البيت(عليهم السلام) فقد نهض عنهم الصحابة وأبناؤهم وأحفادهم بعبء العلم نهضة جديرة بدين يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. فاشتهرت بينهم أمّ المؤمنين عائشة وأم سلمة، وزينب بنت أبي سلمة، والعبادلة الأربعة أبناء العباس، وعمر، والزبير، وعمرو، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وبنته حفصة وعروة بن الزبير ابن أخت عائشة، وابن أخيها القاسم بن محمد بن أبي بكر، وراويتها عمرة بنت عبد الرحمن، وهؤلاء الثلاثة أعلم الناس بحديث عائشة، وسالم بن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب وخارجة بن زيد وعبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وأبو بكر بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار، وتعلم عليهم جيل جديد؛ فيه محمد بن شهاب الزهري وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، ومحمد بن المنكدر، ومحمد وعبدالله ابنا أبي بكر بن حزم، وربيعة الرأي، وهؤلاء مشيخة مالك بن أنس.

ومالك يعاصر في النصف الثاني من القرن الثاني نهاية الأجيال المفضلة. ثم هو شيخ المدرسة التي نجب فيها محمد بن ادريس الشافعي وتلميذه أحمد بن حنبل.

ولقد طالما زاحم التلاميذ أشياخهم في العلم وان لم يزاحموهم في مكانتهم عند الله والناس.

ومن المدينة انطلق الفقه الاسلامي الى العراق، حيث أقام عبدالله بن مسعود زماناً معلماً ووزيراً كما سمّاه عمر، وتعلم عليه تلاميذه وتلاميذ علي(عليه السلام)، كعبيدة، وعلقمة، والحارث. وعن طريق علقمة تعلمت مدرسة النخعيين يتقدمها الأسود وعبد الرحمن، ويتوسط عقدها إبراهيم ابن يزيد شيخ حماد بن أبي سليمان.

وفي حلقة حماد بالكوفة قضى أبو حنيفة عشرين عاماً يتعلم، ليصبح علما على مدرسة الرأي والقياس الذي قعد قواعده الشافعي فانتشر في كل فروع العالم الاسلامي.

وهوى أبي حنيفة مع أبناء علي(عليه السلام) معروف، وصلة فكره بزعماء أهل البيت(عليهم السلام) واضحة، وان مذهبه ليقارب المذهب الزيدي أكثر مما يقارب المذهب الحنفي غيره من مذاهب أهل السنة كما قيل.

ولقد استشهد زيد ـ بن زين العابدين(عليه السلام) ـ سنة ١٢١، وفي ذلك العهد جلس أبو حنيفة مجلس حماد بن أبي سليمان بعد وفاته، وشرع يدوّن بعض مذهبه وكثيراً من الفروع. ثم مكن أبو يوسف للمذهب بتولية زملائه القضاء، ليلزموا الناس به، ثم نشره محمد بن الحسن بتدوينه في كتبه الشهيرة.

وتدوين الفقه في كتاب «المجموع» قد سبق به زيد مدرسة أبي حنيفة. ولعل أبا حنيفة تعلم تدوين الفقه عليه ـ بل ان الجميع قد قلدوا فيه صنيع أهل البيت أنفسهم ولديهم الكتب فيها العلم، أحاديث وفقهاً، يتعلمونه كابراً عن كابر.

فالحجاز والعراق قد تضامنا في إنتاج الفقه،لتتابعهما بعد ذلك شتى الحواضر، في الفسطاط ودمشق وقرطبة والقيروان، وفي المغرب وفي المشرق، وفي الاندلس، ووسط آسيا.

وظاهر من هذا التاريخ أمور:

١ ـ ان المذاهب الفقهية جميعاً بما فيها المذاهب الباقية الى اليوم لأهل السنة، يتصدرها في الظهور مذهب أهل البيت على يد زيد بن علي زين العابدين. وكذلك يسبق «المذهب الزيدي» مذهب الإمام جعفر الصادق(عليه السلام)، الذي تبعه الأئمة من

نسله، وصار يسمى مذهب «الإمامية». فالصادق(عليه السلام) صار إماماً بموت أبيه الباقر(عليه السلام) في العقد الثاني من المائة الثانية، ثم كانت وفاته بعد استشهاد عمه زيد سنة ١٢١ بسبعة وعشرين عاماً سنة ١٤٨.

أما أبو حنيفة فمات في سجن أبي جعفر المنصور سنة ١٥٠. وأما مالك فمات بعد أبي حنيفة بتسعة وعشرين عاماً سنة ١٧٩. والشافعي مات بعد أبي حنيفة بأربعة وخمسين عاماً سنة ٢٠٤، ولحق بهم ابن حنبل سنة ٢٤١. وأصحاب المذاهب الأخرىٰ بين معاصرين لهم أو لاحقين.

٢ ـ ان الامام «جعفر الصادق(عليه السلام)» كما سنرىٰ، ينهى عن استعمال القياس كمثل ما يرفضه فقهاء المدينة عموماً والمحدثون خصوصاً. وهم زعماء الفقه في المائة الأولىٰ من الهجرة.

وسنرىٰ بعد ان نهى «الصادق (عليه السلام)» عن القياس لا يعارض الاجتهاد، بل إنه ليأمر به، ويبلغ بمنهاجه في الاجتهاد ما لا يبلغه سواه.

وسنرىٰ ان منهاجه في الاعتبار والاستخلاص هو منهج الفكر الإسلامي، نقله عن الفكر العالمي.

٣ ـ ان البيئة التي عاش فيها أهل البيت(عليهم السلام) ستين عاماً بعد مجزرة كربلاء، كانت منجبة، بظهور العلم والعلماء من الرجال والنساء. فشاركت المرأة في العلم في عهد أمهات المؤمنين، ووجدت الفقيهات في جيل التابعين وتابعي التابعين من أهل السنة، فتصدرت نساء أهل البيت سكينة بنت الحسين (١١٧) رضى الله عنهما، وكانت في الطليعة، تساجل فحول الشعراء، بل الفقهاء.

٤ ـ وفي الهدأة الوقور في هذه البيئة ازدهر العلم على النحو الذي كان حرياً بالمدينة، وبأهل البيت، من حفظ لحديث الرسول وتريث في النظر والمناظرة، وتلبث في إبداء الآراء، لما فيها من شبهة المخاطرة، وصدق في خدمة حديث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بالعمل به و تعليم الناس إياه.

وإنما اشتعلت الثورات، وشققت الفلسفات، في العراق. ففيها تعاقبت ثورات

التوابين، والخوارج، والخارجين ـ كابن الزبير وابن الأشعث والآخرين ـ ومن غليان المراجل هنالك أحدثت المبادئ الهدامة أو الغلواء أو الخصومات آثارها، كمثل ما نسب الى الغلاة الذين تبرأ منهم الشيعة، كما تبرأ الإمام علي (عليه السلام) ممن ألهوه، فحرقهم بالنار.

لكن آراء الغلاة وأعداء الاسلام لم تكن تكاد تفد على المدينة حتى تخرج منها واهنة أو محطمة.

ففي جوها النقي، تفتحت أبواب بيت النبي (صلى الله عليه وآله)، وتخرج في علومها الأئمة.

(زين العابدين)

٣٨ـ ٩٤

تعاظم بيت زين العابدين (عليه السلام) في عدد أفراده يوماً بعد يوم، وقدم «السجاد» لنا ابنه «الباقر»، ثم قدم الباقر ابنه «الصادق» (عليهما السلام). فكانوا مثلاً عليا في العزوف عن السلطة والانصراف الى تعليم الناس العلم الصحيح والعمل الصالح والأسوة الحسنة.

روى عن جابر بن عبدالله وابن عمر إلىٰ جوار روايته علم أهل البيت وحديثهم عن أبيه الحسين وأم المؤمنين أم سلمة. وسمع ابن عباس.. ليروى عنه فيما بعد ابناه عبدالله والباقر وخلق كثير. ورأى بعيني المريض العاجز عن الاستشهاد، مصير أبيه العظيم، وإخوته وأعمامه وأولادهم يوم كربلاء.

وتجلت فيه الفضائل المنبثقة من الورع والرحمة: يصلي لله في اليوم والليلة ألف ركعة؛ ولهذا سمي «السجاد». إذا توضأ اصفرّ لونه وإذا قام أردع من الفرق. ولما سألوه قال: أتدرون من أريد أن أقف بين يديه ومن أُناجي؟

ومع تألّق عبدالله بن جعفر بالمدينة، وهو الصحابي الذي يحرص الخلفاء في دمشق على ارضائه، وتفريق عبدالله عطاءه الجزل في فقراء المدينة، واستشهاد ابنين له يوم الحرة، وثالث في كربلاء، ومع انه زوج زينب بنت علي، عمة زين العابدين (عليه السلام)، مع هذا كله كان زين العابدين يحتل مكانه في الصدارة، ويحمل

وصفه بجدارة.

وفي ذلك نص يروى عن مالك بن أنس قال: «سمي زين العابدين لعبادته».

علّمته المحنة والورع الحكمة وحسن الخطاب، فكان في باكورة حياته علىٰ علم عظيم. قال له يزيد يوم أُدخل عليه ـ مريضاً ـ مع نساء أهل البيت (عليهم السلام) الناجيات من كربلاء ـ: أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله به ما قد رأيت.

قال زين العابدين(عليه السلام): «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها».

قال يزيد: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم».

قال زين العابدين(عليه السلام): «هذا في حق من ظَلم لا مَنْ ظُلم»(١).

تتابع على الكذب ولاة الشام والأمصار من عهد معاوية يشتمون علياً(عليه السلام) بأمر بني أمية، فكان يبقى من كذبهم شيء في عقول العامة، أو الصبية الذين لا يعلمون.

كان عبيدالله بن مسعود من فقهاء المدينة السبعة، وكان معلم عمر بن عبد العزيز وهو صبي أودعه أبوه أخواله ـ بني عدي قوم عمر بن الخطاب ـ بالمدينة. فسمع يوماً شتم علي، فقال لعمر: يابني. متىٰ علمت أن الله غضب علىٰ أهل بدر؟ قال الصبي: وهل كان علي في بدر؟ قال عبيدالله: وهل كانت بدر كلها إلا لعلي!

فلما ولي عمر الخلافة أبطل شتم أهل البيت (عليهم السلام)، وردّ اليهم حقوقهم.

وقال رجل من أنصار الأمويين بالشام: دخلت المدينة فرأيت رجلاً راكباً علىٰ بغلة

---

(١) ولما جيء بزين العابدين (عليه السلام) في أسرى كربلاء أقيم على درج دمشق، فقال له رجل من أهل الشام: الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة. قال زين العابدين: قرأت القرآن؟ قال الرجل: نعم. قال: قرأت الـ. حم؟ قال الرجل: نعم. قال: أما قرأت (قل لا اسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) قال الرجل: فإنكم إياهم؟ قال نعم. ويقصد الامام الآية ٢٣ من سورة الشورى (ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور) وأول آيات سورة الشورى (حم).

لم أرَ أحسن وجهاً ولا ثوباً ولا سمتاً ولا دابةً منه. فسألت فقيل: هذا علي بن الحسين بن علي (عليهم السلام). فأتيته ـ وقد امتلأ قلبي له بغضاً ـ فقلت: أنت ابن علي بن أبي طالب؟ قال: أنا ابن ابنه. فقلت: بك وبأبيك أسب علياً. فلما انقضى كلامي قال: أحسبك غريباً؟ مل بنا الى الدار فان احتجت منزلاً أنزلناك، أو الى مال واسيناك، أو الى حاجة عاونّاك على قضائها.

فانصرفت من عنده، وما على الأرض أحد أحب الي منه.

ويروى أنه احترق البيت الذي هو فيه وهو قائم يصلي، فلما انصرف (من الصلاة) قيل له: مابالك لم تنصرف حين اشتعلت النار؟ قال: اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى.

وأنه لما حجّ وأراد أن يلبي أرعد، واصفر وخرّ مغشياً عليه. فلما أفاق سئل فقال: إني لأخشى أن أقول: لبيك اللّهم لبيك. فيقول: لا لبيك ولا سعديك ـ ثم لبى. فغشي عليه حتى خرّ عن راحلته.. وكان يرحل من المدينة الى مكة فلا يقرع راحلته مرة واحدة!



يقول الأصمعي «لم يكن للحسين (عليه السلام) عقب إلا من ابنه زين العابدين. ولم يكن لزين العابدين نسل إلا من ابنة عمه الحسن، فجميع الحسينيين من نسله».

أما أكبر صدقته فبالليل. يقول: «صدقة السرّ تطفئ غضب الرب».

ومع عظم مكانه كان إذا دخل المسجد تخطى الرقاب حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم، اذا كان هنالك. فيقول له نافع بن جبير بن مطعم: أنت سيد الناس.. تأتي تتخطى خلق الله وأهل العلم من قريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود؟ فيجيب: «انما يجلس الرجل حيث ينتفع. وان العلم يطلب حيث كان».

فاذا جلس زين العابدين في المسجد جلس بين القبر والمنبر، وانعقدت حلقة كحلقة أبيه في روضة كرياض الجنة، يقول عنها القائل «اذا دخلت مسجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) فرأيت حلقة كأنّ على رؤوسهم الطير فتلك حلقة أبي عبدالله مؤتزراً

الىٰ أنصاف ساقيه».

ولقد يتحدث مع سليمان بن يسار (١٠٧) مولى أم المؤمنين ميمونة الى ارتفاع الضحىٰ. فإذا أرادا أن يقوما قرأ عليهما عبدالله بن أبي سلمة سورة، فإذا فرغ عبدالله من التلاوة دعوا الله سبحانه.

ولقد يدخل ابن شهاب الزهري (١٢٤) وصحبه فيسأله فيم كنتم؟ فيجيبه أنهم كانوا يتذاكرون الصوم وأنهم لم يروه واجباً إلا في رمضان فيقول السجّاد(عليه السلام) ـ الصوم علىٰ أربعين وجهاً. ثم يشرحها له وجهاً وجهاً؛ فمنها ما يجب، ومنها ماهو بالخيار أو الإباحة.. الخ.

وفي علمه يقول محمد بن سعد (صاحب الطبقات): «كان زين العابدين ثقة مأموناً كثير الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، عالماً، ولم يكن من أهل البيت مثله»

ويقول الزهري: «ما رأيت أفقه من زين العابدين لولا انه قليل الحديث».

وهذه الشهادة بالفقه من الشيخ مالك بن أنس تعلن رأي جيل التابعين.

بل ان الزهري يعلن مكانة زين العابدين بين كل الأحياء بقوله: «ما رأيت قرشياً أفضل منه». قصد اليه يوماً، ونفسه تكاد تبسل من ذنب ألم به، فرده الامام الىٰ صميم الإسلام؛ قال: «قنوطك من رحمة الله التي وسعت كل شيء أعظم من ذنبك».

والشافعي الذي يقول في ابن شهاب الزهري: لولا الزهري لذهبت السنن من المدينة» يضع زين العابدين(عليه السلام) في أعلىٰ مكان. فيعده أعلم أهل المدينة.

كان كثير البكاء من يوم كربلاء. فقيل له في ذلك فقال: «إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضّت عيناه من الحزن علىٰ يوسف ـ ولم يتحقق موت يوسف ـ وقد رأيت بضعة عشر رجلاً من أهلي يذبحون في غداة واحدة».

وربما فسّر لنا هذا المقال بعض أسباب انصرافه الىٰ تعليم المسلمين دينهم، لصلاح دنياهم، وإجماع المسلمين علىٰ إجلاله[1].

---

(١) حج هشام بن عبد الملك في خلافة أبيه، فرأىٰ رجلاً ينجفل الناس اليه، ويفسحون في الطواف له، في حين

وفي سنة ٩٤، سنة الفقهاء، مات جمع من فقهاء المدينة: عروة ابن الزبير، والسعيدان: ابن جبير وابن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمٰن. وارتفعت فيها أو في سنة ٩٥ روح زين العابدين (عليه السلام) الىٰ الرفيق الأعلىٰ.. مخلفاً أربعة عشر ولداً منهم عشرة رجال كبيرهم محمد، أبو جعفر، المكنى بالباقر، وفيهم زيد بن علي.

(الباقر)

٥٧ ـ ١١٤

انصرف الامام الباقر (عليه السلام) للعلم بكله. فهذا أول دروس أبيه له. بقر العلم أي تبحر فيه، فسمي الباقر.

روى علم أبيه وجديه الحسين والحسن وجد أبيه ـ علي ـ (عليهم السلام) وجادل عبدالله

لايحفل الناس بابن الخليفة. فسأل من هذا؟ وسمع الفرزدق السؤال؛ فأنشد ميميته الطويلة المشهورة في الأدب العربي؛ ومما جاء فيها:

هذا ابن خير عباد الله كلهمُ ... هذا التقي الطاهر العلم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
إذا رأته قريش قال قائلها ... الى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمى الىٰ ذروة العز التي قصرت ... عن نيلها عرب الاسلام والعجم
يغضي حياء ويغضى من مهابته ... فلا يكلم إلا حين يبتسم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده انبياء الله قد ختموا
الله شرّفه قدراً وعظمه ... جرى بذالك له في لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت والعجم
ماقال «لا» قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم
من معشر حبهم دين. وبغضهم ... كفر. وقربهم منجى ومعتصم
من يعرف الله يعرف أولية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

وغضب هشام وأرسل زين العابدين (عليه السلام) للفرزدق أربعة آلاف درهم، ردها الفرزدق قائلاً: إنما مدحتك بما أنت أهله، وردها الامام قائلاً: إنّا أهل بيت اذا وهبنا شيئاً لانستعيده.

بن عباس. وعنه روى بقايا الصحابة والتابعين.

سأل سائل عبدالله بن عمر في مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله) فأشار الى حيث يجلس الباقر (عليه السلام) وقال: «اذهب الىٰ هذا الغلام وسله وأعلمني عمّا يجيبك» فلما عاد اليه بالجواب قال: «انهم أهل بيت مفهمون».

وروى عنه الفطاحل: أخوه زيد وابنه جعفر الصادق، ثم الأوزاعي إمام الشام، وابن جريج امام مكة، وأبو حنيفة، وعبدالله بن أبي بكر ابن حزم شيخ مالك إمام المدينة، وحجاج بن أرطاة (١٤٥)، ومكحول ابن راشد، وعمرو بن دينار (١١٥)، ويحيى بن كثير (١٢٩)، والزهري (١٢٤)، وربيعة الرأي (١٣٦)، شيخا مالك، والأعمش، وجابر الجعفي (١٢٨)، وزرارة بن أعين (١٥٠)، والثلاثة الأخيرون من كبار علماء الشيعة ورواة ابنه جعفر الصادق(عليه السلام).

يقول محمد بن المنكدر ـ شيخ مالك بن أنس ـ في الباقر(عليه السلام): «ماكنت أرى ان مثل علي بن الحسين يدع خلفاً يقاربه في الفضل حتىٰ رأيت ابنه محمداً الباقر».

وما هو في سجاياه إلا خليفة «السجاد»، يطوف بالبيت فيركع، ويسجد، فإذا مكان سجوده مبتل بالدموع.

يقول عنه الحسن البصري: «ذلك الذي يشبه كلامه كلام الأنبياء».

عايش الباقر (عليه السلام) أباه زماناً طويلاً، ولم يمتحن محنة أبيه في كربلاء، أو محنة أخيه زيد إذ أخرجه أهل الكوفة وخذلوه، ولم تعتور حياته الامتحانات المتعاقبة التي اعتورت حياة ابنه ـ الامام الصادق ـ أو خلافات بني عمومته ـ أبناء الحسن ـ أو الإرهاب الفكري أو الفعلي من الخليفة المنصور؛ فأتيح للباقر أن يبلور اتجاه اهل البيت(عليهم السلام) ـ من نسل الحسين ـ الىٰ العلم والتعليم، ويبرز فيه العناية بفقه العبادات والمعاملات. وكثر ترديد اسمه مصاحباً لاسم ابنه الإمام الصادق في كتب الفقه الشيعي. واليه يرجع اصحاب الكلام في العقائد الشيعية، وكثير من الفقه المستنبط من القرآن والسنة.

وروى عنه جابر الجعفي أكثر من خمسين ألف حديث، وروى عنه محمد بن

مسلم ثلاثين ألفاً. وكان عبدالملك بن مروان يعرف له حقه، وهو في صدر شبابه، في حياة أبيه.

اليك أمثالاً لفكره في السياسة والفقه والتفسير:

ـ روى الكسائي: دخلت على الرشيد فقال: هل علمت أول من سنّ الكتابة على الذهب والفضة؟ قلت عبدالملك بن مروان. قال ما السبب؟

قلت: لا أعرف.

قال: كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر على دينهم. وكانت تطرز (أبا وابنا وروحا) وتخرج من مصر تدور في الآفاق. فأمر عبد العزيز ـ وكان عامله على مصر ـ بإبطال ذلك، وأن تطرّز بصورة التوحيد.. مشهداً الله ألا إله إلا هو.. فلما وصلت القراطيس الى ملك الروم كتب الى عبد الملك: إن لم يرد هذا الطراز على ما كان عليه فسينقش على القراطيس شتم النبي. فاستشار عبد الملك، فلم يجد عند أحد رأياً، فاستشار الباقر (عليه السلام).

فقال له: لا يعظم عليك هذا الأمر من جهتين؛ الأولى: أن الله عزوجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم. والثانية: أن تتهدد من يتعامل بغير دنانيرك. فلما علم ملك الروم أن دنانيره سيبطل التعامل بها إن حوت شتماً، كف عمّا تهدد به.

ـ وفي الاحتكار ورفع الأسعار، يقول في مسجد الرسول: قال رسول‌الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أيما رجل اشترى طعاماً فكبسه أربعين صباحاً، يريد غلاء المسلمين، ثم باعه فتصدق بثمنه، لم يكن كفارة لما صنع».

ـ واليمين عند الشيعة لا تنعقد إلا قسماً بالله وأسمائه الحسنى وصفاته الدالة عليه صراحة، فمن حلف بغيرها لا يحنث إذا لم يفعل. سئل الباقر (عليه السلام) عن قوله تعالى «والليل إذا يغشى» «والنجم إذا هوى» وما الى ذلك، فأجاب: إن لله عزوجل أن يقسم بما شاء من خلقه وليس لخلقه أن يقسموا إلا به.

ـ وسئل: أبالناس حاجة الى الإمام؟ فأجاب: أجل.. ليرفع العذاب عن أهل الأرض. وذكر قوله تعالى: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم».

تعاقب على الخلافة في حياة الباقر (عليه السلام) أربعة من أبناء عبد الملك وزوج ابنته عمر بن عبد العزيز ـ خامس الراشدين في مدة خلافته ـ وكان عمر يتردد على الامام الباقر يستنصحه؛ والباقر يوصيه بالمسلمين أجمعين ـ فيقول له بين ما يقول: «أوصيك أن تتخذ صغير المسلمين ولداً. وأوسطهم أخاً. وأكبرهم أباً. فارحم ولدك. وصل أخاك. وبر والدك. فإذا صنعت معروفاً فربه» أي تعهده.

وكان نشر التشيع لأهل البيت همّه. قال سعد الإسكافي: قلت لأبي جعفر الباقر (عليه السلام): «اني أجلس فأقص وأذكر حقكم وفضائلكم» قال: «وددت لو أن على كل ثلاثين ذراعاً قاصاً مثلك».

وحج هشام بن عبد الملك في أيام ملكه (١٠٥ ـ ١٢٥) فرأى الباقر بالمسجد يعلم الناس في مهابة وجلال، تعاليم الإسلام وآدابه وفرائضه وأحكامه والناس خشّع في مجلسه. وغلبت هشاما غريزة المعاجزة لأهل البيت، فبعث اليه من يسأله: ما طعام الناس وشرابهم يوم المحشر؟ وأجابه الباقر (عليه السلام) بآيات الكتاب الكريم.. واستطرد في تعليمه وتعليم من أرسله.

وسمعه الحجيج ـ عامئذ ـ يقول للناس: «الحمد لله الذي بعث محمداً بالحق نبيّاً. وأكرمنا به. فنحن صفوة الناس من خلقه وخيرته من عباده وخلفائه. فالسعيد من تبعنا. والشقي من عادانا».

ورجع هشام الى عاصمته.. فأرسل في دعوة الباقر (عليه السلام)، وابنه الصادق (عليه السلام)، الى قصبة الملك في دمشق.

يقول الصادق (عليه السلام): «فلما وردنا دمشق حجبنا ثلاثاً. ثم أدخلنا في اليوم الرابع». وكأنما أراد هشام أن يظهرهما على أنه إذا لم تكن له مكانة في جوار البيت العتيق ومسجد الرسول أو كانت الكرامة كلها، في الحج الأكبر، لأهل البيت، فإن له بيتاً في دمشق وحجاباً ومواعيد.

الفصل السادس

إمام المسلمين

ان الله أراد منّا شيئاً وأراد بنا شيئاً. فما أراده بنا طواه عنّا. وما أراده منّا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منّا.

الامام الصادق(عليه السلام)

ولد الامام الصادق (عليه السلام) في السابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٢ على قول، أو غرة رجب. وفي أقوال أخرى انه ولد سنة ٨٠ أو سنة ٨٣. وتتابع بعده أبناء الباقر، ولهذا يكنى الباقر أبا جعفر. أما أخوه الشقيق فعبد الله.

وأما أولاد الصادق فإسماعيل وعبدالله ـ وبه يكنى أبا عبدالله ـ وأم فروة من زوجته فاطمة بنت الحسين.. بن الحسين بن علي، وموسى (الكاظم) واسحق ومحمد؛ وأمهم أم ولد، تدعى حميدة. والعباس وعلي وأسماء من أمهات متفرقات.

واسم جعفر في بيت زين العابدين يذكر بأول الشهداء من بيت أبي طالب. فعلي هو الثاني فيه. والحسين هو الثالث.

أما الأول فجعفر بن أبي طالب قائد جيش مؤتة وشهيدها، الطيار في الجنة، وذو الجناحين.. كما وصفه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ وكما روى البخاري ومسلم: قال له رسول الله: «أنت أشبهت خلقي وخلقي».

وهو أول زوج لأسماء بنت عميس[1] جدة أم فروة أم: جعفر الصادق (عليه السلام).

ولقد مر بنا كيف ولده رسول الله مرتين، وعلي مرتين، أبو بكر مرتين، ليدل التاريخ على انه نسيج وحده، وان كسرى يزدجرد ملك الفرس قد ولده مرتين، ليدل

---

(١) يقال عن أمها «هند» أكرم الناس أحماء: أما أسماء فزوج جعفر ولها منه عبدالله. وزوج أبي بكر ولها منه محمد. وزوج علي ولها منه يحيى. أما أخواتها فميمونة أم المؤمنين ولبابة زوج العباس عم النبي وجدة خلفاء الدولة العباسية. وسلمى زوج حمزة بطل أحد وشهيدها وعم النبي. وأم الفضل الكبرى (أخت أسماء لأمها) أم خالد بن الوليد.

على ان الإسلام للموالي والعرب.

فالباقر ـ وهو من هو ـ أكفأ الناس لأم فروة[1] المنحدرة من صلب أبي بكر أول الخلفاء الراشدين، والقاسم بن محمد[2] الذي يرشحه للخلافة عمر بن عبد العزيز ـ خامس الخلفاء الراشدين.

وكأنما سلم الباقر ابنه شعار حياته في مقولتين صيرتاه ربانياً من كل وجه؛ الأولى: «شيعتنا من أطاع الله». والثانية «إن الله خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرن من الطاعات شيئاً فلعل رضاه فيه. وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرن من معصية شيئاً فلعل سخطه فيه. وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرن أحداً فلعله ذلك الولي».

تلقى الصادق(عليه السلام) من أبيه كل ما وعاه قلبه وقرأ كل ما حوته كتبه، واستمع الى علماء العصر، وانتفع بعلوم جده القاسم بن محمد بن ابي بكر(١٠٦)، وكان مثلاً عالياً للأمة وواحداً من الأعمدة السبعة المسمين «علماء المدينة السبعة»[3]. يعلن عمر بن عبد العزيز أنه «لولا خوف الفتنة من بني أمية لاستخلفه على الأمة» ويوصي عمر عماله أن يكتبوا السنن من عنده. فهذا رجل له ورع عمر بن عبد العزيز، وعنده كل علم المدينة، وانه ليستطيع أن يقول ـ من صلة على الوثقى بأبيه محمد بن أبي بكر ـ إنه أوثق أهل بيته صلة برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وبأول من تبعه، علياً كان أو أبا

---

(١) حجت أم فروة متنكرة فاستلمت الحجر بيدها اليسرى فقال لها رجل لايعرفها: يا أمة الله أخطأت السنة! فأجابت: ياهذا إنا عن علمك لأغنياء.

(٢) وللقاسم وأبيه أكبر الصلات بأم المؤمنين عائشة، إذ ضمته اليها بعد مقتل أبيه محمد، على أيدي جند معاوية. ومحمد ربيب علي.. سيّره معها بعد وقعة الجمل الى المدينة في كوكبة من النساء في ملابس الرجال. وكان تسيير أخيها معها كرامة يحفظ بها أخو الرسول أم المؤمنين.

وفي بيت عائشة سقي القاسم علمها الذي أراد عمر بن عبد العزيز تدوينه عن طريقه، وعمر خليفة، حتى لايضيع علم المدينة، فكتب بذلك الى قاضيه وواليه على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

(٣) يقول فيه يحيى بن سعيد (١٤٣) تلميذ فقهاء المدينة السبعة (ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم) وابن حنبل يقول في يحيى (أثبت الناس).

بكر، بل بهما معاً.

وعندما نذكر ان القاسم بن محمد ظل مصدراً للعلم حتى شارف الصادق ربع القرن من حياته، وأن الصادق شهد حلقات عكرمة مولى ابن عباس، (١٠٤) وعطاء بن أبي رباح، بمكة حيث كان يجلس ابن عباس، وأن أوامر الولاة في الموسم كانت (لايفتي الناس إلا عطاء)، كما شهد بالمدينة حلقة عبدالله بن أبي رافع ـ مولىٰ أمير المؤمنين علي(عليه السلام) ـ الذي أملىٰ علي عليه كتابه الى معاوية، وحلق خاله عبد الرحمن بن القاسم، وعروة بن الزبير (٩٤) الراوية عن خالته عائشة، ومحمد بن المنكدر (١٣٠) شيخ مالك، فليس علينا أن نحاول البحث عمّا تلقاه جعفر بن محمد الصادق في صباه.

ولقد كان علم أهل البيت(عليهم السلام) حسبه ـ فكيف إذا اجتمع اليه علوم هؤلاء، ليملأ بالفقه الشيعي وبالفقه المقارن مدينة الرسول، من يوم مات أبوه وهو بعد في ثلاثينياته.

والصبي من «أهل البيت» لاينفق صباه في «عمل لاشي» فذلك هو اللهو، أو في «عدم عمل شيء»، فهذا هو الفراغ.. وعلى الأجيال المتعاقبة منهم تبعات في تعاقب الإمامة، لاتدع لهم محيصاً عن الإحاطة الكاملة بما لدى غيرهم من علم، فوق علمهم، وما هو إلا القرآن والسنة والسيرة؛ والقرآن كما يقول ابن عباس «في بيتهم نزل»، والسنة من بيتهم صدرت، والسيرة سيرتهم.

واللغة طريق ذلك كله، وهي بعد حصيلته. وإنك لتدرك منزلة جعفر بن محمد(عليهما السلام) في البيان العربي من تداوله للتفسير في اقتدار علىٰ تخريج المعاني لا قرين له. وسنراه غداً عمدته النصوص في الفقه والدين، يستخرج منها أعمق المعاني بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة، شأن أمراء البيان. ومن تكن النصوص عمدته الأولىٰ، فالبلاغة عدته الكبرىٰ.

ولئن لم يتميز الأطفال أو الصبية في بيت زين العابدين والباقر بخصوصيات تكبر وتنمو فتبرز إذ هم شيوخ وأئمة، إن بيت زين العابدين ذاته كان «خصوصية» في

مجتمع الاسلام.. فيه المثل الأعلىٰ من العلم المحيط والورع الكامل والتفرغ للخدمة العامة، وتعلق القلوب به، واتجاه الأبصار تلقاءه.

على هذا درج بيت زين العابدين (عليه السلام)، مع الاستمرار والاستقرار، فلم يعكر الصفو فيه غير مصرع زيد في سنة ١٢١، بعد إذ خذله أهل الكوفة في ثورته، فمصرع ابنه يحيى. وحمل الصادق الأمانة في ذوي رحمه ـ منذ صار إماماً برحيل الباقر سنة ١١٤ ـ فكان يحنو علىٰ الأحياء من أبناء عمه زيد، ويأسو جراحات من سقط آباؤهم في الحرب من رجال زيد، فبعث ألف دينار فرّقت في ورثتهم.



وليس أحد بحاجة في ترجمة أئمة أهل البيت ليسترسل في وصف خصال من يرث أخلاق الأنبياء ويعلمها.

فلنستحضر ـ ونحن في بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ ما كان يصنعه النبي، ولنتيقن أن الامام الصادق كان يحاول أن يصنع نظيره. ولنستحضر فعال علي وزهراء النبي، والحسن والحسين، وزين العابدين، والباقر (عليهم السلام)؛ فهي أصول يتلقاها الخلف عن السلف، ليعملوا بها، ثم يعلموا بها.

وربما أجزأ في هذا المقام ذكر أمثال عادية من الحوادث اليومية تصور صميم «الشخصية».. وفيما نذكره دلائل على كثير لم نذكره.

فحياة الامام مدرسة وتطبيقاتها، والعمر أيام تتكرر. والحياة جماع أعمال يدل بعضها علىٰ البعض الآخر؛ ومنها الجزئي الذي يستنبط منه الكلي. وكثيراً ما كان العمل الواحد (رد فعل) عفوي أو فوري، صادراً عن عدة قواعد يجري عليها العقل أو الشعور أو السليقة أو الطريقة ـ فردود الأفعال شهادات عيان بدخائل الإنسان.

١ ـ مات بين يدي الامام ولد صغير، فبكىٰ، وقال «سبحانك ربي لئن أخذت لقد أبقيت. ولئن ابتليت لقد عافيت».

وحمله الى النساء، وعزم عليهم ألا يصرخن، وقال «سبحان من يقبض أولادنا ولا

نزداد له إلا حباً. إنّا قوم نسأل الله ما نحب فيعطينا. فإذا نزل ما نكره فيمن نحب رضينا».

فأي قلب، في اطمئنانه واتزانه، كمثل ذلك الذي يفيض بالشكر، حيث يغيض الصبر عند الغير!

٢ ـ ونهىٰ أهل بيته عن الصعود ـ فدخل يوماً فإذا جارية من جواريه تربي بعض ولده، قد صعدت السلم، والصبي معها. فلما نظرت الإمام ارتعدت لعصيانها وسقط الصبي من يدها، فمات. فخرج الصادق(عليه السلام) متغير اللون. فسئل عن ذلك فقال: «ماتغير لوني لموت الصبي، وإنما تغير لوني لما أدخلت علىٰ الجارية من الرعب»

ثم قال لها بعد ذلك: «أنت حرة لوجه الله. لا بأس عليك».

فهذا أمر واحد عادي، تبعته وقائع ثلاثة غير عادية، أعقبها من الإمام تصرفات لا تصدر إلا عن الإمام؛ في كل واحدة منها أنواع فضائل.. تبدأ باحترام إنسانية الانسان، وتنتهي بعطاء دونه كل عطاء، يختمه بالكلمة الطيبة ـ لا بأس ـ ويبدؤه بأعلىٰ القيم الإنسانية، إذ يمنحها حريتها.

٣ ـ وذهب مرة يعزي أحد المصابين بفقد ولد، وانقطع في الطريق شسع نعله، فتناوله من رجله ومشى حافياً، فخلع ابن يعفور شسع نعله وقدمه له. فأعرض عنه كهيئة المغضب وقال: لا. فصاحب المصيبة أولىٰ بالصبر عليها..

فالإمام(عليه السلام) لايلقي متاعبه علىٰ من دونه، بل يتحمل الأذىٰ ليتعلم الناس وجوب العمل، ولزوم التحمل، وليعلم الكبراء أنهم كبراء بما يضربونه من المثل العليا، وليدرك الجميع أن الصبر علىٰ المصيبة شطر الإيمان. وأحق الناس به من أتيحت الفرصة له.

٤ ـ وذات يوم دعا للطعام عابر سبيل لم يقرئه السلام، فراجعه حضاره متسائلين بين يديه: أليست السنة أن يسلم الرجل أولا، ثم يدعى للطعام؟ فأجاب الإمام(عليه السلام): «هذا فقه عراقي فيه بخل».

ففقه الامام «علوي» يبدأ بالعطاء.. وعملي فيه مبادرة.. واجتماعي يسعىٰ به المعطي الىٰ الآخذ.. وإسلامي، إنساني، كله كرامة.

لقد ولد في دار شعارها البدار بالعطاء مع الإخفاء.. حتى الصدقة يقول فيها الباقر (عليه السلام): «أعط ولا تسم. ولا تذل المؤمن».

وفي ذلك السُنّة.. وسنرى تطبيقات شتى من الإمام لهذا الفقه في المنهج الاقتصادي...

٥ ـ وصحا رجل من الحاج فلم يجد هميانه (الكمر الذي يلفه المحرم حول بطنه وفيه نفقته من النقود) فخرج فوجد الامام الصادق (عليه السلام) يصلي فتعلق به وهو يقول: أنت أخذت همياني..

قال الصادق (عليه السلام) كم كان فيه؟

قال: ألف دينار.

فأعطاه ألف دينار.

ومضى الرجل فوجد هميانه فعاد يعتذر ويردّ الألف دينار. فأبىٰ الصادق أن يأخذها وقال: شيء خرج من يدي فلا يعود.

قال الرجل لمن حوله: مَنْ هذا؟

قالوا: جعفر الصادق.

قال: لا جرم هذا فعال مثله.

فإمام المسلمين لا ينعزل عنهم، فلا ينماز منهم، حتى ليخطئ الجاهلون منهم في شخصه. فيعرض عن الجاهلين. ويخف ليخفف كرب المكروب، لا يحزنه وهمه أو اتهامه، وانما تحزنه همومه، فيشركه فيها بالصنيع النابه مرة إثر أخرىٰ.

والناس أسمع للصوت الذي لا صرير له، وأبصر بالإخلاص الذي لا يتصايح صاحبه به. والأفضال أفعال تدرك آثارها الحواس الخمس.

ولا نستطرد في السرد، ففي كل واقعة سلفت «عدسة» صغيرة تريك العالم الكبير

الذي وراءها، من مناقب كالنجوم وان كان أصحابها من البشر.

هذه سماء تسعىٰ علىٰ الأرض. وهؤلاء بقية النبي عليه الصلاة والسلام، يعيشون في الدنيا!

مجالس العلم

شهد الامام الصادق(عليه السلام) انحدار الناس بعد عصر الخلفاء الراشدين، ورأىٰ بعين الصبي المأمول من أهل بيت الرسول ما صنعه عمر بن عبد العزيز في خلافته بين سنتي ٩٨ ، ١٠١ إذ أعاد الدين غضاً في نحو من ثلاثين شهراً، وأثبت للدنيا، أن (المدة) كما سمى الناس خلافته، كانت كافية لتعيد الناس الى الاسلام الصحيح عندما يوجد خليفة صادق العزم، يتخذ الخلافة ـ كما قال ـ سبيلاً الىٰ الجنة.

وكان بعض الصالحين يستعجلون عمر ليصنع كل ما صنع في أول يوم ولي الخلافة. قال له ابنه عبد الملك، «يا أبتِ ما بالك لاتنفذ الأمور، فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي القدور»، لكن عمر كان يتأتىٰ للأمور في رفق واناة وإصرار. قال: «لا تعجل يابني ان الله تعالى ذمّ الخمر مرتين، وحرّمها في الثالثة. وإني أخاف أن أحمل الناس علىٰ الحق جملة، فيدفعوه جملة، فتكون فتنة».

وبهذا قدر على أن يردّ المظالم وأغنىٰ الله الناس على يديه. فأصبح عمر لايجد فقراء يوزع المال عليهم في المدينة أو في القرية.

لكن الامام «الصادق»(عليه السلام) تعلم من حياة الخليفة الصادق العزم: أن إصلاحاته لم تؤتِ ثمارها بعد مماته، إذ دمّرها الخلفاء الذين جاءوا من بعده، وتتابع الباقون يدمرون.

وشهد الامام الصادق ظهور بني العباس وكيف ناقضوا شعارات دولتهم وحكموا حكم الجاهلية.

هكذا رأى رأي العيان ان صلاح الأمر لا يكون بتولي السلطة، أو بمجرد إصلاحها

مدة قصيرة أو طويلة. وكل عمر قصير، وانما الصلاح في إصلاح الأمة.. فكيفما تكونوا يولّىٰ عليكم.. ولكل امة الحكومة التي تستحقها.. واستيقنت نفسه الصواب فيما صنعه أبوه وجده، وهو أن يعلّموا الأمة، فإذا تعلمت صلحت فلم يستضعفها حكامها.. وهي عندئذ تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر وتشركهم تبعاتهم. فالأمة القوية لا تظلم حكامها ولا يظلمونها.

وبشعار الثقة بالله سبحانه «الله وليي وعصمتي من خلقه» وبنقش الخاتم الذي يعلن مصدر قوته: (ماشاء الله. لا قوة إلا بالله. استغفر الله) قصد الى مجلس العلم، في مسجد النبي أو في داره، يستعمل البعد المكاني، حيث يجلس للتعليم في مدينة الرسول، والبعد الزماني؛ فهو تابعي يعيش في جيل التابعين وتابعي التابعين، والبعد الثالث وهو ارتفاع نسبه الى النبي وعلي.

أما البعد الرابع فعمق علمه وعلم أبيه وجده(عليهم السلام).

* * *

في هذا المجلس المهيب بالمدينة أو بالكوفة، يجلس رجل ربعة.. ليس بالطويل ولا بالقصير.. أزهر له لمعان كالسراج.. يسعى نوره بين يديه.. رقيق البشرة، أسود الشعر جعده، أشم الأنف، أنزع قد انحسر الشعر عن جبينه فبدا مزهراً، له إشراق، وعلى خده خال أسود ـ المسلمون أيامئذ أحوج اليه ليعلمهم، منهم اليه ليحكمهم.. كل ما يحيط به يوحي بالرجاء في فضل الله. فلما طعن في السن ازداد جلالاً وسناءً وإحياءً للأمل.

يلبس الملابس التي عناها جده عليه الصلاة والسلام حينما قال: «كلوا واشربوا والبسوا في غير سرف ولا مخيلة».

رآه سفيان الثوري وعليه جبّة خز دكناء فقال: يابن رسول الله ما هذا لباسك! فقال: «ياثوري! لبسنا هذا لله، ثم كشف عن جبّة صوف يلبسها، وقال: ولبسنا هذا لكم».

كان جده علي(عليه السلام) يختار الخشن من الثياب.. ويلح الجوع عليه فيعلل معدته

بقرص شعير. يخيط نعله إن لم يكن مشغولاً، أو يتركه لمن يخيطه بأجر إذا انشغل. لكن الزمان يتغير فيغير الصادق (عليه السلام) ليظهر أثر النعمة. ويقول للناس: «إذا أنعم الله على عبده بنعمة أحب أن يراها عليه لأن الله جميل يحب الجمال».

ويقول: «إن الله يحب الجمال والتجمل. ويكره البؤس والتباؤس..».

والنظافة من الايمان. فيها الكرامة والسلامة للنفس وللأسرة وللمدينة. فعلىٰ المرء كما يقول الإمام: «أن ينظف ثوبه ويطيّب ريحه ويجصص داره ويكنس أفنيته».

وذات يوم رآه «عباد بن كثير البصري» في الطواف فقال له: تلبس هذه الثياب في هذا الموضع وأنت في المكان الذي أنت فيه من علي؟

فأجاب ـ كما يروي الامام نفسه ـ «فقلت: فرقبي ـ نسبة الىٰ (فرقب) حيث تصنع ثياب كتان أبيض ـ اشتريته بدينار. وقد كان علي في زمن يستقيم له ما لبس فيه. ولو لبس مثل ذلك اللباس في زماننا لقال الناس: هذا مرائي مثل (عباد)..».

قيل له يوماً: كان أبوك وكان.. فما لهذه الثياب المروية (نسبة الىٰ مرو) فأجاب: ويلك فمن «حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق»؟

وإنك لترى آثار النعمة علىٰ مالك وأبي حنيفة، وإجابات مشتقة بدقة من هذه الإجابات، في ردود الرجلين بشأن ملابسهما وأنعم الله عليهما ـ وكان كلاهما لباسا ـ فالمذموم من الثياب ما فيه خيلاء، والمحمود ما كان إظهاراً لنعمة الله على عبده. حتى تلميذه الثالث سفيان الثوري ـ وهو إمام الزهد والورع والحديث والفقه ـ قد انتفع بدروس الإمام (عليه السلام) في الملبس فأمسىٰ يقول: الزهد في الدنيا هو بقصر الأمل.. ليس بأكل الخشن ولا بلبس الغليظ. أزهد في الدنيا ثم نم. لا لك ولا عليك. إن الرجل ليكون عنده المال وهو زاهد في الدنيا. وان الرجل ليكون فقيراً وهو راغب فيها.

وكان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) يلبس ما تيسر من الصوف تارة ومن القطن تارة ومن الكتان تارة. وكانت مخدته من أدم حشوها ليف نخل. ولما قال له رجل يا رسول الله انا

أحب ان يكون ثوبي حسناً ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذاك؟ قال: «لا. ان الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس».

ولم يعب الصحابة بعضهم على بعض الملابس من أعلىٰ وأدنىٰ. لايعيب صاحب الخز على صاحب الصوف ولا صاحب الصوف يعيب على صاحب الخز.



في هذا المجلس تتلمذ للامام جعفر (عليه السلام) وروى عنه ـ كما يقول أرباب الإحصاءات ـ أربعة آلاف من الرواة وكتب عنه أربعمائة كاتب؛ كلهم يقول: قال جعفر بن محمد.

فأي مجلس كان ذلك المجلس! تتراءى فيه أشياء من رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، بعضها مادي يجري في أصلاب رجل بعد رجل، وبعضه معنوي يتراءىٰ في معانيه وفحوى مقولاته، لكل هؤلاء.

ليس بالمجلس لجاجة ولا حجاج عقيم. يقول للتلامذة: «من عرف شيئاً قلّ كلامه فيه. وإنما سمي البليغ بليغاً لأنه يبلغ حاجته بأدنىٰ سعيه».

إذا سأل سائل عن خلافات الصحابة أجاب: «علمها عند ربي في كتاب لايضل ربي ولا ينسىٰ».

يهتدي بهديه الكبراء في الامتناع عن الجواب في خلاف الصحابة. يقول أحمد بن حنبل إذ يسأل عمّا كان بين الصحابة: كان بينهم شيء الله أعلم به. ومع ذلك يعجب ويتساءل عن طلحة والزبير: أكانا يريدان أعدل من علي؟

ولا يضيع الحق في المجلس: سمع أن أحد الولاة نال من أمير المؤمنين علي (عليه السلام)..! فوقف الصادق فقال: «ألا أنبئكم بأعلىٰ الناس ميزاناً يوم القيامة وأبينهم خسراناً؟ من باع آخرته لغيره. وهذا هو الفاسق».

وعرف الناس الفاسق الذي باع آخرته لمن يشتهون أن يقدح لهم في علي بن أبي طالب (عليه السلام).

والمقياس عند صاحب المجلس هو الإخلاص لله والرسول. يقول ويروي عن

آبائه عن أمير المؤمنين علي: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):« لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية. ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة».

والقاعدة هي المساواة بين الناس، مساواة فطرية ـ مهما اختلفت العقائد والأجناس ـ يقول: «الناس في آدم مستوون». حتىٰ عَبَدَة النار يقول فيهم: «سِنّوا بهم سنة أهل الكتاب».

وللنساء والبنات عنده المكانة العالية.. قياماً بوصية جدّه بالنساء في آخر خطبه عليه الصلاة والسلام ـ روى الجارود بن المنذر: قال لي أبو عبدالله الصادق(عليه السلام): «بلغني أن لك ابنة فتسخطها. ما عليك منها؟ ريحانة تشمها. قد كفيت رزقها. وقد كان رسول الله أبا بنات».

وأي مثل في الاسلام كمثل رسول الله. وأي نعمة أن يكون للمرء ريحانه أو رياحين! وأي فضل كفضل البنات يكفي رزقهن الله!

يقول الصادق(عليه السلام): «إن إبراهيم سأل ربه ابنة تبكيه وتندبه بعد موته».

لينبه على بقاء الوفاء في أفئدة البنات بعد الممات.

ومن الدروس الأولية في هذا المجلس تعليم الناس أن يسعوا لعمارة الدنيا بالعمل للرزق، ومجانبة الخلائق الفاقرة بالتواكل، أو البطالة. وبهذا المبدأ أصبح المجتمع الشيعي مجتمع العاملين، وبلغ حظه ـ حيثما كان ـ من النماء، والاستغناء، والانتفاع بما منحه الله للبشر من مواهب، وأتاح لهم من وسائل.

جاء مجلس الامام (عليه السلام) يوماً جماعة من الزهّاد يريدون منه إظهار التقشف والزهد الكامل. فقال لهم:

﴿حدّثني أبي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال:

«ابدأ بمن تعول. الأدنىٰ فالأدنىٰ». هذا ما نطق به الكتاب رداً لقولكم.. قال العزيز الحكيم «والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما». أفلا ترون أن الله تعالىٰ قال غير ما أراكم تدعونني اليه؟...

فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير. فلا يعطي جميع ما عنده ثم يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له؛ للحديث الذي جاء عن النبي: (ان اصنافاً من أمتي لا يستجاب دعاؤهم: رجل يدعو على والديه. ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه. ورجل يدعو على زوجته وقد جعل الله تخلية سبيلها بيده. ورجل يقعد في بيته ويقول ربِّ ارزقني، ولا يطلب الرزق، فيقول الله عز وجل: ياعبدي ألم أجعل لك السبيل الى الطلب.. ألم أرزقك رزقاً واسعاً؟ فهلا اقتصدت كما أمرتك ولم تسرف فيه وقد نهيتك عن الإسراف. ورجل يدعوني في قطيعة رحم..) ثم علم اللّه عزوجل كيف ينفق فقال: «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا»

فهذه أحاديث رسول الله يصدقها الكتاب؛ والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين... وفيهم سلمان الفارسي وأبو ذر رضي الله عنهما:

فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته حتى يحضر عطاؤه من قابل. فقيل له: يا أبا عبدالله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلك تموت اليوم أو غداً؟ فكان جوابه انه قال: ترجون لي البقاء وقد خفتم علي الفناء. أما علمتم أن النفس قد تلتاث على صاحبها مالم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا أحرزت معيشتها اطمأنت. وأما أبو ذر فكات له نويقات وشويهات يحلبها، ويذبح منها اذا اشتهى اللحم، أو نزل به الضيف.. ومن أزهد من هؤلاء وقد قال فيهما رسول‌الله(ﷺ) ما قال... ولم يبلغا من الزهد أن صارا لايملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئهم.. ويؤثرون على أنفسهم وعيالهم...﴾.

فالإمام (عليه السلام) يريد مجتمعاً عاملاً، متواصلاً، فيه قصد وجد، فبهذا يعين الله من يعين نفسه من عباده.

التلاميذ الائمة

كان سفيان الثوري إمام العصر في الورع والسنن والفقه، للعراق كافة. وكانت له في مجابهة الخليفة مواقف لايمل الحديث فيها. وكان لكثير من روّاد المجلس كسفيان مكانة في المسلمين؛ منهم عمرو بن عبيد الذي نشأت على يديه فرقة المعتزلة، وأبو حنيفة، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى (ترب أبي حنيفة)، وإمام المدينة مالك بن أنس.

وأبو حنيفة هو الإمام الأعظم لأهل السنة. ومالك أكبر من تلقى عليه الشافعي علماً، وأطولهم في تعليمه زماناً. والشافعي شيخ أحمد بن حنبل.

وكمثلهم كان المحدثون العظماء: يحيى بن سعيد محدّث المدينة وابن جريح وابن عيينة محدثا مكة. وابن عيينة وهو المعلم الأول للشافعي في الحديث.

فلندع للأئمة وصف مكانهم من الامام ـ وفيه وصف مجالس علمه.

يقول مالك بن أنس: «كنت أرىٰ جعفر بن محمد، وكان كثير الدعابة والتبسم. فإذا ذكر عنده النبي اخضر واصفر. ولقد اختلفت اليه زماناً فما كنت أراه إلا علىٰ ثلاث خصال؛ إما مصلياً وإما قائماً وإما يقرأ القرآن. وما رأيته يحدث عن رسول الله إلا علىٰ الطهارة. ولا يتكلم فيما لا يعنيه. وكان من العلماء والعباد والزهاد الذين يخشون الله. وما رأيته قط إلا ويخرج وسادة من تحته ويجعلها تحتي».

وفي مقولة أخرىٰ يضيف مالك: «وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد، إذا قال (قال رسول الله) اخضر مرة واصفر أخرىٰ حتى ينكره من يعرفه. ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام، كلما همّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد أن يخر عن راحلته. فقلت: يابن رسول الله! أو لابد لك أن تقول! قال: كيف أجرؤ أن أقول لبيك وأخشىٰ أن يقول الله عزوجل: لا لبيك ولا سعديك»..

وإنّا لنذكر ماكان يصنعه جده زين العابدين في هذا المقام.

وأصبح مالك إذا ذكر النبي اصفر لونه. فإذا تساءل جلساؤه قال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون. ويذكر لهم حال ابن المنكدر[١] ثم يعقب حال جعفر.

إنما كان مالك يجد ريح الرسول في مجلس ابن بنته.. ويحس، أو يكاد يلمس، شيئاً مادياً، يتسلسل من الجد لحفيده، وأشياء غير مادية تملك اللب والقلب: فالرؤية متعة والسماع نعمة.. والجوار ـ مجرد الجوار ـ تأديب وتربيب.. وفي كل أولئك طرائق قاصدة الى الجنة.

وصاحب المجلس طهر كله. لا يتحدث عن جدّه إلا على الطهارة. يقول: «الوضوء شطر الإيمان». ومن أجل ذلك لم يعد الوضوء عنده أو في مذهبه، مجرد وسيلة لغيره ـ أي للصلاة ـ بل أمسى مستحباً لذاته كالصلاة المستحبة.. يتهيأ به المتوضئ لدخول المساجد، وقراءة القرآن، بل الزوجان ليلة زفافهما، والمسافر الى أهله.. والقاضي ليجلس للقضاء، والإمام الذي يفتي أو يعلم.

وما هو بدع أن يشغف به مالك ـ وهو الأموي بهواه ـ فإنما هو حبّ الرسول وأهل بيته. فحبهم ايمان. وما كان تعبير مالك إلا حباً، وهو ـ بعد ـ التلميذ النجيب لفقهاء بني تيم (قبيلة أبي بكر) سواء كانوا من مواليهم ـ كربيعة الرأي ـ أو من أنفسهم كمحمد بن المنكدر، أو أمهم منهم، كالإمام جعفر (عليه السلام).

وأبو بكر الصديق يقف في قمة التاريخ العلمي لمصادر مالك باتباعه واجتهاده وأبنائه وبني تيم.

تعلم مالك الكثير من السلوك على الامام جعفر الصادق(عليه السلام) فكان إذا حدث لايحدث إلا على الطهارة. ويحمي مجلسه ممن يخرجونه عن قصده. كما يكرم

---

(١) محمد بن المنكدر (١٣٠) من معادن الصدق بالمدينة وأشياخ مالك، من بني تيم قبيلة أبي بكر، وهم مشهورون بالرقة والورع. وهم أجداد الامام جعفر عليه السلام ـ كان لايسأل ابن المنكدر أحد عن حديث إلا بكى.
ومالك يقول: «كنت إذا وجدت من نفسي قسوة آتي ابن المنكدر فأنظر اليه نظرة فأبغض نفسي أياماً».
وابن المنكدر يقول: «كابدت نفسي في ذلك أربعين عاماً حتى استقامت». وكان من بني المنكدر إخوة ثلاثة فقهاء: محمد وأبو بكر وعمر أبناء المنكدر.

تلامذته. بل صار إماماً لليسر الذي تتمثل فيه خصائص المدينة. وأمسىٰ عنواناً على العلم: فإذا خاصم السلطة خاصمها من أجل النزاهة العلمية فحسب. وفي منهجه الاحتفال الكامل بالواقع. وفي طريقته العمل للرزق، حتى لايحتاج لأحد؛ مما يعبر عن اقتداء كامل بالإمام الصادق(عليه السلام).

وكهيئة الإمام الصادق، لم يجار فقهاء العراق في قولهم أرأيت أرأيت. أي افتراض الفروض واستباق الحوادث وإبداء الرأي فيما لم يحدث حتى سمّاهم خصومهم (الأرأيتيين).

ومن رضا الامام(عليه السلام) عن التلميذ كان «الصادق» يشير بإتيان حلقة مالك. روى عنوان البصري أنه كان يختلف الى الامام جعفر يتعلم عليه فغاب الإمام عن المدينة فاختلف الى مالك سنتين ثم عاد الصادق فعاد عنوان الىٰ مجلسه. فنصحه أن يجلس الىٰ مالك.

ولقد يدخل الامام المسجد ـ فيقدم اليه تلميذ من تلاميذه ابن أبي ليلى (١٤٨) قاضي الكوفة. فيقول الامام: أنت ابن أبي ليلى القاضي؟ ويجيب: نعم. فينبهه الامام على جلال خطر القضاء بقوله: «.. تأخذ مال هذا وتعطيه هذا. وتفرّق بين المرء وزوجه لا تخاف في ذلك أحداً.. فما تقول إذا جيء بأرض من فضة وسماء من فضة ثم أخذ رسول الله بيدك فأوقفك بين يدي ربك فقال: ياربي هذا قضى بغير ماقضيت!».

واصفر وجه ابن أبي ليلى مثل الزعفران. لكنه خرج من المسجد مزوداً بزاد من خشية الله زوّده به ابن رسول الله.

ولما سئل مرة: أكنت تاركاً قولاً أو قضاء لرأي أحد؟ أجاب: لا، إلا لرجل واحد؛ هو جعفر بن محمد الصادق.

وابن أبي ليلى قاضي بني أمية وبني العباس. وهم أعداء الامام.



في هذا المجلس بالمدينة، أو بالكوفة في إحدىٰ سفرات الامام جعفر (عليه السلام) الى

العراق، دخل أئمة الكوفة مجتمعين: أبو حنيفة وابن أبي ليلى وابن شبرمة (١٤٤) على الامام جعفر. فجعل الصادق ينبه أبا حنيفة مكتشف أداة «القياس»، على خطرها في حضور العالمين الآخرين. وفي مواجهة هذين يقول الامام الصادق(عليه السلام) لأبي حنيفة: «اتق الله ولا تقس الدين برأيك».

ولقد يكون أبو حنيفة في حلقته بالكوفة أو في المدينة فيقف عليها الإمام الصادق، ولا تقع عليه عين أبي حنيفة، فإذا لمحته عيناه هب أبو حنيفة واقفاً وهو في مجلس الدرس، فقال: «يابن رسول الله ـ لو شعرت بك أول ما وقفت ما رآني الله أقعد وأنت قائم» ليشهد الله علىٰ دخيلة نفسه أنها لاتقبل الجلوس والامام قائم.

وأبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠) أكبر عمراً من الامام الصادق (عليه السلام).

لكن الصادق يشدّ أزره بعبارات مشجعة، فيقول له: «اجلس يا أبا حنيفة فعلى هذا أدركت آبائي» يريد بذلك إعظام مجالس العلم، ووقوف الجميع وجلوس الاستاذ.

انقطع أبو حنيفة الى مجالس الامام طوال عامين قضاهما بالمدينة، وفيهما يقول: «لولا العامان لهلك النعمان» ـ وكان لايخاطب صاحب المجلس إلا بقوله «جعلت فداك يابن بنت رسول الله».

ولقد يتحدى الامام الصادق(عليه السلام) في مجلسه أبا حنيفة ليختبر رأي صاحب الرأي فيسأل: ما تقول في محرم كسر رباعية الظبي. ويجيب أبو حنيفة: يابن رسول الله لا أعلم ما فيه. فيقول له الامام الصادق(عليه السلام): أنت تتداهىٰ. أولاتعلم أن الظبي لاتكون له رباعية!

فإذا جاء ابن شبرمة وحده يسأل عمّا لم يقع ـ كدأب تلاميذ أبي حنيفة ومدرسة الكوفة ـ لم يتردد الامام في دفعه، بالحسنىٰ:

ذهب اليه ذات يوم يسأله عن القسامة في الدم فأجابه بما صنع النبي. فقال ابن شبرمة: أرأيت لو أن النبي لم يصنع هذا، كيف كان القول فيه؟ فأجابه: أما ما صنع النبي فقد أخبرتك به. وأما مالم يصنع فلا علم لي به.

* * *

والصادق (عليه السلام) عليم بالاختلاف بين آراء الفقهاء، أي بعلم المدينة وعلم الشام وعلم الكوفة، وهو يروي عشرات الآلاف من الأحاديث، في حين كانت قلة ما سلمه أهل العراق من الحديث آفة علمائه. حتىٰ صوبهم الشافعي في نهاية القرن، بالقوة التي لا نزاع فيها لخبر الواحد، وبوضع قواعد القياس.

والحسن بن زياد اللؤلؤي يعلن رأي صاحبه في إحاطة الامام الصادق فيقول: «سمعت أبا حنيفة وقد سئل عن أفقه الناس ممن رأيت فقال: جعفر ابن محمد».

ولما استفتي أبو حنيفة في رجل أوصى «للإمام»، بإطلاق الوصف، قال انها لجعفر بن محمد. فهذا إعلان لتفرده بالإمامة في عصره.

ولم تكن السنتان اللتان حيي بسببهما النعمان بن ثابت (أبو حنيفة) ولم يهلك، إلا تكملة لسنين سابقة كان يتدارس فيها فقه الشيعة. ومن ذلك كان يشدّ أزر زيد بن علي في ثورته على هشام بن عبد الملك. وقيل مال الى محمد وابراهيم (ولدي عبدالله بن الحسن) في خروجهما علىٰ المنصور. وان قد جاءته امرأة تقول: ان ابني يريد الخروج مع هذا الرجل ـ في إبان خروج إبراهيم ـ وأنا أمنعه. فقال لها: لا تمنعيه.

ويروي أبو الفرج الأصفهاني عن أبي اسحق الفزاري: جئت الى أبي حنيفة فقلت له: أما اتقيت الله؟ أفتيت أخي بالخروج مع ابراهيم حتىٰ قتل!! فقال: «قتل أخيك حيث قتل، يعدل قتله لو قتل يوم بدر. وشهادته مع ابراهيم خير له من الحياة».

ولئن كان مجداً لمالك ان يكون أكبر أشياخ الشافعي، أو مجداً للشافعي أن يكون أكبر أساتذة ابن حنبل، أو مجداً للتلميذين أن يتلمذا لشيخيهما هذين، إن التلمذة للامام الصادق قد سربلت بالمجد فقه المذاهب الأربعة لأهل السُنة. أما الامام الصادق فمجده لا يقبل الزيادة ولا النقصان؛ فالإمام (عليه السلام) مبلّغ للناس، كافة، علم جدّه عليه الصلاة والسلام.. والإمامة مرتبته.. وتلمذة أئمة السنة له تشوف منهم لمقاربة صاحب المرتبة.

لقد يجيء للمناظرة عمرو بن عبيد (١٤٤) زعيم المعتزلة، الذي لم يضحك أبو حنيفة طول حياته بعد أن قال له عمرو إذ ضحك مرة في إبان مناظرته: يافتى

تتكلم عن مسألة من مسائل العلم وتضحك؟، والذي يبلغ من وقاره أن يراه الرائي فيحسبه أقبل من دفن والديه. فإذا انتهى الكلام قال عمرو للإمام: «هلك من سلبكم تراثكم ونازعكم في الفضل والعلم».

ويجيء إمام خراسان عبدالله بن المبارك، وهو إمام فقه، وبطل معارك.. تتلمذ للإمام زماناً، ولأبي حنيفة، فتعلّم ماجعله يخفي بطولاته في الفتوح «لأن من صنعها لأجله ـ سبحانه ـ مطّلع عليها[١]». وفي الإمام جعفر شعره الذي ورد فيه:

أنت ياجعفر فوق الـ ... مدح. والمدح عناء
إنما الأشراف أرض ... ولهم أنت سماء
جاز حد المدح من ... قد ولدته الأنبياء

فإذا كان الصادق(عليه السلام) في مواجهة مع المنصور، حيث القادة والعلماء يجلسون على مبعدة منه، فإن مجلس الإمام عن يمينه.. حتى ولو دعاه يخوفه. فلقد طالما انتهت اللقاءات بالموعظة يلقيها الامام من حديث رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولحديث رسول الله شرف المجلس، ولابن رسول الله شرف من رسول الله.

ولو جلس الصادق على مبعدة أو مقربة من الخليفة، لكان الشرف حيث يجلس. وربما قربه الخليفة ليلتمس لنفسه القربى الى الناس في الدنيا، ويوم لا تملك نفس

---

(١) استعصى على المسلمين حصن من حصون الروم، فتصدى له فارس ملثم فاقتحمه وتتابع وراءه المسلمون واختفى الفارس في الجند. ولما سُئل ابن المبارك فيما بعد، عن إخفاء نفسه، قال «لأن من صنعت ذلك لأجله ـ سبحانه ـ مطّلع عليه».

وخرج الى الحج فمر بامرأة رآها تخرج غراباً ميتاً من حيث ألقي به. فسألها فقالت: انها وزوجها لايجدان ما يطعمانه. فقال لوكيله: كم معك من نفقة الحج؟ قال: ألف دينار. قال «عد منها عشرين تكفي للعودة الى مرو (عاصمة خراسان) وأعطها الباقي. فهذا أفضل من حجنا هذا العام». ورجع ولم يحج.

وكان الرشيد بالرقة يوماً وأقبل عليه ابن المبارك. فانجفل الناس خلفه ورأته أم ولد الرشيد فقالت: هذا والله الملك. لا ملك هارون الذي يجمع الناس بشرطة وأعوان.

ولما مات ابن المبارك جلس الرشيد فتقبل العزاء فيه.

لنفس شيئاً، وعندما تلتمس الشفاعة.

وأبو جعفر المنصور يقرّ بمكانه من العلم والتقوى مع ضيق صدره بمكانته في الأمة. يقول: «هذا الشجى المعترض في حلقي أعلم أهل زمانه. وإنه ممن يريد الآخرة لا الدنيا».

ومن نص الإقرار ما يدل على ان مجلس الصادق للعلم، لم يكن ليسلم من مراقبة أعوان السلطان، وصاحب المجلس شجى معترض في حلقه. وهو قد ينبئ عن أن الفرصة متاحة للإمام ليلقي دروسه، مع الحيطة الواجبة، حتى لايغص الخليفة بريقه مما ينقل اليه، وان كان المؤكد ان مجرد وجود الإمام كان فيه الشجى المعترض.

كل العلوم

والمجلس مورد عذب كثير الزحام ـ لكل فيه ما يغنيه ـ فالإمام(عليه السلام) في مجلسه الرفيع يروي السنة عن آبائه. وما يقوله يجري عند الشيعة مجرى الأصول. فإذا أبدى الرأي في واقعة معينة جعله الشيعة مجعل السّنة والتزموها باعتبارها نصاً عنه.

أما أهل السّنة فيأخذونه مأخذ اجتهاد الأئمة.

واللسان العربي علم العلوم. وامام المسلمين إمام في البلاغة العربية، عبّر عن اسلوبه أبو عمرو بن العلاء حين قال عن أساليب العربية: «العرب تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها».

وعند الصادق(عليه السلام) لكل مقام مقال.. يسهب ويستطرد كما ستقرأ بعد، أو يوجز ليحفظ عنه ويتذوق منه، بحروف لها جرس في الأذن ونغم في الفم؛ كأن يقول: «لاتصل فيما خف، أو شف». وكلاهما كاشف.

ويجري على لسانه الشعر الرفيع مثل الذي يرويه عنه سفيان الثوري:

لا اليسر يطرؤنا يوماً فيبطرنا ... ولا لأزمة دهر نظهر الجزعا
إن سرّنا الدهر لم نبهج لصحبته ... أو ساءنا الدهر لم نظهر له الهلعا
مثل النجوم على مضمار أولنا ... إذا تغيّب نجم، آخر طلعا

أو مثل قوله جواباً لسفيان إذ يسأل: يابن رسول الله لِمَ اعتزلت الناس؟

قال: «ياسفيان قد فسد الزمان وتغيّر الإخوان فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد»، وأنشد:

ذهب الوفاء ذهاب أمس الذاهب والناس بين مخاتل وموارب
يفشون بينهم المودة والصفا وقلوبهم محشوّة بعقارب

ومثل قوله:

فلا تجزع وإن أعسرت يوما فقد أيسرت في زمن طويل
ولا تيأس فإن اليأس كفر لعلّ الله يُغني عن قليل
ولا تظنن بربك ظن سوء فإن الله أولىٰ بالجميل

ومثل قوله:

لاتجزعن من المداد فإنه عطر الرجال وحلية الآداب

فإذا جاءه المناظرون من كل فج عميق، أو التلاميذ الفقهاء، يمثلون أقطار الإسلام، ويجادلون في الأصول أو الفروع، فهو البحر لا تنزفه الدلاء، يروي العقول ويشفي الصدور.

فالديصاني، زعيم فرقة ملحدة، وصاحب الإهليلجة طبيب هندي، وعبد الكريم بن أبي العوجاء[1] عربي ملحد، وعبد الملك مصري يتزندق، وعمر بن عبيد شيخ المعتزلة، وأبو حنيفة إمام الكوفة، ومالك إمام المدينة، وسفيان الثوري، وغيرهم.. كل هؤلاء تملأ مجادلاته معهم الكتب، ولا يضيق صدراً بجدالهم؛ بل يضرب الأمثال، بمسلكه معهم واتساع صدره لهم، على الحرية الفكرية التي يتيحها

---

(١) عبد الكريم بن أبي العوجاء هو خال معن بن زائدة الشيباني أحد قوّاد بني مروان، وكبير من كبار الولاة لأبي جعفر المنصور. وهو الذي أنقذ أبا جعفر من الموت يوم الراوندية وأبلىٰ ـ وأهله بنو شيبان ـ أعظم البلاء في الدفاع عن بني العباس. ولما قدّم ابن أبي العوجاء للقتل للزندقة سنة ١٦١ قال: «لن يقتلوني. لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحللت فيها الحرام وحرّمت الحلال» لكن علماء الجرح والتعديل فطنوا اليها جميعاً واستبعدوها.

الامام(عليه السلام) للناس في مجلسه، ليفهموا العلم، أو ليؤمنوا عن فهم، دون إكراه أو إعنات، وعلى سعة الخلاف الفقهي لكل اتجاهات المسلمين، وعلى اليسر والرحمة في الشريعة.. فكل هذه أسباب لنشر الإسلام وخلود فقهه.

يقول ابن المقفع ـ وهو متهم بالمجوسية أو بالزيغ علىٰ الأقل ـ إذ يومئ الى «الصادق»(عليه السلام) في موضع الطواف: «هذا الخلق ما منهم أحد أوجب له بالإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس».

ويذهب ابن أبي العوجاء ليناظره فتعتريه سكتة، فيسأله الامام(عليه السلام): ما يمنعك من الكلام؟ فيقول: «إجلالاً لك، ومهابة منك. وما ينطق لساني بين يديك. فإني شاهدت العلماء وناظرت المتكلمين فما تداخلني من هيبة أحد منهم ما تداخلني من هيبتك».

رآه الإمام مرّة بالحرم فقال له: ما جاء بك؟ قال: عادة الجسد وسُنة البلد. ولنبصر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمي الحجارة.

قال الصادق: أنت بعد علىٰ عتوك وضلالك يا عبد الكريم؟ فذهب يتكلم.

فقال الإمام(عليه السلام): لا جدال في الحج. ونفض رداءه من يده وقال: ان يكن الأمر كما تقول، وليس كما نقول، نجونا ونجوت. وان يكن الأمر كما نقول، وليس كما تقول، نجونا وهلكت. وأي صبر في حرية الفكر كمثل هذا الصبر من الامام الصادق(عليه السلام)؟ وحيث تؤدىٰ المناسك!

وإنما ترك الامام رجلاً ملحداً سيقتل ـ بعد ـ في إلحاده سنة ١٦١.

وإذا لم يأخذ الملحدين بالشدّة، فتحا لأبواب الهداية لهم، فهو صارم في صدد المغالين في علي(عليه السلام)، أو فيه، ليكفهم عن غلوائهم؛ ومنهم بيان بن سمعان التميمي.. كان يعتقد ألوهية علي والحسن والحسين (عليهم السلام) ثم محمد بن الحنفية، ثم ابنه أبي هاشم. بل زعموا أنه قال إنه ـ اي بياناً ـ المراد بقوله تعالىٰ: «هذا بيان للناس». وادعىٰ المغيرة بن سعيد الانتماء الىٰ الباقر، وصار يؤلّه علياً ثم جعفر الصادق، ويكفر أبا بكر وعمر ومن لم يوالِ علياً.

وكذلك كان بشّار الشعيري.

يقول جعفر الصادق(عليه السلام) لمرازم: «تقربوا الىٰ الله فإنكم فسّاق كفّار مشركون» ويقول له: «إذا قدمت الكوفة فأت بشار الشعيري وقل له يا كافر يا فاسق أنا بريء منك».

دخل عليه بشّار يوماً فصاح به: «اخرج عنيّ لعنك الله. والله لايظلني وإياك سقف أبداً». فلما خرج قال: «ويحه! ما صغر الله أحد تصغير هذا الفاجر. والله إني عبدالله وابن أمته».

ويقول عن المغيرة بن سعيد: «لعن الله المغيرة بن سعيد. لعن الله يهودية كان يختلف اليها يتعلم منها الشعر والشعبذة والمخاريق. فوالله ما نحن إلا عبيد، خلقنا الله واصطفانا، ما نقدر علىٰ ضرر ولا نفع إلا بقدرته.. ولعن الله من قال فينا ما لانقول في أنفسنا».

ويقول(عليه السلام): «من قال إننا أنبياء فعليه لعنة الله ومن شك في ذلك فعليه لعنة الله».

وينبه الأذهان على دسائس خصوم الشيعة بالاختلاق عليهم فيقول: «إنّا أهل بيت صادقون لا نعدم من يكذب علينا عند الناس. يريد أن يسقط صدقنا بكذبه علينا».

ويقول لخيثمة: «أبلغ شيعتنا أننا لانُغني من الله شيئاً، وأنه لاينال ما عند الله إلا بالعمل، وان أعظم الناس يوم القيامة حسرة من وصف عدلاً ثم خالفه الىٰ غيره..».

وهي مقولات لا تترك مجالاً لدعاوى المغالين في جعفر الصادق وآبائه وبنيه من الأئمة(عليهم السلام)، وتنفي عنهم ما ادعوه من علم الغيب، فلا يعلم الغيب إلا الله. كما تجعل الأئمة مجعل البشر، وهي آراء أبيه وجده.

سأل سائل جده زين العابدين(عليه السلام): متىٰ يبعث علي؟ فأجاب: «يبعث ـ والله ـ يوم القيامة، وتهمه نفسه» أي انه يُحاسب يوم الحساب كما يُحاسب غيره.

وأما تعبير الأحلام فالصادق(عليه السلام) يرىٰ أنها (لو كانت كلها تصدق كان الناس كلهم

أنبياء، ولو كانت كلها تكذب لم يكن فيها منفعة، بل كانت فضلاً لا معنىٰ لها. فكانت تصدق أحياناً لينتفع بها الناس في مصلحة يهتدي لها، أو مضرّة يحذر منها. وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد).

فرؤى الأنبياء حقائق من هدي النبوة. أما رؤىٰ الآخرين فأصداء أفكار تتحرك في باطنهم؛ منها ما يصدقه الواقع ومنها ما يكذبه.



روى هشام بن الحكم: كان بمصر زنديق يبلغه عن أبي عبدالله (الامام الصادق) أشياء. فخرج الى المدينة ليناظره فلم يصادفه وقيل له انه خارج بمكة. فخرج الى مكة، ونحن مع أبي عبدالله، فصادفنا في الطواف، وكان اسمه عبدالملك، وكنيته أبو عبدالله. فضرب كتفه كتف أبي عبدالله.. فقال له أبو عبدالله: فمن هذا الملك الذي أنت عبده.. من ملوك الأرض أو من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك عبد إله السماء أم عبد إله الأرض. قل ماشئت تخصم.. اذا فرغت من الطواف فائتنا.

فلما فرغ أتاه الزنديق فقعد بين يديه.. قال أبو عبدالله: أيها الرجل! ليس لمن لايعلم حجة على من يعلم. ولا حجة للجاهل.. يا أخا مصر إن الذين يذهبون اليه ويظنون انه الدهر، ان كان الدهر يذهب بهم لِمَ لا يردهم؟ وان كان يردهم لِمَ لا يذهب بهم؟ ـ يا أخا مصر لِمَ السماء مرفوعة والأرض موضوعة؟ لم لاتنحدر السماء علىٰ الأرض؟ لِمَ لا تنحدر الأرض فوق طبقاتها؟ ولا يتماسكان ولا يتماسك من عليها؟

قال الزنديق: أمسكهما الله ربهما وسيدهما.. فآمن الزنديق..

فقال: اجعلني من تلامذتك.. فقال: ياهشام بن الحكم! خذه اليك. فعلمه هشام. فصار يعلم أهل الشام وأهل مصر الايمان..

ويروي هشام (ان زعيم الديصانية وفد على مجلس الامام فقال له: دلني على معبودي ولا تسألني عن اسمي. فإذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها.. فقال: يا ديصاني. هذا حصن مكنون له جلد غليظ. وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق. وتحت

الجلد الرقيق ذهبة مائعة وفضة ذائبة.. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة. ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة. فهي على حالها، لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها. ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها. ولا يدرى أللذكر خلقت أم للأُنثىٰ. تنفلق عن مثل ألوان الطواويس. أولا ترىٰ لها مدبراً؟

فأطرق الديصاني ثم قال: أشهد ان لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له. وان محمداً عبده ورسوله. وأنك إمام وحجة من الله علىٰ خلقه. وانا تائب مما كنت فيه.



قصد اليه في مجلسه ذات يوم نفر من المعتزلة يطلبون اليه بيعة «محمد بن عبدالله» النفس الزكية. فطلب اليهم أن يختاروا واحداً منهم ليناظره. فاختاروا زعيم المعتزلة عمرو بن عبيد. وظاهر ان تاريخ ذلك المجلس كان معاصراً لرفض الامام الصادق(عليه السلام) أن يبايع يوم الأبواء قبل قيام الدولة العباسية سنة ١٣٣. فلقد كان عمرو بن عبيد من أنصارها، له صلة خاصة بالمنصور، واشتهر عنه أنه لم يبايع محمداً وقال انه لم يختبر عدله، وربما كان ذلك المجلس في إثر مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦، أو فترة الحروب الأخيرة لبني مروان، التي قامت علىٰ أثرها الدولة العباسية.

قال عمرو: قتل أهل الشام خليفتهم وضرب الله بعضهم بقلوب بعض وشتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروءة وهو محمد بن عبدالله بن الحسن. فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غناء لنا عنك لفضلك.

قال الصادق(عليه السلام): إنا نسخط اذا عصي الله. فإذا أُطيع الله رضينا. أخبرني ياعمرو: لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤنة فقيل لك ولها من شئت، كنت تولي؟

قال عمرو: كنت أجعلها شورىٰ بين المسلمين.

قال الصادق: بين كلهم؟

قال: نعم.

قال: قريش وغيرهم؟

قال عمرو: العرب والعجم.

قال الصادق: ياعمرو! أتتولىٰ أبا بكر وعمر أم تتبرأ منهما؟

قال: أتولاهما.

قال الصادق: ياعمرو إن كنت رجلاً تتبرأ منهما فإنه يجوز الخلاف عليهما. وان كنت تتولاهما فقد خالفتهما. فقد عمد عمر الى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً. ثم ردها أبو بكر عليه ولم يشاور أحداً. ثم جعلها عمر شورىٰ بين ستة فأخرج منها الأنصار. ثم أوصىٰ الناس بشيء. وما أراك ترضى به أنت ولا أصحابك.

قال عمرو: وما صنع؟

قال الصادق (عليه السلام): أمر صهيباً أن يصلي بالناس ثلاثة أيام، وان يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن عمر يشاورونه وليس له من الأمر شيء. وأوصىٰ من بحضرته من المهاجرين والأنصار إن مضت الثلاثة ولم يفرغوا ولم يبايعوا أن يضرب أعناق الستة. وان اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخلفا اثنان أن يضرب أعناق الاثنين. أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورىٰ في المسلمين؟

قال: لا.

قال الصادق: أرأيت لو بايعت صاحبك الذي تدعو اليه ثم اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف منهم رجلان. أفمضيتم الىٰ المشركين؟

قال: نعم.

قال الصادق (عليه السلام): فتفعلون ماذا؟

قال عمرو: ندعوهم الى الاسلام فإن أبوا دعوناهم الىٰ الجزية.

قال الصادق: فإن كانوا مجوساً وعبدة النار والبهائم وليسوا أهل الكتاب؟

قال عمرو: سواء..

وبعد محاورة في شأن الجزية والصدقات أقبل على عمرو والناس وقال: «اتق الله

يا عمرو. وأنتم أيها الرهط فاتقوا الله. فإن أبي حدثني وكان خير أهـل الأرض وأعـلم بكتاب الله وسنة رسول الله أن رسول الله (ﷺ) قال: «ومن ضرب بسيفه ودعـاهم الى نفسه وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف».

مع القرآن

كان جده علي(عليه السلام) يقول: «سلوني عن كتاب الله. فوالله ما مـن آيـة إلا أنـا أعـلم بـليل نـزلت أم بـنهار. فـي سـهل نـزلت أم فـي جـبل» فـلقد كـان دائـماً الى جـوار الرسول(ﷺ). وهو باب مدينة العلم. والامام جعفر يصدر من المنبع ذاته.

يقول مثل جده علي: «كان أصحاب محمد يقرأ أحدهم القرآن في شهر أو أقل. ان القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلا. واذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عـندها وأسأل الله تعالى. واذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها وتعوّذ بالله من النار».

للقرآن عنده المقام الأول. يسأل عمن يؤمّ القوم فيجيب: « أن النبي(ﷺ) قـال: يتقدم القوم أقرؤهم للقرآن. فإن كانوا في القراءة سواء فأقدمهم هجرة. فإن كـانوا فـي الهجرة سواء فأكبرهم سناً. وان كانوا في السن سواء فأعلمهم بـالسنة، وأفـقههم فـي الدين. ولا يتقدمن أحد الرجل في منزله، وصاحب السلطان في سلطانه».

ونصوص القرآن حاضرة كلما أراد أن يدلي بحجة. وهو في قـمة البـلاغة العـربية تسعه اللغة، لا يلجأ الىٰ التأويل بديلاً من التفسير. فهو في فهم النصوص أنفذ بصيرة. لم يعلم له تفسير نوقض فيه. والتـفسير بـتخريج مـجازات القـرآن لا يـقدر عـليه إلا البلغاء(١).

---

(١) في القرآن مجاز كثير مثل عرض الأمانة علىٰ السموات والأرض، يفسرها بعض العلماء أنها الطاعة. ومـثل يد الله فوق أيديهم يفسرها البعض بأنها القدرة ـ وهؤلاء المخـرجـون يـبدأون مـن أن (الله ليس كـمثله شيء) والآخذون بالتأويل يبدأون من ذلك المبدأ ثم يؤولون الآيات المتشابهة على اساس الآيات المحكمة، كقوله تعالىٰ (الىٰ ربها ناظرة) يفسرونها علىٰ أساس قوله (لاتدركه الأبصار) فيكون المقصود الرضى عنها.

=

ومن القرآن ينبثق فقه الامام في كل باب:

ـ يسأله سائل عن قوله تعالىٰ «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» فيجيب: «من أخرجها من هدىً الىٰ ضلال فقد ـ والله ـ قتلها».

ـ ويجيئه زنديق يسأله عن تفسير قوله تعالىٰ «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة» وقوله تعالىٰ في آخر السورة «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل»

فيفحم الامامُ الزنديقَ فيقول: «أما قوله (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) فإنما عنى النفقة. وأما قوله (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) فإنما عنى المودة. فإنه لايقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودة».

ـ ويقول عن الرزق الذي يحضّ الله علىٰ الإنفاق منه «ومما رزقناهم ينفقون» فيفسرها «ومما علمناهم يبثون» فالعلم رزق، وإذاعته إنفاق واجب.

ـ ومن تعبيره عن حجية القرآن أبدا يسأله السائل: لِمَ صار الشعر والخطب يمل ما أعيد منهما والقرآن لايمل؟ فيجيب (عليه السلام): «لأن القرآن حجة علىٰ أهل العصر الثاني كما هو حجة علىٰ أهل العصر الأول. فكل طائفة تراه عصراً جديداً. ولأن كل امرئ في نفسه متي أعاده وفكر فيه، تلقى منه في كل مدة علوماً غضة، وليس هذا كله في الشعر والخطب».

ـ ويقول المفضل: قلت: أخبرني عن قول الله عزوجل «وجعلها باقية في عقبه» قال: «يعني بذلك (الامامة) جعلها في عقب الحسين(عليه السلام) الى يوم القيامة»، فقلت:

= وللمؤولين تفاسير كثيرة ألقي كثير منها في غياهب الإهمال وبخاصة تفاسير المعتزلة، بقي منها الكشاف للزمخشري الفقيه الحنفي؛ وللبلاغة العربية فيه أعظم مكان..

فكيف صارت الامامة في ولد الحسين دون ولد الحسن وهما جميعاً ولدا رسول الله(ﷺ) وسبطاه وسيدا شباب أهل الجنة؟ فقال: ان موسى وهارون كانا نبيين مرسلين أخوين فجعل الله النبوة في صلب هارون دون صلب موسىٰ، ولم يكن لأحد أن يقول لِمَ فعل الله ذلك. فإن الإمامة خلافة الله عزوجل جعلها في صلب الحسين دون صلب الحسن لأن الله هو الحكيم في أفعاله. لايُسأل عن فعله وهم يسألون.

ـ ويعلن الامام (عليه السلام) بوجوب الامامة، فيسأله السائل عن منزلة الأئمة، ومن يشبهون؟ فيقول: كصاحب موسى وذي القرنين.. كانا عالمين، ولم يكونا نبيين[1].

ـ وفي قوله تعالىٰ «يمحو الله ما يشاء ويثبت»، يقول الامام: «وهل يمحو الله إلا ما كان ثابتاً. وهل يثبت الله إلا ما لم يكن» ويقول: «لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه» وإنما يقصد استجابة الله لدعاء العباد. وفي ذلك قوله: «ما عظم الله بشيء مثل البداء».

ـ ويسأله عمرو بن عبيد عن الكبائر «من كتاب الله». فيسردها، ويضع في جوار كل كبيرة النص عليها من الكتاب العزيز فهي:

---

(١) يحدد الصادق(عليه السلام) الامامة بتشبيه قرآني يفسر وجوبها، إذ يسأل عن حديث الرسول (ﷺ) : «من مات وليس له امام فميتته ميتة جاهلية» هل هي ميتة كفر؟ فيجب: «ميتة ضلال» ـ وكذلك يحدد جدّه زين العابدين(عليه السلام) معنىٰ العصمة بحد قرآني إذ يسأل عن معنى المعصوم فيقول: «هو من اعتصم بحبل الله المتين أي القرآن. فلا يفترق الامام عن القرآن الى يوم القيامة. فالإمام يهدي الناس الى القرآن، والقرآن يهدي الناس الىٰ الامام بقوله تعالىٰ «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم...».

ويلاحظ أن الذي فتق الكلام في الامامة وفصل وأصّل فيها هم تلاميذ الامام. وربما بدأ الكلام فيها في عهده كما يقول المستشرق رونالدسن. أما التعريفات الوافية فتنسب الى الامام الرضا (٢٠٢) حفيد الامام الصادق. يقول الامام الرضا(عليه السلام): «الامامة منزلة الأنبياء، ووراثة الأوصياء. الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول (ﷺ) والامامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعزّ المؤمنين» والماوردي من فقهاء أهل السنة يحدد غرضها فيقول: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا».

الشرك: «ان الله لايغفر أن يشرك به».

اليأس من روح الله: «لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون».

عقوق الوالدين: «وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيا».

قتل النفس: «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها».

قذف المحصنات: «ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة».

أكل مال اليتيم: «ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً».

أكل الربا: «الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس».

الفرار من الزحف: «ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الىٰ فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير».

السحر: «ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق».

الزنا: «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا».

اليمين الغموس: «ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم».

الغلول: «ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة».

منع الزكاة: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم».

كتمان الشهادة: «ومن يكتمها فإنه آثم قلبه».

شهادة الزور: «والذين يشهدون الزور».

نقض العهد وقطيعة الرحم: «الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون».

كفران النعمة: «ولئن كفرتم إن عذابي لشديد».

بخس الكيل: «ويل للمطففين».

وترك الصلاة: (........) واللواط: (..........) وقول الزور: (..........) وشرب الخمر:(..........) والبدعة: (..........).

ـ ومن علم الامام جعفر (عليه السلام) بالقرآن أخذ القراءات عليه حمزة بن حبيب التيمي. وفيها مد وإطالة وسكت على الساكن قبل الهمز.

ـ وفي صفات الله يقول الامام لعبد الملك بن أعين: «تعالىٰ الله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. تعالىٰ عمّا يصفه الواصفون المشبهون لله بخلقه.. إن المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزوجل فانف عن الله تعالىٰ البطلان والتشبيه فلا نفي ولا تشبيه.. هو الله الثابت الموجود».

ويقول لمن سأله هل رأىٰ رسولُ الله (صلى الله عليه وآله) ربَّه: «نعم لقد رآه بقلبه ـ أما ربنا جل جلاله فلا تدركه أبصار الناظرين ولا تحيط به أسماع السامعين».

وسأله الأعمش، شيخ المحدّثين، عن مكان الله، فقال: لو كان في مكان لكان محدثاً.

ولما سئل عن استوائه على العرش قال: انه يعني أنه لا شيء أقرب اليه من شيء.

سئل عن قوله تعالىٰ «وسع كرسيه السموات والأرض» فقال: «العرش في وجه هو جملة الخلق والكرسي وعاؤه. وفي وجه آخر هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه ورسله وحججه. والكرسي هو العلم الذي لم يطلع عليه أحداً من أنبيائه ورسله وحججه».

وسئل عن قوله تعالىٰ: «وكان عرشه على الماء» وقول البعض ان العرش كان على الماء والرب فوقه؟ فأجاب: «كذبوا. من زعم هذا فقد صير الله محمولاً، ووصفه بصفة المخلوق، ولزمه أن الشيء الذي يحمله أقوىٰ منه».

وواضح من ذلك نهي الامام (عليه السلام) عن التجسيد والتشبيه وتصحيحه افهام تلاميذه؛ كيوم جاءه يونس بن ظبيان يقول: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً..

يزعم أن الله تعالىٰ جسم! قال الامام: «ويله أما علم ان الجسم محدود متناه. فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان. فإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً!».

ـ وواضح منحى الامام في الاحتجاج بنظام الكون، ونظام الجسم الانساني، وبالعقل وهو درس من جده علي، يلفت النظر الى بديع صنع المبدع جلّ جلاله؛ وفي ذلك قول علي(عليه السلام): أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر؟

ـ يجيء الامامَ رجل من أهل مصر أوصىٰ أخوه للكعبة بجارية مغنية فارهة كانت له، فقيل له ادفعها الىٰ بني شيبة (وفيهم سدانة الكعبة). واختلف الناس في أداء الوصية. وأخيراً أشاروا عليه أن يأتي الامام. قال الامام: «ان الكعبة لا تأكل ولا تشرب وما أهدي اليها فهو لزوارها. فبع الجارية وناد: هل من محتاج؟ فإذا أتوك فسل عنهم وأعطهم».

ـ ويُسأل عن القضاء والقدر فيجيب: «هو أمر بين أمرين: لا جبر ولا تفويض»[1] ويحسم القضية بين الجبرية والقدرية فيقول: «ما من قبض ولا بسط إلا لله فيه مشيئة ورضاء وابتلاء».

---

(١) الجبر ان الانسان مجبر على اعماله. والتفويض ان الانسان مخيّر فيها. وهما نظريتان لمفكرين كانوا أحياء في بدايات حياة الامام عليه السلام ـ قال بالجبر الجعد بن درهم متأثراً بقول بيان بن سمعان. وقال بالتفويض غيلان الدمشقي ومعبد الجهني ـ وقد قتل الأربعة؛ الأولان قتلهما خالد بن عبدالله القسري والي بني أمية. والأخيران قتل الأول منهما هشام بن عبدالملك. أما معبد فقتله الحجاج لاشتراكه عليه في حركة ابن الأشعث. وتابع جهم بن صفوان الجعد. وقد قتله سالم بن أحوز المازني بمرو في أواخر أيام بني أمية.

وفي حياة الامام الصادق عليه السلام ازدهرت نظرية الإرجاء الى الله، حتى يكون يوم الحساب، فيحاسب الناس على عملهم مع وجوب قيامهم بالعمل الصالح. قال بها سعيد بن جبير وحماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة ومقاتل بن سليمان ـ وهو من السابقين الأولين في التفسير ـ وهؤلاء مرجئة السنة. أما مرجئة البدعة فيرجئون الحساب ولا يوجبون العمل الصالح.

والأولون يقولون ان الله يعاقب مرتكب الكبيرة لكنه قد يغفرها ولا يكفره الناس في الحياة الدنيا لذلك الامل.

يسأل عن الجبر والتفويض: جعلت فداك. أجبر الله العباد على المعاصي؟ فيجيب: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي ثم يعذبهم عليها. فيقول السائل: جعلت فداك ففوض اليهم؟ فيجيبه: لو فوّض اليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي.

فيقول السائل: جعلت فداك فبينهما منزلة؟

فيجيب: «نعم. ما بين السماء والأرض».

وفي مجلس آخر يسأله السائل: وما أمر بين أمرين؟ فيجيب: «مثل ذلك رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته. فتركته. ففعل تلك المعصية. فليس، حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذي أمرته بالمعصية».

ويقول لسائل آخر: «قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب علىٰ الله. ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه. ومن زعم ان المعاصي بغير قوة الله فقد كذب علىٰ الله. ومن كذب علىٰ الله أدخله النار».

ويقول: «إن الله أراد منّا شيئاً. وأراد بنا شيئاً. وما أراده منّا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منّا؟».

مع أهل الكوفة وأبي حنيفة

ولقد يقول له قائل: إن لي جاراً يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر! فيجيب: برئ الله من جارك.

يقول سالم: قال لي جعفر: «أيسب الرجل جده؟ أبو بكر جدي».

ولقد كان لجده زين العابدين (عليه السلام) ابن أسماه عمر.

ويقول أبو حنيفة: «استأذنت عليه فحجبني. وجاء قوم من أهل الكوفة استأذنوا لهم فدخلت معهم. فلما صرت عنده قلت:

يابن رسول الله لو أرسلت الى أهل الكوفة فنهيتهم أن يشتموا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ فإني تركت فيها أكثر من عشرة آلاف يشتمونهم!.

فقال: لايقبلون مني.

فقلت: ومن لايقبل منك وأنت ابن رسول الله؟

فقال الصادق (عليه السلام): أنت أول من لايقبل مني، دخلت بغير إذني، وجلست بغير أمري، وتكلمت بغير رأيي، وقد بلغني أنك تقول بالقياس.

فقلت: نعم أقول به.

فقال: ويحك يا نعمان أول من قاس إبليس حين أمر بالسجود لآدم فأبىٰ وقال: «خلقتني من نار وخلقته من طين». أيهما أكبر يا نعمان؛ القتل أم الزنا؟ قلت: القتل.

قال: فلِمَ جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة؟ أيقاس لك هذا؟ قلت لا.

قال: فأيهما أكبر؛ البول أو المني. قلت: البول.

قال: فلماذا أمر في البول بالوضوء وأمر في المني بالغسل. أيقاس لك هذا؟

قلت: لا. قال أيهما أكبر؛ الصلاة أم الصوم؟

قلت: الصلاة. قال: فلِمَ وجب علىٰ الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ أيقاس ذلك؟ قلت: لا.

قال: فأيهما أضعف؛ المرأة أم الرجل ؟

قلت: المرأة.

قال: فلِمَ جعل الله للرجل سهمين في الميراث وللمرأة سهماً؟ أيقاس ذلك؟

قلت: لا.

قال: وقد بلغني أنك تقرأ آية من كتاب الله «ثم لتسألُنّ يومئذٍ عن النعيم» انه الطعام الطيب والماء البارد في اليوم الصائف.

قلت: نعم.

قال: لو دعاك رجل وأطعمك وسقاك ماءً بارداً، ثم امتنّ عليك. ما كنت تنسبه اليه؟ قلت: البخل. قال: أفبخل علينا؟ قلت: فما هو:

قال حبنا أهل البيت»[1].



(١) يلاحظ أن مدرسة المحدثين ضائقة الصدر بالقياس. ومدرسة المدينة، وعلى رأسها مالك، تـقدح في أهـل العراق لكثرة ابداء الآراء باستعمال القياس.

ولئن كان لنا ان نلاحظ تأثر أبي حنيفة الكامل بمنهج الامام الصادق عليه السلام في الاعتبار بالآيات الدالة على الحقائق (أبو حنيفة ـ بطل الحرية والتسامح في الاسلام للمؤلف صفحة ١٧٨ طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية) أو تأثر مالك بمنهج الامام الصادق في عدم المجازفة بالرأي (مالك بن أنس للمؤلف صفحة ٧٦ وما بعدها طبعة دار المعارف)، اننا نقطع كذلك بأثره في النهي عن القياس. فلقد نفع النهي القياسيين أنفسهم فضبطوا القياس وتحروا كل الدقة فيه ليتفادوا المجازفة ثم جاء الشافعي فأصّله وقعّده. وهو القائل «والاجتهاد القياس».

يقول الفخر الرازي «العجيب ان أبا حنيفة كان تعويله على القياس وخصومه يذمونه بسبب كثرة القياسات، ولم ينقل عنه ولا عن أحد من أصحابه انه صنّف في إثبات القياس ورقة، ولا انه ذكر في تقريره شبهة؛ فضلاً عـن حجة، ولا أنه أجاب عن دلائل خصومه في إنكار القياس بل أول من قال في هذه المسألة وأورد فيها الدلائل هو الشافعي». فأبو حنيفة استعمل القياس والشافعي استعمله وأصّله وقعّد القواعد للعاملين به.

ولقد أفاد الشيعة كثرة ما آل اليهم من السُنة ونصوص الحديث فلم يلجأوا للقياس، كما كانت قواعدهم الاخرى كافية لبلوغ غرضهم. ومن أسباب الإقبال على القياس في العراق قلة ما سلموه من نصوص السُنة. وانما اتسـع فقه أحمد بن حنبل بكثرة السنن التي جمعها واعتمد أصحابه عليها ـ مع تعويله على أصل الصحابة فزاد مصادر الفقه أصلاً بتمامه.

والقياس الذي يلجأ اليه المجتهدون من أهل السنة هو إلحاق أمر لم يرد في حكمه نص أو إجماع بأمر ورد في حكمه نص أو اجماع لاشتراكهما في المعنى الذي شرع هذا الحكم من أجله؛ فثمة أركان أربعة: الأصل وهو النص، والفرع وهو الأمر الذي لم يرد في حكمه نص. والمعنى: الذي من أجله شرع الحكم. والمطلوب وهو الحكم، وهم يضعون للقياس شروطاً:

١ ـ أن يكون حكم الأصل ثابتاً بنص في الكتاب أو السنة أو الاجماع.

٢ ـ أن يكون لحكم الأصل علة يدركها العقل. فمن الأحكام ماهو تنفيذي لايجوز القياس فـيه، كـتحديد عـدد الركعات، ومقدار الأنصباء في الأموال التي تجب فيها الزكاة، وتحديد عدد الطواف حول الكعبة. فهذه مقدرات لايقاس عليها لأن العقل لايدرك علية مقاديرها.

وجميع الأحكام إلا قليلاً منها، كالتي سبق، يمكن للعقل إدراك المعاني التي شرعت الأحكام لأجلها.

=

والمسلمون يرفعون أبا حنيفة الىٰ مكانته العليا بين كبار المجادلين من أهل الاسلام، ولا يجدونه ساكتاً في يوم من الأيام، كهيئة ما كان في ذلك المقام.

فأما تفسير القرآن بما ينفي البخل عن المعطي جل شأنه فحجة الصادق(عليه السلام) فيه لا رادّ لها. واما حجاجه بعد طاعة أهل الكوفة فظاهر لأبي حنيفة، إمام الكوفة في الفقه والأدب الديني والاجتماعي، الذي دخل وجلس وتكلم دون أن يطيع، ثلاث مرات.

أما أسئلته عن القياس فقد وضعت القياس موضع التهمة. ولم يحر أبو حنيفة جواباً.

طعم أبو حنيفة يوماً مع الامام الصادق(عليه السلام) ـ فرفع الامام يده حمداً لله ثم قال: اللّهم هذا منك ومن رسولك. قال أبو حنيفة: يا أبا عبدالله أجعلت مع الله شريكاً؟ قال الامام: ان الله يقول في كتابه «وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله».

فقال أبو حنيفة «لكأني ما قرأتها قط في كتاب ولا سمعتها إلا في هذا الموقف».



ولقد يدخل عليه سفيان الثوري وفيه قول القائل «ما رأيت الغني أذل منه في مجلس الثوري ولا الفقير أعز منه في مجلس الثوري». والذين يجلون ورع الامام أحمد بن حنبل يشبهونه فيه بسفيان الثوري. وسفيان الثوري يسمى (أمير المؤمنين في الحديث). وحسبه أن يكون من تلاميذه في الحديث ابن جريج إمام مكة

= ٣ ـ أن يتساوى الفرع والأصل في المعنىٰ الذي شرع حكم الأصل من أجله، وإلا كان القياس فيه مع الفارق. وان يكون المعنى ظاهراً؛ لأنه معرف للحكم الخفي، والخفي لايعرف الخفي.

٤ ـ أن لايكون في الفرع نص أو اجماع يدل على حكم يخالف القياس.

٥ ـ أن لايكون حكم الأصل خصوصية من الخصوصيات كاختصاص الرسول بزواج من زدن علىٰ الأربع. واختصاص خزيمة بأن تعدل شهادته رجلين. وأن لا تكون العلة قاصرة على الأصل لايمكن تعدية حكمها الى الفرع.

وبالقياس أمكن أهل السُنة البناء على النصوص واستعمال العلل في تحقيق مقاصد الشارع.

والأوزاعي إمام الشام ومالك بن أنس إمام المدينة، وابن اسحق امام المحدّثين في السيرة، وهو فوق كل ذلك إمام عامل.. رمى كتاب «المهدي» له في دجلة ـ وفيه توليته للقضاء ـ وهرب من السلطان فولى شريكاً بدله.

وكان سفيان كثير المغاضبة للخلفاء ـ ولهذا كثر ما كان الخليفة يطلب دمه، وكان يختفي عن عيونه.

يستأذن سفيان على الامام، فلا يرفض الإذن بل يدخله ليعلن له أن ظهوره في المجلس العلمي، وهو مختفٍ، أمر غير سائغ، صيانة للمجلس العلمي من أن يكون مجلس المطلوبين، وحماية للمطلوب ذاته، وحفظاً لعلاقة الإمام بالخليفة. ومع ذلك لايضنّ الامام عليه بالحكمة.

يقول ابن أبي حازم: «كنت عند جعفر الصادق يوماً وإذا بسفيان الثوري بالباب فقال: إيذن لي. فدخل. فقال له جعفر: إنك رجل يطلبك السلطان في بعض الأحيان، وتحضر عنده وأنا أتقي السلطان. فاخرج عني غير مطرود.

قال سفيان: حدثني حديثاً أسمعه وأقوم.

قال الامام(عليه السلام): حدّثني أبي عن جدي عن أبيه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله. ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله، ومن حزنه أمر فليقل: لا حول ولا قوة إلا بالله».

طلب اليه سفيان يوماً أن يعظه، فقال عليه السلام: «ياسفيان لا مروءة لكذوب ولا أخ لملول. ولا راحة لحسود. ولا سؤدد لسيئ الخلق». فقال سفيان: زدني. قال: «ياسفيان ثق بالله تكن مؤمناً. وأرض بما قسم الله تكن غنياً. وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً. ولا تصحب الفاجر يعلمك فجوره. وشاور في أمر دينك الذين يخشون الله عزوجل».

فاستزاده سفيان فقال: «من أراد عزاً بغير عشيرة، وغنى بغير مال، فلينتقل من ذل معصية الله الى عز طاعته».

فإذا أوصىٰ زرارة عندما ولي القضاء، ذكره حساب السماء، قال: «انه اذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق سألهم عمّا عهد اليهم ولم يسألهم عمّا قضي عليهم»

فالقضاء أمانة الله. واذا كان القاضي يجري عليه قضاء الله فهو مسؤول عمّا يجري به قضاؤه علىٰ غيره.

ويوصي الامام ابنه موسىٰ الكاظم(عليه السلام) فيقول:

«يابني! من رضي بما قسمه الله له استغنىٰ. ومن مدّ عينيه الى ما في يد غيره مات فقيراً. ومن لم يرض بما قسمه الله له اتهم اللهَ في قضائه. ومن استصغر زلة نفسه استعظم زلة غيره.

يابني؛ من كشف حجاب غيره انكشفت عورات بيته. ومن سل سيف البغي قُتل به. ومن احتفر لأخيه بئراً سقط فيها. ومن داخل السفهاء حقر. ومن خالط العلماء وقر. ومن دخل مداخل السوء اتهم.

يابني؛ إياك أن تزري بالرجال فيزرى بك. وإياك والدخول فيما لايعنيك فتذل لذلك. يا بني؛ قل الحق لك أو عليك.

يابني: كن لكتاب الله تالياً، وللإسلام فاشياً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً، وإياك والنميمة، فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال، وإياك والتعرض لعيوب الناس، فمنزلة المتعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف».

وتصبح هذه الوصية تراثاً للأئمة بعده. فيعلن الامام الثامن (علي الرضا عليه السلام) انه: ماترك هذه الوصية الىٰ ان توفي.



ولقد يفد علىٰ المجلس الكميت ـ شاعر أهل البيت (عليهم السلام) ـ كما كان يدخل علىٰ زين العابدين(عليه السلام)[1] والإمام يعرف انبعاث الشاعر، ويخشىٰ عليه من الخيال

---

(١) دخل الكميت علىٰ زين العابدين عليه السلام فأنشده قصيدته التي مطلعها:

الصادق في تصوير ظلم يعانيه أهل البيت. وشعر الكميت من أشير الشعر في الأدب العربي ـ والعيون تنقل للخليفة الخبء من أي شيء ـ فيستأذن الكميت الامام قائلاً: جعلت فداك! ألا أنشدك؟ فينبهه الإمام قائلاً: «إنها أيام عظام».

فيقول الكميت عن القصيدة: إنها فيكم.

ويقول الامام: هات. فينشده قصيدته التي مطلعها:

ألا هل عم في رأيه متأمل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

إلى أن قال:

كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل

رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت ونقتل

ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة مما نخاف ونعقل

فكثر البكاء وارتفعت الأصوات إلى أن قال:

= من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

وقال الامام: ثوابك نعجز عنه لكن الله لايعجز عن مكافأتك. اللهم اغفر للكميت. ثم قسط على نفسه وعلى أهله أربعمائة ألف درهم؛ أعطاه القسط الأول قائلاً: خذ يا أبا المستهل. قال الكميت: لو وصلتني بدانق كان شرفاً لي ولكن إن أحببت ان تحسن الي فادفع لي بعض ثيابك، التي تلي جسمك أتبرك بها. فنزع ثيابه ودفعها اليه كلها ثم قال: اللّهم ان الكميت جاد في آل رسولك وذرية نبيك بنفسه حين ضنّ الناس، وأظهر ما كتمه غيره من الحق فأحيه سعيدا، وأمته شهيدا، وأره الجزاء عاجلاً وأجزل له المثوبة آجلا. فإنا قد عجزنا عن مكافأته ـ قال الكميت فيما بعد: فما زلت أعرف بركات دعائه.

ولئن كان عطاء الشعراء جوائز تشجيع لهم، ان تقسيط العطاء آية سخاء في التشجيع، وارتباط طويل بالمودة بين من قرض الشعر وبين من أجازه.

وتعجيل العطاء بالاستدانة درس تعلمه زين العابدين على جده ﷺ كان يمكث شهراً ما يستوقد ناراً، إن هو إلا التمر واللبن، ومع ذلك لايرد أحداً يسأله، بل يعطيه اذا كان عنده وإلا وعده. وذات يوم جاءه رجل. فقال عليه الصلاة والسلام «ما عندي شيء. ابتع علي فإذا جاء شيء قضيناه». قال عمر: يا رسول الله ما كلفك الله مالاتقدر عليه. فكره ما قال عمر. وقال رجل من الأنصار: يارسول الله أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً. فتبسم ﷺ. وقال «بهذا أمرت».

كأن حسيناً والبهاليل حوله لأسيافهم ما يختلي المتبقل
فلم أرَ مخذولاً أجل مصيبة وأوجب منه نصرة حين يخذل

فرفع جعفر الصادق عليه السلام يديه وقال: اللّهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر. وما أسر وما أعلن. وأعطه حتىٰ يرضى، ثم أعطاه ألف دينار وكسوة.

قال الكميت: والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردتها لأتيت من هي لديه، ولكني أحببتكم للآخرة؛ فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فإني أقبلها لبركتها، أما المال فلا أقبله.

المذهب الجعفري

أخرج الحاكم في تاريخه بالإسناد الىٰ أبي بكر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «من كتب علي علماً أو حديثاً لم يزل يكتب له الأجر ما بقي ذلك العلم أو الحديث».

وأجمع أبو بكر أيام خلافته علىٰ تدوين الحديث فجمع خمسمائة حديث فبات ليلته يتقلب كثيراً. قالت عائشة: فغمني تقلبه، فلما أصبح قال لي: «أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك» فجئت بها فأحرقها.

وعن الزهري عن عروة أن عمر أراد أن يكتب السنن فاستفتىٰ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأشاروا عليه أن يكتبها. فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً ثم أصبح يوماً فقال: «اني كنت أريد أن أكتب السنن، واني ذكرت قوماً قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، واني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً».

لكن علياً(عليه السلام) دوّن، وخلف في شيعته طريقة (التدوين). فلقد كان على ثقة من طريقته؛ وهو الذي يقول فيه الرسول: «علي مع القرآن والقرآن مع علي ولن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض». وعنه قال الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «يا معشر قريش. والله ليبعثن الله عليكم رجلاً منكم امتحن الله قلبه للإيمان فيضربكم على الدين»، قال أبو بكر: أنا هو يارسول الله؟ قال: لا. قال عمر: أنا هو يارسول الله؟ قال: لا، ولكن ذلك الذي يخصف النعل»؛ وكان علي يخصف نعلا للنبي عند ذلك.

وبالتدوين الفقهي استقر المذهب في صدور الحفظة والنقلة، من علي الى بنيه، فبنيهم، وبخاصة زين العابدين وزيد والباقر والصادق(عليهم السلام)، ثم عملت مجالس الامام الصادق في نشره كمثل عمل التدوين في استقراره. وأدرك الأئمة الذين تتلمذوا عنده وتلاميذهم أموراً ترفع مجلس الصادق فوق المجالس، سواء مجالس أهل السنة أو «أهل البيت» منها:

١ ـ أن الذي يلقي هذا العلم إمام موصىً اليه «باسمه» من أبيه. وبهذا ينماز من عمه زيد بن علي صاحب المذهب الزيدي ومن غيره من الشيعة.

٢ ـ أن هذا الإمام يقف بين العلماء جميعاً في مكان خاص. فالسنة عند الشيعة بعد موته تثبت عن طريقه ـ إلا ما ندر ـ فعنه يروي آلاف، وعنهم جاءت الأحاديث المروية في كتبهم.

٣ ـ ان الآراء الفقهية في أصول الدين وأصول الفقه وفروع المعاملات والعبادات سيراها اللاحقون منسوبة اليه. وربما اقترن به أبوه الباقر، أو أُشير الى رأي جده، السجاد، لكن نبع العلم منه هو الأشهر والأكثر.

وإذا لم يعرف التاريخ إماماً في السنن من درجته أو إماماً في الفقه من مرتبته، فالتاريخ ـ كذلك ـ لايعرف إماماً اجتمعت له الإمامتان مثله.

٤ ـ انه الامام الذي يوثقه أئمة المسلمين جميعاً، ويستوي في ذلك من أهل السنة أئمة الرأي فهم تلاميذه، وأئمة الحديث فهو في القمة منهم، وروايته للحديث يوثقها واضع الاساس العلمي لقبول الحديث «الشافعي» وعلماء الجرح والتعديل كيحيىٰ بن معين وأبي حاتم والذهبي وابن حنبل والآخرين.. وتتردد في كتب الصحاح أحاديثه، كما يبايعه إمام أهل البيت الذي سبق بفرقةٍ عظيمة وفقهٍ خالد (عمه زيد بن علي زين العابدين، صاحب المذهب الزيدي)، ويضعه موضع الامامة فيقول: «في كل زمان رجل من أهل البيت يحتج به الله على خلقه وحجة زماننا ابن أخي جعفر لايضلّ من كان من شيعته ولا يهتدي من خالفه».

٥ ـ ان هذا الامام هو أول وآخر واحد من صلب آبائه وأجداده مَنَّ الله عليه بهذه

الفرصة: أواخر الدولة المروانية المشغولة عنه بتثبيت دعائمها المهتزّة، وأوائل عهد الدولة العباسية التي تمدّ اليه بسببٍ من السلام أو الخصام، وآصرة من النسب، تخدمانه أو تخدمانها ـ وهي ترفع شعار أهل البيت والدفاع عن الدين ـ وبهذا أُتيحت له حرية الجلوس لكل الناس، والتدريس لكل العلوم، وأن تسيل الأباطح بأعناق المطي اليه من بقاع العالم، في حقبة مزدهرة من التاريخ العالمي والاسلامي.

٦ ـ انه الامام الذي طمأن الخلفاء (الملوك) في الدولتين، وكانوا سفاحين غلاظ الأكباد، فهو ـ كما يقول الشهرستاني وأبو نعيم في (الملل والنحل) و(حلية الأولياء): «ما تعرّض للإمامة قط ولا نازع في الخلافة أحداً. ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط. ومن تعلى الى ذروة الحقيقة لم يخف من حط».

٧ ـ انه الامام الذي أُتيح له على مدار ثلث قرن من الزمان بعد وفاة أبيه سنة ١١٤ أن يكون «الإمام».. فامتد به عصر سلام، ضروري لنشر العلم، باطمئنان طالبه، وواهبه، والدولة التي ينتشر فيها رعاياها.



هذه العناصر التي لم تجتمع لواحد من آبائه أو أبنائه جميعاً، هي التي سوّغت لمن تبع فقهه من الشيعة أن يطلقوا على مذهبه: (المذهب الجعفري). وماهو في صميمه إلا «مذهب علي (عليه السلام)». وانما تخول السماء بركاتها لبعض الأسماء في شكل حظوظ. وكان الامام جعفر الصادق (عليه السلام) جديراً بنعمة السماء قدر ما صدق وكافح في خدمة الاسلام.

وما كان علي بحاجة الى ما يخلد اسمه. فالإسلام في أعظم أيامه يقترن باسم علي، قدر ما اقترن اسم علي بالنبي وبيت النبي (عليهم السلام).

والمذهب يحمل اسم جعفر لأنه صاحب مدرسة سقيت منه السُنة الصحيحة، ومصادر الفقه العظيم، والمنهاج السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي نهجه تابعوه، وروى ذلك كلّه الآلاف، وروى عنهم أمثالهم.

وفي الجدود، بمعنى الحظوظ، جد وجد، لكنها ليست خبط عشواء: فاسم أمريكا قد خلد اسم امريكو فسپوتشي، لأن أمريكو فسپوتشي كان كاشفاً حقيقياً لبعض

شواطئها سنة ١٤٩٩.

ولم يغمط حظ الكاشف الثاني حق كرستوفر كولمبس، الكاشف الأول لها في ١٤٩٢. فاسم كولومبوس مايزال يجري على كل لسان على انه كاشف العالم الجديد.

والتاريخ ـ كله ـ يقدمه على فسپوتشي.

ولسنا في مقام مقارنات برجال، فعلي وجعفر (عليهما السلام) فوق المقارنات، بما قدموا للعالم كله ـ وسيطه وحديثه ـ من عناصر الحضارة، التي نقلت العالم من جهالات العصور القديمة وظلمات العصور الوسطى، الى الحضارة المعاصرة، على عجلات التقدم، يحرّكها العلم الصحيح، والاجتهاد الذي لايتوقف.

وكسب الأمم من علم الأئمة (عليهم السلام) كاقتران اسماء أصحاب الكشوف بكشوفهم وأرباب الابتكارات بفتوحهم، ليس صدفة، ولا محض جزاء، وانما هو توفيق من الله للإنسانية وللناس، لتكريم أمم، ورجال، فتحوا أرض الله لعباده، أو مكنوهم من أنعم السماء، أو سنن الأنبياء، ليشجع الشجعان، ويستمر ضوء الفكر الانساني في اشراقه حفزاً للعزائم وظهوراً للعلم.

ومنذ القرن الميلادي الماضي يطلق العلماء أسماء الرجال الذين يسروا للناس أسرار الطبيعة على مقاييس الطبيعة: الوات نسبة الى Watt والفرد نسبة الى Faraday والأمبير نسبة الى Ampere والفولت نسبة الى Volta والأوم نسبة الى Ohm والهرتز نسبة الى Hertz ورونتجن نسبة الى Rontigen. وهم إنجليزيان وفرنسي وإيطالي وثلاثة من الألمان.

وأين تجربة أو تجارب أو كشف أو كشوف من شريعة بتمامها، وإمام في الصدر من أئمتها، وطّأ نصوصها، وأصّل أصولها، وقعّد القواعد لها، وأقام عليها دولاً باقية بقاء الزمان، ومجتمعات خالدة بخلود الاسلام، ينسب المذهب فيها الى صاحبه، فيكون المذهب «الجعفري» أو المذهب «الامامي» المنسوب الى الامام جعفر الصادق (عليه السلام) والى القول «بإمامة الأئمة الاثني عشر».

القسم الثاني

الباب الرابع

المدرسة الكبرى

يا أهل بيت رسول الله حبكمو   فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكموا من عظيم القدر منزلة   من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له

الشافعي

في هذا الباب محاولة لرسم خطوط تقريبية للبنيان العظيم لفكر الشيعة الجعفرية (الاثنا عشرية أو الامامية) الذي كان الامام الصادق(عليه السلام) في طليعة بناته، والذي يحمل اسمه، وان شاركت في رفع صرحه مدرسة كاملة من السابقين عليه، والآخذين إخذه، من تلاميذه وتلاميذهم، بدأت بالنبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، مدينة العلم، وعلي بابها، وتتابع فيها الصحابة العظماء، والتابعون وتابعو التابعين؛ وفي الأجيال الثلاثة الامام علي والحسن والحسين ثم زين العابدين فالباقر فالصادق(عليهم السلام).

ثم تتلمذ للإمام الصادق فريق المخضرمين ممن تعلموا على أبيه أو أبيه وجده، ومن الشباب الذين تعاونت قرائحهم في تفتيق الكلام في العقيدة، وتشقيق المعاني في الفقه، ليصبحوا للذين جاءوا بعدهم، حتىٰ اليوم، علامات علىٰ الطريق.

وفي مشيخة هذه المدرسة ورد الفصل الأول.

والفصل الثاني يتناول أموراً أساسية في فكر المدرسة، دون حصر لتفاصيله أو تطرق للاختلاف عليه بينهم وبين أهل السنة، أو بينهم وبين فرقهم، حتى لا نخرج من إطار الصورة التي نحاول رسمها، وتنقيتها مما تبرأ منه الشيعة، وتقع التبعات فيه على الغلاة المطرودين.

وقد خصصنا بالبيان في هذا الفصل مسألتين أصوليتين؛ لكل منهما أثر في الفقه ـ سواء أكان فقه معاملات أم فقه عبادات ـ فبدأنا «بالحديث» وشروط قبوله وثنينا «بالإمامة»، وأضفنا كلمات عن مسائل خلافية بين المذهب الجعفري وبين غيره من المذاهب التي تتقاسم أهل السنة.. تخيرناها من شتىٰ مناحي التفكير الفقهي، لتتم أبعاد الصورة للقارئ، ويزداد جانبها الخلفي جلاء: أن الدين واحد عند أهل السنة والشيعة.

الفصل السابع

المدرسة الكبرى

ماذا لقينا من أبناء علي. إذا أحببناهم قُتلنا، وإذا عاديناهم دخلنا النار.

«الشافعي»

أخذ الفروعَ والأصول عن الامام جعفر الصادق(عليه السلام) جمع غفير من ثقات الشيعة، ورروا ذلك لمن بعدهم على سبيل التواتر القطعي، ورواه هؤلاء لمن خلفوهم قرناً بعد قرن. فالصادق يروي علم من قبله، ويروي الأئمة من أبنائه علمه، كما يرويه تلامذته. فهو الحلقة التي تتوسط السلسلة، أو العروة الوثقىٰ بين كتب آبائه وبين ما كتب بعده «الإمامية».

المصحف الخاص أو كتاب الأصول

آلى أمير المؤمنين علي بن ابي طالب(عليه السلام) علىٰ نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ألا يرتدي إلا للصلاة أو يجمع القرآن، فجمعه مرتباً علىٰ حسب النزول، وأشار الى عامه وخاصه؛ ومطلقه ومقيده؛ ومحكمه ومتشابهه؛ وناسخه ومنسوخه؛ وعزائمه ورخصه؛ وسننه وآدابه، ونبّه علىٰ أسباب النزول فيه.

ومن جلال شأن هذا الكتاب، قال فيه محمد بن سيرين: «لو أصبت هذا الكتاب كان فيه العلم». فهو كما يظهر من محتوياته مصحف خاص وكتاب أصول من صنع علي(عليه السلام).

والجامعة: كتاب طوله سبعون ذراعاً من إملاء النبي(صلى الله عليه وآله) وخط علي(عليه السلام)؛ فيه ما يحتاجه الناس من حلال وحرام وغيره، حتى ليصل في التفصيل الى أرش الخدش (التعويض عنه). وقد وصفها بذلك الباقر والصادق(عليهما السلام)، وشهدها عندهما الثقات من أصحابهما ومنهم أبو بصير.

قال الصادق(عليه السلام): «أما والله عندنا ما لانحتاج الىٰ أحد، والناس يحتاجون الينا. إن

عندنا الكتاب بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط علي عليه السلام بيده.. صحيفة طولها سبعون ذراعاً، فيها كل حلال وحرام».

وقال: «ان الجامعة لم تدع لأحد كلاماً.. فيها الحلال والحرام. ان أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدهم من الحق إلا بعداً. وان دين الله لا يصاب بالقياس».

قالوا: سميت الجامعة، والصحيفة، وكتاب علي، والصحيفة العتيقة.

كان أمير المؤمنين(عليه السلام) يخطب الناس فيقول: «والله ما عندنا كتاب نقرؤه عليكم إلا كتاب الله تعالىٰ وهذه الصحيفة ـ وكانت معلقة بسيفه ـ أخذتها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

ولقد دعا الخليفة أبو جعفر المنصور بكتاب علي هذا، فجاء به الامام الصادق وقرأ فيه ان النساء ليس لهن من عقار الرجل ـ إذا توفي عنهنّ ـ شيء.

وقال أبو جعفر: هذا والله خط علي وإملاء رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وأبو جعفر من العلماء كما قال عنه مالك إمام المدينة، وكما أقرّ له الجاحظ كبير النقاد. فهو قد يقسم لأنه قرأ كتابه قبل ذلك لعلي(عليه السلام)، أو لأن لديه من العلم ما يعرفه أنها بإملاء النبي(صلى الله عليه وآله وسلم).

وكتاب الديات؛ وهو يغطي ما يسمىٰ في الفقه المعاصر «المسؤولية المدنية» عن الفعل الضار بالجسم.. أورد محتوياته ابن سعد في كتابه المعروف بالجامع، وروى عنه أحمد بن حنبل في المسند الأعظم، وذكره البخاري ومسلم، ورويا عنه.

مصحف فاطمة

ومن التراث العلمي عند الشيعة ما يسمىٰ بمصحف فاطمة. حدثوا عن الصادق(عليه السلام) إذ سئل عنه: «ان فاطمة مكثت بعد رسول الله خمسة وسبعين يوماً وكان قد دخلها حزن على أبيها، وكان جبرئيل يأتيها فيحسن عزاءها ويطيّب نفسها، ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي يكتب ذلك. فهذا مصحف فاطمة».

فليس هذا مصحفاً بالمعنىٰ الخاص بكتاب الله تعالىٰ وإنما هو أحد المدوّنات.

التدوين

يروي «الصدوق» في (الأمالي) ان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «المؤمن من إذا مات ترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة ستراً بينه وبين النار».

وفي حياة النبي أو حياة علي، اقتدت بعلي شيعته في التدوين؛ أو قل: هديت لتنفيذ أمر الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

يقول ابن شهر اشوب: «أول من صنّف في الاسلام علي بن أبي طالب، ثم سلمان الفارسي ثم أبو ذر».

والاثنان شيعة علي.

والسيوطي يروي أن علياً والحسن بن علي(عليهما السلام) ممن أباحوا كتابة العلم بين الصحابة وفعلوها.

وألّف أبو رافع مولى الرسول (صلى الله عليه وآله)، وصاحب بيت المال في خلافة الامام علي بالكوفة، كتاب السنن والأحكام والقضايا. يقول موسى بن عبدالله بن الحسن: سأل أبي رجل عن التشهد فقال أبي: هات كتاب أبي رافع، فأخرجه فأملاه علينا.

أما علي بن أبي رافع فكتب كتاباً في فنون الفقه على مذهب أهل البيت عليهم السلام، أي آراء علي بن أبي طالب، وكانوا يعظمون شأن هذا الكتاب ويحملون شيعتهم عليه.

ومن الشيعة زيد الجهضمي.. حارب مع علي (عليه السلام) وألّف كتاباً يحوي خطبه؛ ومنهم ربيعة بن سميع له كتاب في زكاة النعم؛ ومنهم عبدالله بن الحر الفارسي.. له لمعة في الحديث جمعها في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

ومنهم الأصبغ بن نباتة صاحب علي.. روى عنه عهده الى الأشتر النخعي. ووصيته الى ابنه محمد بن الحنفية.

ومنهم سليم بن قيس الهلالي صاحب أمير المؤمنين(عليه السلام)، له كتاب في الإمامة، وله مكانة عليا في المذهب من حيث الأصول.

وذات يوم كان الحكم بن عيينة عند الباقر (عليه السلام) يسأله فقال: يابني قم فأحضر كتاب علي، فأحضر كتاباً مدرجاً عظيماً ففتحه، وجعل ينظر حتى أخرج المسألة، وقال: هذا خط علي وإملاء رسول الله، وأقبل على الحكم وقال: «اذهب أنت وسلمة والمقداد حيث شئتم يميناً وشمالاً.. فوالله لاتجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرئيل».

ومن قبل الامام الباقر وجدت عند الامام زين العابدين الصحيفة المسماة الصحيفة الكاملة. وعن زين العابدين آلت الى الشيعة رسائل عديدة منها رسالة الحقوق، ورسالة الى ابن شهاب الزهري [١].

وكذلك ألّف عمرو بن أبي المقدام جامعاً في الفقه يرويه عن الامام زين العابدين (عليه السلام).

فلما صارت الامامة للصادق (عليه السلام) حضّ على تدوين العلم أياًكان موضوعه، دينياً أو دنيوياً، فقه عبادات أو معاملات أو علوماً تطبيقية. وكان يقول: «القلب يتكل على الكتابة».

وكان يملي على تلاميذه، ويجيئهم بالدواة والقرطاس، ويقول: «اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا».

ويلتمس سفيان الثوري اليه ان يحدّثه بحديث خطبة الرسول بمسجد الخيف، ويرجوه ليأمر له بقرطاس ودواة ليثبته، فيأمر له، ثم يمليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. خطبة رسول الله في مسجد الخيف: نضر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها وبلغها من لم تبلغه. يا أيها الناس! ليبلغ الشاهد منكم الغائب. فرب حامل فقه ليس بفقيه. ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه».

---

(١) وفي العصر ذاته كان سعيد بن المسيب أول فقهاء المدينة السبعة يخاف أن يكتب عن العلم. جاءه رجل فسأله عن شيء فأملاه عليه، ثم سأله عن رأيه فأجابه. وكانوا من كثرة افتائه يسمونه سعيد بن المسيب الجريء. فكتب الرجل. فقال جلساء سعيد: أتكتب يا أبا محمد؟ فقال سعيد للرجل: ناولنيها، فناوله الصحيفة فخرقها.

وكتب عبدالله الحلبي كتاباً عرضه علىٰ «الصادق» فصححه واستحسنه. وسنرىٰ حفيده الامام العسكري(عليه السلام) يعرض عليه يونس بن عبد الرحمن كتاب (يوم وليلة) فيصححه ويأمر بالعمل به.

ولما غاب «المهدي عليه السلام» في النصف الثاني من القرن الثالث أحوجت «الغيبة» الى الرجوع للمدونات التي تزخر بها خزائن الشيعة؛ إذ لم يكن لديهم إمام ظاهر يسألونه. وكثرت الكتابة عندهم في القرن الرابع.



كان أول المستفيدين بالتدوين الباكر أولئك الذين يلوذون بالائمة من أهل البيت(عليهم السلام) فيتعلمون شفاهاً أو تحريراً، أي من فم لفم أو بالكتابة. فما تناقلته كتب الشيعة من الحديث، هو التراث النبوي ـ في صميمه ـ بلغ الشيعة في يسر طوع لعلمهم الازدهار؛ في حين لم يجمع أهل السنّة هذا التراث إلا بعد ان انكب عليه علماؤهم قرناً ونصف قرن حتى حصلوا ما دونوه في المدونات الأولىٰ. ثم ظلوا قروناً أخرىٰ يجوبون الفيافي والقفار في كل الأمصار، فتطابقت السنة ـ في مجموعها ـ عند هؤلاء وأولاء، إلا أموراً لا تتصل بأصل الدين، وخلافات في الفروع ليست بدعا في الأمة.

وربما كان اختلاف مذاهب أهل السُنة فيما بينهم وبين أنفسهم أكثر ظهوراً في بعض المسائل من خلافهم فيها مع فقهاء الشيعة.

وإذا لاحظنا ان من الرواة من قيل انه روى عشرات الآلاف من الحديث عن الامام، تجلت كفاية التراث الموثوق به عند الشيعة لحاجات الأمة.

وإذا لاحظنا توثيق الشافعي ومالك وأبي حنيفة ويحيى بن معين وأبي حاتم والذهبي للامام الصادق (عليه السلام) ـ وهم واضعو شروط المحدثين وقواعد قبول الرواية وصحة السند ـ فمن الحق التقرير بأن حسبنا ان نقتصر على التفتيش عن رواة السنة عن الامام الصادق(عليه السلام).

والشيعة يكفيهم أن يصلوا بالحديث الى الامام.. لا يطلبون اسناداً قبل الامام جعفر(عليه السلام).. بل لا يطلبون إسناداً قبل الأئمة عموماً؛ لأن الامام بين أن يكون يروي

عن الامام الذي أوصى له، وبين أن يكون قرأ الحديث في كتب آبائه ـ الى ذلك فإن ما يقوله سُنة عندهم، فهو ممحص من كل وجه.. فليست روايته للحديث مجرّد شهادة به، بل هي إعلان لصحته.

وإذ كان مارواه الصادق رواية الباقر ورواية السجاد عن الحسين عن الحسن أو عن علي عن النبي(ﷺ)، فهذا يصحح الحديث على كل منهج. فالثلاثة الأخيرون من الصحابة المقدمين، يروون عن صاحب الرسالة، إذ يروي الحسن والحسين عن علي عنه.

لقد كان منهج علي(عليه السلام) ومن تابعه في التدوين خيراً كبيراً للمسلمين، منع المساوئ المنسوبة الى بعض الروايات، وأقفل الباب دون افتراء الزنادقة والوضاعين. فالسبق في التدوين فضيلة الشيعة. ولما أجمع العلماء بعد زمان طويل على الالتجاء اليه كانوا يسلمون بهذه الفضيلة ـ بالاجماع ـ لعلي وبنيه.

والسُنة شارحة للكتاب العزيز، وهو مكتوب بإملاء صاحب الرسالة. فهي كمثله حقيقة بالكتابة.

إنما كان المحدثون من أهل السُنة في القرون الأولىٰ مضطرين لسماع لفظ الحديث من الأشياخ، أو عرضه عليهم، لأن السنن لم تكن مدوّنة. فكانت الرحلة الى أقطار العالم لتلقي الحديث على العلماء وسيلتهم الأكيدة. ولم يغيّر ذلك النظر انتشار التدوين في نهاية القرن الثاني ومنتصف الثالث، وكثرة الحديث المدوّن في المسانيد والمجاميع والصحاح التي أُلفت بعد تلك الفترة؛ ومنها مسند أحمد بن حنبل (٢٤١) حوى ثلاثين ألفاً دون المكرر، اختارها من ثلاثة أرباع مليون جمعها من أفواه العلماء من أقصىٰ الأرض وأدناها، وحدث بها تلاميذه لينقلوها الىٰ الأجيال التالية.

وكان في أواخر أيامه يستوثق لنفسه، فيروي للناس الحديث ويطلب المسند يقرأ فيه.

ثم جاءت أجيال تأخذ الحديث من الصحف الموثوق بصحة صدورها من صاحبها

دون أن يرتحل اليه. وهذا ما أطلقوا عليه الوجادة[١] ـ يقولون: وجدنا بخط فلان. وفي القرن الرابع اعتبر ابن يونس الصفدي (٣٤٧) إماماً حافظاً للحديث وان لم يرحل.

* * *

قلنا في كتابنا (أحمد بن حنبل امام أهل السنة)[٢]: «والبعض من المحدثين لم يكونوا يروون عن الامام جعفر الصادق(عليه السلام) لأنه يحدث بما قرأه في الكتب...

سئل أبو بكر بن عياش وهو من أول أشياخ أحمد: لماذا لم تسمع من جعفر، وقد أدركته؟

قال: سألناه عمّا يحدث من الأحاديث: أشيء سمعته؟ قال: لا، لكنها رواية رويناها عن آبائنا»

وعقبنا ذلك بقولنا: «والشافعي[٣] ويحيى بن معين[٤] متفقان علىٰ توثيقه؛ وهو شيخ مالك. وليس بعد هؤلاء أدلة على جواز طريقة الامام جعفر(عليه السلام) مع علمه الضخم في كل باب».

وفي كتابنا (الامام الشافعي) أجملنا الكلام عن موضع الامام من الاسلام كله في كلمات: «الامام جعفر.. يمثّل صميم الاسلام.. يجتمع في نسبه النبي عليه الصلاة

---

(١) لفظ مولد من وجد، غير مسموع من العرب.

(٢) الطبعة الأولىٰ ـ طبعة المجلس الأعلىٰ للشؤون الاسلامية القاهرة ـ ص٢٦١.

(٣) يذكر ابن النديم في الفهرست: «وكان الشافعي شديداً في التشيع. ذكر له رجل يوماً مسألة فأجاب فيها. فقال له خالفت علي بن أبي طالب. فقال له: أثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولي الىٰ قوله».

وحضر الشافعي ذات يوم مجلساً لأحد الطالبيين فقال: «لا أتكلم في مجلس يحضره أحدهم. هم أحقّ بالكلام ولهم الرياسة والفضل».

(٤) يقول فيه أحمد بن حنبل: «كل حديث لايعرفه يحيى بن معين فليس بحديث» وهو من آباء علوم الحديث، ومؤلفاته مراجع فيها ـ وهي علوم أوصلها الحاكم النيسابوري الى اثنين وخمسين علماً، وأوصلها النووي الىٰ خمسة وستين.

والسلام وأبو بكر وعلي. وهو إمام في الدين والفقه وبحر في العلوم الطبيعية».

وهذا البحر، والقطعة من الاسلام والمسلمين الثلاثة الأولين ـ بل الأربعة الأولين وفيهم أم المؤمنين خديجة ـ إمام يهتدي بهديه واجتهاده أئمة أهل السنّة كافة. أما الشيعة الامامية، فقول الامام المعصوم يجري عندهم مجرى قول النبي من كونه حجة على العباد. ولقد توسّع علماؤهم في اصطلاح السنة الى ما يشمل «قول كل واحد من المعصومين وفعله وتقريره». فالأئمة المعصومون ليسوا ـ بهذه المثابة ـ من قبيل رواة السنن، بل هم منصوبون من الله تعالىٰ، على لسان النبي، لتبليغ الأحكام عن طريق الإلهام، كالنبي بطريق الوحي اليه، وهو خاص به، أو عن طريق التلقي من المعصوم الذي يسبق.

أما فعل المعصوم فدليل علىٰ الإباحة، واما تركه فدليل على عدم الوجوب.

وتآليف الامام الصادق (عليه السلام) كثيرة؛ منها رسالة في شرائع الدين؛ ووصاياه للامام الكاظم؛ ورسالة في الغنائم ووجوب الخمس؛ وتوحيد المفضل؛ وكتاب الأهليلجة؛ وكتاب مصباح الشريعة؛ وكتاب مفتاح الحقيقة؛ ورسالة الى أصحابه؛ ورسالة الىٰ أصحاب الرأي والقياس؛ ورسالة لمحمد بن النعمان؛ وأخرىٰ لعبدالله بن جندب؛ ورسالة في وجوه المعايش للعباد؛ ووجوه إخراج الأموال؛ ورسالة في احتجاجه علىٰ الصوفية فيما ينهون عنه من طلب الرزق؛ ورسالة حكم قصيرة.

والرسالتان الأخيرتان عملان أساسيان في الاقتصاد والاجتماع، يدلان علىٰ منهاج الامام في صلاح الدنيا بالعمل والعبادة معاً.

وثمة الرسائل العلمية المقترنة بجابر بن حيان.

أما كتاب الجفر المنسوب الى الامام الصادق (عليه السلام) ـ فيقول عنه ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٦ هـ) (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م): «واعلم ان كتاب الجفر كان أصله ان هارون بن سعيد البجلي ـ وهو رأس الزيدية ـ كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق وفيه علم ما سيقع لأهل البيت (عليهم السلام) على العموم ولبعض الأشخاص منهم علىٰ الخصوص، وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم. وكان

مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هارون البجلي وكتبه وسمّاه الجفر باسم الجلد الذي كتب عليه، لأن الجفر في اللغة هو الصغير. وصار هذا الاسم علماً على الكتاب عندهم. وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب المعاني مروية عن جعفر الصادق(عليه السلام).

وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عينه، وانما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل. ولو صحّ السند الى جعفرٍ الصادق لكان نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه، فهم أهل الكرامات. وقد صحّ عنه أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم فتصبح كما يقول».

والروايات متضافرة علىٰ أن الجفر غير (الجامعة). والبعض يقول إن الجفر من مؤلفات علي(عليه السلام) أملاه عليه النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)[1].

وهو جفران: الأبيض وهو وعاء من أدم فيه علوم الأنبياء والوصيين والذين مضوا من علماء بني اسرائيل، والأحمر فيه علم الحوادث والحروب.



كان تلاميذ الصادق مدونين كباراً، فلقد عاشوا في عصر نهضة علمية كبرىٰ أعجب بها العالم، تبارت فيها يراعات المدونين. ودارت عجلات التدوين كهيئة مادارت عجلات الطباعة عند ظهور المطبعة.. بدأها عمر بن عبد العزيز علىٰ رأس القرن إذ أمر بتدوين السُنة، وتابعها علماء الأمة من أهل السُنة.

ومن بعد وفاة الامام الصادق(عليه السلام) في عام ١٤٨، دوّن أربعة آلاف من التلاميذ في

---

(١) يقول ابن قتيبة عن الجفر في «أدب الكاتب» ان الامام الصادق عليه السلام كتبه، وان فيه كل ما يحتاجونه الىٰ يوم القيامة.

والىٰ هذا الجفر، واحتوائه على كل شيء، يشير أبو العلاء المعري في شعره:

لقد عجبوا لآل البيت لما ... أتاهم علمهم في جلد جفر

فمرآة المنجم وهي صغرى ... تريه كل عامرة وقفر

وربما نسبوا من أجل ذلك الىٰ الامام علوم كشف الغيب أو التنجيم.

كل علومه، ومن جملتها ما يسمىٰ (الأصول الأربعمائة)، وهي أربعمائة مصنف لأربعمائة مصنِف من فتاوى الصادق، وعليها مدار العلم والعمل من بعده. وخير ما جمع منها كتب أربعة هي مرجع الإمامية في أصولهم وفروعهم الىٰ اليوم، وهي «الكافي» و«من لا يحضره الفقيه» و«التهذيب» و«الاستبصار».

والكافي ـ لابي جعفر محمد بن يعقوب الكليني (٣٢٩) ـ أعظمها وأقومها، وأحسنها وأتقنها. فيه ١٦١٩٠ حديثاً. ألّفه الكليني في عشرين سنة.

وأما كتاب (من لا يحضره الفقيه) فوضعه ابن بابويه القمي ـ محمد بن علي بن موسىٰ بن بابويه القمي[1] الملقب (بالصدوق) ـ (دخل بغداد سنة ٣٥٠ ومات بالري سنة ٣٨١). وفيه ٥٩٦٣ حديثاً. وهذا الكتاب أهم مؤلفاته مع أنه ألّف ثلاثمائة كتاب.

وأما «التهذيب» و«الاستبصار» فوضعهما بعد نحو قرنٍ محمدُ بن الحسن بن علي الطوسي (٤٦٠) الملّقب بـ(شيخ الطائفة)؛ وكان فقيهاً في مذهبي الشيعة وأهل السنة.

وفي (التهذيب) ١٣٥٩٠ حديثاً، وفي (الاستبصار) ٥٥١١ حديثاً.

دخل الطوسي بغداد سنة ٤٠٨ واستقر بها في أيام الشيخ المفيد (محمد بن النعمان ٣٣٦ ـ ٤١١) صاحب شرح عقائد الصدوق وأوائل المقالات، ونحو مائتي مؤلف.

وتتلمذ الطوسي بعد موت الشيخ المفيد للشريف المرتضى فنجب في مدرسة الشرف، وفي «دار العلم» التي أنشأها، وكان يجري عليه اثني عشر دنياراً في الشهر طوال ملازمته له حتىٰ وفاة المرتضىٰ. وانتفع بكتب المرتضىٰ والكتب التي حوتها مكتبته. فألّف في كل علوم الاسلام، واجتهد الاجتهاد المطلق؛ فكان حجة في فقه الشيعة والسنة.

ومن أجلّ آثاره تدريسه في مجالسه، وأماليه «بالنجف الأشرف» في جوار مشهد أمير المؤمنين علي(عليه السلام). وبهذا افتتح عصر العلم بالنجف الأشرف فصار صنواً

---

(١) نسبة الىٰ مدينة قم في ايران، وهي أقدم المدن التي بدأ فيها الشيعة الإمامية في ايران. وقد نشأت علىٰ أيدي جماعة من الناجين من جيش ابن الأشعث(٨٣).

للأزهر الأغرّ ـ الذي أقامته دولة من دول الشيعة ـ والمعهدان هما اللذان حفظا علوم الإسلام.

فالطوسي، والشريفان الرضي والمرتضى، والشيخان المفيد والصدوق، والكليني، قد وصلوا ما انقطع من التأليف منذ عصر الامام الصادق(عليه السلام) حتى منتصف القرن الخامس، ليستمر التيار في التدفق.

والشريفان في مدرسة جدهما صنوان؛ أبوهما أبو أحمد الموسوي (نسبة الىٰ جده الامام موسىٰ الكاظم عليه السلام). وفيه قول ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة للشريف الرضي: كان أبوه أبو أحمد جليل القدر عظيم المنزلة في دولة بني العباس وبني بويه. ولقب «بالطاهر ذي المناقب» ولقبه أبو نصر بن بويه «بالطاهر الأوحد». ولي نقابة الطالبيين عدة دفعات، كما ولي النظر في المظالم، وحج بالناس مراراً على الموسم.

عاش أبو أحمد طوال القرن الرابع (٣٠٤ ـ ٤٠٠) وكان يستخلف على الحج ولديه «الرضي» و «المرتضى».

والشريف الرضي (٣٥٨ ـ ٤٠٦) هو شاعر العربية الشهير، وجامع «نهج البلاغة» الأشهر، من خطب أمير المؤمنين علي(عليه السلام). تولى نقابة (الطالبيين) في حياة أبيه ومن بعده، وتولى النيابة عن الخليفة العباسي.

فهذه ولاية يتفرّد بها في التاريخ، تجمع بين نقابة الطالبيين وبين نيابة الخلافة السنية.

وللشريف الرضي تآليف عظيمة في تفسير القرآن منها (١) تلخيص البيان في معجزات القرآن. (٢) حقائق التأويل ومتشابه التنزيل. (٣) معاني القرآن. كذلك له (٤) مجازات الآثار النبوية. (٥) خصائص الأئمة.

أما الشريف المرتضى (٤٣٦) فيقول عنه الثعالبي في «يتيمة الدهر» ـ وهما متعاصران ـ «انتهت الرياسة اليوم ببغداد الى المرتضى في المجد والشرف والعلم والأدب والفضل والكرم. وله شعر نهاية في الحُسن. ومؤلفاته كثيرة؛ منها أمالي المرتضىٰ ـ الشافي ـ تنزيه الأنبياء ـ المسائل الموصلية الأولى ـ مسائل أهل الموصل

الثانية ـ مسائل أهل الموصل الثالثة ـ المسائل الديلمية ـ المسائل الطرابلسية الأخيرة ـ المسائل الحلبية الأولية ـ المسائل الجرجانية ـ المسائل الصيداوية ـ وتآليف أخرىٰ كبيرة في الفقه والقياس ورفضه. وقد شرح تلميذه الطوسي أكثر من مؤلف له».

ومن أعظم آثاره إنشاء «دار العلم» ببغداد ورصده الأموال عليها وإجراؤه العطاء على التلاميذ وإطعامهم وإسكانهم. وكان يتبع «دار العلم» هذه مكتبته التي تحوي أكثر من ثمانين ألف مجلد.

وحسبه ان يكون الطوسي من تلاميذه.

وفي آثار هذا السلف العظيم تتابع ركب العلماء والمؤلفين الفحول يخلدون فقه الاسلام.

مشيخة العلماء

كان مع الكتب التي آلت عن علي(عليه السلام) ومعاصريه، مؤلفات، كبيرة أو صغيرة، وضعها من جاءوا بعده، وسيّر لهذا الثبت الضخم من شيعته من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. فهذا هو التراث التاريخي للشهداء وأشياع الشهداء.. لاتكف الأمة عن ترديده، جهرة وخفية، يتصدرهم الصحابة العظماء، واليك بعض الأسماء:

سلمان الفارسي (والذي يطلق عليه سلمان المحمدي)؛ وأبو ذر (أصدق الناس لهجة)؛ وعمّار الذي (تقتله الفئة الباغية) وهو في التسعين يحارب مع علي(عليه السلام)؛ والعباس بن عبد المطلب؛ وأبو أيوب الأنصاري؛ والمقداد بن الأسود الكندي الذي قال لعلي(عليه السلام) يوم بيعة السقيفة: «إن أمرتني ضربت بسيفي وان أمرتني كففت»، قال(عليه السلام): (اكفف)؛ وخزيمة ذو الشهادتين؛ وأبو التيهان؛ وعبدالله والفضل ابنا العباس؛ وبلال بن رباح؛ وهاشم بن عتبة المرقال؛ وابان وخالد ابنا سعيد بن العاص؛ وأبيّ بن كعب سيّد القرّاء؛ وأنس بن الحرث بن نبيه؛ وعثمان وسهل ابنا حنيف؛ وبريدة؛ وحذيفة؛ وقيس بن سعد بن عبادة رئيس الأنصار؛ وهند بن أبي هالة ـ أمه أم سلمة أم المؤمنين؛ وجعد بن هبيرة المخزومي ـ أمه أم هانئ بنت أبي طالب؛ وجابر بن

عبدالله الأنصاري.

وسيجري في آثار الصحابة التابعون لهم وتابعو التابعين.. فيضيفون الى التراث العظيم آثار رجال عظماء منهم، من أشياع علي(عليه السلام): الأحنف بن قيس؛ سويد بن غفلة؛ الحكم بن عيينة؛ سالم بن أبي الجعد؛ علي بن أبي الجعد؛ السعيدان: ابن جبير وابن المسيب[1]؛ يحيى بن نظير العدواني؛ الخليل بن أحمد الفراهيدي مؤسس علم العروض؛ وأبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء مؤسس علم الصرف.

وفي مدرسة التابعين هذه برز: أبو هاشم (عبدالله بن محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين).. وأبو هاشم أول من تكلم في علم الكلام.. ومن بعده نشأت مدرسة المعتزلة يتزعمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد. وبأبي هاشم تبدأ مدرسة المتكلمين من الشيعة.

ومن جيل التابعين: هشام بن محمد بن السائب الكلبي؛ وأبو مخنف الأزدي المؤرخان.

ويتوالى موكب العلم العظيم من عهد علي(عليه السلام).. وتتعالى أصوات الدعاة العظماء للمذهب الشيعي، كالنابغة الجعدي: شهد صفين مع أمير المؤمنين، وله فيها أشعاره المشهورة، وكان معه عروة بن زيد الخيل؛ ولبيد بن ربيعة؛ وكعب بن زهير صاحب قصيدة «بانت سعاد». ومن بعدهم: الفرزدق، وكثير بن عزة من شعراء القرن الأول، ثم الكميت؛ وقيس بن ذريح؛ والسيد الحميري؛ ودعبل الخزاعي؛ وأبو تمام؛ والبحتري؛

---

(١) سعيد بن جبير هو الشهيد الوحيد الذي قتل من الرعب قاتله! سأله الحجاج وهو يقدمه للقتل: أي قتلة تشاء؟ فأجابه:

«اختر أنت فالقصاص أمامك». ذلك أن القصاص قتل بقتل. فكان الحجاج بعد استشهاد سعيد يهبّ من نومه فزعاً وهو يقول: مالي ولسعيد بن جبير!! ثم مات بعده بشهر. مات في رمضان وسعيد في شعبان سنة ٩٥.

ورفض ابن المسيب أن يبايع لولدي عبد الملك بن مروان ـ الوليد وسليمان ـ وتمسك برأيه فأخذوه ليقتلوه، ثم اكتفوا بضربه بالسياط وجردوه من ثيابه وطافوا به.

ورفض أن يزوج بنته للوليد بن عبد الملك، وهو ولي عهد عبد الملك، وآثر أن يزوجها تلميذاً فقيراً من تلاميذه.

وديك الجن؛ والحسين بن الضحاك؛ وابن الرومي؛ والأشجع السلمي[1]..

وعلم أهل البيت علم كل الأمة. فأمير المؤمنين علي (عليه السلام) في قمة السند عند الجميع من سنّة وشيعة. لكن الذين ينقلون عنه ـ من الشيعة أو السنة ـ محل تفاوت.

فالشيعة لايقبلون كلمة ممن حارب علياً (عليه السلام) أو ظلمه من الصحابة أو التابعين.

وأهل السُنة، مع اختلافهم من ناحية شروط الرواية والراوي، لايقبل بعضهم ما لا يصل اليه بطريقته، ويشكك بعضهم في بعض ما يرويه الشيعة لأمور تتعلق بالسند أو

---

(١) من الطبيعي أن يكون كثرة الشعراء شيعة. فالشعر ضمير الشعوب وصوتها الصداح. والضمير الاسلامي كله يثقله أو يعذبه أو يهيّج قرائحه ما أصاب أهل البيت من ظلم الحكومات، ويخفف عنه ما يعقده حول أهل البيت من أمل.. لهم وله.

وكلما أحس الشعب ظلماً طلب الرجاء والاقتداء بابناء النبي (صلى الله عليه وآله) ـ وبهذا انضاف الى الثبت الحافل السابق ذكره: ابن هانئ الأندلسي؛ ومهيار الديلمي؛ وأبو فراس الحمداني؛ والناشئ الصغير؛ والناشئ الكبير؛ وكشاجم؛ وأبو بكر الخوارزمي؛ والبديع الهمداني؛ والطغرائي؛ والسرى الرفاء؛ وعمارة اليمني.

بل أصبح ثناء على الشاعر أن يقال (يترفض في شعره) أي يتشيع. وللمتنبي وأبي العلاء شعر شيعي.

وأما أشراف العلويين فمنهم الشريف الرضي والشريف المرتضى. وكان الشريف علي الجماني يقول: «أنا شاعر وأبي شاعر وجدي شاعر» ومنهم الشريف الشجري.

بل كان من الأمويين متشيعون: ابان بن سعيد بن العاص؛ وخالد بن سعيد بن العاص؛ وعمر بن عبد العزيز؛ وعبد الرحمن أخو مروان بن الحكم؛ ومروان بن محمد السروجي الذي يقول:

يابني هاشم بن عبد مناف ... أنا منكو بكل مكان

ولئن كنت من أمية إني ... لبريء منهمو الى الرحمن

وأبو الفرج الاصفهاني (٢٨٤ ـ ٣٥٦) جده السابع مروان بن محمد آخر خلفاء بني مروان؛ وأبو الفرج صاحب «الأغاني» و«مقاتل الطالبيين».

ومن العباسيين شيعة: المأمون؛ والمعتضد؛ وأحمد بن الموفق. ومن الأيوبيين كان: الأفضل بن صلاح الدين. ومن الفلاسفة متشيعون: الكندي فيلسوف العرب (٢٤٦)؛ والفارابي (٣٣٩)؛ وابن سينا (٤٢٨).

ومن الوزراء المشهورين: أبو سلمة الخلال ـ قتله السفاح ـ ويعقوب بن داود ـ حبسه المهدي وأفرج عنه الرشيد ـ والفضل والحسن ابنا سهل ـ قتل المأمون الأول وأصهر الى الثاني ليستلّ سخيمته؛ وبنو طاهر الخزاعي؛ ووزراء المأمون؛ وأبو دلف العجلي؛ والصاحب بن عباد... الخ.

بالمتن أو برواية من الشيعة.

وفي اسناد الشيعة فحول ـ بكل المقاييس ـ في العدالة والنزاهة والعلم، تتردد اسماؤهم عالية في «كتب الحديث» و«الصحاح» التي يقوم عليها العلم عند أهل السُنة ـ والحق أن «جوهر الحديث النبوي» واحد عند هؤلاء وأولاء، مع تعدد الطرق.

ومن هؤلاء:

ـ الحارث بن عبدالله الهمداني (٦٥) صاحب أمير المؤمنين علي (عليه السلام) وخاصته. حديثه في كتب السنن الأربعة: قال ابن سيرين «كان من أصحاب ابن مسعود خمسة يؤخذ عنهم أدركت أربعة منهم وفاتني الحارث، فلم أرَه. وكان يفضل عليهم وكان أحسنهم. ويختلف في هؤلاء أيّهم أفضل: علقمة ومسروق وعبيدة».

ـ علقمة بن قيس النخعي (٦٢) عم الأسود وأخويه أبناء يزيد. كان من أولياء آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). والشهرستاني يعده من الشيعة فهو قد شهد صفين مع أمير المؤمنين، واستشهد فيها أخوه أُبيّ، وخضب علقمة سيفه من دماء الخوارج، ولم يزل عدواً لمعاوية حتىٰ مات. ومكانة علقمة عند أهل السنة من المسلّمات. كان عنده كل علم ابن مسعود.

وفي بيت علقمة نشأت مدرسة النخعيين، وفيها نجب ابراهيم بن يزيد واسطة العقد في فقه العراق.

ـ ظالم بن عمرو قاضي البصرة لعلي (ابو الأسود الدؤلي) (٦٩). احتج به أصحاب الصحاح الستة. وهو واضع علم النحو.. ومكان النحو من اللغة، ومكانة اللغة من القرآن والسنة وكل علوم الأمة، يضعان أبا الأسود في أعلىٰ مكان.

ـ عبد الله بن شداد بن الهاد (٨١). أمه سلمى بنت عميس أخت أسماء أم عبدالله بن جعفر ومحمد بن أبي بكر ويحيى بن علي.

وهو أخو عمارة بن حمزة لأمه. وحمزة بطل أُحد وشهيدها.

روى عن علي (عليه السلام) وأمّي المؤمنين عائشة وميمونة.
خرج مع القرّاء أيام ثورة ابن الأشعث فقتل يوم دجيل.
احتج بحديثه أصحاب الصحاح وسائر الأئمة أصحاب المسانيد.

ـ سليمان بن صرد الخزاعي (٦٥) كبير الشيعة في عصره، وبطل من أبطال صفين. يحتج به المحدثون. وحديثه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بلا واسطة، أو بواسطة الصحابي جبير بن مطعم، موجود في صحيحي البخاري ومسلم. وحديثه في غيرهما كثير.

وهو قائد التوابين الذين نهضوا للثأر لدم الحسين (عليه السلام). وكانوا أربعة آلاف ساروا الىٰ عبيدالله بن زياد وهو في سبعين ألفاً، فتلاقوا في موضع يُقال له «عين الوردة» حيث استشهد سليمان عن ثلاثة وتسعين عاماً وهو يحارب جيش عبيد الله بن زياد.

أما عبيدالله بن زياد فقتله ابراهيم بن الأشتر النخعي بيده.

ـ صعصعة بن صوحان العبدي: أسلم في عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يره. وهو من مشاهير خطباء العربية الذين خلدت بلاغتهم، فهو تلميذ في مدرسة أمير المؤمنين (عليه السلام). شهد معه «الجمل» ومعه أخواه زيد وسيحان. وكانت الراية بيد سيحان يوم ذاك، فقتل، فأخذها زيد فقتل، فأخذها صعصعة وانتصر. ثم شهد صفين مع أمير المؤمنين (عليه السلام).

روى عن علي وابن عباس. ونفاه المغيرة بن شعبة والي العراق بأمر معاوية، الى الجزيرة في البحرين فمات ـ احتج به النسائي.

ـ عمرو بن واثلة ـ أبو الطفيل ـ (١١٠) كان صاحب راية المختار ابن عبيد الثقفي. وهو آخر الصحابة موتاً. قدم على معاوية يوماً فقال له:

كيف وجدك على خليلك أبي الحسن؟ (يقصد أمير المؤمنين علياً عليه السلام) فأجاب: كوجد أم موسىٰ علىٰ موسىٰ. وأشكو الىٰ الله التقصير.

قال معاوية: كنت فيمن حصر عثمان؟

قال: لا ولكن فيمن حضره.

قال معاوية: فما منعك من نصره.

قال: فما منعك أنت من نصر عثمان؟ كنت في أهل الشام وكلهم تابع لك فيما تريد.

قال معاوية: أو ما ترىٰ طلبي لدمه نصرة له؟

قال: إنك لكما قال أبو جعف:

لألفينّك بعد الموت تطلبني وفي حياتيَ ما زوّدْتني زادا

وحديثه في صحيح مسلم. روى عن رسول الله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) وعن علي وابن مسعود وحذيفة بن اليمان وحذيفة بن سعد وابن عباس وعمر ومعاذ.

ـ إبراهيم بن يزيد النخعي (٩٥) أبوه يزيد بن عمرو بن الأسود النخعي. وأخواله الأسود وابراهيم وعبد الرحمن ابناء يزيد بن قيس. يؤلفون ـ مع علقمة بن قيس ـ مدرسة النخعيين. وابن قتيبة يعتبر ابراهيم من الشيعة. وروايته في الصحيحين. وعنه يروي حماد بن أبي سليمان. وعن حماد يروي أبو حنيفة

ومن فحول القرن الثاني كثيرون نختار منهم بعض الأسماء:

ـ عطية العوفي (١١١) كان أبوه من أصحاب علي(عَلَيْهِ السَّلَامُ). وعلي هو الذي أعطاه اسمه. ضربه الحجاج ٤٠٠ سوطاً لامتناعه عن سبّ علي (وحد الجلد مائة!). له ذرية نبلاء من الشيعة؛ منهم الحسين بن الحسن بن عطية الذي ولي القضاء.

يحتج به أبو داود والترمذي.

ـ جابر ين يزيد الجعفي (١٢٧). قالوا: إنه كان يؤمن بالرجعة. وأحاديثه في مسلم. وروى عنه النسائي والترمذي وأبو داود وأخذ عنه شعبة. ومن أجل قولهم عنه ووثاقته يروي ابن عبد الحكم عن الشافعي «ان سفيان (ابن عيينة) قال لشعبة: لئن تكلمت في جابر لأتكلمن فيك».

ـ شعبة بن الحجاج (١٦٠) أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين.

ـ عبد الرزاق بن همام (٢١٠) شيخ أحمد بن حنبل ويحيى بن معين واسحق بن

راهويه. سئل يحيى، وهو استاذ الجرح والتعديل، عن الرواية عن عبد الرزاق مع تشيعه، فقال: لو ارتدّ عن الاسلام ما تركنا حديثه.

وكان عبد الرزاق يتكلم في عثمان. وذكر أمامه معاوية مرة فقال: لاتقذروا مجالسنا بذكر ولد أبي سفيان[١].

ـ الأعمش ـ سليمان بن مهران الأسدي الكوفي ـ (١٤٨). يحتج به أصحاب الصحاح الستة. ويروي عنه شعبة وجرير والسفيانان (الثوري إمام الكوفة وابن عيينة إمام المدينة). بعث اليه هشام بن عبد الملك ليكتب له مناقب عثمان ومساوئ علي. فأخذ القرطاس وأدخلها في فم شاة وقال للرسول: قل له هذا جوابه. قال الرسول: لقد أقسم ان يقتلني إن لم آت بجوابك. فكتب: «أما بعد، فلو كان لعثمان مناقب أهل الأرض مانفعتك، ولو كان لعلي مساوئ أهل الأرض ما ضرّتك. فعليك بخويصة نفسك. والسلام».

ـ ابن لهيعة (١٧٤) قاضي مصر. يقول عنه سفيان «عند ابن لهيعة الأصول وعندنا الفروع».

ـ شريك بن عبد الله النخعي القاضي (١٧٧). كان يقول «علي خير البشر فمن أبىٰ فقد كفر». سأله الخليفة المهدي يوماً: ماذا تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: ما قال فيه

---

(١) سأل الترمذي أحمد بن حنبل عن عائشة والزبير وطلحة فأجاب: «من أنا حتى أقول في أصحاب رسول الله ﷺ اكان بينهم شيء الله أعلم به». فأحمد لايسيغ قدحاً في الصحابة لورعه. وهم بأعمالهم وآرائهم أصل من أصوله.. حتى انه ليبعث الىٰ يحيى بن معين يقول له: هو ذا تكثر الحديث عن عبدالله بن موسى العبسي وقد سمعته تناول معاوية. وقد أكثر الحديث عنه. فقال يحيى للرسول «اقرأ على أبي عبدالله أحمد بن حنبل السلام وقل له: أنا وأنت سمعنا عبد الرزاق (بن همام) يتناول عثمان بن عفان. فاترك الحديث عنه، فإن عثمان أفضل من معاوية».

ولم يترك أحمد حديث عبد الرزاق.

جداك العباس وعبدالله. قال ما قالا؟ قال شريك: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة. وكان يرى المسلمين يسألونه عمّا ينزل من النوازل، وما احتاج هو الىٰ أحد حتىٰ لحق بالله. وأما عبدالله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه سيفاً منيعاً وقائداً مطاعاً. فلو كانت إمامته علىٰ جور كان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه وفقهه في أحكام الله. ولم يمض وقت طويل حتىٰ عزل شريك[١].

ـ خالد بن مخلد القطواني (٢١٣) شيخ البخاري. قال عنه أبو داود: صدوق ولكن يتشيع!

ـ هشيم بن بشير أول أشياخ أحمد بن حنبل المحدثين (١٦٣).

---

(١) ربما كان في هذه الفترة الحرجة ما قيل من أنه دخل يوماً على المهدي، فقال المهدي: علي بالسيف والنطع. قال شريك: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال المهدي: رأيتك في منامي كأنك تطأ بساطي وانت معرض عني، فقصصت رؤياي على من عبرها فقال لي: يظهر لك طاعته ويضمر معصيته. قال شريك: والله ما رؤياك برؤيا ابراهيم الخليل، ولا معبرك بيوسف عليه السلام. أفبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين؟ فاستحى المهدي وقال: اخرج عني، وأبعده.

وكان الحقد على أمير المؤمنين علي عليه السلام غذاءً يومياً على موائد بني العباس لاتخلو منه واحدة حتى ولو كانت مائدة لخليفة يتشيع هو المأمون. أنبأه عمه ابراهيم بن المهدي ـ وكان شديد الحقد علىٰ علي عليه السلام ـ أنه رأىٰ في المقام علياً فمشيا حتىٰ جاءا قنطرة فتقدم لعبورها فأمسكه ابراهيم وقال: أنت تدعي هذا الأمر بامرأة (يقصد أمر الخلافة وفاطمة الزهراء عليها السلام وان علياً يتقدم بزواجه منها). فما رأيت له بلاغة في الجواب.. مازادني علي أن قال: سلاما سلاما.

فنهره المأمون على ما افتضح من عقله الباطن في صورة حلم. قال:

لقد أجابك أبلغ الجواب. عرفك أنك جاهل لايجاب مثلك. قال الله تعالىٰ: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما».

ولقد نهره أحمد بن أبي دؤاد مرة أخرىٰ إذ لم يتوقر في مجلس القضاء، فقال له: «يا ابراهيم اذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا امرءاً فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد. وليكن قصدك أمما. وريحك ساكنة. وكلامك معتدلاً. ووف مجالس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم».

وكان مغنياً يعربد. نصبه أهله خليفة لمدة عامين في ثورة على المأمون. ثم عفا عنه المأمون بعد أن ضبطوه يحاول الفرار في ثياب امرأة.

ـ عبدالله بن موسى العبسي (٢٦٣) من مشايخ بخارىٰ.

ـ معروف الكرخي (٢٠٠) زعيم الصوفية.

وصف ابن حنبل معروفاً لابنه عبدالله بن حنبل عندما سأله: هل عنده علم؟ فقال: كان عنده رأس الأمر كله؛ تقوى الله.

التلاميذ من الشيعة

صنّف الحافظ أبو العباس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الصادق(عليه السلام) ورواة حديثه وأنهاهم الىٰ أربعة آلاف. وكتب من أجوبته أربعمائة مصنف.

وإنما أمكنه من ذلك انقطاعه المخلص للتعليم عامة وتعليم السنن والفقه والتفسير خاصة، للشيعة ولغيرهم.

كان الرواة من تلامذته ومن غيرهم ـ كما يقول اليعقوبي ـ يروون عنه فيقولون: قال (العالم).

وكثيراً ما جلس في مجلس الامام المخضرمون الى جوار الجيل الجديد من المتفقهة؛ ومن الأولين قيس الماصر، وأبان بن تغلب، ومؤمن الطاق.

وكثيراً ما درب التلاميذ بين يديه ليصنعوا على عينيه.

يفد على المدينة وافد من الشام فيعدو الى المجلس ويناقشهم في «وجوب تنصيب الإمام» فيتجارون في جداله حتى يسلم لهم. ثم يعلق الامام الصادق(عليه السلام) على طريقتهم أو قدرتهم، فيقول لحمران بن أعين «تجري الكلام علىٰ الأثر فتصيب». ثم يلتفت لهشام بن سالم فيقول له «تريد الأثر ولا تعرفه». ويلتفت الىٰ الأحول (الطاقي) ويقول «قياس رواغ تكسر باطلاً بباطل، لكن باطلك أظهر». ويقول لقيس الماصر «تتكلم وأقرب ما تكون الى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. أنت والأحول قفازان حاذقان».. وأخيراً يقول لهشام بن الحكم: «ياهشام: لاتكاد تقع.. تلوي رجليك. إذا

هممت بالأرض طرت. مثلك يكلم الناس. فاتق الزلة..».

ولقد يلاحظ المرء من ذلك تعدد طرقهم وتفاوت علمهم ونفاذ بصر الامام(عليه السلام) الى خصائصهم، ودوره في تصويب وتدريب كل منهم، وهو لايتركهم دون تشجيع؛ يشير الىٰ زرارة بن أعين وبريد العجلي وأبي بصير المرادي ومحمد بن مسلم فيقول: «لولا هؤلاء لانقطعت آثار النبوّة واندرست». وكان في أسرة زرارة الحفّاظ المدققون يتصدرهم تلميذا الامام، الحسن والحسين ابنا زرارة. والامام يهب الأسرة جلال الذكرىٰ في التاريخ فيقول: «لولا أُسرة زرارة ونظرائه لانقطعت أحاديث أبي».

وهو إذ يثني على أُسرة زرارة، يشجّع النظراء، وربما لايتركهم الامام دون تضييف:

فالمستشرق رونلدسن يصور بعض مجالس الامام مع تلاميذه فيقول ما تعريبه «ومن الوصف الذي نقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه في بستانه الجميل في المدينة، واستقباله الناس على اختلاف مذاهبهم، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سقراطية. وقد ساهم تلاميذه مساهمة عظمىٰ في تقدم علمي الفقه والكلام. وصار اثنان من تلامذته وهما (أبو حنيفة ومالك) فيما بعد من أصحاب المذاهب الفقهية. وأفتوا بالمدينة أن اليمين التي أعطيت في بيعة المنصور لا تعتبر، ما دامت أعطيت بالإكراه. ويروى ان تلميذاً آخر من تلامذته وهو «واصل بن عطاء» رئيس المعتزلة جاء بنظريات في الجدل مما ادىٰ الى اخراجه من حلقة تدريس الامام جعفر، وكان (جابر بن حيان) الكيميائي الشهير من تلامذته أيضاً».

واليك بعض الأسماء:

«أبان بن تغلب» (١٤١) تلميذ زين العابدين والباقر والصادق (عليهم السلام).

قال له الباقر (عليه السلام): «اجلس في المسجد وأفت الناس. فأنا أحب أن يرىٰ في شيعتي مثلك». وقال له الصادق (عليه السلام): «ناظر أهل المدينة فأنا أحب أن يكون مثلك من رواتي ورجالي».

كان اذا دخل على الصادق(عليه السلام) عانقه وأمر بوسادة تثنى له، وأقبل عليه بكلّه، ولما مات قال: أما والله لقد أوجع قلبي موت ابان.

روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث، وهو ـ بهذه المثابة ـ شاهد على التعاقب والاستمرار والشمول في علم أهل البيت (عليهم السلام). يعرف الشيعة بأنهم (الذين اذا اختلف الناس أخذوا بقول علي عليه السلام واذا اختلف الناس عن علي أخذوا بقول جعفر بن محمد عليه السلام) فهو القائل في جعفر بن محمد: «ما سألته عن شيء إلا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

كان اذا جلس بالمسجد تقوضت اليه الحلق، وأخليت له سارية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم). فيجيئه الناس يسألونه فيجيبهم بمختلف الأقوال. ثم يذكر قول أهل البيت (عليهم السلام) ويورد حججه. ومن أجل هذا المنهج في التدريس كان الصادق (عليه السلام) يوصي التلاميذ بأن يعبوا من منابعه؛ يقول لأبان بن عثمان: إيت أبان فإنه سمع عني ثلاثين ألف حديث فاروها عنه. فهو لا يتردد في تفضيله حتى ليجعله طبقة بينه وبين سميه في الرواية عنه.

وقد احتج بحديثه مسلم بن الحجاج في صحيحه وأصحاب السنن الأربعة. وروى عنه سفيان بن عيينة شيخ الشافعي. وله كتب شتى منها كتاب في الأصول.

ـ ثابت بن دينار (١٥٠) ـ أبو حمزة الثمالي ـ تلميذ الامام الصادق (عليه السلام) والسدي المفسر. يقول فيه الرضا حفيد الصادق (عليهما السلام): أبو حمزة في زمانه كلقمان في زمانه.

استشهد بنوه الثلاثة حمزة ونوح ومنصور في خروجهم مع زيد بن علي ـ روى عنه الترمذي.

ـ «مؤمن الطاق» ـ كما يسميه الشيعة ـ نسبة الى «طاق المحامل» حيث كان متجره، أو «شيطان الطاق» كما يسميه فقهاء السنة؛ هو: محمد بن علي بن النعمان الأحول. ويقال ان أبا حنيفة هو الذي لقبه بشيطان الطاق لمناظرة جرت بين الخوارج وبينه أمام أبي حنيفة. والراجح ان خصومه سموه كذلك لعبقريته. أما الامام الصادق (عليه السلام) فيناديه بعبارة بارعة يرضاه الجميع «ياطاقي» أو يقول (صاحب الطاق).

كان مناظراً لايشقّ له غبار. رآه تلميذ آخر يناظر، وأهل المدينة يضيقون بمناظرته حتى قطعوا آراءه، وهو لاينكف عن الجدل. فنبهه على ان الامام ينهاهم عن الكلام.

فالتفت اليه وقال: أو أمرك أن تقول لي؟ قال لا، ولكنه أمرني أن لا أكلم أحداً. قال: اذهب فأطعه فيما أمرك.

وسمع الصادق (عليه السلام) بالواقعة من التلميذ، فتبسم وقال له: ان صاحب الطاق يكلم الناس فيطير. أما أنت ان قصوك لن تطير.

ويروى انه ناظر زيد بن علي في إمامة الصادق(عليه السلام).

كان أبو حنيفة يتهمه بالرجعة؛ وهو يتهم أبا حنيفة بالقول بالتناسخ. تلاقيا بالسوق يوماً ومع صاحب الطاق ثوب يبيعه. قال أبو حنيفة أتبيعه الى حين رجعة؟ قال: إن أعطيتني كفيلاً أن لا تمسخ قرداً.

ولما مات الامام الصادق (عليه السلام) قال له أبو حنيفة: مات إمامك. فأجابه: لكن إمامك لا يموت إلى يوم القيامة[١].

وله كتاب في مناظراته لأبي حنيفة.

ـ أبان بن عثمان بن أحمر البجلي. يروي عن الصادق ثم عن الكاظم(عليهما السلام)، وله مؤلفات شتىٰ، وذكره ابن حيان في الثقات.

وهو علىٰ رأس الستة الذين أجمع الشيعة علىٰ تصحيح ما يصح عنهم والإقرار بالفقه لهم؛ وهم: أبان، وجميل بن دراج، وعبدالله بن مسكان، وعبدالله بن بكير، وحماد بن عيسىٰ، وحماد بن عثمان.

ـ هشام بن الحكم (١٧٩) نشأ بالكوفة ودخل بغداد للتجارة واستقر بها، ولزم الامام الصادق (عليه السلام) ثم صار خصيصاً بالإمام الكاظم (عليه السلام) يقول عنه ابن النديم: هو من جلة أصحاب جعفر. وهو من متكلمي الشيعة ممن فتقوا الكلام في «الامامة».

عمل مدة من الزمان قيماً بمجالس الكلام عند يحيى بن برمك وزير الرشيد.

وكان أول أمره من أصحاب جهم بن صفوان ثم انتقل الى القول بالإمامة في شبابه.

---

(١) يقصد ابليس، اشارة الى الاية الكريمة ـ حكاية عن قول ابليس ـ: «فانظرني الى يوم يبعثون»

فكان الصادق(عليه السلام) يدعو له: «لاتزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».

ونفذ هشام الى المعتزلة من خلال (النظام). وظل أثره قوياً في غير المعتزلة حتى ظهر المذهب الأشعري.

وهشام هو الذي يقول: ما رأيت مثل مخالفينا عمدوا الى من ولاه الله من سمائه فعزلوه وإلىٰ من عزله الله من سمائه فولوه (يقصد تبليغ علي سورة براءة بدلاً من أبي بكر، وقول جبريل للرسول: لايؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك).

كان اذا قصد إفحام معارضيه لم يثبت أمامه رجل. سمعه الرشيد في بعض مجالس يحيى بن برمك وكان يحضرها من وراء ستر فقال: «ان لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف».

ولما فتك الرشيد بالبرامكة طلب هشاماً فاختفى. فأخذ به خلقاً كثيراً ثم أطلقهم بعد ان مات هشام مستتراً.

ولم تكن مجالس المناظرات خالية من الخطر. يسأل هشاما سائل ذات يوم: «أما علمت أن علياً نازع العباس (جد الرشيد) ـ الى أبي بكر؟ فأيهما كان الظالم لصاحبه؟ ـ قال هشام فيما بعد «قلت في نفسي إن قلت العباس بلغ ذلك الرشيد، وإن قلت علياً ناقضت نفسي» ـ قال هشام: لم يكن فيهما ظالم. قال السائل أفيختصم اثنان.. وهما محقان!! قال هشام: نعم اختصم الملكان الى داود، وليس فيهما ظالم. وانما أرادا أن ينبهاه. كذلك اختصم هذان الى أبي بكر ليعلماه ظلمه». فهو ينجو من المزالق، ويكرم الرجلين، ويفضل علياً علىٰ أبي بكر.

ومن وصية الامام الصادق (عليه السلام) له قوله: «ياهشام من أراد الغنىٰ بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليفزع الى الله في مسألته ان كل له عقل. فمن عقل قنع بما يكفيه. ومن قنع استغنىٰ. ومن لم يقنع لم يدرك الغنى أبداً.. ياهشام كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا.. العاقل لايحدث من يخاف تكذيبه. إن الزرع ينبت في السهل.. من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه».

وكان يحذره من التشبيه والتجسيم، وقد كانت تبلغه عنه زلات في هذا الشأن. ومع

ذلك لايكف عن تشجيعه. فيستعيده رواية ما وقع منه مع عمرو بن عبيد زعيم المعتزلة. ويستحي هشام. فيقول له الامام (عليه السلام): «إذا أمرتكم بشيء فافعلوا». فيقول هشام:

«بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، فعظم ذلك عليَّ، فخرجت اليه ودخلت البصرة يوم الجمعة وأتيت المسجد، وإذا بحلقة عظيمة فيها عمرو.. والناس يسألونه.. فقعدت في آخر القوم علىٰ ركبتي. ثم قلت: أيها العالم. اني رجل غريب. تأذن لي في مسألة.. قلت: ألك عين؟ قال نعم. فقلت: ألك أنف؟.. ألك لسان؟.. ألك أُذن؟ قال نعم. قلت ألك قلب؟ قال: نعم. قلت: فما تصنع به؟ قال: أميز به كل ما ورد على هذه الجوارح والحواس. قلت: أوليَس في هذه الجوارح غنى عن القلب. قال: لا. قلت: لابد من القلب وإلا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت: يا أبا مروان. والله تعالىٰ لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح وتتيقن به مما شكت فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لايقيم لهم إماماً يردون اليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد اليه شكك وحيرتك؟.. فسكت. ثم التفت اليّ وقال: أنت هشام بن الحكم»..

فضحك الامام (عليه السلام) وقال: من علمك هذا؟ قال: شيء أخذته منك.. قال: «هذا والله مكتوب في صحف إبراهيم وموسىٰ».

وظاهر ان طريقته كانت طريقة الامام في استعمال المحسوسات والاعتبار بها في الإثبات واستعمال العقل بنزاهة في الاستدلال. وسنعرض لها فيما بعد.

بلغت مؤلفات هشام سبعة عشر مؤلفاً؛ منها: كتاب «الامامة» وكتاب الوصية والرد على من يطلبها، وكتاب الحكمين.

ـ «جابر بن حيان» ـ أول من استحق في التاريخ لقب كيميائي، كما تسميه أوربا المعاصرة. وهو الذي يشير إليه الرازي (٢٤٠ ـ ٣٢٠) ـ جالينوس العرب ـ فيقول «استأذنا أبو موسىٰ جابر بن حيان». والمؤرخون ـ إلا بعضاً من غير المسلمين ـ متفقون

على تلمذته للإمام، وعلى صلته أو تأثره به في العلم والعقيدة.. وأكثرهم على انه صار بعد موت الامام من الشيعة الإسماعيلية. يقول في كتابه الحاصل: «ليس في العالم شيء إلا وفيه من جميع الأشياء. والله لقد وبخني سيدي (يقصد الامام الصادق عليه السلام) على عملي، فقال: يا جابر لولا أني أعلم أن هذا العلم لايأخذه عنك إلا من يستأهله وأعلم علماً يقيناً أنه مثلك، لأمرتك بإبطال هذه الكتب من العلم».

وكانت كتب رياضة وكيمياء تسبق العصور بجدتها.. قيل انه أخذ علمه عن خالد بن يزيد ثم أخذ عن الامام جعفر (عليه السلام).

وهو يشير الى الامام دائماً بقوله «سيدي»، ويحلف به، ويعتبره مصدر الإلهام له.

يقول في مقدمة كتابه (الأحجار): «وحق سيدي لولا أن هذه الكتب باسم سيدي ـ صلوات الله عليه ـ لما وصلت الى حرف من ذلك الىٰ الأبد».

ذكر له المستشرق كراوس ناشر كتبه في العصر الحديث أربعين مؤلفاً، وأضاف ابن النديم في القرن الرابع للهجرة عشرين كتاباً أخرىٰ. وينقل ابن النديم قوله: «ألفت ثلثمائة كتاب في الفلسفة وألفاً وثلثمائة رسالة في صنائع مجموعة، وآلات الحرب، ثم ألفت في الطب كتاباً عظيماً ثم ألفت كتباً صغاراً وكباراً، وألفت في الطب نحو خمسمائة كتاب. ثم ألفت في المنطق علىٰ رأي ارسطو طاليس. ثم ألفت كتاب الزيج أيضاً نحو ثلثمائة ورقة. ثم ألفت كتاباً في الزهد والمواعظ. وألفت كتباً في العزايم كثيرة حسنة، وألفت في الأشياء التي يعمل بخواصها كتباً كثيرة. ثم ألفت بعد ذلك نحو خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة. ثم ألفت كتاباً في الصنعة يعرف بكتب الملك. وكتاباً يعرف بالرياض».



وتلاميذ الصادق المشهورون، فيما عدا من سلف ذكرهم، من كبار أهل السنة أشياخ للفقهاء في جميع المذاهب منهم: سفيان بن عيينة؛ وسعيد بن سالم القداح؛ وابراهيم بن محمد بن أبي يحيى؛ وعبد العزيز الدراوردي. وقد روى الشافعي عن كل هؤلاء. وجرير بن عبد الحميد؛ وابراهيم بن طهمان؛ وعاصم بن عمر.. بن عمر بن الخطاب؛

وأبو عاصم النبيل (٢١٢) شيخ أحمد بن حنبل؛ وأبو عاصم آخر تلاميذ الامام الصادق وفاة، وقد روىٰ عنه كتاباً؛ والكسائي عالم اللغة؛ وعبد العزيز بن عبدالله الماجشون زميل مالك في الفتيا في موسم الحج؛ وعبد العزيز بن عمران.. بن عبد الرحمن بن عوف؛ وابن جريح امام مكة؛ والفضيل بن عياض؛ والقاسم بن معن؛ وحفص بن غياث ـ والثلاثة أصحاب أبي حنيفة؛ ومنصور بن المعتمر؛ ومسلم بن خالد الزنجي شيخ الشافعي بمكة؛ ويحيى بن سعيد القطان.

وإنما أحدثت السياسة الخلافات بين فقهاء السنة والشيعة فانتجت وجوهاً لخلافات فقهية وحديثية. فوجدنا للشيعة رواة ليسوا من رواة الكتب التي يتداولها أهل السنة ومنها الصحاح الستة المشهورة. فالشيعة لايقبلون أحاديث من حاربوا علياً(عليه السلام) أو أخطأوا في حقه.

ومن الناحية الأُخرىٰ وجدنا في بعض كتب الحديث لأهل السنّة، أوصافاً للرواة من الشيعة، تتضح منها جذور هذه الخلافات.

واليك بعض أمثال:

ـ كان الشعبي ـ شيخ المحدثين بالكوفة علىٰ رأس المائة الأولىٰ ـ يكذب الحارث الهمداني، صاحب علي(عليه السلام)، فيسلط الله علىٰ الشعبي ثقات أثباتاً من الرواة يستخفون به.

ـ وأبان بن تغلب خريج مدرسة السجاد والباقر والصادق(عليهم السلام). يقول فيه الحافظ السعدي: زائغ مجاهر. ويقول فيه الجوزجاني: زائغ مذموم المذهب. ويقول عنه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال: «شيعي جلد. ولكنه صدوق. فلنأخذ صدقه وعليه بدعته».

ـ وعلى هذا النحو تجد خالد بن مخلد القطواني (٢١٣)، وهو من مشايخ البخاري، يقول عنه ابن سعد: إنه كان مفرطاً في التشيع. ويقول عنه ابو داود: صدوق لكنه يتشيع.

ـ وتجد تليد بن سليمان. يقول فيه أبو داود ـ تلميذ أحمد ـ رافضي يشتم أبا بكر وعمر. فلنا «صدقه» وعليه «بدعته». لكن ابن حنبل يأخذ عنه. وحسب الرجل شهادة ابن حنبل.

ـ وجعفر بن سليمان يقول فيه ابن عدي: «أرجو أنه لا بأس به»، في حين أن أحمد بن حنبل عندما يقال له ان سليمان بن حرب يقول لاتكتبوا حديث جعفر بن سليمان، يرد أحمد: «لم يكن ينهى عنه انما كان جعفر يتشيع» فيبين سبب ظلم سليمان له.

ـ ولقد تجد الراوية يقول بالرجعة، فيضعه يحيى بن معين، استاذ الجرح والتعديل وزميل أحمد بن حنبل، لكنك تجد عبد الرزاق بن همام يقول بالرجعة ومع ذلك يروي عنه الأعمش وسفيان وشعبة وابن حنبل ويحيى نفسه وسفيان بن عيينة شيخ المحدثين بمكة واستاذ الشافعي. وأحمد ابن حنبل صاحب المسند العظيم.

ـ أو تجد زبيد بن الحارث، يقول فيه الجوزجاني: «كان ممن لايحمد الناس مذاهبهم». ويضيف: «احتملهم الناس لصدق ألسنتهم في الحديث» لذلك يحتج به أصحاب الصحاح وأرباب السنن، وكمثهلم الشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي.

والحافظ بن حجر في تهذيب التهذيب يقول في الجوزجاني: «وأما الجوزجاني فلا عبرة بحطه على الكوفيين فالتشيع في عرف الأقدمين هو: أن علياً كان مصيباً في حروبه وان مخالفه مخطئ، مع عدم تقديم الشيخين. وربما اعتقد بعضهم أن علياً أفضل الخلق بعد رسول الله. وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً، صادقاً، مجتهداً، فلا ترد روايته».

وهذا هو الذي جعل روايات الرواة الذين ذكرناهم، وأمثالهم، تتردد في كتب الصحاح والسنن.

هكذا كان انقسام الأمة نقمة على العلم. وكان الوقوف على أبواب السلاطين نقمة أخرى. والوسائل طيعة، من ترهيب وترغيب وبث للعيون والارصاد، وبخاصة على

الشيعة، مما أورث هؤلاء العمل بالتقية. والتقية أو الحذر يوجبان الانطواء أو التباعد.

وفي عصر الخلافة العباسية كان «مذهب السلطان» مذهب أبي حنيفة في المشرق، ومذهب مالك بإفريقية في المغرب، في حين كانت المعتزلة تتزعم التجديد وتلتصق بالخلفاء. وكان ـ الشافعية ـ كإمامهم ـ أساتيذ جدل، وكمثلهم كان أهل الظاهر أتباع داود، وقد بدأ شافعياً. وأما المحدثون فقد كانوا يمثلون السلف والدفاع عن السنة.

وكانت خلافات المتفقهة سمة العصر، ومثلهم المالكية.

وفي القرن الرابع الهجري جاب المقدسي (٣٨٠) العالم الاسلامي، فذكر أن أهل الأندلس كانوا إذا وقعوا على معتزلي أو شيعي قتلوه، ثم وصف تناحر الوسط العلمي في عصره بعبارات حادة، قال: «قلما رأيت في بغداد من فقهاء أبي حنيفة إلا رأيت أربعاً: الرياسة، مع لباقة فيها، والحفظ، والخشية، والورع. وفي أصحاب مالك أربعاً: النقل والبلادة والديانة والسُنة. وفي أصحاب الشافعي: النظر والشغب والمروءة والحمق ـ وفي أصحاب داود: الكبر والحدة والكلام واليسار. وفي الشيعة: البغضة، والفتنة، واليسار، والصيت».

أما الصفتان الأوليان اللتان يصف بهما الشيعة فمردهما الىٰ التمسك بمقدساتهم وعلومهم في مواجهة المتعصبين الذين لا يكفون عن التناوش معهم من قريب أو بعيد. واما الصيت، فأي صيت في الأمة أبعد من صيت أهل البيت(عليهم السلام) أو محبيهم! وأما اليسار فمرده الى فتوح الله عليهم، بالعلم الذي طالما علمهم الامام جعفر الصادق(عليه السلام)، في «منهج كامل في الاقتصاد»، سنعرض له فيما بعد.

الفصل الثامن

الدرس الكبير

لكــن نــبي وصــي ووارث. وإن وصــيي
ووارثي علي بن أبي طالب
(حديث شريف)

أحدث انقسام الأمة بفعل بني أُمية أثره في الفقه. وليس كلام بعض المسلمين في أفراد الصحابة إلا أثر من آثار هذا الانقسام. ومن الطبيعي ألا تمتنع الألسنة عمّا لم تمتنع عنه الأسلحة، وأن تستمر معارك الكلام وإن توقفت رحىٰ الحرب.

شق أهل الشام عصا الطاعة لأمير المؤمنين منذ استخلف. وانتهت يوم «وقعة الجمل» فتنة عمياء. فيومئذ قال محمد بن الحنفية وهو يحمل الراية: هذه والله الفتنة الكاملة العمياء. وناداه أمير المؤمنين(عليه السلام): «هل عندك في جيش مقدمه أبوك، شيء!».

ونفر البطل للقاء أهل الشام في صفين.. ورفع جيش معاوية المصاحف. ثم كانت خدعة التحكيم وتمرّد الخوارج وهزيمتهم. لكنهم ظلوا يمثلون التعصب العميق لفكر لم يتمرس بالسياسة وتبعات القيادة وحقن الدماء. فلاموا علياً (عليه السلام) لقبوله التحكيم مع معاوية[1]. وعندئذ لم يوالوا علياً ولا من والاه ـ لكن الدولة لم تؤل اليهم، ولهذا قل أثرهم في الاتجاه العام للأمة.

وانما الذي أحدث أثره العظيم في الأمة خلاف معاوية، إذ ولي الحكم وألزم ولاته بالطعن في علي، والتنكيل بمن والاه. ونظرت العامة الىٰ مصلحتها العاجلة في توقي الشرور من السلطة. ونظر المتفقهون ـ ومعهم جمهور الأمة ـ بفتنه طابعه

---

(١) كفّروا علياً (عليه السلام) لقبوله التحكيم، ورأوا أن الخلافة لابد لها من بيعة الجمهور. وأنها لاتنحصر في بيت معين وبرئوا من علي وعثمان ومعاوية؛ الأول لقبوله التحكيم، والثاني لمخالفة سياسة الشيخين أبي بكر وعمر، والثالث لاستيلائه علىٰ الأمر بالقوة.. يأخذون بظاهر العبارة من القرآن، ولا يأخذون من السنة إلا ما يرويه من يتولونهم. وعمدتهم في الأحاديث المروية علىٰ عهد الشيخين. وكل من تعدى حدود الله عندهم فاسق. ولذلك عدوا أشياع معاوية والذين لم يتبرأوا من علي وعثمان ـ وهؤلاء جمهور الأمة ـ خارجين علىٰ الإسلام واستحلوا مالهم وقتلهم، وبهذا نفر الناس منهم.

الشمول، أنزل الخلفاء الراشدين الأربعة منازلهم. وسبحت ثلة منهم بزوارق السلطة خوفاً أو طمعاً. ورأىٰ البعض إرجاء إبداء الآراء. وبطش بنو أمية جبارين. فتضاءل عدد الشيعة أو توارىٰ بعضهم تقية، كما قل اتصال أهل البيت (عليهم السلام) بالعامة وفقهاء الجمهور. واستمسك الشيعة بفقههم وروايات الأحاديث من أئمتهم أو عن أئمتهم.

ولما قتَل معاوية حجرَ بن عدي، لغضب الصحابي الجليل من القدح في أهل البيت(عليهم السلام)، كان معاوية يقتل استقلال الآراء عن السلطة. ثم كانت المذبحة الكبرىٰ بأهل البيت في كربلاء سنة (٦١) متابعة من يزيد لأبيه في حماية «العرش» الأموي بغير حساب. ثم صفّت وقعة الحرة (٦٣) جيل الصحابة من المهاجرين والأنصار.

وفصلت حروب المختار بن عبيدة بين أشياع السلطة وبين علي من جديد. ولم تكن حرب ابن الزبير مع أهل الكوفة، ولا حربهم لبني مروان، إلا أسباباً جديدة لانكماش الشيعة. والحجاج ـ والي عبد الملك بن مروان ـ مصلت سيفه. وكمثله الولاة بعده.

في أخريات العهد كان زين العابدين(عليه السلام) قد ملأ الأفق بورعه وعلمه وسخائه، وبعده بزغ نجم الباقر (عليه السلام) في سماء المدينة، وأعقبه الصادق (عليه السلام)، ليبدأ إمامة مهّد لها أبوه. ومكّن لهم أن ينشروا العلم، الانصراف عن السياسة أو المطالبة بالحكم، فأشرق الفجر الجديد.

لكن ثورة زيد بن علي، ثم هجوم الخوارج على المدينة، ثم هزيمتهم، ثم هزيمة بني مروان أمام العباسيين، ثم مطاردة العباسيين لأبناء علي (عليه السلام)، وقد تضاءلت بالنسبة لها مذابح الأمويين، كل أولئك زاد من القطيعة بين أصحاب السلطة وبين أهل البيت، والانطواء من الشيعة علىٰ أنفسهم، والانفصال بين معظم الرواة من أهل السنة وبينهم:

فرأينا عامر بن شرحبيل الشعبي (١٠٤) شيخ المحدثين في العراق وقاضي بني مروان يقول: «ماذا لقينا من آل علي إذا أحببناهم قُتلنا وإن عاديناهم دخلنا النار».

ومن كثرة ما عمل للخفاء، صار دربـاً علىٰ معاملة الأمراء: سأله الحجاج كم عطاءك؟ قال: ألفين. فاستدرك الحجاج وقال: ويحك كم عطاؤك؟ قال: ألفان. قال: لم لحنت؟ قال: لما لحن الأمير لحنت، ولما أعرب أعربت..

وسمعنا الحسن البصري (١١٠) الجسور، إذ يروي عن علي (عليه السلام)، يقول: «قال أبو زينب» ـ ولما سأله ابن عياش «ماهذا الذي يُقال عنك إنك قلته في علي؟» أجاب: «يابن أخي.. احقن دمي من هؤلاء الجبابرة، لولا ذلك لسالت بي أعشب».

ولما تقطعت بين الشيعة وغيرهم الأسباب، اضمحلت، أو قلّت، المشاركة العلمية. وصار هنالك عالَمان فقهيّان متقاطعان.



ولم يكن غريباً في هذه القطيعة أن تقلّ رواية أهل السنة عن أهل البيت، أو أن نرىٰ مالك بن أنس ـ في المدينة ذاتها ـ يسأل عن سبب ندرة الرواية منه عن علي وابن عباس فيجيب: لم يكونا ببلدي (يقصد أن علياً كان بالكوفة وابن عباس بمكة)، أو نراه يقتصر ـ فيما يرويه عن الإمام الصادق ـ علىٰ أحاديث قليلة جداً في الموطأ، وفيه نحو من ألف حديث [1].

---

(١) من أدلة وحدة العلم أو التقارب فيه حديث، من هذه القلة، هو حديث اليمين مع الشاهد؛ وهي مسألة أريق فيها مداد كثير لفقهاء أهل السنة. جاء في الموطأ رواية محمد بن الحسن:

«أخبرنا مالك، أخبرنا جعفر بن محمد، عن أبيه ان النبي صلىٰ الله عليه وآله وسلم قضى باليمين مع الشاهد».

قال محمد بن الحسن ـ ذكر ذلك ابن أبي ذئب عن ابن شهاب قال سألته عن اليمين مع الشاهد فقال بدعة. وأول من قضى فيها معاوية. ـ وابن شهاب أعلم عند أهل المدينة بالحديث من غيره. وكذلك ذكر ابن جريج عطاء بن رباح قال: «كان القضاء الأول: لايقبل إلا شاهدان. وأول من قضى باليمين مع الشاهد عبد الملك بن مروان..».

وهذا الحديث وارد في سنن الترمذي وابن ماجه، ورواه عن ابن عباس مسلم وأبو داود والنسائي ومسند أحمد، والصحاح الخمسة تذكره موصولاً ـ وتعمل به المدينة ومكة، وقد ذكر ابن الجوزي أن رواة الحديث يزيدون عن عشرين صحابياً.

والمذاهب الثلاثة تعمل به. وأبو حنيفة لا يعمل به.

ولما قال البخاري بعد أكثر من مائة عام من قيام الدولة العباسية ـ عن صحيحه «ما وضعت فيه إلا الصحيح. وما تركت من الصحاح أكثر»، كان في هذا القول دلالة على الاحتياط العلمي، وعلى أن أحاديث صحاحا قد أغفلت، وأنها أكثر مما تضمنه كتابه من الصحيح. ولعله بهذا يقصد، فيما يقصد، أحاديث علي وأهل البيت (عليهم السلام) فيما تركه من صحاح. فهو لم يرو أحاديث أهل البيت، في حين احتج بها الجميع[1] وورد الكثير منها في سائر الصحاح[2] والمسانيد.

---

(١) والشافعي الذي يرى زين العابدين (عليه السلام) أعلم أهل المدينة، يقول في دفاعه العلمي المجيد عن حجية خبر الواحد في الرسالة ـ «وفي تثبيت خبر الواحد أحاديث يكفي بعض هذا منها ... ولم يزل سبيل سلفنا والقرون بعدهم الى من شاهدنا هذا السبيل .. ووجدنا علي بن الحسين (يقصد زين العابدين عليه السلام) يقول: أخبرنا عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «لايرث المسلم الكافر» فثبتها سُنة ويثبتها الناس بخبره سُنة.

ووجدنا كذلك محمد بن علي بن الحسين (الباقر عليه السلام) يخبر عن جابر عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعن عبدالله بن أبي رافع عن أبي هريرة فيثبت كل ذلك سنّة .

ووجدنا محمد بن جبير بن مطعم، ونافع بن جبير بن مطعم، ويزيد بن طلحة بن ركانة، ومحمد بن طلحة بن ركانة، ونافع بن هجير بن عبد يزيد، وأبا سلمة بن عبد الرحمن، وحميد بن عبد الرحمن، وطلحة بن عبدالله بن عوف، وابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وخارجة بن زيد بن ثابت، وعبد الرحمن بن كعب بن مالك، وعبدالله بن أبي قتادة، وسليمان ابن يسار، وعطاء بن يسار، وغيرهم من محدثي أهل المدينة، كلهم يقول: حدّثني فلان لرجل من أصحاب النبي عن النبي أو من التابعين عن رجل من أصحاب النبي، فيثبت ذلك سُنّة» .

وإنك لتلاحظ ان الشافعي يستند الى رواية زين العابدين والباقر (عليهما السلام) فيضع زين العابدين في مقام خاص به، هو الأول ، ويضع ابنه الباقر في المقام التالي لأبيه، ثم يجيء بالأبناء العلماء، للصحابة العظماء، وراء هذين المقامين، ويجيء بهم مجموعين، ثم يجيء بفضلاء التابعين بعد هؤلاء جماعات .

(٢) روى أحمد بن حنبل أحاديث أهل البيت (عليهم السلام) في مسنده الأعظم. وروى كذلك مسلم بن الحجاج (٢٦١) وسليمان بن الأشعث السجستاني (أبو داود ـ ٢٧٥) ومحمد بن عيسى الترمذي (٢٧٩) ومحمد بن يزيد بن ماجه (٢٧٩) والنسائي أحمد بن علي بن شعيب (٣٠٣) بقية أصحاب الصحاح كما يسميها أهل السنة.

والنسائي من شهداء الوفاء لعلي (عليه السلام): خرج من مصر الى الشام فسألوه عن فضائل معاوية ـ إذ كان قد ألّف في فضائل علي ـ وقيل إنه أجاب: ألا ترضى رأساً برأس حتى تفضّل؟ أو قال: لا أعلم له فضيلة . فما زالوا يدفعونه في خصيته حتى أخرجوه من المسجد وقد أشرف على الموت فقال: احملوني الى مكة فحمل اليها وتوفي هناك.

ومع أن الحرب الكلامية والافتراءات الموجهة للرواة كانت ضروساً فقد وثق الأئمة الفقهاء والمحدثون ـ أعظم التوثيق ـ الإمام جعفر الصادق(عليه السلام)، وشرفوا بالرواية عنه، ووقفت المذاهب الأربعة موقف الإجلال له. فكان ذلك إعلاناً من أهل العلم أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) للجميع لا للشيعة وحدهم، وأن الحديث متى ثبت عنهم هو حديث جدهم (صلى الله عليه وآله وسلم).

كان يوسف بن أبي يوسف يروي عن أبيه عن أبي حنيفة عن «جعفر بن محمد عليهما السلام» عن سعيد بن جبير عن ابن عمر حديث رسول الله؛ وفي الوقت ذاته يروي عن أبيه عن أبي حنيفة عن اسحاق بن ثابت عن أبيه عن علي بن الحسين حديث رسول الله(عليهم السلام)، مع أن علي بن الحسين (زين العابدين عليه السلام) لم يرَ جده ـ واللقاء من شروط البخاري

ويروي يوسف عن أبيه عن أبي حنيفة عن «جعفر بن محمد» حديث رسول الله ـ مع أن الصادق حفيد زين العابدين ـ فهذا أبو حنيفة ومن روى عنهم ـ كمثل مالك وغيره ـ يروون عن أئمة أهل البيت، ويأخذون بحديثهم عن رسول الله، مع أنهم لم يلقوه أو لم يكن بينهم وبين الرسول صحابي.

والكتب التي يقوم عليها الفقه الشيعي تروي كلها عن الامام جعفر الصادق أو الأئمة المعصومين (عليهم السلام).. يستوي في ذلك الكتب الأربعة الشهيرة وغيرها.

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم انقسام العلم بانقسام مصادره، وانحسار هذا البحر من بحاره عن الجمهور، باقتصاره على الشيعة.. ولا جرم كانت فيه كفاية لإنتاج هذا التراث، بما فيه عن غزارة، وباعتماده على النقل والعقل معاً، وبإقبال الشيعة ـ شأن الأقليات جميعها ـ على تعميق علومها، وتقوية شعوبها. وساعدهم انفتاح الفكر واجتهاد الرأي في تطهير وسطهم العلمي والاجتماعي ممن ينتسبون، أو ينسبهم

الخصوم اليهم، من الغلاة في علي بن أبي طالب (عليه السلام)[١]، ثم تمييز علمهم من علم المخالفين الذين يتولون غير الامام جعفر وغير أبيه كالزيدية[٢].

---

(١) كان وجود غلاة في الشيعة فرصة للمغرضين، إذ نسبوا عمل الغلاة الى الشيعة كلهم، فأحدثوا بذلك أثراً كاذباً في إفهام الآخرين بدعاوى هم منها براء، مثل ان الامام هو الله ظهوراً واتحاداً، وهو غلو يبلغ مرتبة الكفر. ولقد أحرق علي(عليه السلام) من ألَّوه ـ بالنار ـ وتبرأ الصادق من أبي الخطاب الأسدي، وقتله جند أبي جعفر.

(٢) الزيدية: أتباع زيد بن علي زين العابدين ـ أخي الباقر (عليه السلام) ـ قالوا إنه فوّض في الامامة قبل ان يستشهد الى محمد بن عبدالله بن الحسن (النفس الزكية).

وكان زيد يجيز إمامة المفضول مع وجود الأفضل لمصلحة يراها المسلمون؛ ولهذا أجاز خلافة أبي بكر وعمر، فرفضه شيعة العراق فسموا رافضة. ومنذئذ أطلق على الشيعة الامامية اسم الرافضة. وقيل سموا الرافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر. والأول رأي الشهرستاني، والأخير رأي أبي الحسن الأشعري. والشهرستاني من الشيعة والأشعري من أهل السنة.

وزيد يقول ان الأدلة اقتضت تعيين علي(عليه السلام) اماما «بالوصف» لا بالشخص، ويقول ان الشيوخ يختارون «الأفضل» من أولاد علي من فاطمة، عموماً، «بالاجتهاد».

ومن شروط الزيدية أن يجتهد أئمتهم؛ ولذلك كثر فيهم الائمة المجتهدون. ومن شروطهم أن يخرج الامام داعياً لنفسه. وعلى هذا الشرط جادل الباقر أخاه زيداً بقوله «على قضية مذهبك والدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج». ومن الزيدية اليعقوبية يقولون بولاية أبي بكر وعمر ولا يتبرأون منهما وينكرون رجعة الأموات. وبقية الزيدية تتوقف في أمر الرجعة.. لايقولون بها ولا ينكرونها.

وظهرت في المذهب الزيدي مذاهب منها الهادوي والقاسمي والناصري والهاروني التي تخالف الأصل في فروع يسيرة وتسير عليه في جملة الفروع وتلتقي بمذاهب أهل السنة، وبخاصة المذهب الهادوي الذي أسسه امام اليمن الإمام الهادي (يحيى بن الحسن بن ابراهيم بن القاسم) صاحب صعدة (٢٨٠ ـ ٢٨٩) وكان أئمة المذهب الهادوي من عظم اتفاقهم مع المذهب الحنفي يرون الأخذ بالمذهب الحنفي إذا لم يجدوا عن الإمام الهادي نصاً في المسألة. بل يذهبون الى أبعد من ذلك فيأخذون بأرجح ما في المذاهب الأخرى.

والزيدية ترى ان كل من دعا لنفسه من أولاد علي وفاطمة (عليهما السلام)، وكان مستكمل الصفات، وجب اتباعه.

وقد كتب لهم النجاح في اليمن وطبرستان الى الجنوب من بحر قزوين. والعرب تسمي بحر قزوين بحر طبرستان. وقد ملك طبرستان الحسن بن زيد..... بن الحسن بن علي سنة ٢٥٠ حتى سنة ٢٧٠. وكانت ثورة ابن طباطبا في بغداد في أيام المأمون زيدية.

أو من علم الذين يتولون غيره وغير أبيه وجده كالكيسانية [١].

يقول الشيخ المفيد في غلاة الشيعة: «وهم نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته(عليهم السلام) إلىٰ الألوهية والنبوة، ووصفوهم في الدين والدنيا بما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد. فهم ضُلّال وكفار».

والإمامية لايجيزون القدح في الصحابة. فإذا وجد قادحون منهم فآراؤهم فردية، في أفراد من الصحابة.. يبذيها المتطرفون، وأشباههم موجودون في أهل السنّة، ممن قدحوا في بطل الإسلام «علي»، وريحانتي النبي «الحسن» و«الحسين».

والقدح «معصية» لاتخرج من الإسلام.

ولا يعتبر معصية اجتهاد «مجتهد» تأوّل فأخطأ. وقد نظر علماء السنة هذا النظر الأخير الىٰ خلافات المعتركين من الصحابة في الجمل وصفين، فاعتبروها اجتهادات فيها الخطأ والصواب.

والإمام علي معلم أول للأصول والفقه وأدب الدنيا والدين، يقول عن الخوارج الذين كفّروه! وطلبوا إليه التوبة!: «إخواننا بغوا علينا» [٢].

---

(١) الكيسانية يقولون بإمامة محمد بن الحنفية بعد وفاة أبيه، وان الحسن والحسين انما خرجا بإذنه. ومن الكيسانية أشياع المختار بن عبيد الله الثقفي (٦٧).

ومنهم الهاشمية الذين يقولون إن محمداً أفضىٰ الىٰ ابنه أبي هاشم بالأسرار التي افضىٰ إليه بها أبوه. ولما مات أبو هاشم انقسمت فرقته فرقا؛ واحدة تقول: انه اوصىٰ لأخيه علي، وان الوصية لاتخرج عنهم حتىٰ «يرجع» محمد بن الحنفية. وواحدة تنقسم الىٰ فرق؛ منها: فرقة تقول: انه اوصىٰ الىٰ معاوية بن عبد الله بن جعفر بي أبي طالب (وقد قتله ابو مسلم الخراساني)، وفرقة تقول: انه اوصىٰ الىٰ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وهاتان فرقتان تخرجان الإمامة الىٰ غير ابناء علي، وتفسر اهل البيت تفسيراً يسع غير أبناء علي.

(٢) ويقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: «وكل من عاداه أو حاربه وأبغضه فإنه عدو لله سبحانه وتعالىٰ وخالد في النار مع الكفار والمنافقين، إلّا من ثبتت توبته ومات علىٰ توليه وحبّه. فأما الأفاضل من المهاجرين والأنصار الذين ولوا الإمامة قبله.. رأينا رضي إمامتهم وبايعهم وصلىٰ خلفهم وأنكحهم وأكل

=

والإمامية يقولون إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أوصىٰ الىٰ اثني عشر إماماً بأسمائهم؛ كل منهم يبين خلفه باسمه، إذ يكشفه الله له.. أوّلهم علي الذي أوصىٰ للحسن. وأوصىٰ الحسن للحسين. وتتابعت لزين العابدين ومنه للباقر الذي أوصىٰ للصادق. وتتابعت الوصية من الصادق الىٰ ابنه موسىٰ الكاظم (١٨٣) فابن الكاظم علي الرضا(٢٠٣) فابن الرضا محمد الجواد (٢٢٠) فابن الجواد علي الهادي (٢٥٤) فابن الهادي الحسن العسكري(٢٦٠) فابن العسكري محمد المهدي المولود بسامراء سنة (٢٥٦)، والمختفي بعد عام ٢٦٠ والمنتظر ظهوره ليملأ الدنيا عدلا.

السنّة

يروي الحارث الاعور: قلت يا أمير المؤمنين إذا كنا عندك سمعنا منك مايشد ديننا، وإذا خرجنا من عندك سمعنا أشياء مختلفة ولا ندري ماهي؟ قال: أوفعلتموها؟.. سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول «أتاني جبريل فقال: يامحمد ستكون في أمتك فتن. قلت فما المخرج منها؟ فقال كتاب الله».

واذا كان في الكتاب حل لكل مشكلة، فالسنن موضحة ومنفذة لأحكامه.

والسنن إذ تروى عن جعفر بن محمد الصادق أو عنه عن آبائه أو تروى عن الأئمة عامة لايوجد فيها صحابي يختلف الشيعة معه. وعلىٰ أساس هذه الأحاديث قام فقه الشيعة الإمامية، مروياً عن الامام، فلا يناقشونه، فكلامه نصوص، أي هو سنة، في غنىٰ عن الإسناد، تغني عن الاجتهاد. وفي كتبهم ـ كما قيل ـ مايكفي الأمة حتىٰ أرش الخدش.

= فيهم.. ألا ترىٰ أنه لما برئ من معاوية برئنا منه. ولما لعنه لعنّاه. ولما حكم بضلال أهل الشام ومن كان بينهم من بقايا الصحابة كعمرو بن العاص وعبد الله ابنه، حكمنا أيضاً بضلالهم.. والحاصل أننا لم نجعل بينه وبين النبي إلّا رتبة النبوة. وأعطيناه كل ماعدا ذلك من الفضل المشترك بينه وبينه. ولم نطعن في أكابر الصحابة الذين لم يصح عندنا أنه طعن فيهم».

وقد دوّن علم الأئمة وفقههم في كتبهم؛ ومنه علم لدني عن الإمام المعصوم، ومنه تفسيرهم للقرآن[١]. والأئمة ـ عندهم ـ قد اختصوا بعلم مالم ينصّ عليه وما لم يعلنه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

والسنة أساسها القرآن. يقول الإمام الصادق: «إذا رويت لكم حديثاً فسلوني أين أصله من القرآن».

روى يوما نهي النبي «عن القيل والقال وفساد المال وكثرة السؤال» فقيل له: أين هذا من كتاب الله؟ فأجاب:

إن الله تعالىٰ يقول «لاخير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس» وقال تعالىٰ: «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما» وقال تعالىٰ: «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم».

فهذه أصول قرآنية ثلاثة لحديث واحد في السلوك. وهو عليه الصلاة والسلام لاينطق عن الهوىٰ.

وإذا لم يكشف الإجماع عن رأي الامام، فباب الاجتهاد مفتوح لطلب الحكم الشرعي فيما ليس فيه نص، والعقل ـ مع الضوابط التي يضعونها من قواعد وأصول ـ قدير علىٰ أن يبلغ المجتهد طلبه.

رویٰ هشام بن سالم قول الصادق «إنما علينا أن نلقى إليكم الأصول وعليكم أن تفرعوا» ـ وفي نهج البلاغة جملة من الأصول التي نبه عليها أمير المؤمنين علي (عليه السلام)، وتكلم فيها الأئمة الباقر والصادق والرضا؛ كالكلام عن الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والنوافل والفرائض، والرخصة والعزيمة، والمطلق والمقيد، والمحكم والمتشابه، والواجب وغير ذلك. ومما ردده الأئمة الثلاثة قواعد الجمع بين الحديثين المتعارضين، والترجيح بينهما، والتخيير، وأحكام النسخ،

---

(١) والشيعة تنفي قول القائلين بالصرفة وهو مايزعمه بعض المعتزلة (النظام) من أن الله صرف المشركين عن أن يحاولوا الإتيان بمثل القرآن. فهذا القول مصيره نفي الإعجاز. والإعجاز آية الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

ولزوم رد المتشابه إلىٰ المحكم، وجواز الأخذ بخبر الواحد، والعمل بـالظاهر، ومنع القياس أو تفسير القـرآن بـالرأي، والعـمل بـالاستصحاب، وأصـالة الحـل والإبـاحة، والطهارة والبراءة والصحة، وقواعد الفراغ واليد والقرعة.

وكلام الامام الصادق في هذه الأبواب كثير. ولهشام بن الحكم كتاب فـي مـباحث الألفاظ، وفي الأصول. وكذلك ليونس بن عبد الرحمن كتاب في الاصول.

والسنة المتواترة هي التي يتكاثر رواتها ويتفرقون الىٰ حد لا يمكن معه اتـفاقهم علىٰ الكذب. وبـهذا يـتحصل عـلم قـاطع بأنـهم لم يـجمعهم جـامع عـلىٰ الكـذب. والتواتر عن الرسول كالتواتر عن الإمام المعصوم.

والإمـام الصـادق يـقول: «حـديثي حـديث أبـي، وحـديث أبـي حـديث جـدي، وحديث جـدي حـديث الحسـين، وحـديث الحسـين حـديث الحسـن، وحـديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حـديث رسـول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وحديث رسول‌الله قوله تعالىٰ».

والتعبير بأن حديث الرسول هو قوله تعالىٰ يعدل القـول بأن السـنة هـي الحكـمة التي ذكر القرآن ان الرسول يعلمها للمسلمين.

وخبر الواحد مـقبول لدىٰ جـمهور الفـقهاء عـندهم. وحـجتهم فـي ذلك ـ عـلىٰ الجملة ـ كحجج أهل البيت[1].

والصادق لايرىٰ بأسـاً فـي روايـة الحـديث بـالمعنىٰ. سأله تـلميذه: أسـمع مـنك الحديث فأزيد وأنقص؟ فأجاب: «أن تريد معانيه فلا بأس».

ولايضيقون صدراً بالإرسال من الثقات، بغير معارض، فلقد تـقرأ «صـحيح فـلان

---

(١) اما الرواة عموماً فيشترط أن يكونوا من الإمامية الاثنا عشرية يروون عن «إمام» عن النبي. وثمـة مـن يقبل رواية غير الإمامي مادام موثقاً أي أميناً عند الإمامية. قالوا: «لو كان بعض رجـال السـند غـير امـامي مصرحاً بالتوثيق أو مصرحاً بالمدح لابد من كون الباقي إمامياً موثقاً».

عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام»[١].

ويمكن القول إجمالاً إن الحديث عندهم صحيح وحسن وموثق وضعيف.

فالحديث الصحيح هو الذي ينقله العدل الضابط عن مثله في جميع الطبقات حتىٰ الإمام المعصوم.

والحديث الحسن هو المتصل السند بالإمام المعصوم. فإن انقطع السند لم يعد حسناً. ويشترط أن يكون الراوي ممدوحاً من غير معارضة ذم وإن لم تثبت العدالة. فلو ثبتت لكان صحيحاً.

والحديث الموثق هو مادخل في طريقه غير إمامي إذا كان الأصحاب الإمامية يوثقونه. وهنا لايشترط الاتصال بالإمام المعصوم. وهناك من يشترط أن يتوسط غير الإمامي إماميين. وهناك من يرفضه.

والحديث الضعيف غير هذه الأقسام الثلاثة:

وما لا يبلغ حد التواتر يسمىٰ خبر الواحد. فوصف الواحد يراد به عدم التواتر، وقد يكون عن متعددين. فالخبر المستفيض والمشهور نوع من خبر الواحد؛ المستفيض مارواه أكثر من اثنين، والمشهور ما اشتهر علىٰ الألسن وفي الكتب، وإن كان رواية واحد[٢].

---

(١) والإرسال لايمنع قبول الحديث عند أهل السنة.

كان إبراهيم النخعي يروي الحديث مرسلا، فيقول له الأعمش: إذا رويت لي حديثاً فأسنده. فيجيب: إذا قلت حدثني فلان عن ابن مسعود فهو الذي رواه. وإذا قلت قال عبد الله فغير واحد. والحسن البصري يقول: «إذا قلت لكم حدثني فلان فهو حديثه، ومتىٰ قلت: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فعن سبعين».

(٢) الخبر الذي يحصل العلم بصدوره من قرائن داخلية أو بغيرها مطابقة لظاهر القرآن أو معانيه أو لأدلة العقل، حجة معتبرة، لا للشهرة أو الاستفاضة أوالتواتر أو أي شيء آخر، بل للعلم بصدوره الذي هو حجة بنفسه ـ فالخبر المتواتر أو المعلوم بصدوره لا حاجة لشروط في روايته. وإنما الشروط في خبر الواحد.

وقد يعملون بالضعيف إذا اشتهر العمل به بين الأقدمين. أما علامات وضع الحديث فهي كمثلها عند أهل السنة

=

أما الشهادة فيقول فيها الإمام الصادق: «لو لم تقبل شهادة المقترفين للذنوب لما قبلت إلّا شهادة الأنبياء والاوصياء، فمن لم تره بعينيك يرتكب ذنباً ولم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر. وشهادته مقبولة وإن كان في نفسه مذنباً».

وإذا كان في بعض المذاهب من لايقبل شهادة أصحاب الصنائع التي يسمونها (دنيئة)، فالإمامية يرون قبول شهادتهم، والله يقول: «إن اكرمكم عند الله اتقاكم» فليس في الصناعات شريف ومشروف، وإنما الصناع فيهم من هؤلاء وهؤلاء.

والشيعة ـ مع هذا ـ ضائق صدرهم بالطفيليين والمستجدين، فهؤلاء متساهلون في عزة النفس التي أمر الله بها المسلمين.



والصادق يقول: «إن الاجماع لا ريب فيه». وهو عند الإمامية «اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأي المعصوم» فلا يخلو عصر من وجود الإمام ظاهراً أو خافياً. وإذا كان اتفاق جماعة من الإمامية فيخرج غيرهم. ومن أجل ذلك عرفت آراء الصادق من خلال اتفاق تلاميذه.

وليست الحجة للإجماع، بل هي لرأي الإمام المعصوم الذي يكشف عنه الإجماع.

والإجماع يثبت بالتواتر والمشاهدة وبخبر الواحد. وليس اجتماع الرجال شرطاً عندهم. والإجماع من عصر أو عصرين لايجعل الحكم ضرورة دينية أو مذهبية، بل

= تقريباً.

وليس عجيباً أن تكون السنة التي يتمسك بها الشيعة في مجموعها هي السنة التي يتمسك بها أهل السنة. فاختلاف الروايات واسنادها او إضافة مصدر الأئمة، لم تدخل في التراث النبوي العظيم مايغيّره.

ومشايخ الامامية يوثقون المخطئين في الاعتقاد، والإمام الصادق(عليه السلام) إذ يقول: «خذوا مارووا. وذروا مارأوا» يقصد آراءهم.

ولقد طالما رفض مجتهدوهم أحاديث ذكرت في كتبهم، وأخذوا بما جاء في صحيحي البخاري ومسلم لتفحصهم أحوال رجالهما.

يكون اجتهادياً يقبل الجدال. أما إجماع الأمة في كل عصر ومصر، من عهد الرسول الى الآن، فيجعل الحكم من ضرورات الدين. والاجماع من الصحابة يدخل فيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فهو الإمام المعصوم.

* * *

والعقل يكشف عن نظر الإمام ان لم يوجد نص أو إجماع.

فالاجتهاد[1] مفتوح أبداً في الظنيات التي ليس فيها دليل من الشرع يفيد اليقين، وليس للعقل فيها حكم واجب حتم، كخلاف الصحابة في العول في المواريث وعدة الحامل المتوفى عنها زوجها، وكالمعاملات.

أما القطعيات فلا اجتهاد فيها كالعقائد الواجبة، وماثبت من الاحكام العملية بالتواتر؛ والعقائد كاتصاف الله بالكمال وإرسال الرسل، وانزال الكتب، والبعث والحساب؛ والأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج.

وليس من وسائل اجتهاد الشيعة القياس. فالإمام الصادق (عليه السلام) يقول: «إن السنّة إذا قيست محق الدين».

ولما قيل: له أرأيت ان كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ قال: «ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم. لسنا من أرأيت في شيء» لكن وسائل استعمال العقل مباحة للمجتهد.

والامام الصادق (عليه السلام) يقول: «مامن أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ولكن لاتبلغه عقول الرجال».

وآيات الأحكام قليلة، وكمثلها قلة؛ أحاديث أصول الأحكام،[2] فوجب الإجتهاد.

---

(١) يشترط الشيعة في المجتهد (١) ـ العلم باللغة. (٢) ـ بالكلام. (٣) ـ بكتاب الله والسنة. (٤) ـ بطرق الإستنباط. (٥) ـ المسائل المجمع عليها حتى لايخالفها اجتهاد. (٦) ـ الفطنة وإدراك الحقائق. (٧) ـ العلم بمواطن الخلاف. كل ذلك (٨) ـ وهو إمامي.

(٢) آيات الكتاب (٦٢٣٦) آية على طريقة عدّ الكوفيين. كما ورد في التعليق على المصحف المتداول بمصر من

ونحن مأمورون بتوظيف العقل، وأحكام السماء تظهر للعقول بالتدريج.

كان أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) يجتهدون في وجوده، وازدادت حاجتهم للاجتهاد بعد وفاته، والدنيا أطوار تحتاج للفقه الذي يطبق عليها حكم الشريعة لتبقى الحياة محكومة بالدين، وتتطور في حدود مقاصد الشارع.

وحكم الله في كل مسألة معين، نصب الله دليلاً عليه، فمن المجتهدين من يصل اليه ويصيبه، ومنهم من لا يصل اليه ويظنّ غيره.. فهو مخطئ معذور.. مغفور له خطؤه مادام قد بذل جهده دون هوى. وللمصيب أجران لصوابه واجتهاده، وللمخطئ أجر واحد على اجتهاده. فذلك حكمه صلى الله عليه وآله وسلم، ومن أجله كانت السماحة التي اتصف بها الصحابة إذ يختلفون.

والمنصفون من كل المذاهب يعلنون ان في المذاهب الفقهية المعتبرة خطأ وصوابا. وليس منها مذهب واحد كله خطأ أو كلّه صواب. لذلك كان التعصب المطلق آفة الفقهاء. لقد كثرت مخالفات علي لعمر، ونزول عمر عند رأي علي (عليه السلام).

وعلي هو القائل بأنه ترك لعمر تنفيذ رأيه (في بيع أمهات الأولاد) في حياة عمر، ولما آل اليه الأمر أنفذ رأيه. فعلمنا أموراً؛ منها:

١ ـ ان المذهب الشيعي وهو يدور حول آراء علي (عليه السلام)، إنما هو مذهب حيي في حياة الخلفاء الراشدين أنفسهم. فلما آل اليه الأمر وأُتيحت له الفرصة التي أُتيحت لغيره لتطبيق اجتهاداته أنفذها ـ ولكن المكان والزمان ضاقا عليه لانشغاله في الحروب والفتن، وانحصار سلطانه على الأرض، واغتياله على أيدي الخوارج.

٢ ـ حق الخليفة في إنفاذ رأيه. ومن هنا أنفذ عمر رأيه في أمور شتى كما أنفذ أبو

= سنة ١٣٣٧ هجرية، أحصى بعض فقهاء أهل السنة نحو (١٤٠) في العبادات، و(٧٠) في المعاملات، و(٧٠) في الاحوال الشخصية والمواريث، و(٢٠) في الجنايات، و(١٣) في المرافعات، و(٢٠) في القضاء والشهادة، و(١٠) في الاقتصاديات و(١٠) في المسائل الدستورية، و(٢٥) في المسائل الدولية ـ وأحاديث أصول الأحكام عندهم نحو (٤٥٠) بين آلاف الأحاديث أكثرها بيان مجمل أو تفصيل موجز أو تشريع ما سكت عنه.

بكر رأيه من قبل. والرأي اجتهاد.

٣ ـ مشروعية الخلاف.. وهو درس تعلمه الصحابة من رسول الله (ﷺ)، مطلوب من الجميع أن يتعلموه، وأن يعلموا الناس أنه وسيلة التقدم.

روى النسائي ان رجلاً أجنب فلم يصلِّ. فذكر ذلك للنبي(ﷺ) فقال: أصبت. وأجنب رجل فتيمم وصلى، فذكر ذلك للنبي (ﷺ) فقال: أصبت.

وروى البخاري عن عمران بن حصين أنه قال للرجل الذي اعتزل فلم يصلِّ في القوم «فما يمنعك أن تُصلي» فقال: أصابتني جنابة ولا ماء. قال: «عليك بالصعيد. فإنه يكفيك».

والآثار في الخلاف بين الصحابة كثيرة جداً[1].

والخلاف بين المجتهدين أجل من أن يحصر، وفيه ثراء للفكر، وسعة في الدنيا، ورحمة بالأمة.

كان أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الفصد والحجامة والرعاف. فقيل له: فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه؟ فقال: كيف لا أُصلي خلف «مالك» و«سعيد بن المسيب»؟

وكان مالك يفتي الرشيد أنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم. فصلى يوماً بعد الحجامة وصلى خلفه «أبو يوسف» صاحب «أبي حنيفة» (وهو يرىٰ الوضوء من الحجامة).

واغتسل أبو يوسف في الحمام، وأخبر بعد صلاة الجمعة أنه كان في بئر الحمام فأرة ميتة فلم يعد صلاته وقال: «نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا».

فهؤلاء أئمة المذاهب لا يتسامحون في خلافاتهم فحسب، بل يتجاوزون

---

(١) راجع نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الإسلامي «من مطبوعات لجنة تجلية مبادئ الشريعة الاسلامية» ـ عبد الحليم الجندي ـ طبعة المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية الفقرات ٤٢ إلىٰ ٤٨.

الخلاف العلمي الىٰ التطبيق العملي.

من أجل ذلك يقول أحمد لتلميذه إسحاق بن بهلول إذ ألّف كتاباً يـريد أن يسـميه «كتاب الاختلاف»: «سمه كتاب السعة».

ويقول عمر بن عبد العزيز «ماسرّني باختلافهم حمر النعم».

الامامة

الإسلام دين ودولة. فالدولة تكفل لمبادئ الإسـلام التـطبيق، والانـتشار، وانـتفاع الجماعة والأفراد به. وبالدين عزّة الفرد والجـماعة، ورسـوخ أركـان الدولة. والديـن للدولة روح للجسد. وهو للفرد دم نقي يجري في عروقه أو هواء صحي يتنفسه. ولا حياة إلا بالدم والتنفس. وكان من آيات الإعجاز الإسلامي أن يبلغ المسـلمون الذروة أفـراداً أو دولاً أو مـجتمعات فـي عـصر، أو فـي أشـهر، بـل فـي سـاعات، بـمجرد إخلاصهم في التمسك بالإسلام.

لقد بلغوا ما يدعو اليه الاسلام في «خلافة» أبي بكر وعمر، والسنين السـتة الأولىٰ من «خلافة» عثمان، وفي أقل من ثلاثين شـهراً فـي «خـلافة» عـمر بـن عـبد العـزيز. والخلافة الراشدة قيادة مسددة.

ولقد بلغ المحاربون مبالغهم، في يوم واحد، هو العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣، إذ كانوا يقتحمون حصون اسرائيل وهم يهتفون: الله أكبر: الله أكبر.

والإمامة ـ أو الخلافة ـ قد تكون خلافة عن النبي(صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) في تبليغ الأمور الدينية أو في الولاية السياسية أو فيهما جمعياً. وهي عند الشيعة ديـنية وسـياسية مـحصورة في أهل البيت(عليهم السلام). لكنها عند جمهور أهل السنة تجوز لأي قرشي عادل، يختاره المسلمون بشورىٰ صحيحة، وبيعة عامة. ولا تبقىٰ الخلافة إلا ما بـقي الخـليفة قـائماً بالعدل، فإذا انحرف لم تبق خلافة نبوية بل استحالت سلطة زمنية.

والشافعية والمالكية والحنابلة يرون القرشي العادل إذا تغلب، فبايعه المسـلمون بيعة صحيحة راضين مرضيين، تكون البيعة له صحيحة، وان تأخرت عن الولاية التي

نالها بالغلبة. أما الحنفية فيشترطون سبق البيعة ضماناً للحرية وكفالة للمشورة.

والشيعة الامامية يرون الإمامة ثابتة لاثني عشر إماماً بذواتهم لا بالبيعة لهم، ولكن بالوصية اليهم؛ وهم علي وبقية الاثني عشر (عليهم السلام)، والله يعلن الإمامة لمن قبله فيوصى السلف للخلف. وليست بيعة الجماعة لهم إلا إعلان رضا المسلمين بهم، لا ترشيحهم أو اختيارهم.

والشيعة الامامية يرون «واجباً على الله تعالى» أن ينصّب إماماً للناس لطفاً منه بعباده. وأهل السُّنة يرون نصب الامام «واجباً على الناس».

أما الخوارج فلا يرون واجباً نصب الامام، بل يرونه «جائزاً»، إلا اذا قامت الحاجة اليه فيجب. وهم كالمعتزلة يرون أن الخلافة يصلح لها أصلح رجل في الأمة عربياً أو غير عربي، ويرون أنها تكون بانتخاب حرّ، ويؤثرون ان ينتخب غير قرشي، لتيسر اقصائه ان أخطأ.

يقول الامام الصادق (عليه السلام):

«لايموت الامام حتى يعلم من يكون من بعده فيوصي له».

«أترون الموصي منا يوصي الى من يريد؟ لا والله. ولكن عهد من الله ورسوله لرجل فرجل، حتى ينتهي الأمر الى صاحبه».

ويقول لتلميذ له:

«يا أبا محمد ان الله افترض على امة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) خمس فرائض؛ الصلاة والزكاة والصيام والحج وولايتنا. فرخّص لهم في أشياء من الفرائض الأربعة، ولم يرخص لأحد من المسلمين في ترك ولايتنا. لا والله ما فيها رخصة. وقال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) «من مات وليس عليه إمام مات ميتة جاهلية». عليكم الطاعة فقد رأيتم أصحاب علي.

ومن توفيق الامام جعفر، وأبنائه (عليهم السلام)، أنهم لم يطلبوا لأنفسهم خلافة دنيوية. وبهذا يتميز تاريخ الشيعة الامامية من الشيعة الاسماعيلية، التي ستظهر بعد موت الامام بوقت طويل.. والتي كان من أهدافها ولاية السلطة، وإقامة الدول.

قال سليمان بن خالد للامام الصادق (عليه السلام): إن الزيدية قوم عرفوا وخرجوا وشهدهم الناس، وما على الأرض محمدي أحب اليهم منك. فان أردت أن تدنيهم وتقرّبهم منك فافعل. فأجاب (عليه السلام): «ان كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدونا عن علمنا الى جهلهم، فلا مرحبا بهم، وان كانوا يسمعون قولنا وينظرون أمرنا، فلابأس».

ومع أن «مؤمن الطاق» ـ تلميذ الامام الصادق (عليه السلام) ـ ثبط زيداً عن الخروج، «فالصدوق» يروي عن الامام «الكاظم عليه السلام» قول أبيه: «رحم الله عمي زيداً. إنه دعا الى الرضا من آل محمد. ولو ظفر لوفى».

فزيد لم يدعُ لنفسه، لأن الامامة كانت للباقر (عليه السلام). وانما كان خروجه تجديداً للاستشهاد عندما تدعو دواعيه.

يقول الصادق (عليه السلام): «مضى والله عمي زيد وأصحابه شهداء على مثل ما مضى عليه الحسين بن علي بن أبي طالب وأصحابه» ـ بل هو يعلن الاستعداد للاستشهاد، ويراه واجباً من واجبات أهل البيت عامة، والأئمة خاصة. وأبو بصير يروي عنه قوله «ان الله تعالى أعفى نبيكم أن يلقى من أمته ما لقيت الأنبياء من أممها. جعل ذلك علينا».

والشيعة مجمعون أن علياً (عليه السلام) أولى بالخلافة ـ من أبي بكر ومن عمر ومن عثمان ـ لكن علياً سما عن أن يترك في الأمة صدعا يوم بايع لأبي بكر، وقبل استخلاف أبي بكر لعمر، وبايع لعثمان مع المسلمين.

وتسبيب البيعة بأنها كانت لرأب الصدع فيه تسليم بأن ولاية شؤون الدولة يمكن أن تنفصل عن الخلافة الدينية. فلو كانت غير ذلك لما سلم علي (عليه السلام) في أمر يخالف الدين. وطالما صارح الخلفاء الثلاثة برأيه الشجاع، وأجمعوا دائماً على تقديره، ونزلوا عنده ـ وسيبقى له في ضمير التاريخ وصحفه أنه دخل في إجماع المسلمين. فذلك درس لهم ـ من دروسه التي لا تكاد تحصى ـ ليعتصموا بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا.

والذين يقولون ـ من أي فريق ـ ان علياً (عليه السلام) بايع «مرغماً» يتأوّلون. فعلي أعلى

صوتاً ومكاناً من أن يرغم، أو لا يعلن رأيه، مواجهة. ولما بايع عمر لأبي بكر يوم السقيفة، كان يومئذ ـ كعلي يوم بايع ـ يرأب الصدع بين المهاجرين والأنصار، وهم بين أظهرهم. ولما جعل عمر الخلافة شورى في الستة بعده، كان مسؤولا عن المسلمين، كما كان أبو بكر يوم استخلفه. وعلي (عليه السلام) في طليعة المسؤولين، وكمثله الأئمة من بعده.



والذين ينسبون الى الشيعة ما صنعه أو فهمه الدهماء منهم من قدح في أبي بكر أو في عمر ظالمون. ومن الشيعة مفكرون يعلنون أن من تعود البعض من الشيعة أن يلعنوه في احتفالات مآتم عاشوراء ـ وقد ظهرت بعد موت الامام جعفر الصادق (عليه السلام) بقرن، في عهد دولة بني بويه ـ هو عمر بن سعد قائد الجيش الذي قتل الحسين (عليه السلام).

جاء في كتاب الاستاذ أحمد مغنية عن الامام جعفر الصادق (عليه السلام): «وقد حورب المذهب الجعفري في عهد العثمانيين والاتراك.. كما أن المفرقين أنفسهم وجدوا في اتفاق الاسمين: عمر بن الخطاب وعمر بن سعد قاتل الحسين، ميداناً واسعاً يتسابقون فيه في تشويه الحقائق.. يعرف الناس جمعيهم ان الشيعة يعنون عناية تامة في المآتم الحسينية التي تقام أيام عاشوراء وغير عاشوراء من أيام السنة.. والحسين هو موضوع تلك المآتم.. وكان طبيعياً أن يكون لعنة اللعنات عمر بن سعد. ومن من المسلمين وغير المسلمين لا يلعن عمر بن سعد قاتل ابن بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟.. لا أنكر وجود أفراد ـ بالأمس ـ سواد الشيعة وبسطائهم لايفرقون بين هذين الاسمين بل لايعرفون أن في دنيا التاريخ الاسلامي عمرين تقياً وشقياً... وساعد على بُعد الشقة وتوسيع نطاق الفتنة شيوخ جهلة مرتزقة أئمة من كلتا الطائفتين السنية والشيعية...».

وأياً كانت الجهالة أو العصبية فهي بلاء ابتليت به الأمة يتفجر بذاء وخصومات في المناسبات ـ وفيما كان يقع بين مذاهب أهل السنة مشابه منها ـ والمؤكد أن أئمة

المذاهب منها براء. وأن الجيل الذي تعلّم عليهم بريء من التعصب أو الافتراء. وأن العلماء الصدق بعيدون عن متابعة السواد والبسطاء[١].

* * *

وفقه المذهب غزير في الإمامة مذ فتق الكلام فيها التلاميذ في حياة الامام وبعدها. مستندين الى أحاديث النبي(ﷺ)، وردت في كتبهم وفي كتب أهل السنة ذاتها ـ ويرتبون عليها نظرية الإمامة. أما أهل السُنة فلهم في شأن هذه الأحاديث وجهات نظر أُخرىٰ حول السند وحول المعنىٰ اللازم.

اليك «بعض» الأحاديث:

يقول عليه الصلاة والسلام: «يا أيها الناس. إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا.. كتاب الله، وعترتي: أهل بيتي»[٢] ويقول: «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء وعترتي أهل بيتي. ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض. فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٣] ويقول: «إني تارك فيكم خليفتين كتاب الله.. وعترتي أهل بيتي»[٤] ويقول: «اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزوجل وعترتي.. فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[٥] أو: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب

---

(١) يذكر الراغب الاصفهاني في المحاضرات من قرون مضت: سئل رجل كان يشهد بالكفر على آخر عند جعفر بن سليمان فقال: إنه رجل معتزلي، ناصبي. حروري. جبري. رافضي. يشتم علي بن الخطاب، وعمر بن أبي قحافة، وعثمان بن أبي طالب، وأبا بكر بن عثمان، ويشتم الحجاج الذي هدم الكوفة على أبي سفيان، وحارب الحسين بن معاوية يوم القطائف. فقال جعفر: «قاتلك الله ما أدري على أي شيء أحسدك؟ أعلى علمك بالأنساب أم بالأديان أم بالمقالات».

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي عن جابر.

(٣) أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم.

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل بطريقين صحيحين وأخرجه الطبراني.

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل وآخرون.

الله وأهل بيتي. وانهما لن يفترقا»[١] ـ ذلك أنه لما رجع عليه الصلاة والسلام من حجة الوداع نزل بغدير خم يوم ١٨ ذي الحجة في السنة العاشرة ـ والشيعة تعتبره عيداً يسمىٰ عيد الغدير ـ وكان قد نزل عليه الوحي: «يا أيها الرسول بلِّغ ما أُنزل اليك من ربك. وان لم تفعل فما بلغت رسالته. والله يعصمك من الناس»، فأمر بدوحات فقممن فقال: «كأني دعيت فأجبت. اني قد تركت فيكم الثقلين، أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله تعالىٰ وعترتي. فانظروا كيف تخلفوني فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض...» ثم قال: «إن الله عزوجل مولاي. وأنا مولىٰ كل مؤمن». ثم أخذ بيد علي وقال: «اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه»[٢].

وابن حجر في صواعقه يقرر أن لهذا الحديث طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً مع اختلاف في المكان أهو غدير خم أم الطائف أم المدينة. أما طرقه عن أهل البيت فنحو ثمانين طريقاً.

وفي علي قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «من أحب أن يحيا حياتي ويموت ميتتي ويدخل الجنة التي وعدني ربي فليوال علياً وذريته من بعده. فانهم لن يخرجوكم من باب هدى ولن يدخلوكم في باب ضلالة»[٣].

وفي أهل البيت قوله صلى الله عليه واله وسلم: «ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح. من ركبها نجا ومن تخلّف عنها غرق. وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل. من دخله غفر له»[٤] وقوله(عليه السلام): «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأهل الأرض من الاختلاف»[٥].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وآخرون ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الحاكم من طريقين عن زيد بن أرقم. وأخرجه مسلم في صحيحه حتى كلمة الحوض مع خلاف في بعض الكلمات.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ـ ابن حجر ـ كنز العمال ـ وبهذا المعنىٰ في المستدرك.

(٤) الصواعق لابن حجر.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن عباس.

والشيعة مؤمنون بأنه لا ينقض حجّة هذه الأحاديث على منزلة أهل البيت ومكانة علي، تأويلها من بعض أهل السنة أو التشكيك فيها من البعض الآخر.

والآخرون يرونها سنداً صحيحاً في تكريم علي (عليه السلام) ولا يرونها سنداً في الإمامة بالمعنىٰ الذي يريده الشيعة.

* * *

ولقد كان الصحابة يجلون علياً (عليه السلام) كل الإجلال. والكثرة منهم لا تسلم له بأولوية الخلافة على سابقيه من الخلفاء. ثم جاء جيل جديد أصبح فيه إنكار هذه الأولولة وسيلة للسلطة لتثبيت شرعيتها، بل طريقاً الى أصحاب السلطة، يسلكه من يلتمسون المصلحة أو الجاه أو الراحة.

لكن الأمة بقيت علىٰ حبّ علي وأبنائه(عليهم السلام). وكثرتها ككثرة الصحابة في إجلاله.

فالشافعي ـ أكبر عقل علمي ـ يضع حب أهل البيت بين فرائض الدين، ويذكّر المسلمين بأن الصلاة علىٰ أهل البيت (عليهم السلام) جزء من الصلاة لله.

يقول:

يا أهل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكمو من عظيم القدر أنكمو مَن لم يُصلِّ عليكم لا صلاة له

والامام أحمد يقول: «ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلي» وتشيع أبو حنيفة محل إقرار أو إنكار، وهو القائل: «لولا السنتان لهلك النعمان» قاصداً مدة دراسته علىٰ الامام الصادق (عليه السلام). ومالك بن أنس من أنبه تلاميذ الامام جعفر ذكراً. والأربعة أئمة أهل السنة.

أخرج أحمد بن حنبل عن عائشة: «جاء رجل فوقع في علي وعمار عند عائشة. فقالت: أما علي فلست قائلة لك فيه شيئاً. وأما عمار فإني سمعت رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلم يقول فيه: «لايخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما».

ولقد كان عمار من أول حياته في الاسلام، حيث كان في آخر يوم في حياته في

الدنيا، مع علي، وفي جنده، استشهد في صفين وهو في التسعين.. قتلته الفئة الباغية عليه وعلىٰ علي معه.

ولقد أوصىٰ[١] النبي لعليّ أن يغسله صلّىٰ الله عليه وآله وسلم ويجهزه ويدفنه ويفي دينه وينجز وعده، ويبرئ ذمته ويبين للناس ما اختلفوا فيه. وما ذلك إلا لأن علياً منه ومن أهل بيته حيث هو.

من هذه المكانة لعلي كان معه في صفين ثمانون من الصحابة الأحياء كلهم بدري، وهؤلاء من أهل الجنة.

أما معاوية فمعه الواهمون أو أهل الدنيا الذين يعدهم ويمنيهم، لتصير الأمور الى ما انتهت اليه في أيامه وما بعد أيامه.

وأما الأمة فجعلت مكان معاوية من علي(عليه السلام)، مثلاً سائراً في اللسان العربي: (وأين معاوية من علي).

يقول الأحنف بن قيس: دخلت على معاوية فقدم اليّ الحار والبارد والحلو والحامض مما كثر تعجبي منه. ثم قدم لوناً لم أعرف ماهو. فقلت: ماهذا؟ قال: هذا مصارين البط محشوة بالمخ.. وقد قلي بدهن الفستق، وذرّ عليه بالطبرزد! فبكيت. فقال ما يبكيك؟ قلت: ذكرتُ علياً (عليه السلام)؛ بينا أنا عنده وحضر وقت الطعام وإفطاره (إذ كان صائماً) وسألني المقام. فجيء له بجراب مختوم. فقلت: ما في الجراب؟.

---

(١) ومن نصوص وصية النبي (صلى الله عليه وآله) الصريحة بالإمامة لعلي: عن محمد بن حميد الرازي ـ وقد وثقه الأئمة: أحمد، ويحيى، وابن جرير الطبري، والبغوي ـ عن أبي بريدة «لكل نبي وصي ووارث وان وصيّي ووارثي علي بن أبي طالب» ومثله ـ بالمعنىٰ مروي عن سلمان الفارسي. وقال عليه الصلاة والسلام لفاطمة: «يافاطمة. أما ترضين أن الله عزوجل أطلع الى أهل الأرض فاختار اثنين أحدهما أبوك والآخر بعلك». وعن ابن عباس ان الرسول (صلى الله عليه وآله) قال لها؟: «أما ترضين أني زوجتك أول المسلمين اسلاما وأعلمهم علما وانك سيدة نساء أمتي كما سادت مريم نساء قومها. أما ترضين يافاطمة ان الله اطلع الى أهل الأرض فاختار رجلين فجعل أحدهما أباك والآخر بعلك؟».

ومنها ان النبي (صلى الله عليه وآله) يقول عن الحسين (عليه السلام): «ابني هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تاسعهم قائمهم».

قال: سويق شعير. قلت: خفت عليه أن يؤخذ أو بخلت به؟

قال: لا، ولا أحدهما، ولكني خفت أن يلته الحسن والحسين بسمن أو زيت.

فقلت: محرم هو يا أمير المؤمنين؟

قال: لا، ولكن يجب على أئمة الحق أن يعتدوا أنفسهم من ضعفة الناس لئلا يطغى الفقير فقره.

فقال معاوية: ذكرت من لاينكر فضله.



يرى الشيعة أهل البيت (عليهم السلام) ثاني الثقلين وأولهما القرآن، والثقل كل خطير نفيس. وهم عدل القرآن في الأمة، وخلفاء الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحفاظ على الشريعة. فللأئمة جميع ماله من المناصب ماعدا رتبة النبوة.. ولديهم الكتب التي دون فيها علم النبوة، وفيهم ينحدر الهدى النبوي، وتنحصر الإمامة.

وأن الله سبحانه وتعالىٰ يختار للنبوة من يشاء ويختار للإمامة من يشاء، ويأمر نبيه بالنص عليه وتنصيبه للناس بعده للقيام بوظائفه، إلا أن الإمام لايوحىٰ اليه بل يتلقى الأحكام عن النبي مع تسديد السماء له، فهو مبلِّغ عن النبي، في حين ان النبي مبلِّغ عن الله جل شأنه.

والإمامية يرون الإمام إنساناً من البشر، لكنه أفضل أهل زمانه، ولا تجوز عبادته، فهذا عمل من خداع إبليس. وان من هذا شأنه يجب أن يكون معصوماً من الخطأ. فالناقص لايكمل غيره. ووجه الحاجة الى العصمة فيه وفي النبي واحد[1]؛ وهو حفظ الأحكام عن الخطأ. وإذكان ذلك كذلك، فما يرد عن الإمام سنة، سواء أكان رواية عن النبي أم كان رأيه لأنه نص. أما مالا لايرد عن الامام فهو محل للاجتهاد وفق القرآن والسنة والإجماع والدليل العقلي.

---

(١) يقول الشريف المرتضىٰ في كتابه (تنزيه الأنبياء): «قالت الشيعة الامامية: لايجوز عليهم (الأنبياء) شيء من المعاصي والذنوب، كبيراً كان أو صغيراً، لا قبل النبوة ولا بعدها. ويقولون في الأئمة مثل ذلك».

أما ولاية الحكم، فقد رأينا الإمام الصادق وآباءه (عليهم السلام) لم يطلبوها كما لم يطلبها الأئمة من بعده.

يقول الكاظم (عليه السلام) لهشام: «كما تركوا لكم الحكمة اتركوا لهم الدنيا». فما أحراهم أن يتركوا للملوك ما يتناحرون عليه.

ويعتبر الشيعة الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثني عشر من أصول الدين عندهم. وانها «رديفة» التوحيد والنبوة، في حين لايوافق أهل السنة على ذلك. لاتكفر الشيعة أهل السنة في إنكارها هذا الأصل.. ولا يكفر أهل السنة الشيعة باعتقادها في الامامة.

وانما يشتد الخلاف من جراء الغلو في الأئمة ونسبة أشياء اليهم يختلف في بعضها أهل السنة أنفسهم، كالرجعة، أو القدح في بعض الصحابة، كعمرو ومعاوية والمغيرة. أو يختلف فيها الشيعة أنفسهم كولاية المفضول، والنص على الامام بالاسم لا بالوصف.. مما حدا بالأضداد والأشياع الى تبادل أزمة الثقة. أما الفقهاء فأدخلوا خلافاتهم في إطار ما يختلف فيه المجتهدون. وأما المتعصبون، من كل ملة، فيتقاطعون.. وما يتقاطعون إلا للمصلحة أو للغلواء أو لضيق الأفق[1].

---

(١) دخل ابراهيم بن هرثمة على المنصور فتهدده لأنه يمدح أهل البيت. ولما خرج ابراهيم لقي علوياً سلم عليه فصاح به: لا تشط بدمي.

وفي سنة ٣٥٠ استعانت الجماهير بالجند ضد الشيعة. وفي سنة ٣٦٣ قتل الكثيرون من أجل اقامة الشيعة لشعائرهم. وفي سنة ٤٠٣ صدر مرسوم بلعن العلويين خلفاء مصر وإنكار نسبهم. وكانت موقعة الكرخ فتكاً بأموال الشيعة وأرواحهم وأطفالهم. وفي سنة ٤٣٩ كبست دار الطوسي ببغداد. وفي سنة ٤٤٨ و ٤٤٩ أحرقت مكتبة الطوسي فترك بغداد الى النجف.

وعدوان المالكية على الشافعي في جامع عمرو مشهور. وطرد المالكية والحنفية من أجل الشغب في جامع عمرو بعد ذلك بأمر القاضي الحارث بن مسكين معروف. وكذلك فتنة الحنابلة في مجلس الطبري (٣١٠) وفي عهد البربهاري وفيما بعده وقد طالما أرهجت بغداد.

ومن الإزراء بالتعصب المذهبي تتردد على الألسن سخرية الزمخشري، وهو حنفي

=

ومرد عدم التكفير ـ بين الشيعة واهل السنة ـ مع الخلاف في الاعتقاد بالإمامة،

= اذا سألوا عــــن مــــذهبي لم أبــح بــه　　وأكــــــتمه.. كــــتمانه لي أســـلمُ
فـــإن حـــنفياً قـــلت، قـــالوا بأنـــني　　أبـــيح الطـــلى وهـــو الشراب المحـــرمُ
وان شـــافعياً قـــلت، قـــالوا بأنـــني　　أبـــيح نكـــاح البـــنت؛ والبـــنت تحـــرم
وان مـــالكياً قـــلت، قـــالوا بأنـــني　　أبـــيح لهـــم أكـــل الكـــلاب وهـــم هـــم.

ولقد طالما كفّرت جماعة جماعة اخرىٰ، بغياً عليها أو تحاملاً منها في التعبير عن الخلاف معها. كـان نـظام المـلك (٣٨٥) وزيراً عظيماً، ينشر العلم وينشئ المدارس، ويـعمل للـوحدة، ويحـاول أن يجـمع الخـلافتين العـباسية والفاطمية، أي أهل السنة والشيعة الإسماعيلية، وكان يجتمع لديه علماء الفرق، فدخل عليه عبد السلام بن محمد القزويني شيخ المعتزلة وعنده أبو محمد التيمي ورجل آخر أشعري ، فقال له: أيها الصدر، لقـد اجـتمع عـندك رؤوس أهل الناس. أنا معتزلي وذلك أشعري وهذا مشبه، وبعضنا يكفّر بعضا!!

وفي سنة ٤١٢ صدر مرسوم في بغداد كفر به الخليفة القادر المعتزلة وأمر باستتابتهم، وقد سبق منهم العمل عند الخلفاء لقهر المحدثين والفقهاء في عصر المأمون والمعتصم والواثق.

وفي حياة الفيروزآبادي الشافعي قامت الفتنة على الشافعية سـنة ٤٧٩ وفي سـنة ٥٠٧ قـال قـاضي الحـنفية بدمشق: لو كان لي من الأمر شيء لوضعت الجزية على الشافعية. وفي سنة ٥٦٧ قال أبو حامد الطـوسي المـقال نفسه في الحنابلة! وفي سنة ٥٥٤ حرقت الأسواق في أصفهان لنزاع الحـنفية والشـافعية. وفي سـنة ٤٦٩ هـاج الحنابلة في بغداد إذ ولى القشيري الوعظ بالمدرسة النظامية. ومن قبل ذلك بعام سنة ٤٦٨ انتقل السمعاني من مذهب أبي حنيفة الىٰ مذهب الشافعي فثار الحنفية بمدينة مرو في خراسان فنفاه سلطانها حقناً لدمه. وفي العصر ذاته أمر ابن تاشفين بإحراق كتب الغزالي في احتفال رسمي بمسجد قرطبة!

وذات يوم رأىٰ الوالي الحنفي في بلاد ما وراء النهر في مخرجه للصلاة في الصباح مسجداً للشافعية فقال: أمـا آن لهذه الكنيسة أن تغلق؟ وفي جيلان كان القوم حنابلة إذا قدم عليهم حنفي قتلوه! وجعلوا ماله فيئاً للمسلمين! وأما أهل الأندلس فكانوا مالكية يطردون من الأندلس الحنفي أو الشافعي أو الحنبلي إذا وفد عليها. فإن كان معتزلياً فربما قتلوه...

ومن سد الذريعة أفتىٰ البعض بتعزير من يترك مذهباً لمذهب.

وفي القرن الثامن من الهجرة فصل من التدريس بمصر أبو العباس الحنبلي (٧١٦) لأنه ذكر أن عمر منع تدوين الحديث، وان ذلك كان سبب تعارض النصوص في الحديث وخلاف العلماء.

=

الى ان الأصول ـ كما يقول الشيعة ـ ثلاثة: التوحيد، النبوة، والبعث ـ ويكفي من التوحيد الايمان بوحدانية الله تعالىٰ.. ويكفي من النبوة الايمان بأن محمداً رسول الله صادق فيما أخبر به معصوم.. ويكفي من المعاد الاعتقاد بأن كل مكلف يحاسب بعد الموت. أما الفروع التي هي من ضرورات الدين فهي كل حكم اتفقت عليه المذاهب الإسلامية كافة، من غير فرق بين مذهب ومذهب كوجوب الصلاة.. فإنكار حكم من هذه الأحكام إنكار للنبوة وتكذيب لما ثبت في دين الاسلام بالضرورة..(١)

وضرورات «المذهب الشيعي» نوعان.. نوع يعود للأصول وهو الإمامة. فيجب أن يعتقد كل «شيعي» إمامة الاثني عشر إماما.

والنوع الثاني يرجع الى الفروع كنفي العول ونفي التعصيب. فمن أنكر فرعاً منها كان غير شيعي وان كان مسلماً.

والايمان والاسلام عند الشيعة مترادفان.. يثبتان لمن آمن بالتوحيد، والنبوة، والبعث. ويطلقان على معنى أخص.. هو هذه الأركان، ومعها ركن العمل بدعائم الاسلام ـ وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ـ ويزيدون ركناً خامساً هو الاعتقاد بالإمامة، وأنها منصب إلهي كالنبوة، منصوص على من يليها، وان الإمام

= وفي القرن العاشر علقت على باب زويلة رأس المولى ظهير المدين الأردبيلي لأنه قال ان مدح الصحابة ليس بفرض!

وفي تركيا قتل في عهد السلطان سليم الأول (٩٢٦) نحو أربعين ألفا من الشيعة.

وهكذا تدور رحى البطش في كل اتجاه. لكن لها قانونا لايتخلف هو ان الباطشين اليوم مبطوش بهم غداً.

(١) أهل السنة لايكفرون إلا من يجحد فرائض الإسلام لأنه جاحد للأصل. يقول الغزالي: «اعلم ان شرح ما يكفر به ولا يكفر به يستدعي تفصيلاً طويلاً. فاقنع الآن بوصية وقانون. أما الوصية فلن تكف لسانك عن أهل القبلة، ما أمكنك، ماداموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله. وأما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان. قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع. وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع. واعلم انه لاتكفير في الفروع اصلاً، إلا في مسألة واحدة، وهي أن ينكر اصلاً دينياً من رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلم بالتواتر. لكن في بعضها تخطئة ما في الفقهيات..»

أفضل أهل زمانه، ومعصوم.

فمن اقتصر علىٰ الأركان الأربعة الأولىٰ مسلم مؤمن. وانما الاعتقاد بالإمامة له أثر في منازل القرب والكرامة يوم القيامة.

يقول الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء: «نعم يظهر أثر التدين بالإمامة في منازل القرب والكرامة يوم القيامة ـ أما في الدنيا فالمسلمون بأجمعهم سواء. وبعضهم لبعض أكفاء. وأما في الآخرة فلا شك أن المسلمين تتفاوت درجاتهم ومنازلهم حسب نياتهم وأعمالهم. وأمر ذلك وعلمه عند الله سبحانه. ولا مساغ للبت به لأحد من الخلق.

والغرض أن أهم ما امتازت به الشيعة عن سائر فرق المسلمين هو القول بإمامة الأئمة الاثني عشر؛ وبه سميت هذه الطائفة بالإمامية. إذ ليس كل الشيعة تقول بذلك.. والقول بالاثني عشر ليس بغريب عن أصول الاسلام وصحاح كتب المسلمين. فقد روى البخاري وغيره في صحاحه حديث الاثني عشر خليفة بطرق متعددة، فيها بسنده عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم): «أن هذا الأمر لاينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة»[1].

---

(١) في النصف الأول من القرن الحالي جرت «المراجعات» بين شيخ الأزهر وهو الشيخ سليم البشري وبين الامام عبد الحسين شرف الدين الموسوي (١٢٩٠ ـ ١٣٧٧) مدة إقامة الاخير بمصر، وهي مراجعات أطراها الطرفان وثبت منها التزام المسلمين جميعاً أصول الاسلام، وسعة الفقه للخلاف حول الفروع.

ومن اتساع الفقه للخلاف وجدنا المأمون، المعتزلي الفكر، السني الفقه، يولي عهده علياً الرضا عليه السلام إمام الشيعة. ووجدنا الصاحب بن عباد الذي وزر للدولة البويهية ثمانية عشر عاماً من ٣٦٧ الى ٣٨٥ وزيراً معتزلي الفكر لدولة زيدية العقيدة، تحكم دولة الخلافة السنية. ووجدنا الشريف الرضي نائباً للخليفة العباسي. كما وجدنا الدولة الأدريسية دولة سنية يحكمها الأدارسة وهم شيعة من نسل الحسن بن علي عليه السلام لكنهم لايظهرون التشيع. وابن تومرت يقول إنه ـ كالأدارسة ـ من نسل الحسن بن علي عليه السلام ومع ذلك لايقسر الدولة على التشيع. وكذلك بني حمود من نسل الحسن بن علي يحكمون دولة سنية ولا يقسرونها على التشيع.. بل سنجد

=

والشيعة يعتقدون أن الأرض لا تخلو من حجة على العباد من نبي أو وصي، ظاهر أو مستور، فالامام «المهدي» الثاني عشر «غائب» منتظر.

والامامة منصب ديني لايجوز التنازل عنه لأنـه مـن الله. ولمـا تـنازل عـلي (عليه السلام) للخلفاء السابقين عليه كان التنازل عن الخلافة الدنيوية، وحدها، وبناء علىٰ أسباب.

= فقهاء عظماء ـ كالطوسي ـ حجة في المذهب الامامي وفي مذاهب أهل السنة.

وفي سنة ٥٢٥ عيّن الخليفة الفاطمي بمصر قضاة أربعة: ثلاثة من مذاهب السنة ورابعاً شيعياً لأن الشعب كـان سنياً والدولة شيعية. وكان الحافظ السلفي (٤٧٨ ـ ٥٧٦) يلقي دروس الشافعية في مدرسة بناها له ابن السلام الوزير الفاطمي.

وفي النصف الأخير من القرن الحالي أفتىٰ المرحوم الشيخ محمود شلتوت: «ان مذهب الجعفرية المعروف بمـذهب الشيعة الامامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنة. فـينبغي للـمسلمين أن يعرفوا ذلك. وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وماكانت شريعته تابعة لمذهب، أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالىٰ يجوز لمن ليس أهلاً للنظر والإجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه في فقههم. ولا فرق في ذلك بين العبادات والمعاملات».

وقال الشيخ شلتوت عن فتواه بعد.. «ثم تهيأ لي بعد ذلك ـ وقد عهد اليّ بمنصب مشيخةالأزهر ـ أن أصـدرت فتواي في جواز التعبد على المذاهب الاسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر المتبعة لسبيل المـؤمنين ومـنها مذهب الشيعة الامامية (الاثنا عشرية).. وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ؛ مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة، فيقرر دراسة هذه المذاهب الاسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب لفلان وفلان كما انه اهتم في تكوين مجمع البحوث الاسلامية بأن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الاسلامية»..

والشيخ عبد المجيد سليم شيخ أسبق للأزهر يقول تحت عنوان (القطعيات والظنيات): «قد علمنا مـن استقراء المذاهب الفقهية وآراء الفرق الكلامية ان في كل منها خطأً وصواباً، ولم نعلم مـذهباً مـن المـذاهب الإسـلامية المعتبرة خطأكله أو صوابا كله. واذا كان الأمر كذلك فلا ينبغي ان تطغى العصبية المذهبية على المسـلمين. ولا ينبغي ان يكون همّ الحنفي مثلاً هو الانتصار لكل ما جاء في مذهب الحنفية. ولا ان يكون همّ الإمامي أو الزيدي هو الانتصار والتعصب لكل ما جاء به الإمامية والزيدية.. وهكذا.

بل الواجب على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر بالبرهان صوابه وان يكون قصاراهم الرغبة الصادقة في الوصول الى الحق دون ان يقيموا وزناً لما سوى الحق.. بذلك يصبحون فعلاً أمة واحدة».

أمور خلافية في الفقه

يظهر من استعراض كبريات مسائل الخلاف بين الشيعة وبين مذاهب أهل السنة، في الفقه، أنها لاتمس أصل الدين، وأنها تحتمل الاجتهاد، وتتسع للخلاف عليها، كما اتسعت أمور أمثالها للخلاف بين مذاهب أهل السنة ذاتها - إلا زواج المتعة. فالخلاف فيه يتميز مما عداه:

أما الفرائض الدينية فواحدة عندهم وعند أهل السنة.

في «الصلاة»: الفروض واحدة لدىٰ أهل السنة ولديهم. وعدد الركعات فيها واحد. اما المندوب عندهم فلا حصر له. وأفضله عندهم «الرواتب». وعددها «على المشهور» ثمانية للظهر وثمانية للعصر قبل الفريضة وأربع للمغرب بعد الفريضة والعشاء ركعتان جالساً ويجوز قائماً وثمانية ركعات صلاة الليل وركعتا الشفع وركعة الوتر وركعتا الصبح قبل الفريضة.. فالرواتب عندهم كثيرة.. ويشترطون القراءة في الصلاة باللغة العربية. ولايجيزون الترجمة. ويشترطون الجهر بالبسملة.

وفي «الزكاة»، ووجوه البر، لايختلفون عن جمهور المسلمين. بل هم يضيفون اليها «خمس» الدخل، الذي يجبى للإمام، لإنفاقه في مصارفه الدينية.

وفي «الصوم»: يرون الكذب علىٰ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يفطر الصائم.

وفي «الحج»: جهاد لايسقط بالموت بل يؤديه الوارث عن مورثه. وللغير أن يؤديه عنه من مال للموروث قبل أن تقسم التركة.

ويكثرون من مظاهر «الروح الإسلامي» في العقود. فيستحبون البدء بالبسملة في كل معاملة، ويحرصون علىٰ الصيغة العربية. ويكرهون معاملة تارك الصلاة والمستهتر. ويحرمون الاتجار بما يترتب عليه فساد المجتمع.

وفيما يلي أنواع خلاف بينهم وبين أهل السنة، لعلّها تبين الإطار العام أو المعالم المهمة، للوفاق وللخلاف بين الفريقين.

١ ـ الجمع بين الصلاتين

المسلمون مجمعون على جواز الجمع في الحج في جبل عرفة بين الظهر والعصر وفي المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج خاصة ـ أما غير ذلك فمحل خلاف.

فالشيعة يجيزون الجمع مطلقاً جمع تقديم وتأخير، لعذر وغير عذر، في السفر والحضر، وان كان التفريق عندهم أفضل ـ إلا إذا حدث حرج.

وحجة الشيعة مشتقة من صحاحهم ومن تفسير الامام الصادق عليه السلام لقوله تعالىٰ: «أقم الصلاة لدلوك الشمس الىٰ غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا».

فالغسق هو تراكم الليل واشتداد الظلمة. وبهذا تكون أوقات الصلاة الأربعة ممتدة من الزوال الى نصف الليل. فالظهر والعصر ينتهيان في الغروب. والمغرب والعشاء الىٰ نصف الليل. اما الصبح فقد اختصها الله بقوله: «وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا».

٢ ـ الاذان

كان بلال ـ مؤذن الرسول ـ يؤذن لصلاة الصبح فيقول بعد «حي علىٰ الفلاح»: «الصلاة خير من النوم». وأقرّه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) علىٰ ذلك.

والشيعة يقولون إن الاذان كان فيه (حي علىٰ خير العمل) حتىٰ عهد عمر ـ كما قال الامام الباقر (عليه السلام).

وسبب رفعها من الأذان ان المؤذن وجد عمر نائماً عند أذان الصبح فأضاف: (الصلاة خير من النوم) ـ كما أورد الزرقاني في تعليقه علىٰ الموطأ ـ فاستحسنها عمر

فأمر أن تضاف الى أذان الصبح. وأخرج ذلك ابن أبي شيبة [١].

وعلماء الشيعة متفقون على أن قول «أشهد ان علياً ولي الله» ليس من فصول الأذان وأجزائه. وأن من يأتي به بنيّة أنه من الأذان فقد أبدع في الدين، أي أدخل فيه ما هو خارج عنه.

ويقول الشيعة إن إسقاط (حي علىٰ خير العمل) كان بأمر من أولي الأمر في عهد عمر، حرصاً منهم علىٰ أن تفهم العامة أن الجهاد في سبيل الله هو خير العمل، وأن النداء على الصلاة بخير العمل مقدمة لفرائضها الخمسة ينافي التحريض المطلوب للجهاد. فخطب عمر فنهىٰ عنه [٢].

---

(١) الشيعة يستدلون على أن الأذان كان فيه عبارة (حي علىٰ خير العمل) بما هو ثابت بالسند الصحيح عن الامام جعفر عليه السلام «لما هبط جبرائيل علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالأذان أذن جبرائيل وأقام وعندها أمر رسول الله علياً أن يدعو بلالاً فدعاه فعلمه رسول الله الأذان وأمره به» وكان أذان الإمام جعفر عليه السلام هكذا:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد ان لا إله إلا الله

أشهد أن محمداً رسول الله. أشهد ان محمداً رسول الله

حي علىٰ الصلاة. حي علىٰ الصلاة

حي علىٰ الفلاح. حي علىٰ الفلاح

حي علىٰ خير العمل. حي علىٰ خير العمل

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله. لا اله الا الله

(٢) وقد تعاقبت التصرفات في صدد الأذان من المسلمين. كان عليه الصلاة والسلام يأمر في فجر رمضان بأذانين أولهما يوقظ الغافلين ليتسحروا، والثاني للصلاة. وكان أذان الجمعة في عهده يبدأ عندما يجلس على المنبر. وهو الأذان الوحيد الذي يؤدى من مكان مرتفع بالمسجد أو القرية كسقفه ومنارته. فلما كثر الناس في عهد عثمان استحدث نداء آخر علىٰ الزوراء وبقي النداء الأول كما كان ـ وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥) اكتفى باذان المنارة. ونقل الأذان الثاني وجعله بين يدي الخطيب.

هذا وليس الكلام القليل بين يدي الخطيب، ولا عند الأذان، ليبطله.

٣ـ المسح علىٰ الرجلين

يختلف الناس في أن مسح القدمين هو الفرض أو الغسل هو الفرض، لأن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) توضأ ومسح علىٰ قدميه. والشيعة تستدل بمسح الرسول علىٰ قدميه على ان المسح هو الفرض ـ ومروي عن ابن عباس انه قال: ما صح عن رسول الله الا غسلتين ومسحتين. ويفسرون الآية «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم» بما يسعفهم في المسح.

٤ ـ الزواج والطلاق

في الزواج

المهر لايقدر قلة ولا كثرة، إلا ان يقصر عن التقويم كأن يقول حبة قمح! أما الكثرة ففيها قول الله: «وآتيتم إحداهن قنطارا»، وان كان يكره تجاوز مهر السنة الذي أصدقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم زوجاته؛ وهو خمسمائة درهم.

ويجوز النظر الى وجه المطلوب زواجها دون استئذان ومع الوجه الكفين. وينظرها قائمة وماشية. وللمرأة أن تنظر الىٰ الرجل ـ ولايجوز العزل عن المرأة إلا بإذنها.

وللمرأة ـ بكراً أو ثيباً ـ أن تزوج نفسها ممن تريد إذا بلغت رشدها، وان كان من المستحسن أن تستأذن وليها في ذلك.

في الطلاق

أما الطلاق الثلاث بفم واحد، فجعله عمر ثلاثاً زجراً للناس. وبقي الأمر كذلك ثلاثة عشر قرناً ظهر فيها ما أحوج الىٰ العودة الىٰ الأمر الأول.

والشيعة لم يقبلوا عمل عمر من بادئ الأمر. فالطلاق الثلاث في مجلس واحد

يقع مرة واحدة.

ولا حلف عندهم بالطلاق على عمل. وهذان إصلاحان أحدثتهما مصر في سنة ١٩٢٩.

وهم يوجبون حضور شاهدين للطلاق، في حين لايوجبون حضور شاهدين للزواج. فالزوجية تنشأ دون شهود. لكن الطلاق واجب له الشهود. والمتفقهة الآن من أهل السنة في مصر يستحسنون إيجاب حضور شاهدين للطلاق، بل هذا تعديل مطلوب في مشروع قانون للأحوال الشخصية.

وهم يمنعون طلاق المغضب، والمتهيّج والمنزعج. ويقررون ان الطلاق الذي أمر به الله رسوله هو الذي يقع إذا حاضت المرأة وطهرت من حيضتها، فأشهد الرجل شاهدين عدلين قبل أن يجامعها على تطليقه. ثم هو أحق برجعتها مالم تحض ثلاثاً. فإن مضت ثلاثة قروء قبل أن يراجعها فهي أملك لنفسها. فإن أراد أن يخطبها مع الخطاب خطبها. فإن تزوجها كانت عنده.

وليس للمريض ان يطلق. وله أن يتزوج. فإن تزوج ودخل بها فجائز. وان لم يدخل ومات بطل الزواج. ولا مهر ولا ميراث للزوجة.

فلنلاحظ اليسر في الزواج عندهم. والتشدد في الطلاق. ورعاية المرأة في كل حال. والحرص على الأسرة.

٥ ـ زواج المتعة: (الى أجل معين)

والشيعة يسمونه الزواج المؤقت. ويرجعونه الى قوله تعالى: «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن». والمفسرون متفقون على ان جماعة من الصحابة العظماء أفتوا بإباحتها؛ منهم: ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس، وجابر بن عبدالله، وعمران بن حصين. بل كانوا وهم يتلون الآية ينطقون بتفسيرها فيقرأون «فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى». فالمشروعية ثابتة والعمل بها ثابت.

وإنما يحزم أهل السنة بأنها أبيحت لدواعيها ثم نسخت بأحاديث جازمة.

والشيعة لايرونها أحاديث ثابتة. ويقولون ان الحلال القطعي الثبوت لا ينفيه تحريم غير قطعي.

وهم يقولون ان المتعة سائغة في السفر لطلب العلم والتجارة والجهاد، فلقد كانت مشروعيتها للسفر وللجهاد. وإنها زواج عادي، لولا انه الىٰ أجل. فالزوجة في زواج المتعة تعتدّ اذا انتهىٰ الأجل، ككل طلاق. ولابد من المهر.. والابن من الزواج هو ابن عادي، له الميراث والنفقة. اما الزوجة فلا نفقة ولا ميراث لها، إلا اذا اشترطت. وليست النفقة من لوازم الزوجية، فالناشز زوجة ولكنها بلا نفقة. ومن النساء من ترث وليست زوجة، كمن طلقت في مرض الموت، ومات زوجها قبل مضي سنة.

والثابت أن عمر أعلن تحريم المتعة إذ خطب الناس فقال «متعتان كانتا علىٰ عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى عهد أبي بكر رضي الله عنه، وأنا أنهىٰ عنهما..» وأنه حرّمها وهو بصدد قضية لعمرو بن حريث ثم أطلق النهي.

وأهل السنة يقرّون ان نهي عمر عنها كان إعلاناً لتحريم ثابت قبل ذلك.

ولم تقبل الشيعة نهي عمر من بادئ الأمر بل قال علي: «لولا نهي عمر عن المتعة ما زنى إلا شفا (قليل أو مشرف على الهلكة) أو شقي».

وثبت عن الامام الصادق (عليه السلام) قوله: «ثلاث لا أتقي فيهن أحداً متعة الحج ومتعة النساء والمسح علىٰ الخفين».

ومن نوادر يحيى بن أكثم قاضي المأمون أنه سأل شيخاً من أهل البصرة: بمن اقتديت في جواز المتعة؟ قال: بعمر. قال: كيف، وكان من أشدّ الناس فيها؟ قال: إنه صعد المنبر فقال: أيها الناس! متعتان أحلهما الله ورسوله لكم، وأنا أحرمهما عليكم وأعاقب عليهما. فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه[1].

---

(١) ولي يحيى القضاء في البصرة وعمره نحو عشرين سنة. فاستصغره أهل البصرة. فقال لهم: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجه به النبي قاضياً على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجه به النبي =

٦ ـ الميراث

للشيعة تفسير في المواريث في صالح البنات، لذواتهن، ولمن يتوسل للميراث بهن. يقول تعالى:

«يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وا·· كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين».

وهم يرون البنت ولداً في اللغة والعرف، ولذلك يعطون البنت دائماً، ولا يعطون الأخت أو الأخ ان كان هناك بنت أو ابن فكلاهما ولد. وهم يسقطون الوصية ما دام هناك ولد (ابن أو بنت).

وللشيعة قاعدة: ان كل فريضة لم يهبطها الله إلا الى فريضة، تكون مقدمة عند «العول»؛ وكل فريضة، إذا زالت عن فرضها، لم يكن لها إلا ما بقي، تكون مؤخرة.

= قاضياً على اليمن، وانا أكبر من كعب بن أبي الذي وجه به عمر قاضياً على البصرة.

وكان يحيى حسن التأتي للأمور ومنها سياسة القضاء والخلفاء؛ دخل على المأمون رجل يشكو وكيلاً للمأمون انه اشترى منه جواهر بثلاثين ألف دينار، فقال المأمون: لعل الوكيل اشترى لنفسه أو سلم الشاكي المال.. قال الشاكي: فإذن أدعوك الى القاضي الذي نصبته لرعيتك. وجيء بيحيى بن أكثم، فقال للمأمون: إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء. قال: قد فعلت. قال: فإني أبدأ بالعامة أولا يصلح المجلس للقضاء... ففتح الباب ـ وقعد في ناحية من الباب وأذن للعامة، ثم دعي بالرجل، فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول ان تدعو بخصمي أمير المؤمنين.

فنادى المنادي، فإذا المأمون قد خرج ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس، فطرح المصلى ليقعد عليها، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين، لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس.. فطرح للرجل مصلى آخر، ثم نظر في دعوى الرجل. وطالب الرجل المأمون باليمين فحلفها المأمون.

ووثب يحيى بعد فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. قال المأمون: ما أقامك؟ قال: إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك، وليس الآن من حقي أن أتصدر عليك..

فأمر المأمون أن يحضر ما ادعى الرجل من المال، فقال له: خذه اليك، والله يعلم ما دفعت اليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى اني تناولتك من وجه القدرة، وانها لتعلم الآن اني ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال.

مثال ذلك للزوج النصف فإن هبط له الربع، فإن دخل عليه في التقسيم ما يزيد عن السهام رجع الى الربع المفروض. ولا يزيله عن الفرض شيء. ومثله الزوجة والأم. أما البنات والأخوات فلهن النصف والثلثان. فإذا أزالتهن الفرائض عن ذلك لم يكن لهن إلا ما بقي. فإذا اجتمع ما قدم الله وما أخر بدئ بما قدم الله فأعطي حقه كاملاً. فإن بقي شيء كان لما أخر. وهو تطبيق لحديث ثابت عندهم، أورده الشهيد الثاني[1] ـ وأورده الحاكم في المستدرك وقال: إنه صحيح على شرط مسلم ـ ويستشهد أهل السنة بآيات ويستشهد الشيعة بآيات.

وهم ينفردون بما يسمىٰ (الحبوة) للولد الأكبر؛ ملابس أبيه وثيابه ومصحفه وخاتمه زيادة على حصته في الميراث ـ كما ينفردون بعدم توريث الزوجة من عقار الزوج ورقبة الأرض عيناً وقيمة، لأخبار وردت عن الأئمة مروية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

٧ـ متعة الحج

ينوي الحاج إحرامه من ميقاته (أماكن القصد الىٰ البيت الحرام) والمتمتع يأتي مكة ويطوف بالبيت، ثم يقصر ويحل من إحرامه ويقيم بعد ذلك حلالاً، ثم يفيض الىٰ المشعر الحرام، ثم يأتي بأفعال الحج بإحرام جديد. وهذان التقصير والإحلال تيسير بإباحة محظورات الإحرام في المدة المتخللة بين الإحرامين. وهذا ما كرهه عمر وحرمه قائلاً: هي سنّة رسول الله لكني أخشىٰ أن يعرسوا بهن ـ نسائهم ـ تحت الأراك ثم يروحون بهن حجاجا، فخطب ونهى عن هذه المتعة مع متعة الزواج.

ومع ذلك فابن عمر يقول عن عمل أبيه: أرأيت إن نهى عنها أبي، وصنعها رسول‌الله! أأمر أبي أتبع أم أمر رسول الله؟ وابن عباس كعلي لا يحرمان ما حرّمه عمر.

ولما قدم علي من اليمن وجد فاطمة الزهراء (عليها السلام) قد حلت ولبست صبيغاً، واكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: ان أبي أمرني بهذا. فذهب الىٰ

---

(١) الشيخ زين الدين الجبعي العاملي.

رسول‌الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: صدقت صدقت.

والشيعة لهذا يرون متعة الحج.

٨ـ التفسير بالتأويل

يروي الشيعة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: «ان للقرآن ظاهراً وباطناً، ولبطنه بطن الى سبعة أبطن» ويروون عن علي (عليه السلام) أنه قال: «مامن آية قرآنية إلا ولها ظاهر وباطن، وحد ومطلع». ويروى هذا البيان عن «سهل التستري»، من المفسرين الصوفيين، وانه أضافه. فالظاهر: التلاوة. والباطن: الفهم. والحد: حلالها وحرامها. والمطلع: إشراف القلب على المراد به فقهاً عن الله عزوجل. قيل له ما الباطن؟ قال: فهمه.

ويروون عن الامام الصادق (عليه السلام) انه قال: «ان في كتاب الله أموراً أربعة: العبارات والإشارات، والحقائق واللطائف. فالعبارات للعوام. والإشارات للخواص. واللطائف للأولياء. والحقائق لأنبياء الله».

والمتتبع لتفسيرات الامام الصادق وأجوبته على المسائل يجدها تنبع من بحر عميق في فهم القرآن واللسان العربي، أمكنه أن يكشف للناس بين الفينة والفينة ما فيه من شمول وما بينه وبين السنة من صلة الأصل بفرعه.

وبذلك قدر الامام (عليه السلام) أن يفسّر القرآن بالقرآن ـ ففي بيته نزل ـ وان يجد للحديث الواحد أصولاً عدّة، في آيات متفرقة، بمجرد ان يدلي اليه سائل بسؤال! وهو منهج سيتابع عليه عظماء الأئمة من أهل السنة، وفي طليعتهم أحمد بن حنبل.

ولا يسوغ لنا أن نعتبر تفسيرات الامام الصادق (عليه السلام) من أضرب التفسير بالرأي أو بالمأثور أو بهما ـ وهي مصنفة بين عقلي ونقلي وصوفي ورمزي وقصصي... الخ ـ وفي البعض منها تأويل باطني.

وابن عطية من كبار مفسري أهل السنة ينفي صحة نسبة تفسير باطني أو رمزي الى الامام الصادق، ويقول: «.. وهذا قول جار على طريقة الرموز. ولا يصح عن جعفر

بن محمد ـ رضي الله عنه ـ ولا ينبغي أن يلتفت اليه».

اليك مثلاً ـ بين نظائر تجل عن الحصر ـ لاستعمال اللسان العربي في التفسير: يقول زرارة للامام الصادق (عليه السلام): من أين علمت أن المسح ببعض الرأس؟ ويجيب الامام: لمكان الباء في قوله تعالىٰ «وامسحوا برؤوسكم». يقصد أن الباء للبعضية.

ولقد تتابع على هذا التفسير الائمة في اللغة والفقه. جاء في المصباح المنير في مادة (بعض) ان الباء في قوله تعالىٰ (وامسحوا برؤوسكم) للتبعيض.. ونص على مجيئها للبعض ابن قتيبة، وأبو علي الفارسي، وابن جني. وذهب الى مجيء الباء بمعنى البعض الشافعي، وهو من أئمة اللسان. وقال بمقتضاه أحمد وأبو حنيفة.

ومن استعمال ظاهر اللسان العربي تفسير «الكوثر» بأنه الذرية الكثيرة، في قوله تعالىٰ: «إنّا أعطيناك الكوثر». فهي صيغة مبالغة من الكثرة (فوعل)، يؤيد ذلك

الآية التي تجيء فيما بعد «ان شانئك هو الأبتر»، والأبتر من لا عقب له. وبهذا ساغ تفسير الشيعة بأن الكوثر هو الذرية. وقد رزق الله النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) الذرية الكثيرة من فاطمة(عليها السلام). فهي الكوثر المقصود. والآخرون يقولون ان الكوثر نهر في الجنة، وغيرهم يؤولونه بأنه النبوة.

ولقد أسلفنا طائفة من تفسيرات الامام، كالخوف من عدم العدل بين النساء، والإنفاق من رزق الله، ورؤية الله جل شأنه، وقتل النفس بإخراجها من الهدىٰ الى الضلال، والتفسيرات التي جعلت أبا حنيفة يقول عن آية «وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله»، لكأني ما قرأتها قط في كتاب الله ولا سمعتها إلا في هذا الموقف. وهي جميعاً صادرة عن فهم دقيق للسان العربي الذي نزل به القرآن.

والتفسير بالظاهر ممن يفهم البلاغة العربية ومجازاتها المتعددة والاستعارة، والإيجاز اللفظي، وهو بعض خصائص الإعجاز البياني في القرآن، لاينفي استعمال العقل، بل فيه مجال واسع له، ولا ينفي القيمة العظيمة لتفسير الزمخشري المعتزلي، وهو حجة في اللغة، وحجة في الجمع بين الظاهر وبين وجوه «الرأي»، بالمعاني

الدقيقة وأسرار البلاغة [١].

وممن أثارهم الإعجاب به الامام يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩) صاحب كتاب الطراز.

وما من تفسير ثبت عن إمام عن أهل البيت (عليهم السلام) إلا تلقته العقول بالقبول، لأنه لايغاير النص من القرآن والسنة، وإنما يشرحهما في نورانية باهرة[٢]، في حين ان المعتزلة يؤولون ليخضعوا المعنى لأصولهم الخمسة [٣]. وهذا خلاف عظيم بين

---

(١) يؤول المعتزلة الألفاظ ليفسروا معاني الآيات طبقاً لأصولهم. وعلى ذلك أولوا الآيات التي قد تنم عن التشبيه والجهة الجسمية.

والتفسير بالرأي يقوم على قاعدة كصمام الامان للذين ينهجونه. فبالكتاب آيات محكمات وأخر متشابهات والمحكمة آيات لايتمارى في معناها أحد. فإذا وردت آية متشابهة فسرت على اساس الآية المحكمة؛ مثل قوله تعالى (الى ربها ناظرة) تفسر على اساس قوله تعالى (لاتدركه الأبصار) فيكون معناها الرضى عنها وتوقع النعمة من الله. ومثل قوله (أمرنا مترفيها ففسقوا فيها) تفسر على اساس قوله (ان الله لايأمر بالفحشاء). وأكثر المؤولين يلجأون للمجاز. وفي القرآن كثير منه مثل قوله تعالى (يد الله فوق أيديهم) لمعناها القدرة ـ وهم ككل المفسرين ـ يبدأون من أن الله تعالى ليس كمثله شيء. أما التفسير بالمأثور فتتصدره مدرسة الامام الطبري: يجمع الأقوال والآثار ويختار بها.

(٢) اليك مثلا تفسير «الامام العسكري عليه السلام» للحروف المقطعة مثل (ا. ل. م....) في فواتح السور يراها تنبيهاً على ان هذا الكتاب الذي أنزله الله هو هذه الحروف المقطعة. وانه بلغتكم وهجائكم فأتوا بمثله ان كنتم صادقين. وما يزال هذا التفسير في طليعة تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور.

(٣) أصول المعتزلة الخمسة ـ ١ ـ التوحيد الذي ينفي عن الذات صفات الاجسام والمكان، وأهل السنة يرون صفات الله خاصة به وأنه تعالى «كما وصف نفسه». فليس في ذلك تشبيه لله بخلقه ـ ٢ ـ العدل؛ وفحواه ان الله لايأمر إلا بالحسن ولا ينهى إلا عن القبيح. وما يفعله الناس عمل من أعمالهم؛ ولذلك يثابون ويعاقبون. وأهل السنة يقولون ان الله خالق العمل؛ والعبد كاسب له ـ ٣ ـ الوعد والوعيد (أو الثواب والعقاب) ملازمان للفعل. وأهل السنة يرون التوبة قد يقبلها الله من مرتكب الكبيرة ـ ٤ ـ المنزلة بين المنزلتين. فمرتكب الكبيرة لا مؤمن ولاكافر بل فاسق وان كان عقابه أقل من الكافر ـ ٥ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع اشتدادهم في ذلك عندماكانت السلطة في أيديهم.

المؤولين، وبين الامام الصادق والشيعة الامامية.

أما الاسماعيلية، فلهم بعض التأويلات الباطنية التي تهمل المعنى الظاهر وتحمل الألفاظ ما لا تحتمله.

والاسماعيلية فرقة شيعية لم تظهر إلا بعد موت الامام جعفر الصادق (عليه السلام) بقرن أو أكثر.

٩ ـ البداء؛ ومفهومه الشائع: الظهور بعد الخفاء

نسب الى الشيعة القول بأن الله يبدو له فيغير ما قرره لظهور طارئ. وأطلقوا على ذلك لفظ البداء. والشيعة الامامية لاتقول شيئاً بهذا المعنى ـ بل تعتقد ان الله عالم بكل شيء ... وعلمه أزلي بما كان وما يكون. يقول الامام الصادق (عليه السلام): «مابدا لله في شيء إلاكان في علمه قبل أن يبدو له»

وسأله منصور بن حازم: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟ قال: «لا.. من قال هذا فقد أخزاه الله».

قال منصور: ماكان وما هو كائن الى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال: «بلى قبل أن يخلق الخلق» ويروى عنه (عليه السلام) قوله: «إن الله لم يبد له عن جهل».

فجميع الكائنات الممكنة، قبل أن تخلق، قدرها الله تعالى وكتبها بمشيئته وإرادته في اللوح المحفوظ. والله تعالىٰ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت» وكل ما يتعلق به القضاء، والتقدير، لابد له من تعلق الإرادة والمشيئة به. وما لا يكون قضاؤه وتقديره حتمياً مما هو مورد المحو والإثبات تتعلق المشيئة بمحوه وإثباته. وقد يكون وجوده، وتكوينه بإرادة الله تعالىٰ، منوطاً أي مشروطاً، بتحقق أمر آخر. فيكون قد جرى في علمه تعالىٰ أن يوجد اذا حصل ما اقتضت المصلحة، التي يعلمها الله، أن تكون شرطاً.

والله تعالىٰ يقول: «فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدرارا» ويقول: «ولو ان أهل القرىٰ آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء

والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون».

وروى أحمد في المسند أن النبي (ﷺ) قال: «ان الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه. ولا يرد القدر إلا الدعاء. ولا يزيد في العمر إلا البر».

وعن أبي سعيد ان النبي (ﷺ) قال: «ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه إحدىٰ ثلاث: إما أن يستجيب لدعوته أو يصرف عنه من السوء مثلها أو يدخر له من الأجر مثلها». قالوا: يارسول الله إذن نكثر. قال: «الله أكثر».

ومن القضاء علم مخزون لايطلع الله عليه أحدا.. فلا بداء فيه، وقضاء أخبر به ملائكته ورسله، فهذا أيضاً لا بداء فيه، وقضاء معبر عنه بلوح المحو والإثبات؛ وفي هذا القسم يرد قول الشيعة بالبداء: «يمحو الله ما يشاء ويثبت».

والشهرستاني ينفي عن الامام جعفر عليه السلام ما ينسب اليه من أقوال في الغيبة والبداء بمعنىٰ تغيير إرادة الله.

١٠ ـ الرجعة

القول بالرجعة ليس مجمعاً عليه في الفكر الشيعي، فمنهم من لايعتبرها عقيدة، ومنهم من يأخذ بها، كما أخذ بعض أهل السنة ببعض أنباء الغيب وحوادث المستقبل وأشراط الساعة.. مثل نزول عيسىٰ من السماء، وظهور الدجال الذي يظهر قبل الإمام بقليل فيقتله الامام، وخروج السفياني.

يقول بعض الشيعة: ان عقيدة البعث أصل مجمع عليه، وانه عندما يؤخذ القول بالرجعة على انها بعث فلا وجه لنفي العدالة عمن يفهمها كذلك.

ويقول الامام محمد حسين آل كاشف الغطاء من أئمة الشيعة (الامامية) المعاصرين: «وليس التدين بالرجعة في مذهب التشيع بلازم، ولا انكارها بضارّ، وان كانت ضرورية عندهم ولكن لايناط التشيع بها وجوداً أو عدماً».

ويقول: «وحديث الطعن بالرجعة كان هجيري علماء السنة.. فكان علماء الجرح

والتعديل اذا ذكر بعض العظماء من رواة الشيعة ومحدثيهم ولم يجدوا مجالاً للطعن فيه لوثاقته وورعه وأمانته نبذوه بأنه يقول بالرجعة فكأنهم يقولون يعبد صنماً أو يجعل لله شريكاً. ونادرة مؤمن الطاق مع أبي حنيفة معروفة. وأنا لا أريد أن أثبت في مقامي هذا ولا غيره صحة القول بالرجعة وليس لها عندي من الاهتمام قدر قلامة ظفر...».

يقول الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه (عقائد الامامية): «من يستغرب الرجعة يكون بمثابة من يستغرب البعث فيقول «من يحيى العظام وهي رميم» فيقال: «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم»، وينهي بحثه في هذا الصدد بقوله: على كل حال، فالرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها. وانما اعتقادنا بها كان تبعاً للآثار الصحيحة الواردة عن آل البيت الذين ندين بعصمتهم من الكذب. وهي من الأمور الغيبية التي أخبروا بها ولا يمتنع وقوعها».

وابن الجوزي الحنبلي يسمى القائلين بالرجعة في كتابه «تلبيس إبليس» (الرجعية). ولقد أسلفنا تضعيف بعض محدثي أهل السنة للقائلين بالرجعة.

الباب الخامس

المنهج العلمي

في الباب الحالي فصول ثلاثة تحاول تصوير منهج الإمام الصادق(عليه السلام) «العلمي»، و «الحضاري» «السياسي والاقتصادي»، كما رسم خطوطه بالفعل وبالقول، وكما اقتفىٰ آثاره وبنى عليه علماء الاسلام، الفقهاء منهم والرياضيون والتطبيقيون، مستمتعين بحرية الفكر والبحث التي وردت بها نصوص الكتاب العزيز وأمرت بها السنة. وكان الإمام الصادق (عليه السلام) من الأوائل في تعليمها للمسلمين، ممن انتسبوا اليه وممن أخذوا عنهم.. يستوي في ذلك الشيعة وفقهاء أهل السنة.

على هؤلاء الفقهاء والعلماء تعلمت أوربا منهج النزاهة العلمية والواقعية الذي تبلور في طريقة «التجربة والاستخلاص»، والذي أعلنه جابر بن حيان ـ أول من استحق في العالم لقب كيميائي كما يعبّر عنه الأوربيون.

ومن المنهج الحضاري: المنهج السياسي والاقتصادي الذي يستهدف عمارة الدنيا بالعدل في الناس، والعمل للحياة، والتكافل بين أعضاء الجماعة، والسعي لاستثمار طاقات الناس وأموالهم ـ وهي قواعد بلغ بها الفقه الشيعي غايته، ابتداء من منهج أمير المؤمنين علي، معمولاً به في حياته أو خلافته، أو منصوصاً في عهده للأشتر النخعي، وكله سياسة واجتماع واقتصاد، الى رسالة حفيده زين العابدين في الحقوق، وهي تجري في آثاره، الى برنامج حفيده الصادق العلمي والحضاري، السياسي والاقتصادي، يدلي به للناس، ويطبقه بنفسه، ويضع به الأسس لدول أو مجتمعات، أو جماعات، أو جمعيات، تعمل بمنهاجه لتبلغ أوجها به.

وهذه خصيصة لايجاري الصادق (عليه السلام) فيها عالم من العلماء في التاريخ.

وحسبنا في هذا المقام كلمات، كالاشارات، تضمنتها الفصول الثلاثة التي حواها هذا الباب.

الفصل التاسع

التجربة والاستخلاص

أما اذا خرجت من الإنكار الىٰ منزلة الشك،
فإني أرجو أن تخرج الىٰ المعرفة.

(جعفر الصادق عليه السلام)

لو أُتيح لي الأمر لحرقت كتب أرسطو كلها،
لأن دراستها يمكن أن تؤدي الىٰ ضياع
الوقت وإحداث الخطأ ونشر الجهالة.

روجير بيكون (١٢٩٤ ميلادية)

لم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلا واحداً
من رسل العلم الاسلامي والمنهج
الاسلامي الىٰ أوربا المسيحية.

روبر بريفو

أُتيحت للإمام الصادق حقبة طويلة للتعليم يتلقاه أو يُلقيه. فلم يحبس كمثل ما حُبس الكثيرون من أهل بيته، أو يُقتل كما قتل عظماؤهم.

ولم يصطدم مذهبه الفقهي بمذهب فقهي للسلطان. فبنو أمية وبنو العباس، حتى عهده، لم يكن لهم مذهب فقهي ـ ان لم تظهر المذاهب «رسمياً» إلا في أخريات القرن الثاني للهجرة، عندما صيّر أبو يوسف مذهب أبي حنيفة مذهب السلطان. واستعصمت المدينة بفقهها، ثم ظهر الشافعي في أواخر القرن الثاني.

ولم يصطدم الامام بمذهب سياسي للخليفة ـ إذ لم يظهر اعتناق الدولة للاعتزال إلا في عصر المأمون في مطلع القرن الثالث.

وكان الجهميون والقدريون مستضعفين، ولم يكن لمناقشات أصحاب الملل والنحل شأن يستلفت النظر.

بهذا أُتيح للإمام (عليه السلام) في مجلسه العلمي، واقتداره الذي يسلّم به الجميع.. ان يرسي في أمنة واطمئنان، قواعد «منهج علمي» ما يزال يعبر القرون باعتباره فتحاً من الفتوح التي فتحها الله على البشر.

وفحوى المنهج ان العلم «مشاهدة» و «نزاهة فكرية» في «استخلاص» النتائج لايقبل الله سواها من عالم أو متعلّم.

في هذا الفحوى قول الامام (عليه السلام): «اطلبوا العلم، فانه السبب بينكم وبين الله». ـ والسبب الى الله لايقوى إلا بقلب خاشع. ومن ثم وجب إخلاص النية فيه، وصدق الهمة في تلقيه، وقبول حقائقه دون تلويثها بشوائب الهوى أو الغرض أو المقررات السابقة، أو العوامل الخارجية.

وبهذه الخصائص تصبح «النزاهة العلمية» سمتا للعبادة وشأوا للسيادة ـ يقول الامام(عليه السلام): «الملوك حكّام على الناس والعلم حاكم عليهم.. حسبك من العلم أن تخشىٰ الله. وحسبك من الجهل أن تعجب بعلمك».

ولتحقيق ذلك يأمر الإمام طالب العلم ـ من بدء أمره ـ بالتحلي بخصال، وينهاه عن نقيضها.

يقول (عليه السلام): «لاتطلب العلم لثلاث؛ لترائي به ولا لتباهي بـه ولا لتماري بـه. ولا تدعه لثلاث: رغبة في الجهل وزهادة في العلم واستحياء من الناس». وما المراء أو الإصرار على عدم المعرفة أو تحقير العلم أو خوف النقد إلا خروق واسعة تتساقط منها كنوز العلماء، ومواهب المتعلمين، وواجب الفرد في أن يتعلم، في أمة فرض رسولها العلم على كل مسلم ومسلمة. فالعلم في الإسلام طريق للبقاء والتقدم.

ويقول لمحمد بن النعمان (مؤمن الطاق)، وهو المناضل الجدل:

يا بن النعمان: إياك والمراء فإنه يحبط عملك، وإيّاك والجدل فإنه يوبقك. وإياك وكثرة الخصومات فإنها تبعدك من الله. وان من قبلكم كانوا يتعلمون، وانتم تتعلمون الكلام.. إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء..

إن أبغضكم إلي المترئسون، المشاءون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم. وانما أوليائي الذين سلموا لأمرنا واتبعوا آثارنا. وليست البلاغة بحدة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة...

يا بن النعمان.. إن أردت أن يصفو لك ودّ أخيك فلا تمازحنه ولا تجارينه ولا تباهينه. لاتطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطّلع عليه عدوك لم يضرك. فإن الصديق قد يكون عدوك يوماً...

ومن أدوات المنهج طمأنينة المعلم والمتعلم، بالاستغناء عن الناس، فالإمام يحثّ تلاميذه على العمل للرزق، ويمدهم بالمال، ليتجروا، ويستغنوا عن الناس ليستمع اليهم الناس، وليقدروا على الاستمرار في التلقي وفي الإلقاء.

ومن أدواته التعمق والتخصص. فالعلم لايعطيك بعضه إلا ان تعطيه كلك، كما

يقول أبو يوسف:

فأبان بن تغلب وزرارة بن أعين متخصصان للفقه. يفتيان الناس في مسجد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم).

وحمران بن أعين حجّة في علوم القرآن.

ومؤمن الطاق للكلام = علم التوحيد.

وهشام بن الحكم للكلام في العقائد وفي الإمامة.

وأبان بن عثمان للكلام في الاستطاعة وما اليها.

والمنهج شامل: يسأل الإمام (عليه السلام) عن قوله تعالىٰ: «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» فيقول: «الحكمة هي المعرفة والتفقه في الدين».

ولما جمع للحكمة المعرفة والتفقه في الدين كان يعلم الناس أن الفقه وحده ليس الحكمة وإنما هو درجة فيها. وهو القائل: «تفقهوا في الدين فإن من لم يتفقه منكم فهو اعرابي».

ولما جعل مطلق المعرفة بعض الحكمة فتح الباب لكل أنواع العلوم. فليست المعرفة قاصرة على العلم الديني. فهذا ينفيه نصه على التفقه في الدين معها.

وانما قصد الامام (عليه السلام) العلم عموماً؛ ومنه العلوم التطبيقية والفلسفات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كان لها في مجالس الامام الصادق(عليه السلام) مكان، هو أول مكان تلقاه في حلقة إمام للدين في مدارس الاسلام.. كمكان جابر بن حيان، وهذه التفرقة بين ألوان المعرفة يوجبها المنهج العلمي على الدارسين.

وهذا الجمع لشتىٰ العلوم إيذان بتطبيق المنهج الإسلامي في فنون العلم العالمي كما سنرىٰ بعد.

وللمنهج ـ بعد ـ شعار من حب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتقدير أصحابه «محمد رسول الله والذين معه»، فلايقبل العلم من رجل، أو يقبل العلم على رجل، قصر إيمانه عن صيانتهم.

* * *

والنصّ على العقل واستعماله مستمد من القرآن الذي طالما خاطب فطرة البشر «لتعتبر» بما تدركه الحواس من آيات الله، وتتدبرها، وتستصحبها،لترى آلاءه على عباده، وتشهد تقديره وتدبيره، فتقنعهم بوجوده ووحدانيته وقدرته، فتصبح الدليل ما بعده دليل [1].

وكما استعمل الصادق(عليه السلام) العقل، استعمل الحرية، التي منحها القرآن للإنسان: لايكره الناس على أن يكونوا مؤمنين، ولا يستعمل في جدالهم إلا التي هي أحسن. ولا في وعظهم إلا الموعظة الحسنة.. حتى ثبوت الألوهية لا يرضاه الله بإكراه.

والعقل لايعمل إلا حراً. واذا أكره تعطل أو انحرف. والجدال بعنف تعسف. وللعقل كرامة. والكرامة هي الحرية.

والاعتبار بالآثار والأشياء الميحطة بالناس، بالمشاهدة والاستخلاص، ثم الحرية والأمانة في التفكير والتقدير، أي النزاهة الفكرية، هما صميم المنهج.

وهو لا يتجلىٰ قدر ما يتجلى في الدلالة علىٰ الله جلّ ثناؤه.

اليك مثلاً من زنديق تحداه بقوله: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟

قال الصادق(عليه السلام):

رأته القلوب بنور الإيمان. وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف. ثم الرسل وآياتها. والكتب ومحكماتها. واقتصر العلماء على ما رأوه من عظمته دون رؤيته.

فلنلاحظ أنه يبدأ بآثار الله التي يراها الناس في نور الايمان، ويثبتها العقل والبصر، ثم يثني بالرسل اللافتين انظار الناس الىٰ آيات الله، وبالنصوص المحكمة التي جاءوا بها. وأخيراً يذكر ما يحصله العلم المحدود بما يراه العلماء من آثار ذلك.

لكن الزنديق يستمر: أليس هو قادراً أن يظهر لهم. فيعرفوه فيعبد على يقين؟ قال الصادق (عليه السلام): «ليس للمحال جواب». قال الزنديق: فمن أين أثبت أنبياء ورسلا؟

---

(١) (المنهج العلمي المعاصر مستمد من القرآن) للمؤلف مطبعة دار الاتحاد العربي صفحات ١١ الىٰ ٥٤.

قال الصادق (عليه السلام): «إنا لما أثبتنا أن لنا خلقاً صانعاً متعالياً عن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً، لم يجز أن يشاهده خلقه أو يلامسوه... ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم..».

ومثلا مما يروى محمد بن سنان: «حدّثني المفضل بن عمر قال: كنت ذات يوم بين القبر والمنبر ـ قبر الرسول بالمدينة ـ وأنا أفكر فيما خصّ به الله تعالى سيدنا محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم)... إذ جاء ابن أبي العوجاء فجلس بحيث أسمع كلامه.. فخرجت من المجلس محزوناً متفكراً فيما بلى به الاسلام وأهله من كفر هذه العصابة وتعطيلها. فدخلت على مولاي (عليه السلام)، منكسراً فقال: مالَكَ؟ فأخبرته. فقال: بكر علي غداً... فلما أصبحت غدوت فاستؤذن لي فجلست وقمت بين يديه فقال:

إن الشكاك جهلوا الأسباب والمعاني في خلقه. وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة، فخرجوا بقصر علومهم الى الجحود.. فهم في ضلالهم وتجبرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وفرشت بأحسن الفرش.. ووضع كل شيء من ذلك موضعه.. فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً.. محجوبة أبصارهم عنها.. والإنسان كالمالك لهذا البيت.. ففي هذه دلالة على ان العالم مخلوق بتقدير وحكمة ونظام وملاءمة. وأن الخالق له واحد.

وهو هنا يدلل بما تلمسه الحواس على لزوم وجود ما لا تلمسه، فهو يستعمل العقل والواقع معاً.

ويروي ابن بابويه القمي (٣٨١): «كان ابن أبي العوجاء وابن المقفع يلاحظان الجمع الذي كان يطوف بالكعبة فقال ابن المقفع لأصحابه: لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الانسانية إلا هذا الشيخ الجالس ـ وأشار الى جعفر بن محمد(عليه السلام) ـ فقام ابن أبي العوجاء الى الشيخ، وتحدّث معه ثم رجع الى صاحبه وقال: ماهذا ببشر، ان كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً، أو يتروح إذا شاء باطناً، فهو هذا.. ظل يحصي لي قدرة الله التي في نفسي، والتي لم أستطع رفضها، حتى ظننت أن الله قد نزل بيني وبينه.

ونزول الله بين الامام وبين ملحد، باعتراف الملحد، آية باقتدار المنهج على بلوغ غرضه، وقدرة مجادل جمع الآيات الربانية حججاً بين يدي منكر أخذته حجة الأمر الواقع فأبلس.

فاذا تصدىٰ الإمام (عليه السلام) للمغالطين أزرى بالسفسطات، وصدمهم ـ كدأبه ـ «بالواقع»، فبهتتهم ـ كأن لم يشهدوها قبل ـ حقائق الأمر الواقع.

طلب واحد من تلاميذه بياناً عن قول أبي شاكر الديصاني ـ زعيم الفرقة الديصانية ـ وهي طائفة ملحدة تنعم بحرية العقيدة في بلدان الإسلام ـ إن في القرآن ما يدل على ان الإله ليس واحداً، ففيه: «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» فأجاب الامام بقوله: قل له ما اسمك في الكوفة فيقول: فلان. فقل له ما اسمك في البصرة؟ فيقول: فلان. فقل له فكذلك: ربنا في السموات إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي كل مكان إله.



وفي كتاب الإهليلجة المروي عن طريق المفضل بن عمر يوظف الجدل العلمي، في تنبيه الشكاك علىٰ أنهم في بداية الطريق نحو المعرفة يقول:« أخبرني هل رقيت الى الجهات كلها وبلغت منتهاها؟.. فهل رقيت الى السماء التي ترىٰ أو انحدرت الى الأرض السفلى فجلت في أقطارها.. فما يدريك لعل الذي أنكره قلبك هو بعض ما لم تدركه حواسك ولم يحط به علمك.. أما إذ خرجت من الإنكار الى منزلة الشك فإني أرجو أن تخرج الى المعرفة».

فلنلاحظ أنه يجادل الرجل بأن يرتفع من الإدراك المادي الى حيث يفكر، وانه يرفع المفكر الى حيث يستيقن، فيطالب الشاك بمزيد من التجربة المحسوبة الملموسة. ليصل من الشك الى المعرفة، وهي مراحل العلم الذي يصل اليه الناس بوسائل مأمونة ومجربة.

وهذا المنهج «الواقعي» القائم على النزاهة الفكرية والحرية العقلية هو الآن منهج

عالمي، يدين به الجميع للقرآن وأصول الفكر الإسلامي على ما سنرىٰ فيما بعد [١].

ففي حين استخلص علماء العالم القديم من اليونان «نظريات» عمموها ليخضعوا لها نتائج الاستنباط، وفرضت سيادة الفكر الأرسطي على العقل في أوربا منطق النظريات والعمومات، وقاومت الكنيسة في تاريخها القديم حرية التفكير، نرى القرآن ينبه «العقل» علىٰ الاعتبار بالمحسوس التي يتمثل في «الواقع» وان يرفض الاستسلام للعموميات التي تحكم مقدماً أي أمر واقع، ويرشد الإنسان الى توظيف فكره بحرية.

بل نرىٰ الامام الصادق (عليه السلام) يعتبر «التقليد» مذلة عقلية «واستعباداً للنفس»، ويحاجج في ذلك قرآنياً، ويفسره تفسيره الرائع.

عن أبي بصير عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام) في معنىٰ «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله» قال: «أما والله ما دعوهم الى عبادة، ولو دعوهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لايشعرون».

وفي تعبير آخر يقول: عن أبي بصير عن أبي عبدالله الصادق (عليه السلام): اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله قال (عليه السلام): «والله ما صاموا لهم ولا صلوا، لكن

---

(١) والارتباط بين فروع المعرفة أحد «الأساسيات» العلمية، وهي جيعها تستعمل الطريقة التجريبية وتلتزم حقائق الحياة الواقعة وقوانين الكون التي لا تتخلف ولا تدع مجالاً للفراغ أو المجازفة أو الصدفة: كل شيء بمقدار. وكل أمر موزون ـ في الانسان والحيوان والنبات والجماد، وفيما بينها، وفي العلوم الطبيعية والرياضية وفي العلوم الاجتماعية والانسانية. والعلميون يستعملون مقولات: الوحدة والتفاضل والتكامل.. واطراد العلل والنتائج. والآخرون يستعملون مقولات الوحدة، والتناسب والتناسق، والتزاوج والانسجام، وفي الاشياء والأشكال والألوان والأحجام. ويستوي في ذلك الذين يلتزمون بالدين أو الذين يلتزمون بإنكاره.

ومن الموضوعية «سلطان الإرادة» الإنسانية في التعاقد، أي حريتها، مع تقيدها بالقانون الذي يجتمع عليه الناس. وهذا مظهر الحرية الشخصية والفكرية التي أتاحها الله لعباده وأمرهم أن يستعملوها لأنها وسيلة للحياة الكريمة وللتقدم. وهو معلم من معالم السبق التشريعي الاسلامي.

أحلوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فاتبعوهم».

فالاتباع دون فهم، في الحلال والحرام، أو غيرهما، ترك لزمام النفس في قبضة الغير، وإهدار لحريتها وقدرتها، وتلك عبادة لغير الله، وليس بعد ذلك كفر.

وليس أبلغ من هذه العبارات في الدعوة للحرية الفكرية والحثّ على الاجتهاد وتوظيف العقل.

يقول الشافعي عن مكانة علي في علوم الاسلام: «كان علي كرّم الله وجهه قد خصّ بعلم القرآن والفقه لأن النبي (ﷺ) دعا له. وأمره ان يقضي بين الناس. وكانت قضاياه ترفع الىٰ النبي فيمضيها».

ولقد آلىٰ علىٰ نفسه بعد الفراغ من تجهيز الرسول (ﷺ) ألا يرتدي إلا للصلاة أو يجمع القرآن ـ كما أسلفنا ـ فجمعه مهتماً بأمور «أصولية» في الشريعة وفقهها تتعلق بالمحكم والمتشابه، أي بما لا يحتمل الاجتهاد وما يحتمله، وبالنصوص التي نسخت والتي هي واجبة التطبيق، وبالمطلق منها والذي يحتمل التخصيص، والعزائم والرخص، وبالفروض والمندوبات، وفيها المحرم والمكروه، وما هو تهذيب للأمة من فضائل وآداب(١).

---

(١) بهذا كان علي عليه السلام إمام المفسرين.

قال سعيد بن جبير: قلت لابن عباس: ألمن قتل مؤمناً متعمداً توبة؟ قال: لا. فتلوت عليه الآية التي في «الفرقان» قال: هذه مكية نسختها آية مدنية «ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا».

ورووا ان ابن عباس ناظر علياً في الآية، فقال علي: من أين لك أنها محكمة؟ قال: «تكاثف الوعيد». قال علي: ان الله نسخها بآيتين آية قبلها وآية بعدها في النظم.الأولىٰ قوله تعالىٰ «ان الله لايغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء. ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً» وأما التي بعدها في النظم فهي قوله تعالىٰ «ان الله لايغفر أن يشرك به ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيدا» والمفسرون يضيفون الى الآيات قوله تعالىٰ «والذين لايدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق» الى قوله تعالىٰ «ويخلد فيها مهانا» ثم استثنىٰ بقوله «إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً».

لكم صدق ابن عباس حينما سئل عن علمه وعلم ابن عمه علي عليه السلام فقال: كالقطرة الى جوار البحر المحيط.

وفي «نهج البلاغة» طائفة من أصول الفقه التي ينبّه عليها أمير المؤمنين (عليه السلام) وهذه وتلك أساسيات في أصول الفقه.

والأصول أدلة في طريق أو نهج. ولا إمامة إلا بمنهج.

والفقه السني يعتبر الشافعي أول من اتّجه الىٰ تجلية أصول الفقه في كتابه (الرسالة) وقد وضعه، والناس يتحلقون حوله، في جوار الكعبة بعد سنة ١٨٤.

وليس غريباً ان نجد النبوغ الشافعي يتلاقى وأموراً أساسية أهمت من بادئ الأمر علي بن أبي طالب (عليه السلام)، أو تجد أفكاراً «علوية» أو آراءً «شيعية» تظهر بقوة في مذهب الشافعي وآرائه. والشافعي من ابناء عمومة النبي وعلي، يباهي بحب أهل البيت (عليهم السلام) ويتحدى به، وهو إمام في اللسان العربي، له لغة خاصة تعلنها قواميس اللغة.. طوعت له إمامته فيها أن يفهم القرآن فهم الذين نزل فيهم.

واتصال اللغة والبلاغة بالفقه في الاسلام أساسي، لأن الفقه فهم للقرآن؛ والقرآن عربي. فالشافعي في استنباطه للأصول من القرآن كان موجهاً بفهم عربي عميق للكتاب الكريم، الذي صنعت على أسسه العقلية الاسلامية.

يقول أحمد بن حنبل ـ وهو الإمام الرابع لأهل السنة في الفقه، فوق أنه إمام في اللغة: «الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه». وهذه هي الأمور الأساسية في كل فقه.

وسواء انبثقت الأصول من اهتمامات علي (عليه السلام)، في جوار قبر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمدينة غداة عروج النبي الىٰ الرفيق الأعلىٰ، أو ممن نحوا ذلك النحو من الشيعة، أم انبثقت من «رسالة الشافعي» في جوار البيت الحرام بمكة.. وسواء اطّلع الشافعي على كتب لأهل البيت (عليهم السلام) أو علىٰ آرائهم، أم لم يطّلع، فالأصول قرآنية المبدأ والمنتهىٰ، مشتقة من نصوص القرآن والسنة ومنهاجهما وأسلوبهما. ومن ذلك شرفها في الفكر الديني والعلمي.

وحرية التفكير توجب «الاجتهاد» على أساس العلم كما يقرر الشافعي في «رسالته»، مع النزاهة الفكرية الكاملة، غير المقيدة إلا بما تثق بوجوده، وتحقيق المناط

وتنقيحه، والتدقيق في الفرع وفي الأصل؛ والسند، فيما ليس قطعي الورود في السنة أو قطعي الدلالة فيها أو في الكتاب العزيز.. ومع اتخاذ الأهبة. وهذه كلها أمور يوجبها القرآن والسنة.

والحضارة العالمية مدينة بهذا المنهج للإسلام بما طوّر من فكر الأمم التي دانت به، في أربعة عشر قرناً، ومن أساليبها، ووسائلها العلمية، حتى صبغ فكرها، في شكله وموضوعه، صبغة الله.. ومن أحسن من الله صبغة!

وكما ارتفع العرب درجات بالإسلام انتفع به كل الأمم ممن أسلموا، وممن لم يسلموا. ومن هنا كان الاسلام خيراً للعالم كله. فتلك خصائص رسالته العالمية، والأبدية. والسمو، والطريق اليه مفتوحة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وما تقدم الإنسانية إلا حاصل دفع الله الناس بعضهم ببعض، وأخذ بعضهم بيد البعض ـ ومن أجل ذلك اختص الفقه الاسلامي بميزة القدرة على إحداث التطور ومواكبته، مع اليسر وحفظ الدين، «بالاجتهاد» الذي أمر به الله على أصول القرآن والسنة[1].



أعلن علي عليه السلام تمسكه «بالاجتهاد» إذ تولى إمارة المؤمنين بعد عمر ابن الخطاب. ومن أجل ذلك وحده، لم يبايع له عبد الرحمن بن عوف. وأعلن عثمان التزامه بأن «يتبع» عمل السابقين فجعل عبد الرحمن يبايع له.

«فالاجتهاد» شعار من شعارات «علي» من بادئ الأمر، وشعارات الشيعة من بعده، ومن ذلك لم يصغ عظماؤهم الى ذلك الصوت البغيض الذي أعلن إقفال باب الاجتهاد في القرن الرابع الهجري، لتنفتح أبواب التقليد، وتخبو شعلة الفكر، بل شهد الشيعة في القرن الرابع ذاته نهضة شاملة تتراءى في أعمال عظمائهم. فالعقل أصل؛

---

(١) كتاب نحو تقنين جديد للمعاملات والعقوبات من الفقه الاسلامي: للمؤلف (طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية سنة ١٩٤٧ الفقرات ٣ الى ٧٣ والفقرات ٩٣ الى ١٢٧).

والأصل لايتعطل.

وما الاجتهاد إلا الحرية الفكرية في استخلاص النتائج، والنزاهة العلمية أو الاعتبار «بالواقع والصحيح». وهاتان العجلتان اللتان تحملان موكب الفكر الإنساني المنجب، هما شعار مجالس الامام الصادق (عليه السلام) كما سلف البيان؛ بل هما أساس ما استخلصه تلميذه جابر بن حيان، من تجاربه العلمية، وعنه انتقل الى أوربا المنهج التجريبي، أو منهج «التجربة والاستخلاص» كما يسمىٰ في العصور الحديثة.

ومن نزاهة المنهج في الفقه، كان الإقرار بضعف الإنسان. فليس الاجتهاد مقابلاً للحقيقة، وانما هو أحسن أداة توصل المرء اليها. يقول أبو حنيفة: «علمنا هذا رأي فمن جاءنا بأحسن منه كان أولىٰ بالصواب منّا».

ولما قال الشافعي (الاجتهاد بالقياس) وإنهما اسمان لمعنىٰ واحد، واستطرد فقعد له القواعد، ليجري علماء أهل السنة في مضماره، صلىٰ الأصوليون من أهل السنة بعده في حلبة الفكر العالمي، منذ القرن الثاني للهجرة، والتاسع للميلاد، فوضعوا القواعد التي لم يبدأ في تعريفها الأوربيون إلا بعد ثمانية قرون تحت عناوين اطراد العلة.. وانها اذا توفرت ثبت الحكم، أو قانون اطراد الحوادث لوجود «نظام» في الكون، أو تناسق تخضع له الأشياء، طرداً وعكساً، باطراد أسبابها وملابساتها فيها. وهذا ما قرره الأصوليون المسلمون عند تماثل العلل لاستنباط الأحكام.

غير أن الأصوليين المسلمين فاقوا في تمحيصهم «جون ستيوارت مل» في أبحاثه. إذ تعمقوا في مسالك العلة، ودققوا في الاستقراء والاستنباط، مع الاحتياط الكامل والنزاهة الفكرية المثلى. فكان عندهم لكل ركن من أركان «القياس» أبحاثه، وضمانات صحته، باتساع الاختبار وامتحان الاستخلاص، وايجاب أن تجمع الأصل «المقيس عليه» و«الفرع» «المقيس» «علة»، لتنتج ثمرة القياس وهي «الحكم».

وأولىٰ الأصوليون العلة وتخريجها اهتماماً منقطع النظير، فشرطوا لها مسالك نقلية من نص أو إجماع، أو عقلية من تحقيق المناط بوجود العلة، وتنقيح المناط بحذف ما لا يدخل في الاعتبار، وبطرائق السبر والتقسيم والطرد، لحصر الأوصاف التي تصلح

للعلية، واستبعاد مالايصلح منها، ومقارنة الأوصاف للحكم، ودوران العلة مع المعلول وجوداً وعدماً الخ.. مع تكامل اختبار الوقائع وسلامة النتائج ثم قبولها.

كل أولئك دون تأثير لمقررات أو نظريات سابقة. ومع التقرير بأن ما يصل اليه المجتهد ليس الحقيقة وإنما هو الراجح بغلبة الظن، فإن اجتهاداً آخر قد يغيره. والاجتهاد مفتوح. وقانونه الحرية. فإذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران. واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر.

وعلى هذا التحديد أخذ المنهج التجريبي في الوجود: تمحيص الواقعة والاستخلاص بحرية ونزاهة.



والقرآن يحوي جميع صور الاستدلالات العقلية؛ ومنها قياس الأولى وفي هذه الصور تبرز طريقة الاعتبار بآيات الله المادية الواقعية المحيطة بالناس والتي تحسها حواسهم. وكذلك كانت طريقة الأنبياء في الاستدلال على الله بلفت النظر الى آياته أو بقياس الأولىٰ، وهو ما يكون الحكم المطلوب فيه أولىٰ بالثبوت من الصورة المذكورة في الدليل الدال عليه ـ وكان أحمد بن حنبل يستعمل هذا القياس، وهو القائل إنه لا يصار الى القياس إلا عند الضرورة.

وابن تيمية يجعل للفطرة مكانها في الميزان الذي تعرف به الأحكام، ويروي ان معرفة الاختلاف والتماثل أمر فطري. واستعماله ضروري. والميزان عنده هو العدل، وما يعرف به العدل.. وانه هو القياس العقلي القرآني[1].

---

(١) يقول: «فليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام، ويجعلون ما يعلم بالعقل قسيماً للعلوم النبوية، وهذا خطأ، ان العلم هو علم محمد ﷺ، وعلم في ميراث محمد ﷺ. وغير هذا العلم لايكون علما. لقد بيّن ﷺ ـ مختتماً دورة الرسالة العظمىٰ ـ العلوم العقلية التي يتم بها دين الناس علماً وعملاً، وضرب الأمثال، فكانت الفطرة بما ينبهها عليه.. ولذلك أتىٰ الخبر من السماء ـ القرآن والحديث ـ بهذا يبين الحقائق لا بطريقة خبرية فقط بل (بالمقاييس العقلية)، فبيّن التسوية بين المتماثلين والتفرقة

=

والوزير الصنعاني (٨٤٠) صاحب كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)، يذكر ان أئمة أهل البيت لم يعرفوا المنطق (اليوناني والإرسطاليسي) ولم يصوغوا أدلتهم على التوحيد في صور منطقية. وانما في «منهج قرآني أساسه الاعتبار». وان الامام علياً (عليه السلام) لم يعرفه في خطبه ومواعظه، وان الأئمة قدموا أدلة التوحيد من غير ترتيب مقدمات المنطق ولا تقاسيم المتكلمين. ويقرر الوزير الصنعاني أن أسلوب المسلمين أرجح وأحجى من أسلوب المناطقة: «فهذا أسلوب الأنبياء والأولياء والأئمة والسلف في النظر. وخالفهم بعض المتكلمين وأنواع المبتدعة فتكلفوا وتعمقوا وعبروا عن المعاني الجلية بالعبارات الخفية».

والذين ينكرون القياس، من أهل السنة، كداود (٢٧٠) امام أهل الظاهر وابن حزم(٤٥٦)، أو من المعتزلة كالنظام (ابراهيم بن سيار شيخ الجاحظ)، يعتمدون على النص وحده ـ وقد أسعفتهم النصوص في إقامة مذهب بتمامه. ولم تخذلهم قدرتهم الفقهية في استخراج الفقه باستعمال كليات الشريعة في الاجتهاد.

فدلّ هؤلاء على أن نصوص الكتاب والسنة تجعل كليات الشرع وقواعده كافية «للعقل» ليبلغ بالفقه الاسلامي مبالغه، فيحقق أن الله تعالى مافرّط في الكتاب من شيء. فلكل واقعة حكم. وعلى المجتهد طلبه بالعقل والنقل معاً.

والشافعي من حرصه على العمل بهما معاً، يندد «بالاستحسان». ويسميه تلذذاً. مع ان الاستحسان في جملة أمره استعمال لنص خاص أو قاعدة متعلقة «بالواقعة»

= بين المختلفين».

ويضرب ان تيمية أمثالاً من الآيات للتسوية بين متماثلين والتفرقة بين مختلفين، ويقول: «وكذلك أنزل الله سبحانه الميزان في القلوب.. لما بينت الرسل العدل وما يوزن به عرفت القلوب ذلك. فأنزل الله على القلوب من العلم ما تزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من الآلات الحسية ما يحتاج له في ذلك. كما وضعت موازين النقد وغير ذلك.. قال الله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) فالميزان هو العدل وهو ما يعرف به العدل. وهو القياس القرآني المنزل، ليتعرف به صحيح الفكر من باطله.. بالإضافة الى أن نزن الأمور عامة حسية أو عقلية».

المطلوب لها الحكم(١).

وأهل القياس مجمعون على ان المنهي عنه هو الاجتهاد في مقابل النص القطعي، أو إطلاق العنان لاستخراج الأحكام دون تقيد بالنصوص الخاصة أو العامة. وهم يجمعون على قياس العلة ويختلفون فيما عداه.



ومن المعاني الجامعة التي تتردد في أبواب الاجتهاد أن أحكام الشريعة جميعاً ـ حتى في الأعمال غير التعبدية ـ فيها معنى تعبدي.. أي حق لله، يطاع فيه الله ويعبد. فمن أحسن بيعه وشراءه وإجارته وإعارته، أو قضاءه أو فتواه... الخ فهو يطيع الله ويستحق ثوابه. ومن ساءت معاملته فهو خاسر في أمرين، قضاء الناس ضده، وغضب الله عليه، لأنه يعصي الله فيما عمل من عمل غير صالح. ومن ثمة تأثير الجانب الروحي أو الوازع الديني في الحياة الواقعة، وفي الدراسة العلمية، وفي طلب الأحكام الفقهية، في المجتمع الاسلامي، وهو امتياز لا تبلغه الأمم الأخرىٰ أو مجتمعاتها.

وفي منهج الاعتبار بالواقع أو بالآثار الدالة على المطلوب «واقعية» أدنىٰ الىٰ التصديق من مجازفات الفكر. وفي الواقع المادي ضمان أن لايبعد الاستخلاص من الملموس والمحسوس بالحواس الخمس. وهذه الواقعية أو النزاهة الفكرية، تسبق واقعية «أوغست كومت» (٢) بقرون عشرة، وعقلانية «ديكارت» بقرون تسعة، كما تسبق «جون ستيوارت مل»(٣) في نظرية اطراد العلل بقرون عشرة. وبهذه القرون

---

(١) كان داود بن خلف الأصفهاني صاحب المذهب الظاهري شافعياً ثم صار ظاهرياً ينكر القياس ويعتمد على النص وحده. قالوا انه سئل لِمَ تركت مذهب الشافعي قال: قرأت كتاب إبطال الاستحسان للشافعي فوجدت كل الأدلة التي يبطل بها الاستحسان يبطل بها القياس.

(٢) أوغست كومت Auguste Comte ١٧٩٨ ـ ١٨٥٧ صاحب الفلسفة الواقعية في القرن الماضي. انتفع بمؤلفات لبنتز وديكارت وفرنسيس بيكون والقديس توماس الأكويني وروجير بيكون؛ والأخيران من أكبر من نشروا العلم الاسلامي وتأثروا به.. وكثير من كتاباتهما تستعمل تعبيرات اسلامية.

(٣) جون ستيوارت مل ١٨٠٦ ـ ١٨٧٣.

يقاس سبق الحضارة الاسلامية.

والى جوار المشاهدة الواقعية والتحقيق النزيه والاستخلاص الصادق، يضيف الفقه الاسلامي ضماناً جديداً هو اعتبار الاجتهاد سعياً لبلوغ الحق لا بلوغاً له. فثمة عوامل أخرىٰ قد تكون موجودة أو قد يدركها عقل آخر فتجعله أدنىٰ الى السداد، أو تجعله يصل الىٰ السداد.

وهذا الاحتمال الذي يلازم الاجتهاد يحتمل تداخل العناصر. فالنتائج نسبية حتىٰ تقطع التجربة بأنها لاتتخلف أبداً.. وهي في الفقه تبقى نسبية حتى تبلغ الحكم الذي شرّعه الشارع ـ فشرع الله هو الثابت.. الذي يقصده المجتهدون.

* * *

وربما كان الكلام المنقول عن «جابر بن حيان» أوضح كلام في الدلالة على المنهج التجريبي الذي تعلمه في مجلس الامام أو من كتب الامام ().

يخاطب جابر الامام في مقدمة كتابه الأحجار بقوله: «وحق سيدي ـ لولا ان هذه الكتب باسم سيدي ـ صلوات الله عليه ـ لما وصلت الىٰ حرف من ذلك الىٰ الأبد».

ويقول جابر في كتابه الخواص عن طريقته: «اتعب أولاً تعباً واحداً. واعلم. ثم اعمل. فإنك لاتصل أولاً. ثم تصل الىٰ ماتريد».

وفي كتابه السبعين يقول: «من كان درباً (مجرباً) كان عالماً حقاً. ومن لم يكن درباً لم يكن عالماً. وحسبك بالدربة في جميع الصنائع أن الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل».

ويحصر جابر طريقته في عبارته المأثورة: «عملته بيدي، وبعقلي، وبحثته حتىٰ صح، وامتحنته فما كذب». وفي هذا المقام يقول استاذ الفلسفة الاسلامية في جامعة القاهرة، د. زكي نجيب محمود: «.. فلو شئت تلخيصاً للمنهج الديكارتي[1] كله لم تجد

---

(١) ديكارت ١٥٩٦ ـ ١٦٥٠.

خيراً من هذا النص الذي أسلفناه عن جابر».

ويرى الصيدلي المعاصر د. محمد يحيى الهاشمي ان «الواقعية» هي التي سوغت لجابر أن يقسم القياس أو الاستدلال والاستنباط الى ثلاثة أقسام ـ المجانسة ومجرىٰ العادة وبالآثار ـ ومن دلالة المجانسة دلالة الأنموذج كمن يريك بعض الشيء دلالة علىٰ كله، وهو استدلال غير قاطع. إذ الأنموذج لا يوجب وجود شيء من جنسه يساويه تماماً في الطبيعة والجوهر. وكذلك دلالة مجرىٰ العادة فإنه ـ كما يقول جابر ـ «ليس فيه علم يقين واجب اضطراري برهاني اصلاً، بل علم إقناعي يبلغ ان يكون: أحرىٰ وأولىٰ وأجدر لا غير، لكن استعمال الناس له وتقبلهم فيه واستدلالهم به والعمل في أمورهم عليه أكثر كثيراً جداً.. وليس في هذا الباب علم يقين واجب. وانما وقع منه تعلق واستشهاد الشاهد على الغائب، لما في النفس من الظن والحسبان فان الأمور (ينبغي أن تجرى على نظام ومشابهة ومماثلة) فانك تجد أكثر الناس يجرون أمورهم على هذا الحسبان والظن».

يقول جابر: «.. وبالجملة فليس لأحد أن يدعي انه ليس في الغائب إلا مثل ما شاهد... إنما ينبغي له أن يتوقف حتى يشهد البرهان بوجوده من عدمه..».

فهو ينقد القياس من الناحية المنطقية أو الرياضية ليترك المجال مفتوحاً للحقائق القاطعة التي تثبت بالتجارب.

وحسبك دليلاً علىٰ دقة طريقة التدليل بآثار الأشياء، أن تجدها احدىٰ المسلمات في المعامل والجامعات، في القارات جميعاً، منذ بدأ الأخذ بطريقة التجربة والاستخلاص حتى اليوم. وستبقىٰ أبداً.

وعندما توضع آراء جابر[1] في القرن الثاني للهجرة الى جوار آراء «الحسن بن

---

(١) يقول جابر: «وكذلك ينبغي إذا ذهب الدهري (القائلون: انما يخلقنا ويهلكنا الدهر ـ لا الله) يمنع أن يكون =

الهيثم» (٣٥٤ ـ ٤٣٠) بعد أكثر من قرنين، وقد عمل في خدمة الدولة الفاطمية، وهي دولة من دول الشيعة، وله ٤٧ كتاباً في الرياضيات و ٥٨ كتاباً في الهندسة، تتأكد لنا طريقة التجربة والاستخلاص التي سلكها الامام الصادق (عليه السلام) وأتقن العمل بها ووصفها جابر والحسن. وقد أحسن الحسن التعبير عنها بمنهج علمي واضح الفحوىٰ محدد العبارات[1].

= العالم مكوناً مصنوعاً، لأنه لم يشاهد، ولا واحد من الناس، بدء تكوينه، أن يقال له: ما ينكر أن يكون وجود الناس بعد وجود العالم بوقت طويل... وتذكر كون مدينة أو قصر ولا يذكر أحد من أهل بلده ابتداء بنائه؟ فسلم أن يثبت قدم ذلك بالعلة التي أثبت بها قدم العالم. واذا قال: انما علمت ان المدينة والقصر التي لم نشاهد، ولا من توفي، ابتداء بنائها، أنها مبنية من قبل، اني رأيت مثلها بني، ولم أرَ مثل العالم مبنياً ـ قيل له: ان هذا بعينه ما نقول. وندفع كونه في طريق الاستدلال ـ فمن أين قلت: إن كل عالم تشاهده، وليس له شبيه ولا مثيل، موجود. وان كل ما لم تشاهده وليس له شبيه ولا مثيل فليس بموجود! إذ قد بان تقصيرك وتقصير أمثالك عن مشاهدة جميع الموجودات، فأمكن أن يكون أكثر الموجودات مما لم نشاهده».

(١) راجع مقدمة كتاب الدكتور مصطفى نظيف.. مدير جامعة (عين شمس) ـ بالقاهرة ـ عن الحسن بن الحسن الهيثم البصري أكبر عالم في الرياضيات والطبيعة في العصور الوسطى. وفد الحسن من العراق الى القاهرة ليعمل مهندساً في خدمة الدولة الفاطمية في عصر الحاكم بأمر الله. وكان من رأيه جواز إقامة آلات على النيل يحركها تيار مياهه. والدكتور نظيف يقول: انه ينبغي لنا أن نستبدل بأسماء روجير بيكون ومور ليكوس ودافنشي وكبلر ودلابورتا، اسم الحسن بن الهيثم. فعلى يد الحسن أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الاسلامي وهو (استقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات وما يخص البصر في حال الإبصار. وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لايشتبه من كيفية الاحساس. ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدرج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج. ونجعل غرضنا في جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى. ونتحرى في سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء، فلعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق الذي يثلج الصدور، ونصل بالتدريج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين. ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات.

فهذا جمع للاستقراء والقياس.. وما هو إلا منهج علماء الرياضيات والطبيعة المسلمين تابعهم فيه ابن الهيثم ونقله علماء أوربا، ابتداء من الكندي (٢٥٢) عالم الطبيعة والفيلسوف، والرازي (٣٢٠) جالينوس العرب أو الطبيب
=

ويشهد بها من أهل أوربا دراپير في كتابه (النزاع بين العلم والدين) فيقول: «كان الأسلوب الذي توخاه المسلمون سبب تفوقهم في العلم. فإنهم تحققوا أن الأسلوب النظري لايؤدي الى التقدم. وان الأمل في معرفة الحقيقة معقود بمشاهدة الحوادث ذاتها. ومن هناكان شعارهم في أبحاثهم هو (الاسلوب التجريبي). وهذا الأسلوب هو الذي أرشدهم الى اكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة. وإننا لندهش حينما نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ماكنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر».

* * *

والقارئ يلاحظ في هذا المقام أموراً؛ منها:

الأول: أن جابراً يقرر ـ إذ يقسم بالإمام(عليه السلام) ـ استرشاده في طريقته هذه به. وان علمه منه هو سبب توفيقه. ولو كان قد تلقى الطريقة عنه دون لقاء له لما نقص الفضل. فذلك شأن العلماء في كل زمان.

الثاني: ان ممارسة جابر لطريقته مع إقرار الامام (عليه السلام) له، قد ضبطتها مدارسة أبي حنيفة للإمام. إذ انبهت القياسين على وجوب ضبط طريقة القياس بوضع حدود له واستبعاد ما ليس منه [1].

= الفيلسوف الذي يتخذ الإحساسات بالجزئيات أساساً لكل عمله ويدلل بالكائنات الحية على وجود الخالق. وابن سينا (٤٢٨) الرئيس.. أو الفيلسوف الطبيب الذي يمثل فكرة المثل الأعلى في العصور الوسطى كما يقول سارتون. وللأخير صورتان معلقتان على جدران جامعة باريس، الآن، مع جراح العظام ابن زهر.. راجع (الامام الشافعي) للمؤلف ـ ص ١٧٤ ـ ١٧٥، الطبعة الثانية، طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية.

يراجع كذلك (المنهج العلمي المعاصر مستمد من القرآن) ـ للمؤلف ـ مطبعة دار الاتحاد العربي للطباعة سنة ١٩٧٦م حيث تفصيل الأدلة على أخذ أوربا المنهج العلمي المعاصر عن علماء المسلمين.

(١) يقول أحمد بن حنبل: «أنا أذهب الى كل حديث جاء ولا أقيس عليه» و: «سألت الشافعي عن القياس فقال: انما يصار اليه عند الضرورة». وفي حالة الضرورة هذه أباح أحمد: «أن يقاس الشيء اذاكان مثله في كل أحواله. فأما إذا أشبهه في حال وخالفه في حال فأردت أن تقيس عليه فهذا خطأ. فإذاكان مثله في كل أحواله فما أقبلت به وأدبرت به فليس في نفسي شيء منه».

وظاهر من قبول أبي حنيفة لنهي الامام عن القياس وعدم مجادلته للامام بكلمة، أن أبا حنيفة أدرك أن النهي عن القياس نهي عن القول في الدين بالرأي، وليس مقصوداً به النهي عن الاجتهاد واستعمال العقل.

وظاهر أن الإمام بلغ مراده من أبي حنيفة وممن تابعوه في القياس. فلم يقل أحد منهم في الدين برأيه. والتزم القائلون بالقياس كل الدقة، بعد إذ جاء الشافعي وفصل شروطه تفصيلاً.

الثالث: انه يظهر من محاورة الامام (عليه السلام) لأبي حنيفة يوم استأذن عليه فحجبه فدخل مع أهل الكوفة التي سلف ذكرها أمران:

١ ـ ان الأحكام التي ذكرها الامام لأبي حنيفة، وارد فيها نصوص، مما يجعل لتحريم القول في الدين بالرأي أو مطلق القياس حجة مسلمة.

٢ ـ ان الإمام ذكر أبا حنيفة بقياس إبليس، إذ أعلن انه يخرج عن طاعة الله برأيه. فكان رأيه عصياناً صريحاً، لأمر صريح، وخروجاً على نص وارد على سبيل الجزم.

وليس عجيباً وإنما هو التواتر على استعمال العقل، أن يقرر أئمة أهل السنة جميعاً أن باب الاجتهاد مفتوح إذا لم يكن ثمة نص، وان يجمع علماؤهم أن أحداً لا يقول الكلمة الأخيرة فيه، وأن يكون هذا منهج الفقه الشيعي الذي دأب عليه علماؤه.

يقول ابن إدريس (٥٩٨) من فقهاء الشيعة المتقدمين: «اذا فقدت الثلاثة ـ الكتاب والسنة والإجماع ـ فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل العقل».

ومن فحولهم المحقق نجم الدين الحلي (٦٧٦) يقسم الدليل العقلي قسمين؛ الأول: يتعلق بالخطاب ـ وفحواه ولحنه ودليله ـ والثاني: ما ينفرد العقل بالدلالة عليه لحسنه أو قبحه.

والشهيد الأول محمد بن مكي (٧٨٦) يوسع في القسم الأول ويفصل في القسم الثاني فيزيد البراءة الأصلية، وما لا دليل عليه، والأخذ بالأقل عند التردد بين الأكثر والأقل، والاستصحاب.

وربما أجمل التفصيل في قول بعض المتأخرين[١] من الاصوليين عن الدليل العقلي: إنه كل حكم للعقل يوجب القطع بالحكم الشرعي. فالدليل العقلي يوجب القطع. وليس بعد القطع حجة.

بالعقل أدرك الإنسان وجود ربه، ودان بالرسالات، وأدرك المعاني والعلل، وقدر على تمييز القبيح والحسن بفطرة البشر.

فالقبح مفسدة والحُسن مصلحة [٢]. وما يدركه العقل منهما هو حكم عقلي يستقل الإنسان بتقريره. وما يستقل العقل بتقريره من مصلحة أو مفسدة هو مصلحة أو مفسدة شرعية. وعلى كليهما تدور الأحكام. فالشرع هادٍ للبشر، والبشر مفطورون على استعمال نعمة الشارع. ولا يمنع هذا التأييد الشرعي للعقل أو التأييد العقلي للشرع، أن توجد بعض مصالح يراها الشرع ولا يفطن لها العقل العادي فيتردد أمامها بظنه.

واذا كان أصل استعمال العقل يسع كل وسائل النظر، فالفقيه ملزم بالاحتياط ـ وهو أول ما تستوجبه النزاهة العقلية ـ لوجود احتمال التزاحم والتعارض. فلا تجوز المجازفة بالتحليل والتحريم مع وجود هذا الاحتمال.. وإنما يلجأ الفقيه لاستخراج الحكم، عند عدم ظهور النص، الى استعمال العقل، وبقواعد يمليها العقل والنقل، مثل وجوب دفع الضرر المحتمل، ومثل عدم العقاب بلا بيان.

والعقل إذ يقرر قبح العقاب بلا بيان، يسوغ للمكلف أن يصنع ما يراه عند عدم البيان؛ وبتعبير آخر تصبح الإباحة هي الأصل. والحرية هي الأصل، حتىٰ تتقيد بنص.

يقول الامام الصادق(عليه السلام): «كل شيء لك حلال حتىٰ تعلم أنه حرام بعينه».

ومن هنا اتسع مجال النشاط الإنساني. فلا حرام إلا ما حرّم الله.

---

(١) الشيخ محمد رضا المظفر.

(٢) الحسن والقبيح قضية يمسك بطرفيها الأشاعرة فيقولون ان الشرع وحده هو الذي يعطي الفعل وصفه. والشيعة، ويتبعهم في ذلك المعتزلة، يقررون انهما وصفان ذاتيان يستقل العقل بإدراكهما. فالصدق والمروءة أمران حسنان. والكذب وانعدام المروءة أمران قبيحان.

والنص نقطة الثبات، أو حجر الزاوية في الفقه. فلا اجتهاد مع وروده.

والتزام فحواه أو التزام مقاصد الشارع التي ينطق النص بها، أو يدل على معناها مجموع النصوص، لايدخل بالمصلحة أو بالقياس شيئاً على الشرع ليس منه.

والامام الصادق (عليه السلام) يفتح أبواب رحمة الله ويرفع الحرج ويبيح الرخص. يقول: «الوضوء نصف الايمان». ويقول: «إنه توبة من غير استغفار».

ومع هذا سئل عن رجل يكون معه الماء في السفر ويخاف قلّته؟ فقال: «يتيمم بالصعيد ويستبقي الماء».

ويقول (عليه السلام): «من خاف عطشاً فلا يهريق قطرة. وليتيمم بالصعيد. فالصعيد أحب الي».

سئل عن رجل ليس معه ماء والماء عن يمين الطريق ويساره غلوتين أو نحو ذلك (الغلوة مسافة مرمى السهم)؟ فقال: «لا آمره أن يغرر بنفسه فيتعرض له لص أو سبع».

وسئل عن رجل يمر بالركية (البئر) وليس معه دلو. قال: «ليس عليه أن يدخل الركية، لأن ربّ الماء هو ربّ الأرض. فليتيمم. إن الله جعل التراب طهوراً كما جعل الماء طهوراً».

ويقول: ان أبا ذر قال: يارسول الله هلكت. جامعت أهلي على غير ماء. فقال(صلى الله عليه وآله): «يا أبا ذر يكفيك الصعيد عشر سنين».

وسئل عن رجل به القروح والجراحات فيجنب؟ قال: لابأس بأن يتيمم ولا يغتسل.

والفقهاء يقولون: إن نفي الحرج في الشريعة من باب الرخصة لأن تحمل الألم والمشقة غير منهي عنه. ونفي الضرر من باب العزيمة لأن الضرر منهي عنه. يقول تعالى: «ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة».

يقول الامام الصادق (عليه السلام): «لاصلاة إلا الى القبلة»، فقيل له: أين حدّ القبلة. قال: «مابين المشرق والمغرب كله قبلة» ويشرح ذلك قوله: «يجزي التحري أبداً إذا لم يعلم وجه القبلة».

والفقهاء يصرّحون بالإذن لمن يشك في الدليل بأن يستعمل قواعد الشرع من

أصول الحل والطهارة والتخبير واستصحاب الحال ـ ومعناه استدامة ماكان ثابتاً، ونفي ماكان منفياً ـ فمن شك في قيامه بالوضوء قبل أن يصلي فعليه أن يتوضأ. لأن الوضوء شرط واجب قبل الصلاة، والحال قبل الوضوء للصلاة حال تقتضي الوضوء. ومن توضأ ثم شك في نقض الوضوء فهو على وضوء. ومن شك في أنه توضأ بعد أن دخل في الصلاة قطعها وتوضأ، ليحرز شرط الصلاة. فإن شك بعد إتمام الصلاة فليس عليه أن يعيدها. فقد فرغ منها. لكن عليه أن يتوضأ لصلاة تالية لأنه لم يبدأها ولم ينته منها. أي لم يتجاوز الشيء الذي شك فيه الى غيره.

سئل الامام الصادق (عليه السلام) عن رجل شك في الأذان، وقد دخل في الإقامة؟ قال: يمضي. قيل له: شك في الإقامة، وقد كبر؟ قال: يمضي.. وفي التكبير، وقد قرأ؟ قال: يمضي.. وفي القراءة، وقد ركع؟ قال: يمضي.. وفي الركوع، وقد سجد؟ قال: يمضي.. الى ان قال: «اذا خرجت من شيء ثم دخلت في غيره فشكك ليس بشيء».

يقول: «اذا شككت في شيء من الوضوء وقد دخلت في غيره فليس شكك بشيء. انما الشك اذا كنت في شيء لم تجزه».

وسئل عن رجل يشك كثيراً في صلاته، فقال فيما قال: «ان الشيطان خبيث معتاد لما عود . فليمض أحدكم في الوهم» أي لايحفل بـه... وبـنى الفـقهاء عـلى ذلك قـاعدة: (لاشك لكثير الشك).

يقول الامام الصادق (عليه السلام): «من كان على يقين ثم شك فلا ينقض اليقين بالشك».

وهذا اعلان عن دليل استصحاب الحال، واعتماد الواقع والظاهر كمن استأجر ارضاً وشاع أمره في الناس يعامل معاملة المستأجر، ولا يقبل منه ادعـاء المـلك إلا بـدليل. وتتعاون مع هذا الأصل أصول أخرىٰ مثل أصل البراءة والإباحة حتى يرد منع الشارع.

ويستثني الفقهاء الشيعة من المنع من القياس في حالتين:

١ ـ حالة العلة المنصوصة.. وكثير ما هي في الكتاب والسنة.

٢ ـ حالة مفهوم الأولوية، كقول أف للوالدين اذ نهى الله عنها، فمن باب أولىٰ ماهو أشد.

ويفرعون على العمومات والمبادئ الكلية الواردة في النصوص والإجماع.. كمثل قواعد الوفاء بالعقود، ودرء الحدود بالشبهات، وجواز كل شرط إلا أن يحل حراماً أو يحرم حلالاً.

وعلى هذه الكليات مدار الفقه. والاجتهاد بها واجب. وبالاجتهاد بلغ الفقه الشيعي ما بلغه فقه أهل السنة؛ كل على شاكلته.



ندب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) علياً (عليه السلام) الى اليمن. فسأله الامام: أكون كالسكة المحماة أو الشاهد يرى ما لايرىٰ الغائب؟ - أي اجتهد رأيي فيما بين يدي مما ليس بين يديك - قال عليه الصلاة والسلام: «بل الشاهد يرىٰ ما لايراه الغائب». فهو يأذن له أن يجتهد، أو يأمره أن يجتهد.

ويقول ابن مسعود للقضاة والمفتين والمجتهدين: «من عرض له منكم قضاء فليقض بما في كتاب الله. فان لم يكن في كتاب الله فليقض بما قضى به نبيه(صلى الله عليه وآله وسلم). فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولم يقض به نبيه فليقض بما قضى به الصالحون - فإن جاء أمر ليس في كتاب الله ولم يقض به الصالحون فليجتهد رأيه. فإن لم يحسن فليقم ولا يستحي».

والشيعة في اجتهادهم يعملون بأصل الاحتياط الواجب، مع العلم بالتكليف الملزم، وأصل التخبير اذا تردد الفعل بين الوجوب والحرمة. ويرون الحسن والقبح أمرين «عقليين» ثابتين بالعقل. وما أمر الشارع ونهيه في صددهما إلا لأن العقل يأمر بهما. فلا حاجة إذن لسؤال الشرع ابتداء، بل يسأل العقل. فعدم العلم بالنهي كاف للحل. ولا تحتاج الإباحة لدليل، وانما يحتاج ادعاء عكسها الى دليله. فالاختراعات الحديثة مباحة استناداً الى ما ثبت شرعاً من أن كل شيء مطلق حتى يرد فيه نهي.

والجواز في التصرف مطلق لايقيده إلا التثبت من حق الغير.

فالمعاملات، أية كانت، صحيحة مالم تزاحم حقاً عاماً أو خاصاً أو يوجد نص أو معنىً يحرمها.

وفي كثير من الأحيان، يكون عمل الفقيه مجرد تحكيم النصوص بعضها على بعض، مثل قوله تعالى: «وما جعل عليكم في الدين من حرج»، وقول الرسول(ﷺ): «لا ضرر ولا ضرار» وقاعدة «ان الله يأمر بالعدل والإحسان» وهذه أمثال للأدلة الحاكمة على أدلة سواها. فالعمل بها ليس تخصيصاً للنص بالمصلحة، وانما هو حكومة نص على نص. أي رفع اليد عن الكتاب والسنة بدليل منهما ـ أيضاً ـ مجعول في ظرف خاص يزاحم الدليل الآخر أو يحكم عليه.

والشيعة إذ يبنون فهمهم على ان الله يأمر بالفعل لمصلحة، وينهى عن الفعل لمفسدة، لايعتبرون مخالفاً للأمر والنهي من يوجد في حالة اضطرار، وانما يشترطون أن تكون المخالفة على قدر الضرورة، وارتفاع المسوغ حالة انتهاء الاضطرار، أو عند تجاوز المقدار. يقول تعالى «وما جعل عليكم في الدين من حرج» و «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» و «يريد الله ان يخفف عنكم».

وبالانتفاع بهذه الرخص يظهر ان الاضطرار نسبي. بل يظهر انه ليس إلا خيار، وفيه إرادة.

والإجبار هو ما يعدم الاختيار بما يزيل من القدرة ـ وهي شرط التكليف.

فالمضطر في الواقع «يختار» الفعل لعامل خارجي أو داخلي (نفسي).. كمن لايملك إلا ثوباً واحداً يلبسه ليستره (ويختار) أن يبيعه ليأكل، إذ يؤثر العري على الجوع إذا لم يقدر أن يواجه جوعه بطريق آخر.



ولا عجب أن تتآمر كثرة الأوربيين بالصمت عن مناهج العلم الحديث المنقولة من نهج المسلمين، كدأبهم في التنكر لآباء العلوم الرياضية والهندسية، والمهد الذي نشأت فيه . فذلك استمرار للحرب الصليبية، وإخضاع للحقائق العلمية للتعصب الديني المتأصل في الحضارة الأوروبية. فهم لايذكرون أن فيثاغورس وارخميدس وإقليدس آباء الرياضيات ألقوا الدروس وتلقوها في مدرسة الإسكندرية بمصر ـ ولا يذكرون أنهم لم يعرفوا كتاب إقليدس المسمى (الأساسيات) أو (العناصر) إلا عن

نسخة عربية. ولا يذكرون أن أوروبا المعاصرة أخذت عن العلم الاسلامي المنهج العلمي المعاصر، أي منهج التجربة والاستخلاص.

يقول الشاعر محمد إقبال [١] إن دبرنج Dubring يقول: «ان آراء روجير بيكون أصدق وأوضح من آراء سلفه.. ومن أين استمد روجير بيكون دراسته العلمية؟ من الجامعات الاسلامية في الأندلس».

ويقول بريفو [٢] Robert Briffault: «إنه لا ينسب الى روجير بيكون (١٢٩٤) [٣] ولا

---

(١) في كتابه إعادة تكوين الفكر الديني في الاسلام:
The Reconstruction of Religious Thinking.

(٢) في كتابه صنع الإنسانية Making of Humanity.

(٣) مات روجير بيكون سنة ١٢٩٤ واستمرت الجامعات العربية والعرب في الأندلس قرنين بعد ذلك، الى جوار المعاهد التي أنشئت لترجمة علومهم في فرنسا والأندلس وإيطاليا وألمانيا.
وكان يجيد اللغة العربية والعبرية، ويمارس التجارب العلمية في الطبيعة والكيمياء، وقاومه معاصروه لكن البابا شدّ أزره. وكان جزاؤه السجن في باريس من أجل كتاباته. وهي تعتبر طلائع لكشوف علمية حديثة (كالعدسات والسيارات ذات المحرك البداني والطائرات) وهو القائل: «الفلسفة مستمدة من العربية. فاللاتيني ـ على هذا ـ لايستطيع فهم الكتب المقدسة والفلسفة إلا اذا عرف اللغة التي نقلت عنها». ومن قبل ذلك بقرون ـ وعلى التحديد في سنة ٩٢٠، طلب ملك الصقالبة الى الخليفة أن يبعث اليه معلمين وفقهاء فصنع. وكان الجغرافيون العرب في أرمينية منذ القرن التاسع للميلاد.
كذلك تلقى البابا سلفستر (٩٩٩ ـ ١٠٠٣) علومه بجامع قرطبة، وكان اسمه الراهب جلبير، قبل أن يصير رئيساً لدير رافنا. وهو ناقل العلوم العربية والأرقام العربية الى أوربا. وقد أنشأ مدرسة في ايطاليا وأخرى في ريمس بالمانيا لنقل العلوم العربية. وثابت ان مدرسة الوعاظ في طليطلة نشأت مدرسة لتدريس اللغة العربية سنة ١٢٥٠ م ثم أمر مجلس فينا سنة ١٣١١ م بتدريس العلوم العربية في باريس وسلامنكا وغيرها.
وفي سنة ١٢٠٧ أنشأت جنوه جامعة لنقل الكتب العربية، وفي سنة ١٢٠٩، ١٢١٥ قرر المجمع المقدس منع تدريس كتب ابن رشد وابن سينا لما فيها من حرية فكرية.
وفي سنة ١٢٩٦ قرر المجمع اللاهوتي تحريم تدريس الفلسفة العربية وحرمان (كل من يعتقد ان العقل الانساني واحد في كل الناس).. وكان الامبراطور فردريك الثاني قد أنشأ جامعة نابولي لنقل العلوم العربية فوق ما تنقله
=

الى سميه الآخر فرانسيس بيكون (١٦٢٦) أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في

= مدرسة سالرنو المجاورة. وأنشأ العرب المطرودون من اسبانيا مدرسة مونبليه في بروفانس بجنوب فرنسا. والشريف الأدريسي هو معلم روجار ملك صقلية. صنع له كرة ارضية من فضة، سنة ١١٥٣، قبل أن تعرف أوربا ان الأرض كروية.

ومن الثابت أن فيبر وناتشي Fibronacci أول عالم اشتغل بعلم الجبر قد رحل الى مصر وسوريا في عصر الملك فردريك الثاني ملك صقلية، وان أدلارد الباثي Adilard of bath درس على العرب علمي الفلك والهندسة. وما هؤلاء إلا طلائع للعصر الذي عاشوا فيه.

وفي العصر ذاته كانت مدرسة صقلية، وكمثلها مدرسة سالرنو في جنوب ايطاليا وجامعة نابولي التي أنشأها الامبراطور فردريك الثاني تذيع العلوم العربية. واحتل العرب جزر البحر الأبيض ابتداء من كريت سنة ٢١٢ الى صقلية سنة ٢١٦، أي في النصف الأول من القرن التاسع للميلاد، كما استولوا على باري وبرنديزي في وسط ايطاليا. وتوطدت سيطرتهم على مقاطعتي كامبينا وأبروزي وأقاموا فيهما امارات عربية. وامتد سلطان عرب الأندلس الى جنوب فرنسا في مقاطعة بروفانس. وحاصروا روما.

وكانت ملابس البابا موشاة بالأحرف العربية. وتأثر دانتي بالثقافة العربية واضح في الكوميديا الإلهية. وهو يذكر صلاح الدين الأيوبي والدوق جود فري (الملك جود فري ملك بيت المقدس في حرب الصليبين) في كتابه. وكانت السفارات بين الملوك والأمراء الفرنجة والسلاطين تمد الى اوربا اسباب الحضارة. وكانت كتب ابن رشد والغزالي أيامئذ تقدم الغذاء العلمي للفكر الأوروبي. وكتابات القديس توماس الأكويني (القديس توما) ناطقة بالتأثر الظاهر أو بالنقل الكامل.

وفي سنة ١٢٥٠ أنشأت جماعة الوعاظ في طليطلة ـ مدرسة لتدريس اللغة العربية والعبرية بقصد تنصير المسلمين كما ألفت الكتب للدفاع عن المسيحية ضد المسلمين. وكان الأسقف ستيفن في باريس يناقش كتب ابن رشد. وفي آخر أيام المسلمين بالأندلس أنشئت محاكم التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة اللذين خيف انتشارهما من كتب المسلمين.

وفي بحر ثمانية عشر عاماً من (١٤٨١ ـ ١٤٩٩) أحرقت هذه المحاكم ١٠,٢٢٠ رجلاً أحياء، وشنقت ٦٨٦٠. وعاقبت سبعة وتسعين ألفاً. وفي سنة ١٥٠٢ قرر مجمع لاترانا لعن من ينظر في فلسفة ابن رشد، لأنه يقول بحرية العقل. يراجع الفصل الثاني؛ وعنوانه (قوة الحضارة العلمية) من الباب الأول في كتابنا (توحيد الأمة العربية. فقرات ٤ الى ١٨).

=

أوربا. ولم يكن روجير بيكون في الحقيقة إلا واحداً من رسل الحضارة الاسلامية والمنهج الاسلامي الى أوربا المسيحية. ولم يكف بيكون عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة.. ولقد انتشر منهج العرب التجريبي في عصر بيكون وتعلمه الناس في أوربا يحدوهم الى هذا رغبة ملحة».

ويضيف: «انه ليس هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي لم يكن للثقافة الاسلامية عليها تأثير اساسي، وان أهم أثر للثقافة الاسلامية هو تأثيرها في العلم الطبيعي والروح العلمي وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث».

ثم يضيف:

«ان ما يدين به علمنا للعرب ليس ما قدموه لنا من اكتشاف نظريات مبتكرة غير ساكنة. ان العلم مدين للثقافة الاسلامية بأكثر من هذا. فقد أبدع اليونان المذاهب وعمموا الأحكام. لكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني.. ان ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربا نتيجة لروح جديدة في البحث، ولطرق جديدة في الاستقصاء.. طريقة التجربة والملاحظة والقياس. ولتطور الرياضيات، صورة لم يعرفها اليونان. وهذه الروح وهذه المناهج أدخلها العرب الى العالم الأوربي».

= وأول مرصد فلكي أُقيم في أوربا أقامه العرب بأشبيلية وأول مدرسة طبية في أوربا هي التي أقاموها في ساليرت. ومنذ سنة ٩٧٠ كان في غرناطة بأسبانيا ١٢٠ مدرسة منها ١٧ مدرسة كبيرة و ٢٧ مدرسة مجانية يتعلم فيها نبلاء أوربا علوماً عربية.

ولما سقطت طليطلة في سنة ١٠٨٥ في أيدي الأسبان أقاموا المدارس لترجمة العلوم العربية فيها ولم يتوقف النقل بل أُتيحت له مصادر جديدة بسقوط قرطبة سنة ١٢٣٦ ثم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢.

وكان بلاط الفونسو السادس بعد سقوط طليطلة مصطبغاً بالثقافة العربية. بل هو أعلن نفسه أمبراطور العقيدتين: المسلمة والمسيحية. وكان الفونسو الخامس الملقب بالحكيم ملك قشتالة من سنة ١٢٥٢ الى ١٢٨٤ أكبر دعاة الثقافة العربية. وقد جمع له اليهود كل كتب العرب.

أو كما يقول المستشرق المعاصر برنارد لويس: «ان أوربا القرون الوسطى تحمل ديناً مزدوجاً لمعاصريها العرب. وهم الواسطة التي انتقل بها الى اوربا جزء كبير من ذلك التراث الثمين. كما تعلمت أوربا من العرب طريقة جديدة وضعت العقل فوق السلطة، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة. وكان لهذين الأساسين الفضل الكبير في القضاء على العصور الوسطىٰ والإيذان بعصر النهضة».

وروجير بيكون يعلن تأثره بالمنهج العربي ورفضه للمنهج الأرسطي الذي سيطر على الفكر الأوروبي من جراء الفساد في بعض استنتاجاته في العلوم الطبيعية فيقول:

«لو أُتيح لي الأمر لأحرقت كل كتب أرسطو، لأن دراستها يمكن أن تؤدي الىٰ ضياع الوقت والوقوع في الخطأ ونشر الجهالة»(1).

وكما قال (غوستاف لوبون) بعد ستة قرون من وفاة بيكون: «أدرك العرب بعد لأي أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب. ولذلك سبقوا اوربا الى هذه الحقيقة. فالمسلمون أسبق الى نظام التجربة في العلوم».

---

(1) If it had my way, I should burn all books of Aristotle, for the study ofthem can lead to a loss of time, produce eror, increase ignorance.

الفصل العاشر

في السياسة والاجتماع

«وإنما عماد الدين وجماع المسلمين
والعدة للأعداء
العامة من الأمة. فليكن صغوك لهم.
وميلك معهم»

«على بن أبى طالب عليه السلام»

لم تكن خلافة أمير المؤمنين علي هادئة أو هانئة. ولو هدأت لحمل الناس على الجادة بعلمه وعدله، وشجاعة رأيه وزهده. والزهد آية على صدق الولاة، وسبيل معبدة لهم الى أنفس الرعية. فالشجاعة تروعها. أما الزهادة فتقنعها.

وعلي (عليه السلام) إمام الزاهدين والمتقشفين من الصحابة. أجمع عليه العلماء، والفقهاء والبلغاء وأبطال الحروب والحكماء، وكل محبّ لأهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

والصوفية يمدون اليه بالأسباب، فيضعونه في قمتهم، كما يصرح بذلك: الشبلي، والجنيد، وسري السقطي، وأبو يزيد البسطامي، ومعروف الكرخي. وهم يسندون اليه الخرقة التي يتخذونها شعاراً لزهدهم.

وأحمد بن حنبل ـ والصوفية يعتبرونه من أئمتهم ـ يقول إنه: «ما اجتمعت لأحد من الفضائل بالأسانيد الصحاح ما اجتمع لعلي»، يقابله الجاحظ زعيم المعتزلة ـ أي في الطرف الأقصى من الخصومة لأحمد ـ ومع ذلك يتلاقى الطرفان في «علي» حيث يقول الجاحظ: «لا يعلم رجل من أهل الأرض: متى ذكر السبق في الاسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الاسلام، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأمور التي يتناحر الناس عليها، كان مذكورا في هذه الخلال كلها، إلا علي».

والمعتزلة يمدون اليه أسبابهم الفكرية عن طريق حفيده أبي هاشم بن محمد بن الحنفية.

وفي مكان بعيد جداً من المعتزلة يقف محيى الدين بن عربي، من فلاسفة المتصوفة، ليقول: «علي من أصحاب العلم وممن يعلمون من الله ما لا يعلمه غيره»، ويقول السراج الطوسي: «لأمير المؤمنين علي (عليه السلام) من بين جميع أصحاب

رسول الله ﷺ (خصوصية) بمعاني جليلة وإشارات لطيفة وألفاظ مفردة وعبارات ومعان للتوحيد والمعرفة والايمان والعلم، وغير ذلك، وخصال شريفة تعلق وتخلق بها أهل الحقائق من الصوفية».

ولقد طالما افتتن بشخصيته الناس؛ ومنهم المستشرقون الذين يتحدثون عنه، على طريقتهم في الإيضاح عن آرائهم، مثل كارادي فو، حيث يتصوره «ذلك البطل المتوجع المتألم، والفارس الصوفي، والامام ذو الروح العميق القرار، التي يكمن في مكامنها سرّ العذاب الإلٰهي».

وإذا ذكرت كلمة (الإمام) مطلقة، انصرفت الىٰ علي بن أبي طالب (عليه السلام) دون سائر الصحابة.

ولم يكن النهج العلمي الذي أوجزنا الإشارة اليه، قبل، إلا استعمالاً لأصول تهدي الى معرفة حكم الشرع ودليله، لبلوغ «السعادة في الدنيا والآخرة». وكان طبيعياً، وقد تضافرت في رسم حدود هذه السعادة، وضوابطها، والعلاقات الهادية اليها نصوص القرآن والسنة أن تجلى الامام علي (عليه السلام) في هذا المجال، وان يتخلف لنا من حياته وسنوات حكمه على قصرها وانحسار سلطته فيها، مواقف معلمة ونصوص شارحة، وان يتتابع في نسقها أعمال الأئمة من بنيه ليتشكل منها «مذهب سياسي واجتماعي واقتصادي» متكامل:

فترىٰ الحسن (عليه السلام) يضرب مثلاً في العطاء وحقن الدماء. ونرى الحسين (عليه السلام) مثلاً يضرب مثلاً للجهاد في حروب الأمة وللاستشهاد في سبيل الحق. ونرى الائمة الثلاثة بعدهما يفصلون القواعد للمجتمع العظيم، والدولة المثلى، والاسرة الفاضلة، والانسان الذي ينشد.

وكان لزاماً، ان تكون بين تعاليمهم تعاليم دستورية واقتصادية واجتماعية. فالامام علي، والأئمة من عقبه، بناة دول، وحماة مجتمعات، ازدهرت فيها الأسرة وصلح بها الرجل والمرأة، واستغنىٰ الناس فيها بكدهم وكدحهم.

في الدولة وقواعدها

لم يكد أمير المؤمنين (عليه السلام) يتلقى البيعة حتى اطلق كلماته كالصواعق رجوماً للمنحرفين، أو كالبوارق المتألقة بآمال المصلحين، في منهاجه السياسي والاجتماعي والاقتصادي الجامع.

المساواة اساس الدولة

لقد خطب في اليوم التالي لمبايعته فقال: «أما بعد ألا لا يقولن رجال منكم غداً قد غمرتهم الدنيا فاتخذوا العقار وفجروا الأنهار وركبوا الخيول الفارهة واتخذوا الوصائف الرقيقة وصار ذلك عليهم عاراً وشناراً، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم الى حقوقهم التي يعلمون، فينقمون ذلك ويستنكرون ويقولون حرمنا ابن أبي طالب حقوقنا».

فلما كان الغد غدا الناس لقبض حقوقهم. فأمر كاتبه عبيدالله بن أبي رافع أن يبدأ بالمهاجرين. وأعطى كل من حضر منهم ثلاثة دنانير، ثم ثنى بالأنصار، ثم سائر الناس كلهم.. سوى بينهم الأحمر فيهم والأسود. فقال له سهل بن حنيف: هذا غلامي أعتقته بالأمس. قال: نعطيه كما نعطيك ثلاثة دنانير.

وقد تخلّف عن هذه القسمة طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبدالله بن عمر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم.

وقال علي (عليه السلام): «ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، والله لو تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته. فإن في العدل سعة. ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق».

ولما جاءته امرأتان فسوى بينهما، قالت إحداهما: إني امرأة من العرب، وهذه أعجمية! فقال: «إني لا أرى لبني اسماعيل في هذا الغنى فضلاً على بني اسحق».

وغضب البعض مما يصنع أمير المؤمنين (عليه السلام). وكتب عمرو بن العاص الى

معاوية يقول: «ماكنت صانعاً فاصنع..».

ودعى البعض في السرّ الى رفض علي لمساواته بينهم وبين الأعاجم. ولما بلغه ذلك صعد المنبر متقلداً سيفه وقال: «.. ليس لأحد عندنا فضل إلا بطاعة الله وطاعة الرسول.. قال الله تعالىٰ «يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا. إن أكرمكم عند الله أتقاكم».

ثم صاح بأعلىٰ صوته: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإن الله لايحب الكافرين»..

في هذه الأيام الأولىٰ وضع منهاجه الدستوري: المساواة في الحقوق، والعدل بين الناس. ومنهاجه الاقتصادي: المساواة في العطاء بين فئات الشعب. ومنهاجه الاجتماعي: ليس في الاسلام شريف ومشروف، ولا أحمر وأسود، ولا عربي وأعجمي وانما أكرم الناس أتقاهم.

وكان عدله (عليه السلام) مع الذين حاربوه أو كفروه أو قتلوه دروساً في الفقه:

روى الغزالي في المستصفي أن قضاته استشاروه في شهادة الخوارج بالبصرة فأمر بقبولها، كما كانت تقبل قبل خروجهم عليه، لأنهم إنما حاربوا علىٰ تأويل. وفي ردّ شهادتهم تعصُّب وإثارة خلاف..

حتى قاتله عبد الرحمن بن ملجم نهى عن المثلة به.

وبالمساواة التي هي خصيصة الإسلام الأولىٰ، بعد التوحيد، هرع أبناء البلاد ـ من غير العرب ـ الى اعتناق الاسلام. ثم اختار كثير منهم الانضمام تحت لواء الشيعة.

ولما سادت الدعوة لأهل البيت (عليهم السلام) في خراسان أقبلت جيوشها تقيم دولة الدين على انقاض بني أمية وبني مروان. وكانت الدعوة الىٰ «الرضا» من «أهل البيت» والمساواة بين «الموالي والعرب»، شعار الدولة التي أقامها أبو مسلم الخراساني والتي

سرقها بنو العباس من بني علي (عليه السلام)، كما أوضحنا قبل [١].

---

(١) كان بنو أمية يجعلون للعرب درجة على الموالي ـ وسمى العرب الموالي بالعلوج.

بل قال جرير:

قالوا نبيعكه بيعا فقلت لهم ... بيعوا الموالي واستغنوا عن العرب

والمبرد يقول: «وتزعم الرواة ان الذي أنفت منه جلة الموالي هذا البيت لأنه حطهم ووضعهم».

وتزوج أعجمي من عربية من بني سليم فشكاها محتسب الى والي المدينة (ابراهيم بن هشام صهر الخليفة عبد الملك بن مروان) ففرّق بينهما لعدم الكفاءة، وعزر الزوج لأنه ارتكب جريمة بأن ضربه مائتي جلدة ثم حلق لحيته وشاربه. فقالوا عن الوالي:

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ... ولم ترث الحكومة من بعيد

وابراهيم بن هشام خال الخليفة هشام بن عبدالملك.

وسأل هشام جليسه في فاتحة القرن الثاني للهجرة عن فقهاء الأمصار. قال: من فقيه المدينة؟ قال: نافع مولى ابن عمر. قال: فمن فقيه أهل مكة؟

قال: عطاء بن أبي رباح. قال: مولى أم عربي؟

قال: مولى. قال فمن فقيه اليمن؟

قال: طاووس بن كيسان. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل اليمامة؟

قال: يحيى بن أبي كثير. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل الشام؟

قال: مكحول. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟

قال: ميمون بن مهران. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل الجزيرة؟

قال: الضحاك بن مزاحم. قال: مولى أم عربي؟ قال: مولى.

قال: فمن فقيه أهل البصرة؟

قال: الحسن وابن سيرين. قال: موليان أم عربيان؟ قال: موليان.

=

ولقد وهم الذين نسبوا أسباب التشيع في خراسان الى ما زعموه من تشابه تتابع الخلافة النبوية والدينية في بيت الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتوارث الملك عند الفرس في الدولة الكسروية، وحكم كسرى «بالحق الآلهي».

فلقد ترك الفرس دين كسرى بتمامه الى الإسلام وقواعده.

إنما كانت تفرقة الولاة والحكام بين العجم وبين العرب سبباً لتصبح المساواة صيحة التجمع منهم على أمير المؤمنين علي وبنيه (عليهم السلام). وكان أهل البيت مضطهدين، تهوي اليهم الأفئدة. وكانوا شجعاناً يستشهدون. فاجتمع على ايجاب الانضمام اليهم الدين والعقل والمصلحة. وهي دوافع كافية للجهاد ضد بني أمية.

= قال: قال فمن فقيه أهل الكوفة؟

قال: ابراهيم النخعي. قال: مولى أم عربي؟

قال: عربي.

قال: كادت نفسي تزهق ولا تقول واحد عربي!

ومن هذا التعصب للعرق وتمييز العرب ثار من عدا العرب في خراسان (ماوراء العراق حتى وسط آسيا) وأجاء أهل خراسان ببني العباس الى الخلافة بشعارين يكمل كل منهما الآخر:

١) إعادة حكم الدين وتولية أهل البيت. ٢) مساواة الموالي والعرب. وانطبعت الدولة العباسية في أغلب أمرها. بطابع غير عربي.

يقول الجاحظ عن المائة الأولى من عمرها: «دولتهم أعجمية خراسانية، ودولة بني أمية عربية أعرابية».

وكان مؤسسو الدولة العباسية يشيرون الى خراسان على انها (باب الدولة).

وفي خواتيم المائة الأولى، حاول الرشيد ان يستعيد مقاليدالامورمن الفرس فكانت مصارع البرامكة. فلم يلبث الفرس إلا سنين حتى قتلت جيوشهم الأمين ـ العربي الأب والأم ـ وجاءوا بالمأمون الى عرش الخلافة وأمه خراسانية.

وشهدت المائة الثانية من عمر الدولة دولاً قادمة من خراسان تستقل بمهالكها أو تحكم الدولة العباسية كلها: بني سامان (٢٦١ ـ ٣٨٩) يحكمون في الشرق من خراسان في (٢٤٨) والدولة الصفارية في عهد المعتز (٢٥٢) ثم بني بويه (٣٢٤ ـ ٤٢٣) يحكمون فارس والري واصفهان والجبل. ولم تنشأ دولة عربية إلا في الموصل وديار بكر وربيعة، وهي دولة بني حمدان (٣١٧ ـ ٣٥٨).

أما زعم الزاعمين ان إصهار الحسين (عليه السلام) الى الفرس في أم زين العابدين كان سبباً لتشيعهم، فينقضه ان ابني عمر وأبي بكر اصهرا اليهم في اختين لها، ومع ذلك لم يتعصب الفرس لأبويهما.

لا مراء، كان طلب المساواة هو الباعث على التشيع لعلي (عليه السلام)، من قوم سلبت حقوقهم في المساواة.. وهم في قمة المجتمع العلمي والديني يحملون مسؤوليات الدين الجديد مع العرب.

والدول العظيمة، والحروب الدامية، وتغيير التاريخ، لايحدثها الغضب من أجل النسب. وانما تحدثها المبادئ الخالدة والبطولات الرائعة وابتغاء مستقبل أفضل. وتفسير التاريخ على أساس النسب تفسير أوربي يدفع المستشرقين اليه سوابق «الزواج السياسي» بين ملوكهم و «حروب الوراثة» بين دولهم.

العدل، ونزاهة الحكم

في حياة علي (عليه السلام) ومبادئه، وخطبه وقضائه، عن هذين، مالا نظير له في أي عصر، والمقام يضيق عن الاستقصاء. فحسبنا ان نقف قليلاً عند فقرات من عهده لمالك بن الحارث (الأشتر النخعي)، فهذا عهد مقطوع القرين في شكله وموضوعه، في التراث العالمي والاسلامي، وبخاصة في السياسة الاسلامية، والحكم الصالح، سواء في صياغته أو محتوياته.

وهذا العهد يضع اسم علي (عليه السلام) في ذروة المؤسسين للدول (واضعي الدساتير) حيث يتكلم عما يسمى في الدساتير العصرية بالمقومات الأساسية، وواجبات الولاة نحو الأمة، وطريقة قيامهم بحقوق الجماعة، بالتفصيل اللازم. والتنبيه على ملء الفراغ، فيما سكت عنه، بالرجوع الى اصل الشريعة: القرآن والسنة.

ولقد تتابعت على هذا العهد شروح الأئمة من بعد. فرأينا لزين العابدين في رسالة الحقوق تفصيلات جديدة يقتضيها الزمان، وشهدنا الامام جعفر الصادق يضيف التطبيق، والتفصيل الدقيق، لما تضمنته رسالة زين العابدين وعهد علي (عليهما السلام) -

فيجعل من تنفيذهما وشروحه لهما، عهداً جديداً للمسلمين وللشيعة، تبلغ به مجتمعاتهم أو دولهم مبالغها كلما التزموهما أو قاربوا الالتزام بهما.

يبدأ «عهد علي» بتحديد مهمة الوالي (حين ولاه مصر، جباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها) فهو قد جمع له ولاية الخراج وولاية الحكم وقال: «واعلم ان الرعية طبقات. لا يصلح بعضها إلا ببعض. ولا غنىٰ ببعضها عن بعض؛ فمنها جنود الله، ومنها كتّاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل[1]. ومنها عمال الإنصاف والرفق. ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس. ومنها التجار وأهل الصناعات. ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة. وكلا قد سمى الله سهمه. ووضع على حدّه فريضة في كتابه أو سنة نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) عهداً منه عندنا محفوظاً.

فالجنود بإذن الله حصون الرعية؛ وزين الولاة؛ وعز الدين؛ وسُبل الأمن؛ وليس تقوم الرعية إلا بهم، ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله تعالىٰ لهم من الخراج... ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب، لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها.

ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات... ثم الطبقة السفلىٰ من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم. وفي الله لكل سعة. وعلى الوالي حق بقدر ما يصلحه»..

أما ولاية الإدارة عامة، والعمال والكتّاب خاصة، فيقول عنها:

«فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ورسوله ولإمامك. وأطهرهم جيبا وأفضلهم حلماً، ثم الصق بذوي المروءات. ثم تفقد من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما.. ولا تحقرن لطفاً تتعاهدهم به وان قل... وليكن آثر جندك عندك من واساهم

---

(١) يراجع شرح القسم القضائي من هذا العهد في كتابنا (المنهج العلمي المعاصر مستمد من القرآن (١٤٥ - ١٦٠).

في معونته.. وان أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد بظهور مودة الرعية...».

وأما عن العدالة، وقوامها القضاء، فيبدأ المشترع العظيم - في التعبير الأوربي - الكلام فيها عن القانون الواجب التطبيق فيقول:

«وأردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور. فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه الىٰ الله والرسول» - فالردّ الى الله الأخذ بمحكم كتابه، والردّ الىٰ الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة».

ويقرن القانون الإلٰهي بالقاضي كما يتطلبه الاسلام، فيقول: «ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لاتضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتمادى في الزلّة، ولا يحصر عن الفيء الى الحق اذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنىٰ فهم دون أقصاه؛ أوقفهم في الشبهات، وآخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على تكشيف الأمور، وأصرمهم عند اتضاح الحكم.. ممن لا يزهيه اطراء ولا يستميله إغراء. وأولئك قليل. ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيح علته وتقل حاجته الى الناس. وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك».

ولئن كانت رسالة عمر الى أبي موسىٰ الأشعري قد جمعت جمل الأحكام في كلمات مختصرة، لايجد محق عنها معدلاً، ان عهد علي (عليه السلام) للأشتر كان في زمان مختلف، فجاء جامعاً، بل مضيفاً - في الموضوع الذي وردت فيه رسالة عمر - أموراً شتىٰ يحتاجها زمان علي وكل زمان بعده.

وورود القانون، والدعوى، واختيار القاضي، وسلوكه، وطريقة القضاء، واستقلال القضاء، في فقرتين بين فقرات ذلك العهد، مظهر من مظاهر شموله واتساع نطاقه، وأسباب خلوده.



أما الإدارة العامة - عمّال الوالي - ففيهم يقول أمير المؤمنين (عليه السلام):

«انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختيارا ولا تولهم محاباة وأثرة.. وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام، فإنهم أكرم أخلاقا وأصح أعراضا.. ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك... ثم تفقد أعمالهم..».

وأما الكتّاب ففيهم قوله:

«ثم انظر في حال كتّابك، فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك، بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق، ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ.. ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستقامتك وحسن الظن منك.. ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم في العامة أثرا...»

ثم يقول عن الضعفة:

«وتعهد أهل اليتم وذوي الرقة في السن ممن لاحيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه... واجعل لذوي الحاجات منك مجلسا عاما.. فلا تكونن منفرا ولا مضيعا. فإن في الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول صلى الله عليه وآله وسلم حين وجهني إلى اليمن كيف أصلي بهم، فقال: صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما».

الشورى والعناية بالعامة

في بداية العهد إلى الأشتر أمران؛ الأول: خاص بالأشتر، والثاني: خاص بالعامة والخاصة.

والأمران عصريان في كل عصر، ومطلوبان في كل مكان، ومن كل الحكام:

أما الأول، ففيه قوله له: «إن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم. وإنما يستدل على الصالحين بما يجري بهم على ألسنة عباده.. فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك.. وأشعر

قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم. ولاتكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم. فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق.. يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ. فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك اللّٰه...»[١].

وقوله: «وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك.. فإن الله يذلّ كل جبار ويهين كل مختال. أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومَمن لك فيه هوى. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم...».

ويقول عن الشورى: «ولا تدخلن في مشورتك من يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر. ولا جباناً يضعفك عن الأمور ولا حريصاً يزين لك الشر، بالجور، فإن البخل والجبن غرائز شتى يجمعها سوء الظن باللّٰه.. والصق بأهل الورع والصدق.. ثم رضهم على أن لا يطروك... ولا تنقص سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة..».

وأما الثاني، ففيه قوله: «وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق. وأعمها في العدل وأجمعهالرضى الرعية. فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة. وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة. وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء، وأقل معونة في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأخف صبراً عند ملمات الدهر، من أهل الخاصة.

وإنما عماد الدين وجماع المسلمين، والعدة للأعداء، العامة من الأمة. فليكن صغوك لهم وميلك معهم».

بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين! إن رسول الله(ﷺ) يقول: «اطلعت في الجنة

---

(١) ولما عهد لمحمد بن أبي بكر كان مما جاء في عهده له قوله: «اعلم يا محمد بن أبي بكر أني قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي، أهل مصر، وأنتم يا أهل مصر فليصدق قولكم فعلكم وسركم علانيتكم، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم».

فوجدت أكثر أهلها الفقراء» وأنت في طليعة أهل الجنة. تحب أكثر أهلها عدداً في الحياة الدنيا؛ ومن أجل ذلك تكرم العامة، وهم كثرة الأمة، وتؤثر منها الفقراء.

ولقد كنت دائماً قدوة. وأردت الخاصة على أن تكون قدوة، وحذرتها من مطامعها ومزالقها. ولو حذرت، للزمت الجادة، وصلح أمر هذه الأمة.

إن من يضع دستوراً في العصر الحديث خليق بأن يرتوي من عهدك ويروي الأمة من ينابيعك، في تطبيع الشريعة، وسيادة القانون، واستقلال القضاء، وأمانة الولاة، ونزاهة الإدارة، واحترام العامة، وإلزام الخاصة أن تكون قدوة في الأمة.



يقول ابن المقفع في شأن الخاصة بعد مائة عام، في كتابه لأبي جعفر: «وقد علمنا علما لا يخالطه الشك أن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها. ولم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها... وحاجة الخواص إلى الإمام الذي يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك».

ويتصدى الإمام زين العابدين في «رسالة الحقوق» بالشرح الشامل، والتفصيل الطويل، لسلوك الجماعات والأفراد وما يجب لها شرحاً وتفصيلاً تقتضيهما حالة الناس وظروف الزمان في النصف الثاني من القرن، عصر كربلاء والحرة وضرب الكعبة والدولة الهرقلية وتغير الناس.

واستقصاء السجاد فيها للأحكام مظهر لتحمله مسؤولية تعليم المسلمين أمور دينهم وشؤون دنياهم؛ فهي تبدأ بحقوق الله عز وجل.. وأكبرها ما أوجبه الله تعالى من حقه. فجعل للجوارح حقوقاً ولأفعالها حقوقا:

«ثم تخرج الحقوق منك إلى غيرك من ذوي الحقوق الواجبة عليك، وأوجبها عليك حق أئمتك ثم حقوق رعيتك ثم حقوق رحمك. فهذه حقوق يتشعب منها حقوق. فحقوق أئمتك ثلاثة.. وحقوق رعيتك ثلاثة.. وحقوق رحمك كثيرة متصلة..

فأوجبها عليك حق أمك ثم حق أبيك.. ثم حق مولاك المنعم عليك ثم...»[١].

وتطرقت رسالة الحقوق للعلاقات الحكومية والقضائية والاجتماعية التي تنظم الجماعة الإسلامية، فنظمت آدابها والتزاماتها الخليقة والقانونية بالتفصيل.

وربما أجزأ في تقريب منهاجها إلى الألباب مثل ننقله منها عن معاملة السلاطين حيث يقول: «وأما حق سائسك بالسلطان فأن تعلم أنك جعلت له فتنة. وأنه مبتلى فيك بما جعله الله له عليك من السلطان. فعليك أن تخلص له في النصيحة. ولا تماحكه وقد بسطت يده عليك. فتكون سبب هلاك نفسك وهلاكه...... وتلطف لعطائه مايكفه عنك دون أن يضر بدينه. وتستعين عليه في ذلك بالله فلا تعانده.. فإنك إن فعلت ذلك عققته وعققت نفسك وعرضتها للمكروه».

الحكام

تابع الإمام الصادق عمل آبائه في التنبيه على قواعد الحكم الصالح ومنها حقوق

---

(١) فأما حق الله الأكبر عليك فأن تعبده ولا تشرك به شيئاً. فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة.. وأما حق نفسك عليك.. وأما حق اللسان وأما حق السمع.. وأما حق بصرك.. وأما حق رجليك.. وأما حق يدك.. وأما حق بطنك.. وأما حق فرجك..

ثم حقوق الأفعال: وحق الصلاة.. وحق الحج.. وأما حق الصوم.. وأما حق الصدقة.. وأما حق الهدى ـ ثم حق الأئمة.. فأما حق سائسك بالسلطان.. وأما حق سائسك بالعلم.. وأما حق سائسك بالملك.

ثم حقوق الرعية.. فأما حقوق رعيتك بالسلطان.. والعلم... بملك النكاح.. بملك اليمين.

وأما حق الرحم.. وأما حق أمتك.. وأما حق ولدك.. وأما حق أخيك.. وأما حق المنعم عليك.. وأما حق مولاك الجارية نعمته عليك.. وأما حق ذي المعروف عليك.. وأما حق المؤذن.. وأما حق إمامك في صلواتك.. وأما حق الجليس.. وأما حق الجار.. وأما حق الصاحب.. وأما حق الشريك.. وأما حق المال.. وأما حق الغريم المطالب لك.. وأما حق الخليط وأما حق الخصم المدعي عليك.. وأما حق المستنصح.. وأما حق الناصح.. وأما حق الكبير.. وأما حق الصغير.. وأما حق السائل.. وأما حق المسؤول.. وأما حق من سرك الله به وعلى يديه.. وأما حق من ساءك القضاء عليه.. وأما حق أهل ملتك عامة وأما حق.. وأما حق...

العامة ـ وهي جسم الجماعة ـ بنصوص دستورية يوجزها، لتحفظ عنه وتنقل منه...

يقول: «أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال: الرحمة والجود والبذل».

ويقول: «ليس للملوك أن يفرطوا في ثلاثة: حفظ الثغور وتفقد المظالم واختيار الصالحين لأعمالهم».

وما هي إلا أركان الدولة الثلاثة: الجيش والقضاء والإدارة.

أو مبادئ الحكم الثلاثة: المنعة في الخارج بالجيش. والعزة في الداخل بالعدل. والحكم الصالح بالإدارة الحسنة. والرسول يقول: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم» وهو مقال موجه للعامة والخاصة في أمة خصيصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأول المسؤولين عنهما الولاة والعلماء والقادرون.

والصادق يقول لكل هؤلاء «خير الناس أكثرهم خدمة للناس»، يقول للحكام: «كفارة عمل السلطان قضاء حاجات الإخوان» ويقول: «المستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل» (العثرات). وهي مقولة تنطق بها سجلات الطغيان، حيثما كان، وفي جميع الحقب. فالزلة الواحدة تزعزع قوام الطاغية أو المتعصب أو المتحكم. فهو كالواقف على قدم واحدة.

وتعاليم الصادق في العدل والرفق بالرعية مقولات دستورية في الأمة.

يقول: «ما أوسع العدل وإن قل» ويقول: «أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم».

ويقول لوالي المنصور على الأهواز إذ استنصحه:

«.. فاعلم أن خلاصك ونجاتك في حقن الدماء وكف الأذى عن أولياء الله والرفق بالرعية. والثاني حسن المعاشرة مع لين في غير ضعف. وشدة في غير عنف.. وإياك والسعاة وأهل النمائم.. ولا تستصغرن من حلو وفضل طعام في بطون خالية... إياك يا عبد الله أن تخيف مؤمناً».

تلك دروس جده صلى الله عليه وآله وسلم؛ وهو القائل: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة؛ إمام عادل..» فبدأ بالعدل.

بل يقول عليه الصلاة والسلام: «عدل السلطان يوماً يعدل عبادة سبعين سنة..».

والدنيا قد تدوم، والدولة قد تقوم، مع العدل والكفر. لكنها لا تبقى مع الظلم، وإن كان الظلم واقعاً على غير مسلم. والله تعالى يقول في محكم كتابه:

«كونوا قوامين لله شهداء بالقسط. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى»[1].

يقول الإمام الصادق: «من نكد العيش السلطان الجائر والجار السوء والمرأة البذيئة». فالسلطان الجائر أذى دائم، ومنكر مستمر، تضيق الدنيا به، وإن رحبت، كما يضيق المكان ـ على رحبه ـ بالجار السوء، وتضيق الحياة ـ وإن طالت أو اتسعت ـ مع المرأة الطويلة اللسان.

والإمام يبدأ بالسلطان الجائر لأن أذاه يفسد الدنيا وإن صلحت، والأسرة وإن هنؤت. وإذا عم العدل احتمل الناس همومهم حيث هم.

ومن فساد السلطان أن يتولى سدته المتكبرون، والمتعالون في دخيلتهم متحطون. يقول الصادق: «مامن أحد يتيه إلا من ذلة وجدها في نفسه».

ومن ذلك ينحى عن الرياسات من يجرون أزرهم خيلاء، فهؤلاء لا ينتفعون بتجربة من أنفسهم، وإلا لما تكبروا على الناس، أو من غيرهم، وإلا لما غرهم الغرور. يقول: «لا يطمع القليل التجربة المعجب برأيه في الرياسة». ويقول: «من طلب الرياسة هلك».

فإذا ولي الحاكم فليخش الله في الناس، وليعلم أن فيهم ضعفاً، وأنه مطالب بالعفو والصفح الجميل. يقول الإمام: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة. وأنقص الناس عقلا من ظلم من دونه، ولم يصفح عمن اعتذر إليه».

---

(١) لما فتح هولاكو بغداد استفتى العلماء: أيهما أفضل: السلطان الكافر العادل أو السلطان المسلم الجائر؟ فجمعوا لذلك بالمدرسة المستنصرية. وكان علي بن طاوس حاضراً، وهو المقدم المحترم. فتناول الفتيا ووضع خطه عليها بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر. ووضع العلماء خطوطهم على ذلك.

والناس مطالبون بأن يمحضوا النصح بإخلاص. وليس الإخلاص مجرد النية الحسنة أو البدار بالكلام، وإنما هو الفكر الجاد، وتقليب الأمور على وجوهها، والاستماع إلى المخالفين. فالإمام يقول: «لاتكن أول مشير. وإياك والرأى الفطير».

وكثيراً ما تأذى الناصح بنصحه، وركبت المنصوح شياطين غلوائه. وقد يستفيد الظنة المتنصح.

وينبه الإمام الأمة على ألا تشتري الراحة بالرياء إذ «المؤمن يداري ولا يماري» كما يقول. وينبه الناس ـ ومنهم الحكام ـ على أن يسارعوا إلى الخيرات بإصلاح عيوبهم، وإعلانها دون تأثم أو تحرج.

والناس يمدون أيديهم إلى من يصارحهم بمصاعبه، فيشركونه في متاعبه. يقول «أنفع الأشياء للمرء سبقه الناس إلى عيب نفسه وأشدها مؤنة إخفاء الفاقة....». وكما يقول: «من لم يتفقد النقص في نفسه دام نقصه. ومن دام نقصه فالموت خير له».

ولعل أنفع الناس للمرء، من يهدى إليه عيوبه، بأن ينبه عليها.

المجتمع الجعفري

الإمام مبلغ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم علمه. وهذا العلم أجناس وأنواع، نشير في هذا المقام إلى بعض منها في السياسة والاجتماع، والاقتصاد، وهو حسب أي مجتمع ليقيم دولة راسخة الأركان، وأمة تعمل كخلية النحل، لا مجرد جمعية للإصلاح أو جماعة متطلعة للتقدم، كالجمعيات والجماعات التي تزخر بها المجتمعات في العصور الحديثة، بقصد إصلاح جزئي أو الدعوة لمبادئ معينة.

وكثير من المبادئ التي تحدثنا عنها قبل، والتي سنتحدث عنها بعد، شذرات من دروس، متداولة عن الإمام، لو حاولنا جمعها كنا كمن يجمع مصابيح السماء. وقد يكفي في هذا المقام ذكر بعض توجيهات الإمام «لشيعتنا» كما يقول. أو «للجعفري» الجدير بالانتساب للإمام، كما يسمي تابعيه.

وإذ كانت هذه التوجيهات إشارات إلى مؤهلات الانتساب إليه، فهي تقطع بأنه كان

يعد «دعاة» يدعون لمجتمع يدين بمبادئه.

وهذه المبادئ، مضافة إلى الفقه المدني والجزائي ونظرية الإمامة، كافية لإقامة مذهب متكامل تقوم على قواعده «دولة» تكفل الجزاء والثواب. فالقاعدة القانونية، مع العقيدة الدينية والنظريات الخلقية، كالماء الذي يسقي البذور الصالحة التي تنتظر الزمن لتشق الأرض وتظهر، في حماية الدولة.

ولقد كلل الله بالنجاح سعيه. وظهرت دول ومجتمعات ازدهرت في العالم، مع اصطناع التغييرات التي تستدعيها حاجات السلطان والزمان والمكان، أو الدعاية للدولة، كما كان الشأن في الدول والمجتمعات الاسماعيلية كالفاطميين المنتسبين إلى اسماعيل بن الإمام جعفر (عليه السلام).

وأحدثت هذه المبادئ آثاراً باهرة في المجتمعات الشيعية، في أمم إسلامية أو غير إسلامية، أنمت التمسك الديني بفضائل الإسلام، وأمكنت من الدفاع عنه بقوة وإيمان، وأبدعت عبقريتها الاقتصادية التي طالما حضت عليها تعاليم الإمام.

فالتعاليم الصادرة عن الإمام الصادق ليست مجرد أصول فقهية أو فروع علمية كما هو دأب الأئمة من أهل السنة. بل هي تتعدى ذلك المجال إلى كل مجال للناس فيه نشاط سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي..

ومن أجل ذلك العموم في رسالة الإمام ومقامه في الإسلام، كان شعور أبي حنفية ومالك وسفيان الثوري وعمرو بن عبيد ونظرائهم أو المقاربين لهم أنهم في مجلسه تلامذة. واعتبار الأمة أنهم هنالك كذلك وإن كانوا أئمة.

ومن نفاذ البصيرة، وعظمة الطريقة، وجلال السمت، واتساع العلم، كان اعتراف خصوم المسلمين أنفسهم بأنه ـ بين الحجيج جميعاً ـ الفرد العلم.



أما المبادئ الفقهية ومبادئ العقيدة والسياسة فقد تكلمنا عنها. وتبقى كلمات، كالإشارات، عن المبادئ الخلقية والاجتماعية التي انتخبنا بعضها، لتدل على اتجاه بها نحو تكوين مجتمع قوي وإعداد الدعاة له..

أوصى الإمامُ المفضلَ بن عمر بخصال يبلغهن من وراءه من «شيعة أهل البيت».

«أن تؤدي الأمانة إلى من ائتمنك. وأن ترضى لأخيك ما ترضاه لنفسك. واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب. وأن للأمور بغتات فكن منها على حذر. وإياك ومرتقى جبل سهل إذا كان المنحدر وعراً».

وأوصاهم:

«صلوا عشائركم. واشهدوا جنائزهم. وعودوا مرضاكم. وأدوا حقوقهم. فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل (هذا جعفري) ويسرني ذلك: وإذا كان غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره. وقيل هذا أدب (جعفر)! فوالله إن الرجل كان يكون في القبيلة من (شيعة علي) فيكون زينها. آداهم للأمانة. وأقضاهم للحقوق. وأصدقهم. يحمل إليه وصاياهم وودائعهم. تسأل العشيرة عنه ويقال: (من مثل فلان؟)».

وأوصاهم:

«أوصيكم بتقوى الله واجتناب معاصيه. وأداء الأمانة لمن ائتمنكم. وحسن الصحبة لمن صحبتموه. وأن تكونوا لنا دعاة صامتين».

فهو بهذا يربط إحسان العمل بالانتساب لأهل البيت ويضع القواعد المثلى للمجتمع.

دخل عليه المفضل بن قيس ذات يوم يسأله الدعاء، وكما قال: «فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدعاء فقال: يا جارية هاتي الكيس. فقال: «هذا كيس فيه أربعمائة دينار فاستعن بها». قلت: ما أردت هذا الكيس، ولكن أردت الدعاء لي. قال: «ولا أدع الدعاء لك. ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم».

هكذا تتابع منه العطاء غير المطلوب، والدعاء المطلوب، والنصح الواجب. فهو معلم في المقام الأول. أعطى فأغنى. ثم نصح، ليقبل النصح منه.

والأعمال أعلى صوتاً من الأقوال.

وهو يزيد العلاقة بين أصحابه وثاقة :

قال يوماً لبعض أصحابه: ما بال أخيك يشكوك؟ قال: يشكوني إذ استقصيت عليه حقي. فقال مغضباً: «كأنك إذا استقصيت حقك لم تُسئ؟ أرأيت ما حكى الله عن قوم يخافون سوء الحساب؟ أخافوا أن يجور عليهم؟ ولكن خافوا الاستقصاء. سماه الله سوء الحساب. فمن استقصى فقد أساء».

أرأيت ـ إلى مدى ما يستنبط الإمام من النص؟ وإلى مقدار ما يدخل في نفوس أمته من الإحساس الرقيق بمتاعب بعضهم، كالجسم تتداعى أعضاؤه بإدراك مرهف وتكافل كامل؟ ذلك ادب جده صلى الله عليه وعلى آله.

والإمام يعلمهم أن تكون لهم اليد العليا بالابتداء بالعطاء.

وفي السؤال رهق. والصلة تفقد رونقها، وربما قيمتها، إن لم تكن فيها مبادرة:

دخل عليه رجل من خراسان؛ قال: لقد قلّ ذات يدي ولا أقدر على التوجه إلى أهلي إلا أن تعينوني.. فنظر الإمام للجالسين، وقال: أما تسمعون ما يقول أخوكم؟.. إنما المعروف ابتداء. فأما ما أعطيت بعد ما سأل فإنما هو مكافأة لما بذل من ماء وجهه.. وقد قال رسول الله (ﷺ): «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة وبعثني بالحق نبياً لما يتجشم أحدكم من مسألته إياك أعظم مما ناله من معروفك..» فجمعوا له خمسمائة درهم. وبهذا اشترك الجميع في أداء الواجب.

وهو القائل «أغنى الغنى ألا تكون للحرص أسيرا».

والتنبيه على الإرهاق في الاستقصاء، وعلى انعدام فضل المسؤول على السائل، خصيصتان إسلاميتان ترفعان قدر الجماعة ـ بما فيهما من مؤالفة وتكافل.

والتعبيرات العالية عنهما تعبيرات إمام.

قال مصادف: «كنت عند أبي عبد الله فدخل رجل فسأله الإمام: كيف خلفت إخوانك؟ فأحسن الثناء عليهم. فسأله: كيف عيادة أغنيائهم على فقرائهم؟ قال الرجل: قليلة. قال الإمام: كيف مساعدة أغنيائهم لفقرائهم؟ قال قليلة. قال الإمام: فكيف يزعم هؤلاء أنهم (شيعتنا)»؟

الجهاد

يقول أبو الدرداء: «من رأى أن الغدوة إلى العلم ليست بجهاد فقد نقص في عقله ودينه» والصادق لا يكتفي بالتعليم بل يحض على الجهاد بالنفس والمال ويقول للمسلمين: «الجهاد واجب مع إمام عادل. ومن قتل دون ماله فهو شهيد».

ويرى الانحياز إلى الظالمين تمكيناً لهم. والجهاد مع العادلين تثبيتاً للاسلام. سأل يوماً عبدالملك بن عمرو: «لم لا تخرج إلى هذه الديار التي يخرج إليها أهل بلادك؟ - أي تجاهد مع الولاة - قال عبد الملك: أنتظر أمركم والاقتداء بكم. قال الإمام: اي والله لو كان خيراً ما سبقونا إليه. قال عبد الملك: إن الزيدية يقولون: ليس بيننا وبين جعفر خلاف إلا أنه لا يرى الجهاد. قال الإمام: «أنا لا أرى الجهاد...؟ بلى والله. إني أراه. لكني أكره أن أدع حلمي إلى جهلهم».

ولقد كان عظيماً جهاد جده الحسين في جيوش معاوية، بل جهاد الحسين ضد معاوية نفسه، إذ يخاطبه بقوله: «ثم سلطته (زيادا) على العراقيين يقطع أيدي المسلمين وأرجلهم ويصلبهم على جذوع النخل.. فكتبت إليه أن اقتل كل من كان على دين علي، فقتلهم ومثل بهم بأمرك....».

أما كربلاء فملحمة في الإسلام.

فإذا كان الجهاد للدفاع عن الإسلام إذا ما تهدده العدو، أو حين يغزو أرض المسلمين عدو، فذلك فرض عين على كل فرد، ولو كان تحت إمرة أمير جائر. سئل الإمام الرضا عن الرجل يرابط تجاه العدو.. كيف يصنع؟ قال: يقاتل عن بيضة الإسلام لا عن هؤلاء (يقصد الحكام الظلمة).

والمرابطة في الثغور إن كانت للاستطلاع فلها مدة. وهي مستحبة. وإذا كانت لملاقاة العدو فهي واجبة. والرجل المسلم كفء لرجلين عند اللقاء. يقول الإمام الصادق: «من فر من رجلين فقد فر ومن فر من ثلاثة فلم يفر».

والجهاد لغير الدفاع.. أي لمجرد الغزو، فرض كفائي، قال الصادق: «جاء رجل إلى

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: إني راغب في الجهاد نشيط. فقال له (صلى الله عليه وآله وسلم) «فجاهد في سبيل الله» قال الرجل: إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي. قال النبي: «أقم مع والديك. والذي نفسي بيده لأنسك بهما يوماً وليلة خير من جهاد سنة».

والإمام بهذا يعلم الناس إيثار الوالدين بالرعاية. فهما النواة التي تزدوج لتصنع الأسرة. وهي بدورها نواة الأمة. والتمكين لهذه تكوين لتلك. أما إذا احتيج للرجل لكفاءة خاصة فيه فالجهاد فرض عين عليه.

والصادق يعلم المسلمين قوانين الإسلام في الحروب فيقول: «إذا أخذت أسيراً فعجز عن المشي ولم يكن معك محمل فأرسله ولا تقتله» ويعلن أن «إطعام الأسير حق على من أسره. وإن كان يراد من الغد قتله. فإنه ينبغيَ أن يطعم ويسقى ويرفق به، كافراً كان أو غيره».

ويعلم المسلمين «أن رسول الله كان إذا بعث سرية دعا أميرها فأجلسه إلى جنبه وأجلس أصحابه بين يديه ثم قال: سيروا باسم الله وعلى سبيل الله.. ولا تغدروا. ولا تغلوا. ولا تمثلوا. ولا تقطعوا شجرة إلا أن تضطروا إليها. ولا تقتلوا شيخاً فانيا. ولا صبياً. ولا امرأة».

وينهى الصادق عن قتل الرسل، أو قتل الرهائن، أو استعمال السم، حتى في حرب المشركين. فإذا كانت حرب فلتكن حرباً نظيفة، أي إسلامية.

ولنتذكر في هذا المقام قول «علي» وهو يبعث الجند للقتال: «لا تقاتلوهم حتى يبدأوكم. فإنكم بحمد الله على حجة. وترككم إياهم حتى يبدأوكم حجة أخرى عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح. ولا تهيجوا النساء بأذى... إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وهن مشركات..».

وقول الصادق «نهى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يلقى السم في جهاد المشركين.. وعن قتل النساء والولدان في دار الحرب. وعن الأعمى. والشيخ الفاني.. وما بيت عدوا قط في ليل...».

وقول الصادق لإحسان معاملة أهل الذمة «إن رسول الله (ﷺ) قبل الجزية من أهل الذمة على ألا يأكلوا الربا ولا لحم الخنزير، ولا ينكحوا الأخوات وبنات الأخ وبنات الأخت. فمن فعل ذلك منهم فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله».

فعلى المسلمين ألا يتعرضوا لأهل الذمة بسوء. بل إن عليهم أن يدافعوا عنهم، ماداموا لا ينشرون الدعوة ضد الإسلام، ولا يتظاهرون بارتكاب المنكرات، ولا يؤون إليهم أعداء الإسلام.

وكل من له كتاب كاليهودي والنصراني، أو شبه كتاب، كالمجوس، فهو ذمي، إذا قبل شروط الذمة والتزم بها. فإذا لم يلتزم فحكمه حكم الحربي.

(في المجتمع ودعائمه)

الأسرة

إذا رتبت تعاليم الإمام تصدر تعاليمه للناس قوله «أصل الرجل دينه وتقواه. الناس في آدم مستوون» وهذه المساواة الفطرية تسبقها البنوة لآدم، ثم يبلغها أغراضها حدب القوي على الضعيف، والعالم على الجاهل، والذى أتيحت له الفرصة على من لم تتح له.

ولما سأل الإمام رجلا: من سيد هذه القبيلة فأجاب: أنا. قال الإمام: لو كنت سيدهم ما قلت أنا.

ولما فصل المكرمات المطلوبة من الناس قال: «المكارم عشر: صدق الناس، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وقرى الضيف، وإطعام السائل، والمكافأة على الصنائع، والتذمم للجار، والتذمم للصاحب. ورأسهن الحياء».

فهو يبدأ بالصدق وأداء الأمانة. ثم يتبعها صلة الرحم ولها عنده أعلى مقام. فبها قيام الأسرة ـ وهي نواة المجتمع الإسلامي ـ بتنظيمها القانوني الذي لا نظير له في، أمم غير أمة الإسلام.

يقول: «خمسة لا يعطوا شيئاً من الزكاة. الأب والأم والوالد والزوجة والمملوك. لأنهم عياله ولا زمون له» فالإنفاق على هؤلاء فرض. والصدقات مع وجوبها وتعميمها والحث عليها، لا تستحق للناس إلا أن يكتفي ذوو الأرحام. يقول الإمام: «لا صدقة وذو رحم محتاج».

ولو ظن واصل الرحم أنه يضع المعروف في غير موضعه ـ وللمعروف دائماً موضع ـ فالإمام يقول له: «لا تقطع رحمك وإن قطعك».

وقع كلام بينه وبين عبد اللّه بن الحسن (وربما كان ذلك من جراء يوم الأبواء، وسلف القول فيه) وكان عبد اللّه اكبر أهل البيت سنا، فأغلظ عبد اللّه القول. فلم يرد الصادق. ثم افترقا ثم تلاقيا على باب المسجد. فابتدره الصادق يقول «كيف أمسيت يا أبا محمد»؟ (فهو أبو محمد المهدي ـ النفس الزكية ـ وإبراهيم والباقين، من بني عبد اللّهبن الحسن). وقال عبد اللّه كالمغضب: بخير.

قال الصادق: يا أبا محمد. أما علمت أن صلة الرحم تخفف الحساب؟ ثم تلا قوله «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» فقال عبد اللّه: فلا تراني بعدها قاطعا رحما.

يقول الصادق: إن رجلا أتى النبي فقال: يا رسول اللّه إني لي أهلا قد كنت أصلهم وهم يؤذونني وقد أردت رفضهم. فقال له رسول اللّه: «إن اللّه يرفضكم جميعاً» قال الرجل: كيف أصنع؟ قال: «تعطي من حرمك وتصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك. فإذا فعلت ذلك كان اللّه عز وجل لك عليهم ظهيرا».

وكان الإمام يصلي عن ولده في كل ليلة ركعتين، وعن والده في كل يوم ركعتين..

يقول في صدد الصلاة عن الميت: إنه ليكون في ضيق فيوسع عليه ذلك الضيق، ثم يؤتى فيقال له خفف اللّه عنك ذلك الضيق لصلاة فلان أخيك عنك.



وربما أجمل منهاج الصادق في القول والعمل للناس عامة، كلمات له يتناقلها الناس في كل مكان: «خير من الصدق قائله، وخير من الخير فاعله».

فهنا فضائل كثيرة مجتمعة. هي الخير، وصنعه، وإمكان القتداء بصانعه، وإعلان لرأى الإمام بأن الايمان عقيدة وعمل، وأن العمل الصالح يحول الفكر المجرد، إلى فعل نافع أو أمر واقع؛ والعمل هو الوسيلة المنجحة إذا جرى مجرى الأصول. والصادق يروي عن علي(عليه السلام): «سمعت رسول الله يقول: عليكم بسنتي، فعمل قليل في سنة خير من كثير في بدعة».

والإمام يرى أن «رأس الحزم التواضع» وأن التواضع هو «الرضى بأن تجلس من المجلس بدون شرفك وأن تسلم على من لقيت. وأن تترك المراء وإن كنت محقاً». ويقول: «من أكرمك فأكرمه ومن لم يكرمك فأكرم نفسك عنه».

ويضيف إلى ذلك: «إنك لن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشره عليهم من فضلك». وهذا الفضل بعض المعروف. أما عن تمام المعروف فيقول: «المعروف لا يتم إلا بثلاثة: تعجيله، وتصغيره وستره».

يقول: «العافية نعمة يعجز عنها الشكر» بل يقول: «المعروف زكاة النعم».

والله تعالى يقول:«وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها». فما أكثر ما يستحق الناس من المعروف عند المسلم الصادق.

والسخاء سمو، ولو من الجاهل. يقول (عليه السلام): جاهل سخي أفضل من ناسك بخيل.

فلنتصور مجتمعاً يسود فيه السخاء.. ويعم العطاء، ويتواتر المعروف، ليتعاون الناس في دنياهم.. وتستوثق القربى فيهم، فتزداد لحمة الأسرة وثاقة، ثم تلتزم الجماعة والأفراد بالمكارم العشرة التي نص عليها الإمام! إنه المجتمع الإسلامي!.

لنقرأ وصية الإمام لعبدالله بن جندب لنلمس مواقع الجمال والكمال في هذا المجتمع.

«لا تكن بطرا في الغنى ولا جزعاً في الفقر. ولا تكن فظاً غليظاً يكره الناس قربك. ولا تكن واهناً يجفوك من عرفك. ولا تشار من فوقك. ولا تسخر ممن دونك. ولا تنازع الأمر أهله. يا ابن جندب: لا تتصدقن على أعين الناس يزكوك. فإنك إن فعلت ذلك فقد استوفيت أجرك. ولكن إذا أعطيت بيمينك فلا تطلع عليها شمالك. فإن الذي تتصدق له سراً يجزيك علانية. فقد علم ماتريد».

الأخوة

كان طبيعياً أن تمتد هذه المبادئ السياسية والاجتماعية، الموجهة للأفراد، إلى بيئتهم، وأن يكون المقام العظيم للأصحاب والصحبة.. وهي القرابة التي يختارها المرء لنفسه ولا تفرض عليه من أسلافه. والصحبة أداة منجحة للتكافل والتكامل. وبها تجتمع «الخلية الأولى» للجماعة الهادفة.

ولعل في اهتمام الإمام بالصحبة والأخوة دليلا على اتجاه نحو إيجاد مجتمع أو جماعات تتآخى في التشيع. وبمثل هذه الجماعات قامت الدول الشيعية على نظم مشهورة في الدعوة لها، خافية أو معلنة، وبخاصة نظم الدعوة الاسماعيلية.

وكما حفلت مجالس الإمام ومقولاته بوصف (الجعفري) وبعبارة (شيعتنا)، حفلت بتوكيد أسباب التعاون بين الإخوان.

هو أولا يجعل المودة بينهم من الدين فيقول: «من حب الرجل دينه حبه إخوانه» ثم ينتقل من الوضع الديني إلى الاجتماعي فيقول: «وطّن نفسك على حسن الصحبة لمن صحبت. وحسن خلقك وكفّ لسانك واكظم غيظك. أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقه ولا يعرف حق جاره. ليس منا من لم يحسن مجاورة جاره».

وقديماً قيل لأبي الأسود الدؤلي تلميذ «علي»: «بعت دارك»؟ قال «بعت جاري» وقيل: «الرفيق قبل الطريق».

والإمام الصادق يقول: «أيسر حق من حقوق الإخوان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك وأن تكره لأخيك ما تكره لنفسك وأن تتجنب سخطه وتتبع مرضاته وتطيع أمره وتعينه بنفسك ومالك ولسانك ويدك ورجلك. وأن تكون عينه ودليله ومرآته. ولا تشبع ويجوع. ولا تروى ويظمأ. ولا تلبس ويعرى. وأن تبر قسمه. وتجيب دعوته. وتعود مريضه. وتشهد جنازته. فإذا علمت أن له حاجة تبادر إلى قضائها ولا تلجئه إلى أن يسألكها».

فكل وجه من الوجوه المشار إليها أداة تراحم.. تمكن للأخوة الإسلامية. وكل

تفريط، مهما قل أمره، أو ضاق زمنه، تنقص من الأخوة الإسلامية. فإذا أطال المسلم قطيعة أخيه، فهي إحدى الكبر. فالمجتمع المتقاطع، هو كالمجتمع بين أعداء... أو كالجزر المتنازحة في اليم، حدود كل منها مصالحها.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام: «هجرة الرجل أخاه سنة كسفك دمه».

وما أدق نصح الإمام في معاشرة الناس: «لا تفتش الناس فتبقى بلا صديق. المؤمن يداري ولا يماري. مجاملة الناس ثلث العقل».

وهو ينهى عن الظنة. فالظنين متهم. يقول: «ضع أمر أخيك على أحسنه. ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملا».

أما من فرط حيث تجب اليقظة فلا يلومن إلا نفسه ـ يقول الإمام: «من كتم سره كانت الخيرة بيده» ويقول: «لا تثقن بأخيك كل الثقة فإن سرعة الاسترسال لاتقال» ويقول: «صدرك أوسع لسرك» و «سرك من دمك فلا تجره في غير أوداجك».

ويقول: «من خان لك خانك. ومن ظلم لك سيظلمك. ومن نم إليك سينم عليك».

ولما سئل عن الرجل العدل قال: «من غض طرفه عن المحارم ولسانه عن المآثم وكفه عن المظالم».

والإخوان ـ عند الإمام ـ هم المواسون، فهم بين ثلاثة: «مواس بنفسه وآخر مواس بما له وهما الصادقان في الإخاء، وآخر يأخذ منك البلغة ويريدك لبعض اللذة فلا تعده من أهل الثقة».



والإمام يأمر بالرفق بالناس. فينبه الذين يتطاولون ليتطامنوا. فيقول: «من الجور قول الراكب للراجل: (الطريق)» فهو الراكب، وبيده الزمام، والطريق للناس كافة. وكفى الراجلين أنهم يمشون. وكفاه أنه فوق ظهر.

يقول الإمام عليه السلام «لاتسم الرجل صديقاً، سمة معرفة، حتى تختبره بثلاثة: تغضبه فتنظر غضبه أيخرجه عن الحق إلى الباطل. وعند الدينار والدرهم. وحتى تسافر معه».

ويقول: «ثلاثة لا تعرف إلا في مواطن: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا

الشجاع إلا عند الحرب. ولا الأخ إلا عند الحاجة» ومن التبذل تنقص الكرامة. يقول: «لا تمار فيذهب بهاؤك. ولا تمزح فيجترأ عليك. ولا جهل أضر من العجب».

والغضب عند الإمام مفتاح كل شر، بما فيه من ذبذبة للذات وزعزعة للتوازن، فعنده أن «من ظهر غضبه ظهر كيده»، بل إن «من لم يملك غضبه لم يملك عقله» في حين أن «المؤمن إذا غضب لم يخرجه غضبه عن حق وإذا رضي لم يدخله رضاه في باطل».

ويهتف الإمام بالشيعة: «يا شيعة محمد. ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، ويحسن صحبة من صاحبه، ومرافقة من رافقه، ومخالفة من خالفه».

وأي أدب للنفس والعقل كمثل ذلك الذي يعبر عنه الإمام بإحسان المخالفة! ـ وما هو إلا الحلم والأناة، قرظهما رسول الله للمنذر إذأتاه، في وفد عبد القيس، فقال له «فيك خلتان يحبهما الله عز وجل: الحلم والأناة».

وفي عبارات تأخذ شكل ثلاثيات، قليلة العدد جليلة الفحوى، يجمع الإمام آلاف الرذائل المدمرة في ستة أصحاب خرق. هم كالجيوب المخروقة للمجتمع لا تبقي ولا تذر: وهم المرائي والكسلان والمسرف والمنافق والحاسد والظالم، تشتعل بنقائصهم نيران الرذالات جمعاء، وإذ يتكاثرون في كل مكان، بالعدوى والتناتج، ويستهين الناس بخطرهم على أنفس الأفراد ومقومات الجماعة وقوة الدولة.. مع أن أخطارهم السلبية تتوازن في ضررها مع أعظم الإيجابيات فتفقد الأمم تماسكها.

وجمعها في صعيد واحد، وإجمالها في كلمات، آية على نفاذ البصيرة وإحسان البيان. يقول الإمام:

للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده. وينشط إذا كان الناس عنده. ويحب أن يحمد بما لم يفعل.

وللكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتى يفرط. ويفرط حتى يضيع. ويضيع حتى يأثم.

وللمسرف ثلاث علامات: يشتري ماليس له. ويأكل ماليس له. ويلبس ماليس له.

وللمنافق ثلاث علامات: إذا حدث كذب. وإذا وعد أخلف. وإذا اؤتمن خان.

وللحاسد ثلاث علامات: يغتاب إذا غاب. ويتملق إذا شهد. ويشمت بالمصيبة.

وللظالم ثلاث علامات: يعصي من فوقه. ويعتدي على من دونه. ويظاهر الظالمين.

ولكل واحدة من هذه العلامات شعب يبلغ العلم بها أكثر من ألف باب.

المرأة

في فقه الإمام عناية بالغة بالنساء في الزواج والطلاق والميراث.. وهي دعائم الأسرة وقوائم المجتمع. وقد عرضنا لبعضه.. قبل. لكن اهتمامه الاجتماعى بالأسرة أو بالمرأة لايقف عند الحكم الفقهي وإنما يتعداه إلى الترغيب والتهذيب بالنصح الدؤوب. فمرآة المجتمع العظيم الأسرة السعيدة، وزينتها وحليتها المرأة الصالحة. وهي نصف الناس، وأم الجميع.

يقول الإمام: «اتقوا الله في الضعيفين: اليتيم والنساء».

ويقول: «البنات حسنات والبنون نعم. الحسنات يثاب عليها. والنعم مسئول عنها».

وإذا كان البنات حسنات يلقى بهن المرء بارئه، فيزدنه درجات، فالإمام يجعل للأمهات درجة في طاعة أوامرهن، فيأمر بالمبادرة بطاعة الأم، إذا دعا الأبوان.

ويلقي على الأم في دارها واجب استثمار الزمن في خدمة الأسرة والأمة. ويفرض على المجتمع واجب إحصان أفراده بالتيسير في المهور. وعلى المرأة واجب التعاون في إنجاح الزوجية بالوفاء بحق الزوج. ويجمع بين حسن التبعل وبين حسن الجوار. فيقول: «الشؤم في المرأة كثرة صداقها وعقوق زوجها ـ وفي الدار ضيق ساحتها وشر جيرانها».

يقول عليه الصلاة والسلام: «علموا أبناءكم السباحة والرماية.ونعم لهو المرأة في بيتها المغزل»

فهن مطالبات ألا يفتحن الأبواب للشيطان بالفراغ.. مطالبات بأن يعملن ما يجمل بهن. والمرأة التي تمسك المغزل بيد، وتهز مهد الطفل بيد، تضم بين ذراعيها أسرة

سعيدة. ولقد كان النساء آخر ما أوصى به صلى الله عليه وآله وسلم.

يقول الإمام: «صلاح حال التعايش على مكيال ثلثاه فطنة وثلثه تغافل».

وهذه الأثلاث تتردد في مضامين ثلاثيات شتى. تجتمع وتفترق. لكنها كلها أركان لسعادة المجتمع الكبير الذي هو الأمة، والصغير الذي هو الأسرة. وقد سلف علينا في ثلاثية سابقة كيف قرن نكد الزوجية، بالنكد في الجيرة والسلطان الجائر. وهنا يستلفت الأنظار إلى ما يجب من إحسان العشرة، بالسلوك الرفيع والإنفاق اللازم، واحترام الذات حيث يقول: «إن المرء يحتاج في منزله وعياله إلى ثلاث خلال يتكلفها، وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة، وسعة بتقدير، وغيرة بتحصن».

ثم يقول ليبين أثر المرأة في سلام الأسرة: «ثلاث من ابتلي بهن كان طائح العقل: نعمة مولية، وزوجة فاسدة، وفجيعة نجيب».

فهو يضع فسادها في منزلة بين المنزلتين؛ النعمة الضائعة، والفجيعة الحالة. في حين يقدمها عند صلاح حالها على فلذة الكبد والصديق الصافي إذ يقول: «الأنس في ثلاثة: الزوجة الموافقة، والولد البار، والصديق الصافي».

والرجل رأس الأسرة، لا يلقي مقاده أو مقادها إلى الزوجة، وإلا غرقت السفينة. يقول الإمام: «ثلاثة من استعملها فسد دينه ودنياه: من ساء ظنه، وأمكن من سمعه، وأعطى قياده حليلته».

وفي هذه الثلاثية تجتمع سلبيات خلقية ثلاثة في دنيا الرجل. فتحل الأشباح محل الأشياء، والأصداء محل الأصوات، والنساء محل الرجال. وليس هذا عالم المسلمين.

وفي ثلاثية أخرى نرى تصنيفاً من نوع خاص: «النساء ثلاثة: واحدة لك. وواحدة عليك ولك. وواحدة عليك. أما التي لك فهي العذراء. والتي لك وعليك فهي الثيب. أما التي عليك فهي المتبع التي لها ولد من غيرك».

وإنما ينبه الإمام الرجال ليزداد برهم بمن يمكن أن تكون لهم أو عليهم، كي يتكلفوا لها خصالا نص عليها: معاشرة جميلة وسعة بتقدير وغيرة بتحصن.

العلم

أينما ذهبت في سيرة الإمام فثم وجه العلم، والتعويل على العلماء، والتمسك بالخلق العلمي وأساليبه:

يقول لعنوان البصري: «اسأل العلماء ماجهلت وإياك أن تسالهم تعنتا وتجربة. وإياك أن تعمل برأيك شيئا. وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلا. واهرب من الدنيا هربك من الأسد..».

ويقول لحمران بن أعين: «العمل الدائم القليل، على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير، على غير يقين».

وهذان القولان لعنوان وحمران نصيحتان نابعتان من منهج الإمام في الفقه وأصوله. فهو يلتزم الأشياء الثابتة والنصوص الواضحة. لأنها نقطة الارتكاز. وينصح بعدم المجازفة في طريق غير مؤكدة، يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيده سرعة السير إلا بعدا».

ومن المنهج حسن التلقي وحسن الأداء فهو لا يحب المحال والعنت كما قال لعنوان: «الجهل نقص في الدين والخلق ومعاملة الناس»، أو كما قال: «الجهل في ثلاث: الكيد، وشدة المراء، والجهل بالله».

ويقول: «ثلاثة يستدل بهن على إصابة الرأى: حسن اللقاء وحسن الاستماع وحسن الجواب»

أما البلاغة فهي «ليست بحدة اللسان ولا بكثرة الهذيان ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة».

وقديماً قيل: البلاغة الإيجاز. وقيل: من البلاغة حسن الاستماع.

والصادق ينبه العلماء والأدباء وكل صاحب موهبة، على أن «من أدب الأديب دفن أدبه».

إنما الطريق القاصدة طريق التقوى والاجتهاد والتأمل. يقول: «كثرة النظر في العلم

تفتح العقل، وكثرة النظر بالحكمة تلقح العقل»

ويقول:«من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لا يعلم».

ويقول:«الرجال ثلاثة عاقل وأحمق وفاجر: العاقل إن كلم أجاب. وإن نطق أصاب. وإن سمع وعى. والأحمق إن تكلم عجل، وإن حدث ذهل، وإن حمل على القبيح فعل. والفاجر إن ائتمنته خانك وإن حدثته شانك».

ومن إجلاله وظيفة المعلم يقول: «أربعة ينبغي لكل شريف ألا يأنف منها. أو لها خدمته لمن تعلم منه.......».

و «العلم جنة.. والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. والله ولي من عرفه. العاقل غفور والجاهل ختبور... ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم. ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه». و «أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا».

و«الخشية طريق العلم. والعلم شعاع المعرفة وقلب الإيمان. ومن حرم الخشية لا يكون عالما».

الدعاء

منهج أهل البيت في إصلاح الدنيا هو المعرفة. وأولها معرفة الخالق جل شأنه بالعقل، وتثبيت الفهم بالخشوع والتقوى. فليس في غيرهما قناعة أو جدوى. يقول عليه الصلاة والسلام: «أعوذ بالله من علم لاينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع».

وفي ذات يوم ذهب قوم يقولون للإمام الصادق: ندعو. فلا يستجاب لنا! فأجاب «لأنكم تدعون من لا تعرفونه» فمعرفة الله مطهرة للحياء. وصلة وثقى بين الرجاء والرضى وبين الدعاء والاستجابة.

والدعاء تزكية للنفس وسبيل لها إلى خالقها ـ بإخلاص تام ـ فهو ترياق من نفس الإنسان، ومعراج إلى رضاء السماء بالالتجاء الكامل إلى الله، والانفصال في وقت الدعاء وحواليه عن الرذيلة. فإذا تعددت أوقاته، تكرر الانفصال مما يشين. وازداد

العبد قربا، وأوقات قرب، من خالقه سبحانه. بالتكرار، وإخلاص النية. ـ ومن أجل ذلك يبرز الدعاء في منهج الشيعة ومؤلفاتهم كالصحيفة السجادية ـ نسبة إلى السجاد زين العابدين وفيها عشرات الأدعية.

والبعض يسميها مزامير أهل البيت ـ ومصباح التهجد ومختصر المصباح وهما من مؤلفات الطوسي.

ومن ضروب التربية العصرية الإيحاء إلى الذات.. وفي الدعاء إيحاء ورجاء، وتوجه إلى الله، وسعي لمرضاته.

وللأئمة دعوات مأثورة، تحويها صحف مشهورة، ولها مناسبات معلومة، وأوقات تمارس فيها.. في الأصباح والأمسية والأيام والليالي والشهور.. كأدعية ليلة الجمعة، أو رجب أو شعبان أو رمضان. وللصادق أدعية تتردد في كتب الصوفية. فيها الإيحاء العميق بالفضائل إلى نفس من يدعو، في موقف يعلم أن الله حاضره. وأنه المرجو سبحانه. فهي أداة إصلاح نفساني منقطع النظير، فوق أنها نداء، يتعالى نحو السماء، في التماس المغفرة.

يقول (الشعبي) شيخ المحدثين من أهل السنة: «عجبت ممن يقنط ومعه الممحاة». قيل وما الممحاة؟ قال: الاستغفار.

ولقد كان الصادق يدعو الله في كل أوقاته؛ ومنها لقاءاته مع أبي جعفر حيث كان يدعو الله قبل أن يدخل عليه ـ فيثبت الله جنانه ويحيل بطش الجبابرة إلى ما يشبه طنين الذباب. ومن المأثور عنه قوله: «إن الدعاء يرد القضاء. وإن المؤمن ليذنب فيذهب بذنبه الرزق».

الفصل الحادي عشر

المنهج الاقتصادي

«ليس خيركم من ترك آخرته لدنـياه ولا
دنياه لآخرته.
خيركم من أخذ من هذه لهذه».

(حديث شريف)

ليس المنهج السياسي أو الاجتماعي ـ ومنهما الاقتصادي ـ إلا متابعة للمنهج العلمي من الواقعية وإعمال العقل والعمل للتقدم، وفق حاجات الزمن واختلاف الأقاليم.. على أساس المساواة بين الناس، وعمارة الدنيا بالعدل وإحسان القيام على مرافقها.

والمنهجان ـ سواء العلمي أو السياسي الاجتماعي ـ ينبعان من القرآن وتطبيقات السنة. وهما وجهان لعملة واحدة هي القيم الإسلامية. فكل ما أبعد من هذه القيم لا يكون إسلاميا وإن انتظم مسلمين. فالمسلمون لا يصلحون إلا أن يلتزموا قيم دينهم. وقد أصّلها الإمام علي، وتابعه فيها الأئمة من بنيه.

ومن القيم الاجتماعية السليمة تنشأ القيم الاقتصادية البناءة. ولذلك تتجلى الوحدة الموضوعية بين الدين والسياسة والاقتصاد والوحدة الفنية بين علمي المالية والاقتصاد وبينهما وبين فن الإدارة، في عهد أمير المؤمنين علي بن أبى طالب للأشتر النخعي.

وسنرى بعض المقولات فيه تكاد تكتب في النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد بأيدى المصلحين الاقتصاديين العالميين. فهي عصرية أبداً لأنها إسلامية خالصة.

يقول: «وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم. ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم. لأن الناس عيال على الخراج وأهله... وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك في جباية الخراج. لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا... ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤنة عليهم فإنهم ذخر يعود عليك في عمارة

بلدك وتزيين ولايتك، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم. فربما حدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم».

أما عن «نشاط الأفراد» في التجارة والصناعة والزراعة والخدمات، والبيع والشراء. وعن حرية التجارة والانتقال والعمل كأداة للإنتاج، ففيها التعبير العلمي الرفيع عن التاجر والعامل، إذ يسميهما «المضطرب بماله» و «المترفق ببدنه». وفيها التأييد والتيسير والإشراف والمتابعة من السلطة والتعاون بين الراعي والرعية حيث يقول:

«ثم استوصِ بالتجار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً؛ المقيم منهم، والمضطرب بماله، والمترفق ببدنه، فإنهم مواد المنافع، وأسباب المرافق، وجلابها من المباعد والمطارح.. فإنهم سلم لا تخاف بائقته. وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك. واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً.. وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع. فامنع من الاحتكار...».

أما الطبقة الأخرى، وهي التي تمثل اليد السفلى، لعجزها، ولأنها تأخذ من اليد العليا لاقتدارها، فأوامره في صددها قاطعة. يقول:

«ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى. فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً.. واجعل لهم قسما من بيت مالك..»

ولقد سلف القول عن المنهج السياسي لدى أمير المؤمنين.. وهو المساواة التامة بين المسلمين في العطاء وحقوق بيت المال وترك الأرضين في أيدي أصحابها بعد الفتح.. وغير ذلك مما يكشف لنا منهاجه الاقتصادي بتمامه. وفيما أو ضحناه إشارة إلى مالم نعرض له بتوضيح.

والنظريات تكشفها كليات. والكليات والجزئيات والتطبيقات ينتظمها جميعاً أصل ثابت من قول الرسول: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه. ولكن خيركم من أخذ من هذه لهذه».

العمل

العمل عند الشيعة قوة الإنتاج الكبرى. ومن أجل ذلك كان العمل للمعاش فرضا على المؤمن ليحيا في هذه الدنيا، ولا يجوع فيها ولا يعرى، أو تجرفه القوى، أو يحرفه الفراغ واللهو، أو تفسده طراوة الدعة ـ وأول ما ينبغي له البدء بتقوية النفس وتبرئتها من الشح والطمع، وحثها على طلب الحلال. يقول الإمام (عليه السلام): «مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب العطشان منه ازداد عطشاً» و «أربعة تذهب ضياعا؛ الأكل بعد الشبع والسراج في القمر، والزرع في السبخة، والصنيعة عند غير أهلها».

أما المؤمن فهو «من طاب مكسبه، وحسنت خليقته، ووضحت سريرته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من كلامه، وكفي الناس شره، وأنصف الناس من نفسه. وهو حسن المعونة، خفيف المؤنة، جيد التدبير لمعاشه، ولا يلسع من جحر مرتين».

ثم يضع الإمام الضوابط للسعي في الحياة وتحصيل المعايش فيقول: «ليكن طلبك للمعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب الحريص الراضي بدنياه، المطمئن إليها. أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف. وترفع بنفسك عن منزلة الواهن الضعيف. وتكسب ما لابد منه للمؤمنين».

وهو إذ يوصي بالإجمال في الطلب، ينادي بالحكمة في الإنفاق. فيقول «إن السرف يورث الفقر، وإن القصد يورث الغنى».

وتدبير المعاش أساسي ليجتمع للمرء مال يكفي نفسه، ويفضل منه على غيره، ويؤدي به واجبه في الدين والدنيا. ومن أجل ذلك كان الصادق يعمل بيده، ويتجر، وينفق أمواله على الناس، وهو الإمام القدوة، ليوجه أنظار شيعته للعمل في الحياة الدنيا، كي يقدروا على أعباء الحياة وأداء الزكاة وصلة الرحم والإنفاق على المحتاجين. ولا يمكن المرء من كل ذلك إلا رزق يحصله من دأبه. يقول الإمام عليه السلام: «من لم يكن فيه خصلة من ثلاث لم يعد نبيلا؛ من لم يكن له عقل يزينه أو جدة تعينه أو عشيرة تقصده».

والصحابة العظماء كانوا يعملون ليعيشوا. وما أكثر ماعمل «علي عليه السلام» ليعيش. وهو تراث أهل البيت الذين لا يضيعون الزمان سدى. يقول الإمام عليه السلام: «الأيام ثلاثة: يوم مضى لا يدرك. ويومٌ الناس فيه فينبغي أن يغتنموه. وغد في أيديهم أمله» وما الاغتنام إلا بالعمل الصالح للنفس وللناس. أما من قعد يلتمس عطاء الآخرين فيده هي السفلى.. ومثله مثل القاعد عن العبادة.. أو كالذي ينتظر الذهب والفضة تساقطان من السماء.

يقول عن القاعدين: «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر».

والشيعة في كل مجتمعاتهم يدأبون كدأب آبائهم أو أشد، ويتقلبون في البلاد بتجاراتهم، كهيئة ماكانوا يتقلبون في الأيام الاولى، مع الزام صاحب المال المسؤولية عن طريقة كسبه او ابواب إنفاقه... يقول يحيى بن معاذ: «مصيبتان لم يسمع بمثلهما في الأولين والآخرين للعبد في ماله عند موته: يؤخذ منه كله. ويسأل عنه كله».

وهم إلى جوار إيجابهم العمل يوجبون الاستقلال فيه، وعدالة توزيع الرزق منه، فلا يجوزون الشركة المطلقة بين اثنين في كل نشاطهما... وشرط الشركة وجود رأس المال. وهم يسمون الشركة بدونه «شركة أبدان» ولا يصححونها؛ لأن كل إنسان مستقل بجهده، ومنافع جهده له. فإذا أخذ من الآخر اخذ ما لا يستحق ـ وفي هذا حض على الاستقلال الشخصي، والسعي الخاص، حتى لايكون أحدٌ كَلاً على غيره. وكمثلهم الشافعي لا يجوّز هذه الشركة. فلكل ما سعى.

وهم أعداء للتواكل. جاء أميرالمؤمنين علياً عليه السلام العلاء الحارثي فقال: يا أميرالمؤمنين أشكو إليك أخي عاصما. لبس العباءة وتخلص من الدنيا. قال: عليَّ به. فلما جاء قال: «يا عدو نفسه. لقد استهام بك الخبيث (الشيطان). أما رحمت أهلك وولدك. أترى الله أحلّ لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها. أنت أهون على الله من ذلك».

قال: يا أمير المؤمنين؛ هذا أنت في خشونة ملبسك وجشوبة مأكلك!

قال: «ويحك إني لست كأنت. إن الله قد فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس».

ولكم كان رقيقا صاحب هذا الملبس الخشن إذا عامل الضعفاء... ولو كانوا غير ناس، أو كانوا من الأعداء: كان يوصي من في يده إبل الصدقة ألا يحول بين ناقة وفصيلها، وأن لا يبالغ في حلبها خشية أن يضر ذلك بوليدها، وأن لا يركب ناقة ويدع غيرها، بل يسوى في الركوب بينها وبين صاحباتها.

ولما حال بينه وبين الماء جند معاوية، حاربهم عليه فأجلاهم عنه. ثم سقاهم منه! اسوة بجنده!

المضطرب بماله والمترفق بيده. او: التجارة والصناعة

إذا كانت الحضارة الغربية لم تفطن إلى أن العمل أداة الإنتاج الأولى إلا في العصور الأخيرة، فلقد طالما أعلنت ذلك السماء. والعمل التجاري أو اليدوي ميراث الأنبياء. ومن عمل الصحابة تعلم الناس جلال قدر المضطرب بماله أو المترفق بيده، أو ببدنه، كما يعبر أمير المؤمنين(عليه السلام).

والصادق عليه السلام يمسك المسحاة ويعمل في بستان له، وحبات العرق تنساب كالبلور المذاب، على الجبين المزهر! فيهيب به تابع له: جعلت فداك. أعطني المسحاة أكفك. فيجيبه: «إني أحب أن يتأذى الرجل بحر الشمس في طلب المعيشة». وكان عندئذ يلبس قميصا ويفتح الماء بالمسحاة ويقول: «إني لأعمل في بعض ضياعي ولي ما يكفيني ليعلم الله عز وجل أني أطلب الرزق الحلال».

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتناوب ركوب راحلته ويقول لزميليه في السفر (علي وأبي لبابة) حينما أرادا أن يستمر راكبا في نوبتهما: «ما أنتما بأقوى على المشي مني. وما أنا بأغنى عن الأجر منكما» وكان ينزل عن بغلته ليركب من يأخذ بزمامها معه. ويقول لمن يريد حمل شيء بدلا منه: «صاحب الشيء أولى بحمله».

أما أمير المؤمنين علي(عليه السلام) فيحمل لأهله التمر والبلح في ثوبه ويقول:

لا ينقص الكامل من كماله   ما جر من نفع إلى عياله

ويروي «علي» أن الزهراء أجرت الرحى حتى أثرت الرحى بيدها. وقمّت البيت

حتى اغبرّت ثيابها. وأو قدت القدر حتى اسودّت ثيابها، وأصابها من ذلك ضرّ. ويقول عطاء: إن كانت فاطمة لتعجن حتى أن قصتها لتصيب الجفنة.

وأي عظمة في الدنيا كعظمة اليد العليا، وهى تعمل لبناية الدنيا فتعطي.

لقد قبّل رسول الله اليد التي تحمل المسحاة يوم أقبل من تبوك. فلقيه سعد الأنصاري فنظر إلى يد سعد وقال: «ما هذا الذي أكتب يديك»؟ فقال: يا رسول الله أضرب بالمر والمسحاة فأنفقه على عيالي،فقبّل رسول الله يده وقال: «هذه يد لا تمسها النار».

ولما أعطى الرسول اليد العاملة أماناً من النار، جعل العمل عبادة، وإن ورد النص على العمل البدني، فما هي إلا إشارة لكل عمل. وهو عليه الصلاة والسلام القائل «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي الجبل فيجيء بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، ويستغني، خير له من أن يسأل الناس؛ أعطوه أو منعوه».

وهو عليه الصلاة والسلام ـ وعلى آله ـ ينبه على قيمة الوقت والالتزام بالواجب، والبدء بالعمل النافع فيقول: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها. وإن استطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها».

وأي جلال كجلال رسول الله وهو يعمل بيده. من أجل تحرير شيخ من أشياخ الشيعة العظماء. ليحفظ الشيعة لأنفسهم وللدنيا معهم، ذلك الدرس العظيم: أن العمل والحرية صنوان. وأن كلا منهما وسيلة للآخر.

أرسل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم علي بن أبى طالب إلى خليسة مولاة سلمان الفارسي، وكانت قد اشترته بثلثمائه درهم من أعراب حملوه إلى يثرب. ومكث معها ستة عشر شهرا حتى قدم النبي يثرب، فسميت المدينة، فأتاه سلمان فأرسل النبي عليا إلى خليسة، بعد إذ أسلمت، لتعتق سلمان. قالت: قل للنبي إن شئت أعتقتهُ، وإن شئتَ فهو لك. قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أعتقيه أنت» فأعتقته. فغرس لها رسول الله ثلثمائة فسيلة.

وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «سلمان منا أهل البيت»[١]

ومع أن الإمام الصادق يرى إنفاق المال في البر تجارة مربحة فيقول: «إني لأملق أحيانا فأتاجر مع الله بالصدقة فيربحني وأتسع» أي أنه يوجب الإنفاق في حالَي اليسر والإملاق، ويرى علاجا للفقر أن يتعامل مع الله بعطائه للفقراء، فهو في الوقت ذاته يشجع الناس على العمل.

والمجتمع الشيعي مجتمع العاملين لا يتسع للمتسولين؛ والإمام الصادق ـ من جراء ذلك ـ يؤثر عطاء الذين لا يسألون الناس على الذين يسألون.

ولو قام أهل الإسلام بواجب الإنفاق لما افتقر مسلم واحد. فالعمل بكل أموال الأمة

---

(١) اضافه النبي إلى أهل البيت فصلا من النبي في تنازع المهاجرين والأنصار عليه إذ كان كل من الفريقين يريده واحدا منهم.

وكان سلمان في انتسابه لأهل البيت حيث أراد صاحبه صلّى الله عليه وآله وسلّم. فهو صاحب الرأي بحفر الخندق في يوم غزوة (الأحزاب) وعلي هو الذى قتل عمرو بن عبدود فارس العرب يوم ذاك ـ فلآل البيت في هذه المعركة القدح المعلى.

وكان حكيما. إذا خلا به رسول الله ﷺ لم يبغ أحدا غيره. عينه عمر أميرا على المدائن عاصمة فارس، فكان يوزع عطاءه على الناس (خمسة آلاف درهم)، ويعمل الخوص بيده، و يبيعه بثلاثة دراهم، ينفق واحدا ويتصدق بواحد، ويشتري خوصا جديداً بواحد. وذات يوم دخلوا عليه دار الإمارة فوجدوه يعجن بيده. قال: بعثنا الخادم في عمل فكرهنا أن نجمع عليه عملين.

رآه رجل قادما من الشام فحسبه من ضخامة جسمه حمالا، فأعطاه حملا وقال اتبعني. فحمله وتبعه. ورآه الناس فتسارعوا يحملون حمل الأمير قال: لا... فرجا الرجل، إذ أدرك مقامه، فأبى وقال: لا حتى أبلغ منزلك. ولما وضع الحمل في مكانه وقال: «اني احتسبت بما صنعت خصالا ثلاثة: اني نفيت عني الكبر، وأعنت رجلا من المسلمين على حاجته، وإن لم تسخرني سخرت من هو أضعف مني فوقيته بنفسي».

فهو يحمل الحمل عن رجل ضعيف. ولا يخزي صاحب الحمل بتعريف نفسه. وينفي عنهما الكبر وهو أمير فارس! لكنه يحفظ وصية صاحبه صلّى الله عليه وآله وسلّم فيقول: «أوصاني خليلي ألا يكون متاعي من الدنيا إلا كزاد الركب».

وحسبه قول أمير المؤمنين علي(عليه السلام) عنه: «من لكم بمثل لقمان الحكيم».

يجعل الحبة الواحدة مائة حبّة؛ ذلك تقدير العزيز الحكيم في تشريعه. والصدقة تربي أو على الأقل لا تنقص. يقول عليه الصلاة والسلام: «ما نقصت صدقة من مال» بل يقول: «إنما ترزقون بضعفائكم».

والعمل في الصناعة والتجارة مدرسة الدنيا، ووسيلة لعمارتها بالكسب الحلال، وأداء حق المال؛ وهو محل إكبار المسلمين أجمعين.. يتراءى في كثير من أسماء جلة الفقهاء[1].

والصادق هو القائل: «الشاخص في طلب الحلال كالمجاهد في سبيل الله» والقائل: «إني لأرى الرجل فيعجبني فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا (لا) سقط من عيني».

ويقول الإمام الباقر: «الصدقة لا تحل لمحترف ولا لذي مرة سوي». فالمحترف غني بحرفته، وذو القوة غني باقتداره على العمل.

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: «ملعون من ألقى كله على الناس».

سأل إبراهيم بن أدهم (١٦٢) تلميذه شقيق البلخي (١٩٥)؛ وهما الزاهدان الشهيران: ما بدء أمرك الذي أبلغك هذا؟ قال شقيق: مررت ببعض الفلوات فرأيت طائرا مكسور الجناحين في فلاة من الأرض، فقلت أنظر من أين يرزق هذا. فقعدت بحذائه، فإذا بطير أقبل وفي منقاره جرادة، فوضعها في منقار الطير مكسور الجناحين. فقلت في نفسي: إن الذى قيض هذا لهذا قادر أن يرزقني حيث كنت. فتركت التكسب واشتغلت بالعبادة.

---

(١) أطلقت الأوصاف من كثير من الحرف على عظماء الفقهاء الذين يحترفونها (الخصاف ـ القدوري ـ الكرابيس ـ القفال ـ الصابوني ـ الحلواني ـ النعالي ـ البقالي ـ الصفار ـ الجصاص ـ التبان... الخ) ـ وقد عمل أئمة أهل السنة الأربعة، وعمل الصحابة التابعون.

ومن علماء الشيعة؛ نصر بن مزاحم (مؤلف كتاب صفين)، وداود بن أبي يزيد، وداود بن سرحان: كانوا عطارين. وميثم التمار يبيع التمر، ومؤمن الطاق، وخالد بن سعيد، ومحمد بن خالد، وصبيح بن أبي الصباح كانوا صيارفة. والشيخ آدم كان يبيع اللؤلؤ، ورفاعة بن موسى كان نخاساً، وابن حدير كان طحانا، وعبد الله بن ميمون كان قداحا (يبري القداح).

قال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطير الصحيح الذى أطعم الطير العليل حتى تكون أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أن «اليد العليا خير من اليد السفلى».

وخرج الإمام الصادق يسعى للرزق في يوم صائف شديد الحر، فقالوا: يابن رسول‌الله هذه حالك عند الله عز وجل، وقرابتك من رسول الله، وأنت تجهد نفسك في هذا اليوم! فقال لمن استنكر ذلك: «خرجت في طلب الرزق لأستغني عن مثلك».

ولما أخبروه يوما عن رجل يقول: لأقعدن ولأصلين ولأعبدن الله قال: «هذا أحد الذين لا يستجاب لهم».



ولا بأس أن يجد العامل في عمله بعض مشقة. فما هي إلا زيادة فى الفضيلة فيه أو الهناءة به.

جاءه من يرجوه ليدعو الله ألا يجعل رزقه على أيدي العباد، فأجابه: «أبى الله عليك ذلك. آلى الله الا أن يجعل رزق العباد بعضهم من بعض، ولكن ادع الله أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه. فإنه من السعادة. ولا يجعله على أيدي شرار خلقه.فإنه من الشقاوة».

والصادق بهذا التنبيه، يلفت النظر إلى أن التعامل يقتضي وجود طرفين، والسعيد من صلح طرفه الآخر. وهو فوق ذلك، يكمل نقصاً لدى كثير من الصالحين الذين يفوتهم أن خوض الغمرات للرزق، مع النجاة من ارتكاب الإثم في تحصيله، درجة أعلى في الفضل ـ بل هو يبصرهم بالمكروه الذي يلقاه الناس، إذ يبتغون غضارة العيش أو نضارة الحياة. يقول: «ليس من أحد وإن ساعدته الدنيا بمستخلص غضارة عيش إلا من خلال مكروه».

والغضارة نضارة ووضاءة وصلاح بال.. لا يمكن أن تكون بمعدى عن المكاره، ومنها الإيجابي الذي يستوجب النضال، ومنها سلبي، يتراءى فيما يفقده المرء من ذات نفسه بإضعاف قدرته على التحمل، أو منعها من العلم، أو مصير ذاته إلى الترهل. ومنها

ما يتقاضاه الناس من أعراض الناضرين إذ يمسون أغراضا لسهام الكلام.

وإنما ينضر الله عبد سمع مقال الرسول ووعاه أسلوبا في الحياة، وما هو إلا الجد وأداء الواجب، والاقتصاد في مظاهر الرفاه؛ وهو أقوم وأسلم.

وينضر الإمام وجه العمل ذاته ليزيد العامل قوة، ويزيد الأداء أناقة، وصلات المتعاملين وثاقة، حيث يقول: «كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خصال يجتلب بها الكسب: أن يكون حاذقا بعمله؛ مؤديا للأمانة؛ مستميلا لمن استعمله».

ولما ختم الخصال الثلاث بالاستمالة، كان يوجه من استعمل غيره أو استعمله غيره؛ ليدخل قلب عميله في حسابه. فهذا درس إسلامي اجتماعي في المحبة، مثلما أنه درس اقتصادي في إحسان الصناعة ووثاقة العلاقة ولباقة الأخذ ولياقة العطاء. والحياة كلها أخذ وعطاء.

التجارة

روى المعلى بن خنيس تابع الإمام[١]: رآني أبو عبد الله، وقد تأخرت عن السوق فقال: اغد إلى عزك.

قال معاذ: قلت لأبي عبد الله هممت أن أدع السوق قال: «إذن يسقط رأيك ولا يستعان بك على شيء».

وقال لمن ترك التجارة: «لاتتركها فإن تركها مذهبة للعقل. اسع على عيالك. وإياك أن يكونوا هم السعاة عليكم».

وسأل عن تلميذ له: ما حبسه عن الحج؟ فقيل: قل شيئه. فاستوى جالسا ـ وكان

---

(١) قتله داود بن علي ـ أمير المدينة لأبي جعفر المنصور ـ وصادر ماتحت يديه، من أموال كانت أموال الإمام الصادق، في نوبة من نوبات البطش التي اجتاحت المدينة وأهل البيت، بتهمة أنه لم يدل(داود) على اثنين من العلويين كان يبحث عنهما ـ وقصد الإمام إلى دار الإمارة يصيح في وجه داود بل يتهدده «قتلت مولاي وأخذت مالي. أما علمت أن الرجل لا ينام على الحرب»؟ فتنصل داود من المسؤولية وأمر بقتل القاتل فصاح هذا الأخير «يأمرونني بقتل الناس فإذا أمرت بقتلهم قتلوني!».

متكئا ـ وقال: «لا تدعوا التجارة فتهونوا».

وكسب المال من حله وإنفاقه في محله واجبان على المسلم. والتجارة ممارسة وتعامل، أي مران على الشؤون العامة والخاصة. والتاجر أعلى عينا بالأمور، وأقدر على مد يد العون للآخرين ـ وفي الاضطراب في الأسواق إثراء للجماعة، وتخطيط مشترك للمعايش، وهو قبل ذلك امتحان مستمر للنزاهة والبعد عن المحرمات.

وعناية الشيعة بتوضيح الحلال والحرام في التجارة ظاهرة في نصوص الفقه. فالمحرم مما يكتسب به، أنواع:

١ ـ الأعيان النجسة كالخمر.

٢ ـ الآلات المحرمة.. كآلات القمار.

٣ ـ ما يقصد به المساعدة على المحرم كبيع السلاح لأعداء الدين.

٤ ـ ما لا ينتفع به كالمسوخ.

٥ ـ الأعمال المحرمة كالغناء عدا المغنية لزف العرايس، إذا لم تغن بالباطل ويدخل عليها الرجال، والنوح بالباطل، أما بالحق فجائز، وهجاء المؤمنين، وتعليم السحر والكهانة.

٦ ـ الأجرة على القدر الواجب من تغسيل الأموات.

ولا بأس بالرزق من بيت المال، وكذا على الأذان. أما جوائز الظالم فمحرمة إن علمت بعينها، والولاية من العادل جائزة.. وربما وجبت. والولاية من الجائر محرمة، إلا مع الخوف، ـ فلو تيقن التخلص من المآثم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحبت.



وكما يعمل الإمام بيده ليتعلم الناس، يتجر بماله ليعلمهم دروسا في التجارة ـ بالتطبيق العملي الذى تشهده الملايين فتتعلم. وهو أجدى عليها من أن تعطى ملايين تنفقها ولا تتعلم.

دعا يوما مولاه مصادف، فأعطاه ألف دينار وقال له: تجهز حتى تخرج إلى مصر فإن

عيالى قد كثروا. فتجهز بمتاع، وخرج مع التجار حتى إذا دنوا من مصر، استقبلتهم عير خارجة منها، فسألوهم عن المتاع الذى يحملونه ماحاله في مصر، وما متاع العامة؟ فعلموا منهم أن ليس بمصر منه شيء. فتحالفوا على ألا ينقصوا من ربح دينار دينار... ووسع عليهم في الربح. ثم فصلت العير عن مصر إلى المدينة بالكسب العميم. ودخل مصادف على مولاه ومعه كيسان في كل منهما ألف دينار. وقال: جعلت فداك. هذا رأس المال وهذا الربح.

قال الصادق: سبحان الله تحلفون بالله على قوم ألا تبيعوا أو يربح الدينار دينارا!

ثم أخذ واحدا من الكيسين فقال: هذا رأس مالي ولا حاجة لنا في الربح. ثم قال: « يا مصادف. مجالدة السيوف أهون من طلب الحلال».

هكذا بورك لمصر في متاع الإمام. لكن الإمام لم يقبض درهما من أموال مصر.. أن قد أساء البيع الوكلاء.. مذ كانوا محتكرين. ولا «يحتكر إلا خاطئ». وهذا أول الدروس. وهي كثيرة؛ منها: أن زيادة الجهد واجبة عند كثرة العيال. وأن ترك ما فيه شبهة هو الحق، وأن النظر إلى الأمة كلها واجب؛ وهو أوجب على العلماء والرعاة.

كان إذا جاع الناس صنع صنيع آبائه، فأخذ جرابا فيه الخبز واللحم والدراهم على عاتقه، فذهب إلى ذوي الحاجات من أهل المدينة فقسمها فيهم وهم لا يعرفونه. حتى إذا مات افتقدوه فعلموا أنه «الإمام الصادق عليه السلام».

وما جاع قادر إلا ذكر البطون الخاوية.

وفي سعة أرزاق الحمقى عبرة للعقلاء. يقول الإمام: «إن الله تعالى وسع أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ويعلموا أن الدنيا لاينال مافيها بعمل ولا حيلة».

و «كم من طالب للدنيا لم يدركها. ومدرك لها قد فارقها. فلا يشغلنك طلبها عن عملك. والتمسها من معطيها ومالكها. فكم من حريص على الدنيا قد صرعت... ما الدنيا؟ هل الدنيا إلا اكل أكلته أو ثوب لبسته أو مركب ركبته؟».

ولا تعاب القلة، وإنما تعاب الرذيلة. ومنها التظاهر والإعلان الكاذب. والصدق صفة المتعاملين مع الله. والقليل مع الصدق كثير. ومن ثمة بركات الله في النفس

والعقل والمال، للصادقين.

والصادق، يعد بهذا كله في كلمته الجامعة «من أراد الله بالقليل من عمله أظهر الله منه أكثر مما أراد».

يقول لمن ساعد ـ بغير أجر ـ في عمل لم يجد صاحبه مالا ليكري من يساعده فيه «أما أنك إن تساعد أخاك أحب إلي من طواف أسبوع في البيت».

وترى من ذلك بروز «العمل الصالح» في أبواب العبادة، وتقديمه بين النوافل.

والصادق يخصص بعض ماله للإصلاح أياًكان وجهه.

تشاجر رجلان على ميراث فمرّ بهما المفضل بن عمر ـ صاحب الإمام ـ فدعاهما إلى منزله، فأصلح بينهما بأربعمائة دينار من جيبه، حتى إذا استوثق كل منهم من صاحبه، قال المفضل: إنها ليست من مالي، إن الإمام أمرني إذا رأيت اثنين من أصحابنا يتنازعان أن أصلح بينهما من ماله.

٢ ـ المال

هذه القوة الكبرى للإنتاج وهي العمل، تعاونها قوة أخرى هي المال، شريطة أن يستعمل. فإذا لم يستعمل تنقصته الزكاة عاما بعد عام حتى تقضي عليه. ومن أجل ذلك صار مباحاً الاتجار في مال اليتيم لحسابه حتى لا يأكله الزمن ـ وإنما يستعمل المال في التجارة وفي الصناعة والزراعة وسائر الوجوه. فلا يكنز ولا يؤخذ عليه ربا، بل يتواصل المسلمون فيه بالمعروف.

سئل الصادق: لم حرم الله الربا؟ وأجاب: «لئلا يتمانع الناس المعروف».

والمعروف مطلوب في العلاقات العادية والمالية وبين جميع المتعاملين، في القروض ونظرة الميسرة أو المشاركة في مخاطر الاتجار أو الاستصناع والمزارعة والخدمات، وسواها، لتجري الأرزاق لهم، من الله، على أيديهم.

وأول الواجبات في المال أن يكون أداة تعمير للدنيا باستثماره، وللأنفس بمشاركة المحتاجين إليه، سواء للعمل به أو للعيش منه، وألا يكون وسيلة للاستعلاء، وإنما

وسيلة للتواصل.. يتأدى بها المسلم إلى العمل الصالح. ومن الأوليات في هذه الواجبات الاقتصاد والترفق:

يقول الإمام (عليه السلام): «أيما أهل بيت أعطوا حظهم من الرفق فقد وسع الله عليهم في الرزق. والرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال».

والرفق لا يعجز عن شيء. والتبذير لا يبقى معه شيء.

وفي القليل كفاية من القناعة. والكثير لا يغني مع السرف..

وفي المعنى ذاته يقول الصادق: «ضمنت لمن اقتصد الا يفتقر» وإنما يفتقر من يتجاوز الحدود، ويبعثر قواه، ويخسر أشياءه.

وبالرفق في الأمور تجري الحياة بين الناس على نسق مقبول. يقول الإمام(عليه السلام): «من كان رفيقا في أمره نال ما يريده من الناس».

والله تعالى يحب الرفق في الأمر كله.

العبادة وانفاق المال

يكاد أكثر ما جمع من تعاليم الإملم في الأبواب الاجتماعية والاقتصادية، يتجه بفحواه شطر هذا الوجه من وجوه العبادة.

والله تعالى يصف المتقين في محكم كتابه، في أول صفحاته، بأنهم «الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون».

وكل نعمة رزق. يقول الرسول الاكرم (صلى الله عليه وآله وسلم): «نعمتان مغبون فيهما أكثر الناس. الصحة والفراغ»

فهاتان نعمتان يسأل عنهما الإنسان. والإمام (عليه السلام) يقول: «المعروف زكاة النعم».

فالمعروف زكاة واجبة لمجرد الفراغ من التبعات والسلامة من المرض.



ومن التطبيق الإسلامي للإنفاق ووجوهه المادية والمعنوية يظهر أنه العبادة الإسلامية الشاملة لكل الناس، ولكل شيء ولكل ساعة في الحياة يتاح فيها مد يد

بالمودة للغير، باعطاء أو قبول العطاء، والإقراض أو الاقتراض، ودفع الأذى، أو مجرد المعونة، بالفعل أو القول، أو العمل المادي، أو بمجرد الكف عن الأذى، وما إلى ذلك من أبواب التعاون بين أفراد المجتمع.. سواء بالمال أو بالسعي أو بالجاه أو بمجرد الاهتمام.

واهتمام المسلم بما أهم المسلم هو الذي يهب المقرور دفئا. والمكروب برءاً، والمنكوب طمأنينة.

يقول صاحب الشريعة: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم».

ولما حصرت الشريعة الفرائض رحمة من اللّه بعباده المكلفين، أطلقت المندوبات، لتتيح لهم أن يتطوعوا بالعمل الصالح كيفما قدروا وحيثما وفقوا ـ وبخاصة في إنفاق المال ـ ثم أكثرت الحض عليه، ثم جعلته ممكنا للجميع، وفي وجوه النشاط الإنساني جميعها.

يقول الإمام للصادق (عليه السلام): «ليعن بعضكم بعضا فإن أبانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان يقول: «إن معونة المسلم خير وأعظم أجرا من صيام شهر واعتكافه شهرا في المسجد الحرام» وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم المسلمين فإن أبانا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم كان يقول «ليس لمسلم أن يعسر مسلما. ومن أنظر مسلما أظله اللّه يوم القيامة بظله حيث لا ظل إلا ظله..».

وذات يوم قال رجل: إن بيني وبين رجل منازعة في أمر وإني أريد أن أتركه فيقال لي إن تركك ذلة. فقال الإمام: «إن الذليل هو الظالم». فهو لا يرى الترك عيبا، إنما العيب بالظلم، أيا كان مصدره، التارك أو المتروك له.

ودخل عليه عمار الساباطي فقال له: يا عمار إنك رب مال كثير فتؤدي ما افترض عليك اللّه من الزكاة؟ قال: نعم. قال: فتخرج الحق المعلوم من مالك؟ قال: نعم. قال: فتصل قرابتك؟ قال: نعم. قال: فتصل إخوانك. قال: نعم. قال: «يا عمار إن المال يفنى. والبدن يبلى. والعمل يبقى. والديان حي لا يموت. يا عمار. ماقدمت فلم يسبقك. وما أخرت فلن يلحقك».

والأيادي قروض، والإمام يعد بالرد المضاعف، ويعلن فضل من أعطى، ويؤثر عليه فضل الآخذ. والعرف لا يذهب بين الله والناس.

قال له تلميذ: إني لا أتغدى أو أتعشى إلا ومعي اثنان أو ثلاثة، أو أكثر. فأرضاه الإمام بالجزاء الموعود، وأعلن له أن فضلهم يفوق فضله. قال: «فضلهم عليك أكثر من فضلك عليهم. إذا دخلوا عليك دخلوا بالرزق الكثير»[1]



والإمام يحض على دوام التواصل، إذ يجعل النعمة التي يخولها المعطي للآخذ نعمة تتكرر إذ تشكر، لتتكرر. يقول «اشكر من أنعم عليك. وأنعم على من شكرك. فإنه لا إزالة لها إذا شكرت ولا إقالة لها إذا كفرت».

والبخل قبض القادر يده عن العطاء ونفسه عن الأمل. فذلك داء البخلاء. والإمام الذي يوجب السخاء عند إقبال الدنيا وحين يفيض الخير، يوجب الرجاء والصبر عند إدبارها. فالدنيا تدور. يقول (عليه السلام): «عجبت لمن يبخل بالدنيا وهي مقبلة عليه أو يبخل بها وهي مدبرة عنه. فلا الإنفاق مع الإقبال يضرّه. ولا الإمساك مع الإدبار ينفعه».

ففيم يقف البخلاء دورة المال أو نعمة الرجاء!

والصادق يروي عن جده أمير المؤمنين (عليهما السلام): «قيل يا نبي الله. أفي المال حق سوى الزكاة! قال: نعم؛ بر الرحم إذا أدبرت، وصلة الجار المسلم. فما أقرّ بي شبعان وجاره المسلم جائع. ثم قال: مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

وفي كل مشاركة فضل. يقول صفوان بن يحيى ـ من أصحاب الإمام الكاظم (عليه السلام) ـ جاءني عبد الله بن سنان، قال: هل عندك شيء؟ قلت: نعم، فبعثت ابني يشتري لحما بدرهم، فقال: أين أرسلت ابنك، فأخبرته، فقال: رده. عندك زيت؟ قلت: نعم. قال: هات

(١) قارن هذا المجتمع الإسلامي الذى يقول فقهاؤه: «ما المعطي عن سعة بأفضل من الآخذ لو كان محتاجا» بالمجتمع الإنجليزي الذي جاء بعد ذلك بقرون سبعة في عصر الملكة اليزابيث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) وفيه صدرت قوانين بإعدام المتسولين وأعدم بها المئات.

فإني سمعت أبا عبدالله «الصادق» يقول: «هلك امرؤ احتقر لأخيه ما يحضره. وهلك امرؤ احتقر لأخيه ما قدمه إليه».

والجود بالموجود جود. وفي التكليف رهق. وفي كل إرهاق أذى. والسمح لا يؤذي، ولا يحس الأذى فيما هو طبيعي. ومن السماحة في الأخذ والعطاء ينتشر التواصل، بأي شيء وفي كل شيء.

فالإمام(عليه السلام) لا يتكلف لأحد، ويعلن فضل الطاعم على صاحب الطعام. قال هشام بن سالم: دخلنا على أبي عبدالله ونحن جماعة، فتغدينا وتغدى معنا، وكنت أحدث القوم سنا، فكنت أقصر واتآكل، فقال لي: «كل. أما علمت أنه تعرف مودة الرجل لأخيه بأكله طعامه».

يقول الإمام لأضيافه: «أشدهم حبا لنا أكثرهم أكلا عندنا».

وكانت «عين زياد» ضيعة له فجعلها له وللناس.. يأمر وكيله بأن يثلم في كل حيطان الضيعة ثلما ليدخل الناس فيأكلوا، ويأمر كل يوم بعشر ثبنات يقعد على كل واحدة منها عشرة يطعمون.. كلما قام عشرة جاء عشرة.. يلقي لكل منهم بعض الرطب، أما الذين لا يجيئون من جيران الضيعة فلكل منهم مد يرسل إليه، حتى إذا جاء أوان قطع الثمار أعطى الوكلاء العمال أجورهم عنه، وأمر الإمام بالباقي فحمل إلى المدينة ففرق في أهلها، كل حسب استحقاقه.

يقول ابن أبي طيفور: رأيت عند أبي عبد الله ضيفا، فقام يوما في بعض حوائجه فنهاه وقام بنفسه إلى هذه الحاجة وقال: «نهى رسول الله عن استخدام الضيف».

أداء حقوق الآخرين في المال

وإذا واسى الصادق أعطى فأغنى: سأله فقير فأعطاه ألف درهم، فلما مضى الرجل أمر خادمه ليرجعه. قال الخادم: يا سيدي سئلت فأعطيت. فماذا بعد العطاء؟ قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «خير الصدقة ما أبقت غنى»، وقال للرجل: «إنا لم نغنك، فخذ هذا الخاتم فقد أعطيت فيه عشرة آلاف درهم».

ولا مرية في أنه لم يغن الرجل ليأكل، وإنما أغناه بالمال ليعمل. فالعطاء ليس طعاما يعطى، وإنما هو فرصة عمل بالتعبير الاقتصادي المعاصر.. أي تمكين من اداة إنتاج تحفظ إنسانية الإنسان وتزيد ثراء الجماعة.

والعطاء وفاء بحقوق، وليس مجرد أريحية. فأمير المؤمنين علي (عليه السلام) هو القائل «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم ما يكفي الفقراء فإن جاعوا أو عروا فبظلم الأغنياء» والقائل: «الفقر هو الموت الأكبر».

وسئل الباقر عن الزكاة تجب في مواضع لا يتمكن السائل من أدائها فيها فأجاب: «اعزلها فإن اتجرت بها فأنت لها ضامن. ولها الربح».

ويقول الصادق: «إن الله عز وجل فرض للفقراء في مال الأغنياء ما يسعهم ـ ولو علم أن ذلك لا يسعهم لزادهم. إنهم لم يؤتوا من قبل فريضة الله عز وجل.. ولكن أتوا من منعهم حقهم. ولو أن الناس أدوا حقوقهم كانوا عايشين بخير».

وبنص عنه: «إن الله تبارك وتعالى شرك بين الفقراء والأغنياء في الأموال. فليس لهم أن يصرفوا إلى غير شركائهم».

وعلى أساس هذه النصوص يتساءل الفقهاء: هل الفقير شريك في ملك العين (في خصوص الزكاة)، أو أن له (مجرد حق) فيها. فالبعض على أنه شريك بمقدار حصته، والبعض على أنه صاحب حق فيها؛ وهو مقدار نصيبه. وصاحب النصيب من لا يملك مؤنة سنة له ولعياله. والأغنياء من يملكون ذلك المقدار.

يقول الإمام الصادق: «تحرم الزكاة على من يملك قوت سنة».

ولا يدع الإمام الناس ـ فقراء أو أغنياء ـ دون تنبيههم على أصل الداء، وهو الطمع. فيعالنهم بمقولة من مقولاته التي تتناقلها الأجيال: «إن كان ما يكفيك لا يغنيك فكل ما فيها لا يغنيك».



ولحقوق الفقراء على الأغنياء عند الشيعة مصدر آخر زاخر، فوق مصدر الزكاة، وهو خمس المكاسب. والله تعالى يقول: «واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله

خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل».

والشيعة تفسر الآية تفسيرا يسع أكثر مال يكتسب، إذ يدخل فيه خمس أرباح التجارات والصناعات والإجارات والعمل والوظائف والهدية والوصية وأرباح مالك المنجم والمدخرات من الكسب الحرام إذا اختلط بالحلال ولم يتميز، فإن تميز أخرج كله، واللؤلؤ المستخرج والمواريث التي لم يؤد عنها الخمس.. وذلك بعد أن يستنزل المكلف مؤنة الحفظ ومؤنة الذين يعولهم ومركبه ومسكنه ونفقات أضيافه لمدة سنة كاملة، ومازاد عن ذلك ففيه الخمس.

كتب رجل إلى الإمام الباقر: أخبرني عن الخمس أهو على جميع ما يستفيده الرجل من قليل أو كثير.. وكيف ذلك؟ فكتب الإمام بخطه: «الخمس بعد المؤنة».

ولا يحمل الخمس إلى غير بلده إلا مع عدم وجود المستحق فيه. ويجوز أن تخص به طائفة واحدة. والأحوط قسمته.

والفقهاء يقررون أن للإمام نصف الخمس وأن نصفه الباقي ليتامى آل النبي ومساكينهم وفقرائهم وأبناء السبيل منهم.

والآن ـ حيث الإمام غائب ـ فالأقوال كثيرة في توزيع حق الإمام. وربما جاز من تعددها اختيار الإنفاق على المصالح التي تحفظ للأمة دينها وشريعتها.

والرسول عليه الصلاة والسلام يكلف المسلمين أن يقصدوا بالبر الفقراء، وأن يتطهروا بين الفقراء، ويتقوا الله تقوى الفقراء. يقول (ﷺ): «من اراد الله فليطلبه عند الفقراء».

كنز المال

أمير المؤمنين علي(عليه السلام) هو الذى ذكّر عمر بخثور نفس رسول الله حتى وزع مالا كان عنده(ﷺ).. وأعلن ساعة استخلافه أن الدولة ليس لها في المال إلا أن تقسمه في المسلمين متساويين ـ فرقى المنبر يقول للمسلمين عن نفسه: «... إلا وإنه ليس لي دونكم إلا مفاتيح أموالكم معي. وليس لي أن آخذ درهما دونكم».

جيء ذات مساء بمال افاءه اللّه على المسلمين، فأشار إليه وقال: اقسموه. قالوا: أمسينا فأخرجه إلى غد. قال: تقبلون لي أن أعيش إلى غد؟ قالوا ما بأيدينا ذلك. قال: فلا تؤخروه. فقسموه من فورهم.

ولما بعث أبو موسى إلى عمر من العراق ألف ألف درهم فرّقها ففضلت فضلة فاختلفوا أين يضعها، خطب عمر الناس قائلا: أيها الناس قد فضلت لكم فضلة بعد حقوق الناس، فقام صعصعة ـ وهو بعدُ غلام شاب، أسلم في حياة النبي ولم يره ـ وقال: «يا أمير المؤمنين إنما يتشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن. وأما ما نزل به قرآن فضعه مواضعه التي وضعه اللّه عز وجل فيها». فقال عمر: «صدقت. أنت مني وأنا منك». فقسمه بين المسلمين.

وصعصعة ـ كما أسلفنا ـ بطل «يوم الجمل» إلى جوار أمير المؤمنين علي (عليه السلام). استشهد أخواه وهما يحملان الراية، ثم حملها صعصعة وانتصر.

وأبوذر أب من آباء الشيعة العظماء، وسيرته درس تحتفي به مجالسهم وأمالي كبرائهم.. ينبه الناس من قديم على خطر الفقر واقترانه بالكفر، وتعريضهما العقيدة والوطنية ووحدة الجماعة للدمار؛ فيقول: «إذا ذهب الفقر إلى بلد، قال الكفر خذني معك».

ولقد حرم كنز المال بحبسه عن المسلمين في بيوت الأموال، أو حرمانهم منه وتعريضهم للافتقار، فأوجب على الدولة توزيع المال في أصحاب الحق فيه من الرعية، وحرم النعيم على من يعيش بين الجياع. فإذا كان اخوة المسلم في عيشة راضية فالنعيم يباح.

ولما أرسل إليه عثمان مائتي دينار مع رسول يقول: هذه من مال عثمان، وهو يقول لك إنها من صلب ماله ما خالطها حرام. قال أبوذر: هل أعطى أحداً من المسلمين مثلما أعطاني؟ قال: كلا. قال: اذهب أنت والدراهم. إنما أنا رجل من المسلمين يسعني ما يسعهم، ولست في حاجة إلى المال. قال الرسول: أصلحك اللّه إني لا أرى في بيتك قليلا ولا كثيرا. فرفع أبوذر الوسادة، وأراه قرصين من خبز الشعير وقال: بل عندي

هذان وإني لغني بهما وثقتي بالله.

ومر أبوذر بمعاوية وهو يبني قصر الخضراء فصاح به: «من أين لك هذا؟ إن كنت بنيتها من مال المسلمين فهى الخيانة، وإن كنت بنيتها من مالك فهي الإسراف». فشكاه معاوية إلى عثمان.

وظاهر من هذا النهج، النحو الاقتصادي الذي ينحوه الشيعة من تداول المال وعدم كنزه عن الأمة ولو كان في يد الدولة، ووجوب تقسيمه في المسلمين أو العمل به لهم، والاستكثار من طرحه في التداول[١] وإنفاق الخمس الذى يجبى للإمام.

وإذا أضفنا إلى ضخامة نسبة الخمس، تحصيله عن أكثر الكسب، وتيسير حسابه على العاملين على الصدقات، والدافعين للزكوات، والإنفاق الواجب والمندوب، وإلزام القادر العمل بنفسه وبماله، ومعونة المستحقين للعون بالمال دون ربا، مع نظرة الميسرة، ومع التواصل حيثما قدر القادرون، واحتاج غير القادرين، يتجلى مبلغ ما تتفتح الميادين الواسعة أمام الجهد الإنساني في المجتمع الإسلامى لتثمير ثرائه وإغناء فقرائه، وإيلاف المسلمين فيه.

ذلك قول الإمام جعفر الصادق (عليه السلام): «لو أدى الناس زكاة اموالهم مابات مسلم فقيرا».

---

(١) روى المسعودي في مروج الذهب حادث أبي‌ذر وكعب الأحبار في مجلس الخليفة عثمان بن عفان. قال: إن أباذر كان في مجلس الخليفة حين (أتي بتركة عبد الرحمن ابن عوف فنضّت البِدُر حتى حالت بين عثمان والرجل القائم. فقال عثمان إني لأرجو لعبد الرحمن خيرا لأنه كان يتصدق ويقري الضيف وترك ما ترون. وقال كعب الأحبار: صدقت يا أمير المؤمنين... فشال أبوذر العصا وضرب بها رأس كعب. وقال: يابن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال إن الله أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة، وتقطع على الله عهداً بذلك! وأنا سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «ما يسرني وأدع مايزن قيراطا»... وقال عثمان لأبي ذر: وارِ عني وجهك.

التعاون

العنصر الثالث في الاقتصاد ـ كما هو ظاهر من تعاليم الإمام في فصول هذا الباب ـ هو التعاون. وليس كمثله «منظم داخلي» أو «محرك ذاتي» للنشاط الفردي أو القومي.

ولقد مر بنا أنه واجب «قانوني» يخرج من الإيمان من بات شبعان وجاره جائع.

كما أسلفنا القواعد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شرعها الإسلام وشرحها الإمام، ليخلف للأمة منهاجه الذي اعتزت به الأمة فبلغت شأوها العالي بالمنهج العلمي، العصري أبداً، والمنهج الاجتماعي الذي جعلها كالبنيان المرصوص، والمنهج الاقتصادي الذي يستعمل العلم والعمل والمال في تعاون مأمور به، أي في تكافل كامل.

ولئن مرت بها فترات مظلمة، إن مردها إلى الخروج على قواعد المنهج. وإنما عصمتها في الرجوع إلى الأمر الأول.

الخاتمة

إلى الرفيق الأعلى

«الحمد لله لم يخرجني من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه».

(الإمام جعفر الصادق عليه السلام)

كان الإمام في لقاءاته الأخيرة مع الخليفة (أبي جعفر المنصور) يقول له: «لا تعجل، لقد بلغت الرابعة والستين وفيها مات أبي وجدي». فلقد كان يحس باقتراب يومه، ويلتمس من ذلك قوة عند اللقاء.. تؤيده في الصدام معه والثبات في وجهه، والدفاع عن حقوق الله والناس عنده، وتذكيره بالآخرة.

وهو إلى ذلك يهيئ الدولة، والناس، لما بعد موته.

والناس الذين يتساءلون متى نصر الله، يولون وجوههم شطر الإمام عليه السلام، مذ قطع المنصور أسباب الأمل في الأمان والاطمئنان، بالنكال يصبه على من عارضه، وخص أهل البيت بكفل زاخر من عذابه. فمال الكثيرون عنه إليهم. ولم يكن باقيا من مشيختهم إلا الإمام الصادق.. تهوي إليه الأفئدة من بعيد وقريب، ويتزاحم عليه التلامذة من أشياخ العلماء.

ومضت الأيام، والناس بين البأساء والنعماء، والفزع والرجاء.. والإمام في دروسه ومجالسه يرسي مبادئه للأجيال القادمة، ويهدي بالقول والعمل، وبمجرد أن به حياة.

وجاء ذلك اليوم الذي قال فيه، وهو رخي البال: «الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى بينت للناس جميع ما تحتاج إليه».

وهو إفصاح عن اكتمال المذهب الشيعي في تعاليمه، ونظام الدولة الشيعية، إن أمكن أن تظهر، والمجتمع الشيعي في كل حال. وإن شئت قلت مقاله (المجتمع الجعفري)، أو مقال الفقهاء: مجتمع «الشيعة الإمامية».

وجاءت ساعة الموت... وهو في تمام صحوه، وأهل البيت حافون من حوله:

قالت زوجه «حميدة» أم الإمام موسى الكاظم، وكانت من البربر، لرجل من اصحابه:

لو رأيت أبا عبد الله عند الموت، لرأيت عجبا: فتح عينيه ثم قال: «إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة». أما رواية الإمام موسى الكاظم فنصها: لما حضرت أبي الوفاة قال لي «يا بني لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة».

فهذا إمام تنتهي إمامته، يعهد لإمام تبدأ أيامه.. فينبهه والناس.. على حقهم في شفاعة أهل البيت، وواجبهم لينالوها، بإقامة عمود الدين.

وتضيف مولاته «سالمة» ساعة الموت حسنات فتقول: «اغمي عليه. فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي (بن علي بن الحسين) سبعين دينارا، وأعطوا فلانا كذا، وفلانا كذا. قلت: أتعطي رجلا حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ قال: أتريدون ألا أكون من الذين قال عنهم الله عز وجل «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب»؟ نعم، يا سالمة. إن الله خلق الجنة وطيب ريحها، ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم.

أجل؛ كان الإمام قطعة من صميم الإسلام. جده عليه الصلاة والسلام «خلقه القرآن»، أما هو فخلقه «سنة جده». وجده يعلن سنته حيث يقول: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح».

ويقول إن أول الواجبات في المال بعد الزكاة: «بر الرحم إذا أدبرت».

فالإمام في ساعة الموت يوصي لمن يليه، ويذكر الشفاعة.. والصلاة.. وصلة الرحم.. وهو يريح رائحة الجنة.



صعدت روح الإمام إلى الرفيق الأعلى في شوال ١٤٨، لتترك المنصور في الفزع الأكبر. فلقد غابت عن الدنيا أسباب سلام يثق بها، ولاح في السماء نجم جديد.. بإمام جديد.. ليس له به عهد.

والمنصور ليس الرجل الذي ينتظر حتى ينكشف له أمر فيه غرر، بل هو يبتدر الخطر.

قال أبو أيوب الجوزي: بعث إلي أبو جعفر المنصور في جوف الليل، فدخلت عليه

وهو جالس على الكرسي وبين يديه شمعة، وفي يده كتاب. فلما سلمت عليه رمى الكتاب إلي، وهو يبكي، وقال: «هذا ابن سليمان (والي المدينة) يخبرنا أن جعفر بن محمد قد مات. فإنا لله وإنا إليه راجعون». قالها ثلاثا، ثم قال: وأين مثل جعفر؟ ثم قال: اكتب. فكتبت صدر الكتاب، ثم قال: «اكتب إن كان قد أوصى إلى رجل بعينه فقدمه واضرب عنقه».

هكذا يأمر بقتل من يجهله، ويحرمه حق المحاكمة، لمجرد أن من فحوى الوصية لرجل بعينه أنها رسالة للأمة تعلن الإمام الجديد!

لكن الله كف بطش المنصور. فرجع الجواب إليه أن الإمام أوصى إلى خمسة هم: أبو جعفر المنصور وابن سليمان، وعبد الله وموسى وحميدة. والأخيرون ولدا الإمام وزوجه. فليس هنا وصي بعينه. والأولان أبو جعفر ذاته، وواليه. وليس إلى قتل هؤلاء من سبيل!

وما كانت وصية «الصادق» للمنصور وواليه إلا توصية لهما بالأمة، وتذكيرا لهما بأنهما ملاقيا الله مثله. والمنصور أجدر خلق الله بأن يذكره الناس بالموت، وأن يذكروه عند الموت، إن محبين له وإن مبغضين.

ولما قرن الإمام أبا جعفر بابنيه وزوجه، كان يذكره أن يخاف الله فيهم وفي ذوي رحمه.



كان المنصور يسابق الموت إلى من تتم الوصية إليه وحده. فـفوتت عليه وصية الإمام بغيا، لم يمنعه من مقارفته تساقط دمعه، أو أن يسترجع الله مرات ثلاث، وكأنه يجعل الدمع مدادا لأمر يهتبل الفرصة لإصداره، ليقطع رأس إمام جديد من أهل البيت يطاف بها في المدائن.

وأنسته شياطين الفزع والطمع أن يذكر ما علمه الصادق من صلة الرحم، وازداد نسيانا يوم لا أحد ينسى!

وجرى المهدي والرشيد في أثر المنصور يهتدون به، ويدسون الجواسيس ليعرفوا

من يجتمع إليه الناس بعد موت الإمام

سأل سائل موسى الكاظم، فقال (عليه السلام): «إذا هدأت الرجل وانقطعت الطريق فأقبل» وسأله آخر فقال له: «سل تخبر. ولا تذع. فإن أذعت فإنه الذبح».

بل كان هشام بن سالم ينبه زملاءه الشيعة حتى لا يقعوا في حبائل المنصور.

وظاهر من ذلك أن المجالس العظيمة. التي كانت تنعقد في حياة الإمام الصادق، قد ولى زمانها.



ولي الإمامة موسى الكاظم بعد أبيه فتتابع في حياته عهد الهادي ثم عهد الرشيد. واقتصر ـ كما سيقتصر الأئمة من بعده ـ على العلم وإمامة الدين، دون أن يمدوا عينا أو فكراً إلى الخلافة الدنيوية. ومع هذا حبس الرشيد الإمام الكاظم حتى سنة ١٨٣. ثم أمر فأدخل الناس السجن ليروه ميتاً.. ليس به آثار قتل. والشيعة يقولون: مات مسموما.

وخلف الكاظم في الإمامة ابنه علي الرضا. حتى إذا صار المأمون خليفة ولاه عهده.. على رغمه، سنة ٢٠١، وأمر ابنه وبني العباس بمبايعته.. فصنعوا، وزوّجه من بنته «أم حبيب» في سنة ٢٠٢. كما زوّج ابنه محمداً الجواد بنته «أم الفضل». إلا أن عليا الرضا مات سنة ٢٠٣ فجأة! مسموما.. في أكلة عنب ـ كما يقولون ـ في أثناء عودته في ركب المأمون من مرو إلى بغداد!

وفي رحلة العودة هذه، وفي ركب المأمون ذاته، قتل وزيره الذي دبر له كل أمره (الفضل بن سهل)، وكان شديد التشيع. وتوجه محمد الجواد بزوجته إلى المدينة ـ بعيداً من بغداد. فلما ولي المعتصم أشخصه إليها. فقدمها لليلتين بقيتا من المحرم سنة ٢٢٠. وفي نهاية السنة مات. والناس تقول في موته ماقالوه عن موت أبيه وجده وما سيقولونه في موت ابنه علي الهادي. بعد أن صار إماماً استقدمه الخليفة إلى العسكر في «سر من رأى» حيث قصر الخلافة. فلما مات الهادي سنة ٢٥٤، قام بالإمامة ابنه الحسن الخالص (العسكري) حتى سنة ٢٦٠.. عام وفاته، ليخلفه ابنه محمد آخر الأئمة الأثني عشر.. الذي اختفى عن الانظار، والناس ينتظرون ظهوره.. وهو عند الشيعة الإمامية

«المهدي المنتظر»[١].

بهذا التاريخ يختم الأئمة الاثنا عشر حقبة من الزمن علموا فيها المسلمين العلم الذي آل إليهم عن آبائهم ـعن طريق الإمام الصادق عليه السلام ـبعيدين عن السلطة، مدركين جلال ما يقدمون للأمة، من تراث جدهم (صلى الله عليه وآله وسلم).. يعضون عليه بالنواجذ، ويطهرونه من الزيف، ويتبرأون ممن غلوا فيهم[٢].

أقامت الأمم الإسلامية الدول تترى.. في القارات الثلاث في العالم المعروف،

---

(١) الأئمة الإثنا عشر

١ـعلي (امير المؤمنين)		٧ـموسى الكاظم	١٨٣
٢ـالحسن المجتبىٰ	٥٠	٨ـعلى الرضا	٢٠٢
٣ـالحسين الشهيد	٦١	٩ـمحمد الجواد	٢٢٠
٤ـعلي زين العابدين	٩٤	١٠ـعلي الهادي	٢٥٤
٥ـمحمد الباقر	١١٤	١١ـالحسن العسكري	٢٦٠
٦ـجعفر الصادق	١٤٨	١٢ـمحمد المنتظر المهدي. ولد بسامر سنة ٢٥٦ واختفى بعد سنة	٢٦٠

(٢) من الفرق المغالية ـالعميرية (أصحاب عمير بن بيان العجلي) عبدوا جعفر الصادق، فتبرأ منهم. وصلبه يزيد بن هبيرة والي بني أمية سنة ١٢٨. ومنها أتباع أبي الخطاب الأسدي (محمد ابن أبي زينب) ـزعيم الخطابية ـ زعم أن جعفراً إله فتبرّأ منه الإمام، فادعى الألوهية لنفسه. وحاربه المنصور وأسره وصلبه في الكوفة ـومنها البزيغية (أصحاب بزيغ بن موسى) عبدوا جعفر الصادق، (والمعمرية) أصحاب (معمر بن الخيثم) ـالخياط بالكوفة، وهم فرقة من الخطابية يقولون إن النور خرج من جعفر ودخل في ابي الخطاب فصار جعفر ملاكا وأبو الخطاب إلها.

و (المفضلية) أصحاب المفضل بن عمر الصيرفي (١٧٠) يقولون بإمامة معمر وألوهية جعفر. (والسرية) أصحاب السري بن منصور (٢٠٠) يقولون إن السري رسول جعفر، وجعفر هو الله، والسلام والإسلام. وكانوا في الحج يقولون: لبيك يا جعفر لبيك.

ويقول ابن النديم في الفهرست إن أتباع أبي الخطاب أظهرتهم الفرقة الميمونية ـأي الاسماعيلية ـ ويقول النوبختي (٣١٠) عن أتباع أبي الخطاب: «خرج من قال بمقالته من أهل الكوفة وغيرهم إلى محمد بن اسماعيل بن جعفر فدخلوا في فرقته وسمي أتباع محمد بن اسماعيل (اسماعيلية)».

منتسبة إلى أهل البيت من أبناء الحسين أو أبناء عمومتهم، ومجتمعات مزدهرة، وحضارات يضرب بها الأمثال.. في العراق، واليمن، وخراسان، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، والهند، ولبنان، وسورية، والكويت، والبحرين، وشرق أفريقية، وكثير سواها.

ففي المغرب أقام الدولة الإدريسية إدريس بن إدريس بن عبد الله (أخي الشهداء الثلاثة محمد وإبراهيم ويحيى أبناء عبد الله بن الحسن) وكان قد فر إلى المغرب الأقصى عن طريق مصر سنة ١٧٢ هارباً من بطش الرشيد. وقد بعث إليه الرشيد من سمه.

وفي المشرق قامت دولة أخرى على يد الحسن بن زيد بن... الحسن (٢٥٠ ـ ٢٧٠) وأعقبه فيها أخوه؛ وهما فقيهان زيديان.

وقامت الدولة الساسانية بخراسان؛ عاصمتها بخارى.

وأقام أئمة الشيعة الاسماعيلية دولة كبرى في أفريقية وآسيا (الدولة الفاطمية). ثم قامت الدولة الإمامية الكبرى في إيران حيث بقيت العقيدة الإمامية والفقه الإمامي عقيدة وشريعة حتى اليوم. وسيطرت الدولة البويهية (٣٢٤ ـ ٤٤٧) على الخلافة العباسية بتمامها، ووضعت مراسم التشيع وأعياده.. فجعلت يوم كربلاء مأتماً قومياً، ويوم الغدير عيداً إسلامياً.

وأمر معزّ الدولة بن بويه، فكتب على المساجد في بغداد: «لعن الله معاوية ابن أبي سفيان، ولعن من غصب فدكا، ومن منع أن يدفن الحسن في قبر جده عليه السلام، ومن نفى أبا ذر الغفاري. ومن أخرج العباس من الشورى) فحكه الناس. فاكتفى بأن أمر أن يكتب على المساجد: «لعن الله الظالمين لآل رسول الله ﷺ» وأمر ألا يذكر في اللعن إلا معاوية.

وتحول بنو بويه عن زيديتهم، وسلكوا مسلكاً إمامياً. وولوا الشريف أبا أحمد نقابة الطالبيين وإمارة الحج، بل ولوا ابنه الشريف الرضي النيابة عن الخلافة العباسية. ومع ذلك كان بين حين وآخر، يشعر بالسخط، فيجري على لسانه الشعر الذي يمجد

الخلافة الاسماعيلية.

ألِلى المجد إن ذلّ غلام في غمده المشرفي
ألبس الذل في ديار الأعادي وبمصر الخليفة العلويا

فهذا زعيم إمامي يفاخر بخليفة اسماعيلي. وهو في الوقت ذاته قد ولي نيابة الخليفة السني.

عدالة السماء

والدول ـ كالكائنات الحية وكالأفراد والمجتمعات ـ تشتق قانونها من أسباب وجودها، وتلتزمه فتبقى وتسلم، أو تخرج عليه فتفقد سبباً أو أكثر من أسباب تقدمها ونمائها، وربما فقدت سبب بقائها. وكلما أصابها السقم رجعت إلى سبب وجودها تلتمس السلامة.

لقد نشأت الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي على قواعد الإسلام في السنة الأولى للهجرة، فأخضعت دول العالم المعروف في بضعة عشر عاماً، من حياة النبي وأصحابه، وأقامت المجتمع الأفضل الذي صنع على يد الرسول وعلى عينه...

وكلما أبعد المسلمون من هذا الفضل، قل الشبه في الصورة عنه في الأصل. وكلما فكروا في العودة إلى الأمر الأول ولوا وجوههم شطره. وما هو إلا عمل النبي وآله وصحبه.

فكل عمل أو بحث لإقامة الدولة المثلى لمجتمع مسلم، يتجه بالطبيعة إلى أيام النبوة، والعمل بالقرآن والسنة.

وآل النبي هم أقرب الرجال إلى الصميم من ذلك وإلى قلوب الأمة. وهم أرفع شعار يمكن تحريك الجموع به... فهم أهل النبي والقرآن والسنة جميعاً؛ لا بالعرف وحده، وإنما بسيرتهم التي ليس لها في التاريخ نظير.

والإمام الصادق (عليه السلام) يتوهج كالنجم الثاقب في هذه السماء. فهو مدرسة العلم مع الزهادة في السلطة. وهو إمام فقه في الدين والعلم.. وصاحب مناهج للدنيا، ومعلم

للإصلاح والتشريع والسياسة والاقتصاد؛ وهي الوسائل المحركة للتقدم في جميع الأمم.

فلا عجب أن كانت دعوات الإصلاح، ودعاءات الرجاء، في كل العصور، تتلمس في علمه المدوّن، وسيرته التي يمجدها المسلمون، ذكريات فضائل تمشي على الأرض، وتطبيقات مفلحة، لتعاليم كفيلة بإقامة حكم صالح يردّ الحكام إلى الدين، ويعيد الدين غضًا في أنفس الناس كما كان في أفئدة السلف الصالح.

ويتراءى مصداق هذه الحقيقة «للقانون الطبيعي» للإسلام، أو للطبيعة الدينية للمجتمع المسلم، في قيام الدولة العباسية بدعوى «تصحيح التاريخ» وبشعار «الدعوة إلى الرضا من آل محمد». فلما أجهضت هذه الدولة مبادئها بخعت نفسها. فصارت ملكا عضوضاً خيراته للملوك.

فلم يك معدى عن إعادة التصحيح بالعودة إلى رسالة النبي وتعاليمه وآله.

وإنما انحرفت الدولة الإسلامية في تجاربها التي أقامتها الدول الأموية والمروانية والعباسية لغصبها حقوق أهل البيت، ونصبها العداء لهم، في موجة انصراف الحكام، عن مصالح الأمة وشريعتها، إلي شهواتهم. فتصحيح التاريخ يبدأ بإقرار حق علي وأبناء النبي والعمل بالشريعة.

والتاريخ خاضع لقانون الطبيعة أو قانون الحركة (لكل فعل رد فعل.. مساوٍ له في المقدار، ومضادّ له في الاتجاه).

والحقائق الكبرى في التاريخ، كالظواهر العظمى في الطبيعة، لاتخفى. والذي يخفي الحرارة أو البرودة لا يبغته الغليان أو التجمد، أو رعدة الحمى أو رعشة البرد. والذى يخفي الضغط الجوي لا يأخذه الأنفجار أخذ الفجاءة.

«وعمر بن عبد العزيز» «والمأمون» هما الانفجاران المحتومان في دولتي بنى مروان وبني العباس، لأنهما الممثلان الصادقان للضمير الإسلامي، في الدولة أو الجماعة أو الأفراد، أو في العلم أو الحكم أو العدل أو الجهاد، على رأس المائة الأولى ورأس المائة الثانية.

أما عمر فنما في أكناف بيت طالما حاول طمس فضائل علي. فلما شب عن الطوق أصبح يعلن للناس إسرار أبيه له أن الناس لو عرفوا فضائل علي لانصرفوا إليه عن دولتهم، حتى إذا ولي إمرة المدينة أبطل سبّ علي على المنابر. وكان عمر يرزح تحت الرقابة الشديدة من الخليفة الوليد، والسباق المجنون من الحجاج لظلم بني علي، مع استرضاء بني مروان للحجاج، حتى ليعزل الوليد عمر بن عبد العزيز (رضي‌الله عنه)، لإرضاء الحجاج بن يوسف الثقفي!!

فلما ولي عمر الخلافة، أقسم أن يتخذها طريقاً إلى الجنة.. فرد لأهل البيت مظالمهم، وأعاد لهم «فدكا». وبعث إليهم عشرة آلاف دينار ليعوّضهم عما سلبهم سابقوه. وكانت الشهور الثلاثون ـ مدة خلافته ـ تلقي على كاهل رجل هزَل الورعُ جسده، أعباء الدين والدنيا.. يدرك أن أيامه معدودات، ويتهمه أهله بأنه يوشك أن يخرج الخلافة منهم إلى بني علي[1].

بل أعلن عمر أنه لو استطاع لعهد بالخلافة لمن كان مثله، فقال:

«لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفت أعيمش بني تيم القاسم بن محمد بن أبي بكر». وهو العليم أن محمداً ترعرع في حجر «علي» قبل أن يستخلف، وأنه حارب معه معاوية. فلما ولاه مصر، باء بدمه رجال معاوية. فهو عدو بني أمية من كل وجه. وأن «القاسم» همزة الوصل بين أبي بكر وبين «أهل البيت».. بنته أم فروة تحت جناح الباقر، وابنهما «جعفر الصادق» في عنفوان صباه، أمل تتجه الأبصار تلقاءه.

وأما «المأمون» فعبقري العلم، سواء العلم الديني، من أصول وفقه ودين وحديث، أو العلم العام، وفيه التاريخ والفلسفة والعلوم التطبيقية والرياضية والفلكية حيث له في

(١) أتى «العمري» مالكا فقال له: يا أبا عبد الله. بايعني أهل الحرمين، وأنت ترى سيرة أبي جعفر فما ترى؟ فقال له مالك: أتدري ما الذي منع عمر بن عبد العزيز أن يولي رجلا صالحا؟ قال: لا أدري. قال مالك: لكني أنا أدري؛ إنما كانت البيعة ليزيد (بن عبد الملك) بعده، فخاف عمر إن ولى رجلا صالحا أن لا يكون ليزيد بد من القيام، فتقوم هجمة ويفسد مالا يصلح..

جوار قصره مرصد يرصد فيه النجوم. وهو بطل حروب و«رجل دولة» كبير؛ لا يعرف التاريخ ـ من عهد اليونان والرومان حتى الآن ـ ملكا بلغ مبالغه في كل أولئك مجتمعا.. وهو يقف في القمة من الدولة العباسية.. فمن بعده بدأ الانحدار. وكانت الأعوام السبعون التي انصرفت من عمرها وانحرفت في إبانها تشير إلى الحاجة إلى عقل عبقري فيه إنصاف؛ ليحدث عودا على بدء. فأعلن تشيعه.. بل عهد من بعده لإمام الشيعة في عصره.. بل زوجه وابنه من بنتين له[1].

ولقد كان حقيقاً أن يبلغ غرضه لو لا أن الإمام «علياً الرضا» مات فجأة.. كمثل ما كان السياسيون في العهد العباسي يموتون فجأة! ولو لا أن المأمون رأى أن يأمن في سربه انتقاضات أهله.. بعد إذ حاربوه بجيوشهم لمدة عامين، من جراء تشيعه، لكان قد ولّى عهده، بعد علي الرضا، زوج بنته الأخرى، الإمام التاسع محمداً الجواد.

وكانت خلافة المأمون تمثل حكماً يحاول أن يستقر على «أساس ديني». وهذا ظاهر في عهده لعلي الرضا.. وعلى «أساس علمي»، وهذا ظاهر في عمله لإلزام الناس برأي المعتزلة.. وعلى «سند سياسي»، ليقدر على مقاومة تيارات تتناوشه من شتى الجهات ـ سياسية كالوافدة من الفرس والروم، أو عائلية كنزاعات أهله، أو فكرية كالقضايا التي آلت إلى المسلمين من مواريث اليهودية والمسيحية. يحمل ألوية الجدال فيها المعتزلة.. والمأمون من كبرائهم.

ولما فقد الذين جاءوا بعده قدرتهم على التوازن بين الزوابع، آلت الدولة إلى الترك. وتتابع تقسيمها أقاليم ودولا. ولم يعد للدين في الدول الجديدة الكلمة العليا. بل أصبحت للمعايش والأرزاق ومداراة الحكام. وبهذا دب التدهور في الأفراد،

---

(١) وفي سنة ٢١١ أمر المأمون فنودي «برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير وفضّله على أحد من الصحابة» كما أمر بتفضيل الإمام علي ﷺ، وأنه أفضل الناس بعد رسول الله، وأوصى أخاه المعتصم بقوله «وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين علي.. فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم، واقبل من محسنهم.. وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها؛ فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى».

والمجتمعات والدولة، وأفسدت الدولة الفرد وأفسد الفرد ـ بدوره ـ الدولة.



ومن تصحيح التاريخ للأشياء، كانت أول دولة استقلت عن بني العباس في القرن الثاني دولة إدريس بن إدريس بن عبد الله في المغرب، فدولة الحسن بن زيد في المشرق.

وتتابعت الدول في القرن الثالث بخراسان، ومصر، وأفريقيا، وفي اليمن، حيث ملك القاسم بن إبراهيم (٢٤٦ ـ ٢٨٦)، وإليه تنسب الزيدية القاسمية. ثم الهادي بن القاسم، وإليه ينسب الهادوية. وبقيت دولة الشيعة باليمن حتى إعلان الجمهورية سنة ١٩٦٢ للميلاد.

وفي القرن الرابع قامت دولة بني بويه ٣٢٤ـ٤٤٧ـ ٩٤٥ـ ١٠٥٥ وهي شيعة زيدية في العراق وفارس حيث عاصمتهم شيراز. وقام الحمدانيون في العراق والشام ٣١٧ ـ ٣٥٨. وهم شيعة إمامية يذكر الإسلام لهم الدفاع عنه ضد غزوات الإمبراطورية الرومانية من بيزنطة. وتدين لهم الأمة العربية بأحسن أشعار أبي الطيب المتنبي، وبشعر أبي فراس الحمداني، وفلسفة الفارابي فيلسوف المسلمين ـ المعلم الأول عند العرب ـ أو المعلم الثاني في العالم، حيث أرسطو هو المعلم الأول.

وفي القرن الخامس، كان بنو حمود بالأندلس (٤٠٧ـ٤٤٧)، وهم من أبناء الأدارسة ـ وفي القرن السادس، كان ابن تومرت (... بن عبد الرحمن.. بن محمد بن الحسن بن علي) مؤسس دولة الموحدين، وكانت خطبة الجمعة عندهم تشتمل على الصلاة عليه باعتباره (الإمام المرحوم المهدي المعلوم)، وإن كانت دولته ودولة الأدارسة أو بني حمود، أو الدولة الفاطمية، تحكم شعوباً سنية. ولا شك أن كبرى الدول التي أقامها الشيعة كانت الدولة الفاطمية (الاسماعيلية).

الاسماعيلية[1]

قامت الدولة الفاطمية (نسبة إلى فاطمة الزهراء) في المغرب ثم مصر منتسبة إلى «اسماعيل» ابن الإمام جعفر الصادق، وكانت قد مات في حياة الصادق(عليه السلام).

والاسماعيلية ينفون ذلك. ومنهم من يقول إن أباه ادعى موته اتقاء لأذى أبي جعفر المنصور له.

وفي أواخر القرن، كان عبد الله بن ميمون القداح (١٩٨) من أتباع الخطابية، ينشر دعوة لنفسه بالبلاد. فأجابه حمدان بن الأشعث ـ قرمط ـ ثم مات القداح، فخلفه أبناؤه ودعوا لأنفسهم باعتبار أنهم من ولد عقيل. ثم هرب أحفاده إلى المغرب في أفريقية. وبجهدهم أو جهد (منصور اليمن ـ ابن حوشب ـ ٢٦٦) في بلاد المغرب ظهر عبيدالله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية سنة ٢٩٨ لتبقى دولة عظمى حتى سنة ٥٦٧. فتحت جيوشها فسطاط مصر في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ (٧ ـ ٧ ـ ٩٦٩). وفي ليلة الفتح وضع جوهر الصقلي قائد الجيش حجر الأساس لمدينة القاهرة. وتم بناؤها في رمضان سنة ٣٧١.

افتتح الأزهر للصلاة في الشهر ذاته وهو يوافق يونيو ـ يوليو سنة ٩٧٢. وفي صفر سنة ٣٦٥ عقد القاضي ابو علي الحسن بن النعمان أول حلقاته في الجامع الأزهر، فكان أول مدرس فيه ـ فدرس للناس مختصر أبيه في فقه آل البيت.(عليهم السلام)

وفي سنة ٣٦٦ عين أبو علي بن النعمان قاضياً للقضاة. فعرفت مصر هذه الوظيفة لأول مرة.

هكذا نشأ الأزهر معهداً شيعياً. ثم صار جامعة لكل علوم الإسلام.

وهكذا نشرت الدولة الفاطمية ألوية الإسلام وعلوم الشيعة في مصر والشام والحجاز ووسط آسيا، وأقامت مدينه القاهرة، وأنشأت الجامع الأزهر، وخطب لها في مكة والمدينة على المنابر.

---

(١) ويلقبون ـ في مراجع أهل السنة ـ القابا أخرى؛ أهمها «الباطنية».

وفي سنة ٤٥٠ خطب لها الخطباء على منابر بغداد مدة عام تقريباً[1].

وعليها خرجت طائفة الدروز التي ألّهت «الحاكم بأمر اللّه» فقاتلهم المصريون فهربوا إلى الشام سنة ٤٠٨. أما «الحاكم بأمر اللّه» فقد شاركت في قتله أخته «ست الملك» لاضطهاده رعيته وفساد آرائه ـ كما قيل. وكانت أمها جارية رومية قبطية من سراري الخليفة العزيز باللّه.

وكان التسامح الديني من تقاليد هذه الدولة حتى صار حديث التاريخ. ولقد عين العزيز باللّه أرسانيوس، وأريسطيس، «خالي ست الملك» بطريقين للأسكندرية ولبيت المقدس. فقوى نفوذ النصارى في الدولة. وكان وزيره يعقوب بن كلس يهودياً اسلم. وهو الذي نظم التدريس في الأزهر[2].

أما الاسماعيلية في المشرق، فعلا نجمهم على يد الحسن بن الصباح. وقد أمضى

---

(١) خلفاء الدولة الفاطمية: عبيد اللّه المهدي ـ مؤسس الدولة ـ ٣٢٢ ـ المنصور ٣٤١ ـ المعز لدين اللّه ٣٦٥ ـ العزيز باللّه ٣٨٦ ـ الحاكم بأمر اللّه ٤١٢ ـ الظاهر ٤٢٧ ـ المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧) ثم تعاقب: الآمر، والحافظ، فالظاهر، والفائز، والعاضد؛ وهو الذي أنهى صلاح الدين الدولة الفاطمية بخلعه سنة ٥٦٧.

وبسط الفاطميون سلطانهم على افريقية من المحيط الأطلسي حتى قناة السويس والشام. وكانت لهم السلطة في اليمن. ولولا هزيمة جيوشهم أمام الأتراك بقيادة طغرل بك سنة ٤٥١ لبلغوا جبال الهمالايا. وإنما أبقى الأتراك الخلفاء العباسيين لمقاومة الفاطميين.

ففي ذي القعدة سنة ٤٥٠ دخل البساسيري على رأس إمدادات عسكرية من مصر وخطب في جامع المنصور للخليفة الفاطمي (المستنصر) أربعين جمعة ـ وأرسلت عمامة الخليفة العباسي (القائم) إلى القاهرة فبقيت بها أكثر من قرن. وكسر الفاتحون منبر المسجد الجامع، وهم يقولون: «هذا منبر نحس أعلن عليه بغض آل محمد».

ولما وردت إلى مصر الأخبار بذلك غنى المغنون أمام المستنصر غناء هو في صميمه اعلان «بعدالة التاريخ»:

يا بني العباس ردوا ملك الأمر معد (اسم المستنصر)

ملككم ملك معار والعواري تستردّ

وبالنفوذ الفاطمي تقوى الشيعة الإمامية في العراق وفارس، وتقوى الاسماعيلية في فارس.

(٢) وكان الخليفتان (المعز والعزيز) يعقدان مجالس للمناظرة بين المسيحيين والمسلمين. ومن التسامح أذنت الدولة بأعياد الغطاس ورأس السنة والنيروز وسائر أعياد النصارى.

سنوات بمصر اتصل في إبانها بالخليفة المستنصر، فدعا له بعد إذ عاد إلى إقليم فارس. ثم دعا من بعده لابنه نزار. وفي سنة ١٤٨٣ استولى على قلعة آلموت. ثم اشتد ساعده باصفهان. وسيطر الحسن بن الصباح بأساليب السياسة العادية وغير العادية على أقاليم كبيرة في فارس. فقتل أتباعه الوزير نظام الملك (٤٠٨ ـ ٤٨٥) ـ منشئ المدرسة النظامية في بغداد[1] ـ وفي سنة ٥٠٠ قتلوا الوزير فخر الدين كما قتلوا من فقهائها الشافعية المشهورين: أبا المظفر الخجندي سنة ٤٩٦، وتلميذه أبا جعفر المشاط سنة ٤٩٨، وأبا المحاسن ابن إسماعيل الروياني سنة ٥٠٢. وكان يقول: «لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها».

ولا مراء في أن الخلاف بين الاسماعيلية وبين المدرسة النظامية راجع إلى الخصومة الشديدة التي تتبدى في الصحيفة ٦٧ من كتاب «سياسةنامة» الذي يدين بوجوده «لنظام الملك»، وفيها وجوب الطعن في «الروافض» ووصفهم بأنهم مارقون عن الدين.

ولما صار الحسن بن الصباح داعي الدعاة للنزارية الفاطمية، أبى أن يدعي الإمامة، حتى توفي سنة ٥١٨. فخلفه آخرون؛ انتسب واحد منهم إلى نسل «نزار» الفاطمي[2]..

---

(١) من تلاميذ المدرسة النظامية: السعدي شاعر الفرس الكبير، وعماد الدين الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد ـ عاملا صلاح الدين ـ وابن تومرت مؤسس دولة الموحدين في أفريقية، وأبو اسحق الشيرازي أول أشياخها. ومن أشياخ المدرسة وتلاميذها الغزالي صاحب الكتاب الشهير في فضائح «الباطنية».

(٢) أصهر الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧) إلى قائده الأرمني الأصل بدر الجمالي. ولما مات المستنصر كان ولي عهده ابنه «نزار» فولى بدر مكانه ابن أخته «المستعلي» وحبس نزارا ثم قتله، فأصبحت الشيعة في مصر مستعلية. ومنها اسماعيلية اليمن وبعض بلاد الشام. ومن اسماعيلية اليمن ذهب الدعاة إلى الهند فقامت الاسماعيلية البهرة (والبهرة معناها تاجر) ـ وأصبح الاسماعيلية في الهند وإيران والشام نزارية.

وللاسماعيلية مركز عظيم في بومباي ـ وهم يدافعون عن الإسلام حيثما يكونون.. يرون الإمامة سبعية تتم بالإمام السابع، وهو إسماعيل. ثم تبدأ دورة جديدة أئمتها مستورون. ومن الاستتار لم يعرف بالضبط كثير من أمورهم. واتسمت دعايتهم بالسرية مع دقة تنظيمها.

وفي سنة ٦٥٤ استولى هولاكو على معاقلهم فقصدوا إلى الشام والهند.

وفي الشام حالفوا الرهبان الصليبيين فترة، وخالفوا صلاح الدين فترة، ودخل أتباعهم خيمته في عسكره وطعنوه بخناجرهم. ومنهم الفدائيون الذين قتلوا أمير طرابلس الصليبي (الكونت ريمون).

ويمتاز الاسماعيلية بالتنظيم والدعاية السريين. وأنهم يطورون أمورهم.

ومن التطور، ومراعاة مقتضى الحال، وجد التباين في تعاليمهم من وقت لآخر، لكن الأصل الأصيل عندهم هو أن الإمام المعصوم من نسل محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق.

وعندهم أن من قام بالطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية، لكنه عصى الإمام، فطاعته غير مقبولة[1].

وهم يذهبون إلى أن لكل ظاهر «باطنا»، وأن تأويل الباطن من عند اللّٰه، اختص به علي بن أبى طالب. ومن ذلك يقولون بمشاركة علي للنبي. ويستدلون بقصة موسى مع الرجل الصالح، في «سورة الكهف». ويفسرون القرآن بطريقة خاصّة. ويقولون إن نور

---

(١) وهم يجعلون للأئمة صفات «باطنية» غير بشرية لا يعرفها الشيعة الآخرون، وتؤخذ عليهم أشعار الشعراء المشهورين منهم مثل ابن هانئ الأندلسي الذي يقول للخليفة الفاطمي:

ما شئت لا ماشاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار!

والأخفش يقول للخليفة الآمر:

بشر في العين إلا أنه ... عن طريق العقل نور وهدى
جل أن تدركه أعيننا ... وتعالى أن تراه جسدا

وقول شاعر آخر:

هذا أمير المؤمنين بمجلس ... أبصرت فيه العقل والتنزيلا
وإذا تمثل راكبا في مجلس ... عاينت تحت ركابه جبريلا

والأمير تميم بن معد يمدح أخاه الخليفة العزيز باللّٰه فيقول:

مضى من العلة الأولى التي سبقت ... خلق الهيلوى وبسط الأرض والمطر

الله حلّ بالإمام.

ومن تعاليمهم ما تأثر بفلسفات الأقدمين.

وللشيعة الاسماعيلية في العصور الحديثة مواقف مشهورة في الدفاع عن الإسلام ونشره.



كانت الدولة الفاطمية أكبر دول العالم، قوة عسكرية وفكرية، في العصور الوسطى. تتمثل فيها وحده المسلمين وسماحة الدين[1].

وفيها أثبتت وحدة القاعدة القانونية في الأمة، بل وحدة الدين في المذاهب، اقتدارها على أن تجمع المسلمين في دولة واحدة، هي أعظم الدول حضارة في القارات المعروفة في ذلك الزمان، عاصمتها مصر ـ القاهرة، وجامعتها الأزهر. سعد فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والذميون، حتى غزاها من الداخل انقسام شعوبها، وقيام إمارات شتى، وسفه الوزراء، وضعف الخلفاء.

(١) سبق الفاطميين بمصر (٣٥٨ ـ ٥٦٧) الإخشيديون. وكانوا ينشرون التسامح الديني فيها. وقد خصص المقريزي فصلين للكنائس والأديرة وحسن التفاهم بين المسلمين والمسيحيين، وبخاصة في الدولة الفاطمية.

ولم يعكر صفو هذا التفاهم إلا أيام الحاكم بأمر الله. ثم جاء الظاهر ـ (٤١١ ـ ٤٢٧) فالمستنصر (٤٢٧ ـ ٤٦٧) يعاقب قائده بالقتل لقيامه باضطهاد المسيحيين. وكان أسقف الأشمونين ساويرس يجادل الفقهاء، المسلمين، في أمور الدين. وتولى الخليفة الآمر (من سنة ٤٨٥ حتى سنة ٥٢٥) وكان يزور الأديرة ويصادق الرهبان. ومن خواص كتّابه (أبو نجاح) وهو مسيحي.

وفي هذا الجو، ظهر نوابغ المسيحيين ابتداء من ساويرس بن المقفع (٣٢٨) وهو مؤلف كتاب الرد على اليهود والمعتزلة. ورسالة عن التثليث. وأخرى في الرد على النساطرة. وشرح الإنجيل وتاريخ المجامع الكنسية. وفي القرن السادس ظهر أولاد العسال الثلاثة: أبو الفرج والصفي وأبو اسحق. وظهر المكين جرجس المتوفى سنة ٦٧٢.

وقديما اصطنع عمر بن الخطاب الكتاب من سبي قيسارية. واستعمل أبو موسى الأشعري كاتبا نصرانيا. وكان بنو أمية يستعملون ابن أثال الطيب النصراني ويضعون عنه الجزية.

وأغرى غزو شعوبها أنفسهم في داخلها، بانقسامهم وتفككهم، الصليبين، ليقوموا بالغزو الخارجي. وصدهم المسلمون مرات، حتى إذا ادلهمَّ الخطب، استعانت الدولة الشيعية في مصر بالدولة السنية في دمشق وعلى رأسها السلطان نور الدين محمود (٥٦٩) استاذ صلاح الدين (٥٨٩) ليثبت أهل مصر والشام أن الإسلام واحد وإن اختلفت المذاهب.

ولما وحّد صلاح الدين إمارات المسلمين في بضع سنين من الموصل إلى حلب ودمشق والقاهرة، استقام له المحور القوي، فنهد للقاء الصليبيين. ونصره اللّه في حطين. وهذا درس في الوحدة مطلوب إلى المسلمين أن يتدارسوه.



والمجتمع الإسلامي يمتاز على المجتمعات المعاصرة بأنه مجتمع ديني الاساس بأطوار تاريخه وطبيعته، وبأن تعاليم القرآن والسنة هي غذاؤه اليومي، وهواؤه النقي، الذي يتنفسه المسلمون:

العائلة فيه محكومة بقوانين دينية وتقاليد إسلامية، في الزواج والطلاق والأبوة والبنوة والنفقة والحضانة وسائر علاقات الأسرة.

والفرد فيه واقف بين يدى اللّه على مدار ساعات النهار وزلفاً من الليل.

والمجتمع كله مفروض عليه ـ فرض وجوب ـ والفرد مفروض عليه ـ فرض كفاية ـ أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.. أي يتكافل في دفع كل خروج على الدين.

بهذا صار الحفاظ على الإسلام وقيمه مسؤولية قانونية وعامة، وأصبح التمييز بين الحلال والحرام حجر الأساس في المجتمع، وفي علاقات الأفراد والأسرة. وأمسى لزاما على كل دولة إسلامية أن تتأخى أواخي الدين، وهي تنظر إلى المصالح المادية والسياسية، لها، والناس.

ولقد بقي الأمر كذلك طوال القرون العشرة التي كانت فيها الدول الإسلامية مستقلة، تتعلم علومَها الحضارةُ الغربية، حتى إذا اضمحلت، ران الظلام السياسي والركود الاقتصادي على القلوب. فانتقلت شمس الحضارة من الشرق إلى الغرب في

أوربا، وبدأت العصور الحديثة وحضارتها الأوربية في الظهور، منذ ختام القرن الخامس عشر للميلاد.

ولم يكن مصادفة، وإنما كان لزاما للتحلل والتقاطع والتخاذل، أن يبدأ طرد العرب ـ في ذلك القرن ـ من اسبانيا، وأن تكون محاولات طردهم معاصرة للثورات الدينية في المسيحية، وللإرهاب الديني في دولها، وأن يكون نصيب المسلمين من هذا الإرهاب فوق ما يتصور البشر، من العذاب والتقتيل والتحريق والتنصير، بل قتل من يتنصر بدعوى عدم الإخلاص في التنصر!!

وفي ظلمات الجهالة والتخلف بهرت المقهورين حضارة أوربا، فلم تبق لهم ذاتهم، ولم يصيروا أوربيين، وعجزوا عن صدّ الغزو الأوربي، في حين قدر آباؤهم على دفع الغزو الصليبي لأنهم كانوا أقرب إلى القيم الإسلامية.

وتلاحق التدهور حتى بداية النهضة الحديثة للمسلمين.. حتى إذا أخذت الشعوب الإسلامية بأسباب العلم، نظرت إلى داخلها تلتمس القوة من ذاتها. فاستشعرت حقائق القوة في طاقاتها. وعادت تلتمس الأسباب في صميم حضارتها، وفي تمسكها بعقيدتها، التي اشتقت منها منهجها العلمي؛ وهو الذي صار «المنهج العلمي العالمي» الذي نقلته عنها أوربا منذ القرون الوسطى[1].

والتاريخ معلم كبير.

وأول علومه؛ أن كثيراً من صفحاته تتكرر، وأنه خطاب مستمر، مفتوح السجل لكل ذي بصر.

ويعلمنا التاريخ أن الوحدة هي التي تصنع النصر ـ سواء أكانت وحدة شاملة، كمثل ما كان الأمر في الصدر الأول، أم كانت وحدة للحرب، كما صنع الخليفة الفاطمي «الشيعي»، وسلطان دمشق «السني»، لرد غائلة الصليبيين، أم وحدة القوى كما صنع صلاح الدين ليعيد بيت المقدس للمسلمين....

---

(١) يراجع كتاب (المنهج العلمي المعاصر مستمد من القرآن) للمؤلف طبعة دار الاتحاد العربي بالقاهرة ١٩٧٦.

كل أولئك صيحات عالية بأن الإسلام واحد، كلما جد خطر. وأن الاعتصام به مصدر الظفر.

ولما اتحد العرب، وتجمع المسلمون، بعد العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ حنى العالم هاماته لهم.

ويعلمنا التاريخ أن أمتنا بلغت شأوها كلما استمسكت بعقيدتها والتزمت تعاليمها، وأن التقصير في جانب الدين كالخرق الواسع، لا يبقي على شيء مهما يجمع الناس.

والمصلحون الاجتماعيون والسياسيون، الذين تعمى أبصارهم عن هذه الحقيقة، يضربون في حديد بارد.

إنه تعالى يقول: «ويريكم آياته. فأي آيات الله تنكرون. أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم».



والعمل بالقيم الإسلامية داع إلى سن القانون الاسلامي الموحد لتجري أمور المسلمين، ومعاملاتهم كافة، وعقوباتهم إذا انحرفوا عن الجادة، على نسق واحد، يسمو بهم في معاملاتهم كل يوم، ويمنع الجريمة، وينتشل الهلكى من أعماق السجون. ويصون المعنى التعبدي في كل حكم فقهي، والجانب الإنساني، في كل حكم جنائي.

ولا جرم إن تقنين الفقه الإسلامي والعمل به هو الإسهام الأعظم منا في الحضارة المعاصرة، وبأعظم ما نملك من القيم، ونحن قادرون على ذلك باستعمال مصادرنا العلمية.

وأين من شرع الله قوانينُ البشر!

والخطر اليوم يملأ الأفق: لقد تطرقت إلى الأرض العربية والإسلامية الدعوات الإلحادية والمادية المدمرة للقوى الذاتية للأمة، يؤيدها امتياز القوة، والمال المبذول بسخاء، والتكنولوجيا التي تخطف البصر، ورفع الاستعمار الفكري والسياسي والاقتصادي أعلامه عالية!

وما التبشير الديني، الأوربي والأمريكي في بلدان المسلمين إلا وجه واحد من وجوهه.

أما الغزو الداخلي للاسلام ـ من داخل مجتمعات المسلمين ـ فشرٌ مكاناً وأنفذُ أثراً.

والأوربيون ـ من كل معسكر ـ يسلِّطون علينا أسبابه.



إن التاريخ يعلمنا أن وجود إسرائيل في الأرض التي كان الصليبيون يحتلونها ـ بالذات ـ ليس مصادفة؛ بل هو فكر غربي قديم.. أقام بالفعل، وبالقوة، دولة صليبية ـ هنا ـ في هذا المكان.

وإنما يكرر الفكر الأوربي نفسه، بعد سبعة قرون، بغرس دولة «يهودية»، بدلا من دولة «صليبية»، في القلب، من جسم العرب.

وإسرائيل دولة «دينية» مد الغرب إلينا بها مخالبه. والدفاع ضد دولة دينية يهودية يقتضي الالتجاء إلى القيم الدينية، وإن لم يستلزم إقامة دولة دينية.

ولقد طالما استعملت أوربا الأسلحة الدينية ضد المسلمين[1].

إن الحضارة الأوربية ـ من شرق وغرب ـ تحسب حساب «قوة عربية إسلامية» في مفترق الطرق إلى العالم، وفي ملتقى المصالح للدول العظمى، وأنها قوة بشرية هائلة. يزخر ارضها بأسباب القوة، وتنصع صحاريها بالمعادن، فتضيء في صور الأقمار الصناعية الدائرة حول الأرض ليل نهار.

والحضارة الأوربية تحسب حسابا آخر لاجتماع المسلمين على «المبادئ» التي

---

(١) كان فرسان المعبد Templars = Knights of the Temple جنوداً محاربين على ميمنة الجيوش الصليبية في كل الحروب. وكان على ميسرتها الفرسان الإسبتالية Hospitalars وكلا التنظيمين تنظيم رهبان متقشفين لايتزوجون. والأولون عملهم حربي محض ضد المسلمين. وما تزال كنيسة المعبد في لندن Temple Church شاهدة بعمل فرسان المعبد. وفيالق التبشير، منذئذ، تفد علينا من دول أوربا وامريكا، مستعملة كل الأسلحة، مالية أو علمية أو طبية أو اجتماعية أو سياسية. وكثيراً ما عملت في خدمة الجيوش المحاربة أو عملت الجيوش في خدمتها. أما العالم الشيوعي فيصدّر إلى الشرق والغرب أفكار الملحدين.

سادوا بها كلما اجتمعوا.

والحضارة الأوربية، أو الأمريكية، وإن كانت ذات منهاج وثني، راسخة الجذور في الفكر الديني[1]. لقد كانت «الحرب الصليبية» صيحة التجمع لشعوب أوربا المشتتة في العصور الوسطى، وكانت معاهدة «وستفاليا» راسمة حدود دولها الحالية من (١٦٤٨).. وهي نصفان: نصف «ديني» لإرضاء البروتستانت ـ ونصف سياسي «لمنع الحروب الدينية» ـ بعد منح حرية العقيدة.

وهذه المجتمعات والدول في أوروبا وأمريكا، آخذة الآن في العودة إلى الدين، وإلى التكتل تحت أسماء أو صور مختلفة، كالحلف أو المعاهدة أو المنظمة أو المؤتمر؛ ومنها السياسي والاقتصادي والعلمي والاجتماعي.

فما أحرانا أن نتحد على تسامح الإسلام وقيمه العالية... لنبقى ونقوى.

ألا و «إن هذا الأمر لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله».

---

(١) للبحث عن الحرية الدينية، وصلت السفينة زهرة الربيع Mayflower براكبيها في ٢١ ديسمبر سنة ١٦٢٠ إلى شواطئ أمريكا لينشئوا مستعمرة (انجلترا الجديدة) ويطلق عليهم (الآباء الحجاج).

وأعقبهم طلاب «حرية دينية» آخرون بلغوا في السنوات العشر من سنة ١٦٣٠ إلى ١٦٤٠ عشرين ألفا.

وهؤلاء نواة الولايات المتحدة الأمريكية. أما دول أمريكا الجنوبية فنواتها الاسبان والبرتغاليون.. الذين صنعوا بالمسلمين ما صنعوا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد.

مراجع الكتاب

١. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أسد حيدر

٢. الإمام الصادق، محمد أبو زهرة

٣. الشيعة وأصولها، الإمام محمد الحسين آل كاشف الغطاء

٤. المختصر النافع في فقه الإمامية، أبو القاسم نجم الدين جعفر الحلي (٦٧٦)

٥. الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية. الشهيد زين الدين الجبعي العاملي

٦. النص والاجتهاد، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي

٧. المراجعات، الإمام عبد الحسين شرف الدين الموسوي

٨. فقه الإمام جعفر الصادق، محمد جواد مغنية

٩. الشيعة في الميزان، محمد جواد مغنية

١٠. مع الشيعة الإمامية، محمد جواد مغنية

١١. تسهيل الأحكام، السيد محمد الحسيني الشيرازي

١٢. تاريخ الفقه الجعفري، هاشم معروف الحسني

١٣. المسؤولية الجزائية في الفقه الجعفري، هاشم معروف الحسيني

١٤. عقيدة الشيعة في الإمام الصادق، حسين يوسف مكي العاملي

١٥. قواعد استنباط الأحكام، حسين يوسف مكي العاملي

١٦. أصول الفقه، محمد رضا المظفر

١٧. فقه الصادق، محمد الحسيني الروحاني

١٨. فلسفة الإمام الصادق، محمد الجواد الجزائري
١٩. أمالي الطوسي، جزءان الأل والثاني
٢٠. عقيدة الشيعة، رونلدسن، مكتبة الخانجي مصر
٢١. لماذا اخترت مذهب الشيعة، محمد مرعي الامين الأنطاكي
٢٢. فضل آل البيت، المقريزي
٢٣. جعفر بن محمد، عبد العزيز سيد الأهل
٢٤. الإمام جعفر الصادق، أحمد مغنية
٢٥. الإمام الصادق ملهم الكيمياء، د. محمد يحيى الهاشمي
٢٦. الإمام الصادق علم وعقيدة، رمضان لاوند
٢٧. الإمام الصادق معلم الإنسان، عبد الرسول الدريني
٢٨. مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني
٢٩. نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثنا عشرية، د. احمد محمود صبحي
٣٠. الشيعة والرجعة، محمد رضا الطبسي النجفي
٣١. تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، د. عبد الله فياض
٣٢. تاريخ التربية عند الإمامية، د. عبد الله فياض
٣٣. الاجتهاد ومدى حاجة الأمة إليه في هذا العصر، د. سيد موسى توانا
٣٤. مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف. المنهج العلمي في الاسلام على سامي الناشر
٣٥. طائفة الاسماعيلية، د. محمد كامل الحسين
٣٦. تاريخ العلويين، محمد غالب الطويل

٣٧. اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، المقريزي. طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية

٣٨. الرد الجميل، الغزالي. طبع مجمع البحوث بالأزهر

٣٩. تاريخ التشريع الإسلامي، محمد الخضري

٤٠. يسر الإسلام وسماحته، محمد رشيد رضا

٤١. الاعتصام، أبي إسحق الشاطبي

٤٢. السنة ومكانتها في التشريع، مصطفى السباعي

٤٣. الفقه الإسلامى أساس التشريع، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

٤٤. دعوة التقريب من خلال رسالة الإسلام. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

٤٥. عثمان، طه حسين

٤٦. علي وبنوه، طه حسين

٤٧. حياة أمير المؤمنين، السيد محمد صادق الصدر

٤٨. أبو الشهداء الحسين بن علي، عباس محمود العقاد

٤٩. أبناء الرسول في كربلاء، خالد محمد خالد

٥٠. زين العابدين، د. عبد الحليم محمود

٥١. زينب رضي الله عنها، علي أحمد شلبي

٥٢. نحو تقنين للمعاملات والعقوبات من الفقه. الاسلامي، عبدالحليم الجندي

٥٣. الشافعي، محمد أبو زهرة

٥٤. جابر بن حيان، د. زكي نجيب محمود

٥٥. الفهرست، ابن النديم

٥٦. الدرر في اختصار المغازي والسير، ابن عبد البر
٥٧. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي المتوفى ٦٤٧
٥٨. النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي
٥٩. حضارة الإسلام في عز العرب، محمد كرد علي
٦٠. أحمد بن حنبل إمام أهل السنة، عبد الحليم الجندي
٦١. تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي. د. حسن إبراهيم حسن
٦٢. الدولة الإسلامية تاريخها وحضارتها، د. عبدالحميدالعبادي، واخرين
٦٣. دراسات في التاريخ الإسلامي، د. محمد محمود. زيادة وآخرين
٦٤. أدبيات اللغة العربية، محمد عاطف بركات وآخرين
٦٥. تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، محمد عبدالله عنان
٦٦. تراث الإسلام، لجنة النشر للجامعيين
٦٧. الإمامة والسياسة، ابن قتيبة
٦٨. منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم. د. عبد الوهاب فايد
٦٩. ثورة زيد بن علي، ناجي حسن
٧٠. التشيع وأثره في شعر العصر العباسي الأول، د. محسن فياض
٧١. الحماسة في شعر الشريف الرضي، محمد جميل شلش
٧٢. قاموس الأعلام، خير الدين الزركلي